النقد الأدبى
فى كتاب المثل السائر
لابن الأثير

الدكتور

مصطفى مصطفى البسطويسى عطا

الطبعة الأولى

١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ رب أوزعنى أن أشكرَ نعمتَك التى أنعمت علـيَّ
وعلى والدىَّ وأن أعملَ صالحاً ترضاه ، وأصلِـحْ
لى في ذريتى إنى تبتُ إليك وإنى من المســـلمين ﴾

صدق الله العظيم



مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وخاتم المرسلين ، سيدنا محمد النبي العربي الأمين ، وعلى آله وصحبه والتابعين .

وبعد :

فمما لا جدال فيه أن للنقد الأدبي أهمية عظيمة في دراسة اللغات وآدابها ، فهو المقوم للعمل الأدبي من الناحية الفنية ، ويساهم في بيان قيمنه الموضوعية ، وقيمه التعبيرية والشعورية ، وتحديد مكانه في خط سير الأدب وما أضافه إلى التراث الأدبي .كما يساعد في بيان مدى تأثر العمل الأدبي بالبيئة التي نشأ فيها وتأثيره فيها ، وفي تصوير سمات صاحبه وكشف العوامل النفسية والاجتماعية والسياسية التي اشتركت في تكوينه.

ومن منطلق هذه الأهمية للنقد الأدبي عقدت النية على إتمام هذا العمل المتعلق بالنقد الأدبي وقضاياه في كتاب " المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر " لابن الأثير ، وذلك لما لمحت فيه من ثراء المادة النقدية والأدبية ، وكثرة الحديث عن قضايا الأدب الممزوجة بالبلاغة والنقد .

وقد جعلت هذا البحث مبنيا على تمهيد ، وخمسة فصول ، وجاء التمهيد في الحديث عن حياة ابن الأثير والتعريف به ، ثم في التعريف بكتابه " المثل السائر " ، وأهم ما يحتويه من موضوعات وقضايا .

أما الفصل الأول فتحدثت فيه عن الحس الفني عند ابن الأثير .
وحاولت فيه تبيان ما يتمتع به ابن الأثير من حس فني عن طريق الإشارة

إلى اهتمامه بدور الذوق الفني في العمل الأدبي والنقـــدي ، وإلى بعـــض أحكامه النقدية الذاتية التي صدر فيها عن طبعه الخاص وذوقه الشخصي ، ثم إلى بعض ما صدر عنه من نقد موضوعي معلل ، كما أشرت فيـــه إلى تفهم ابن الأثير للآيات القرآنية ومدى دلالة ذلك على تمتعه بحس فني .

وجاء الفصل الثاني بعنوان : تأصيل الفكر النقدي في المثل السـائر » وتحدثت فيه عن بعض القضايا النقدية التي كان لابن الأثير دور بـــارز في تأصيلها ووضع القواعد النقدية فيها ، ومنها : آلات البيـــان وأدواتـــه ، وأركان الكتابة والطريق إلى تعلمها ، والحسن والقبيـــح مـــن الألفـــاظ والتراكيب ، وأهم ما تقوم عليه صناعة تأليف الكلام وتحسن به من سجع وتجنيس ، وترصيع ، وموازنة ، ولزوم مالا يلزم ، وغيرها ...

كما تناولت في هذا الفصل قضية أهمية المعنى في العمـــل الشـــعري كما أوضحها ابن الأثير ، وأهم الأسس التي يقوم عليها شرح ابن الأثـــير للنصوص الشعرية وبيان القواعد التي تبرز أصالته في ذلك.

وجاء الفصل الثالث بعنوان : (قضايا نقدية في كتاب المثل السائر)

وتحدثت فيه عن بعض القضايا النقدية التي أسهم فيها ابـــن الأثـــير بنقداته وملاحظاته وتوضيحه لجوانبها ؛ فتناولت قضيـــة الطبـــع لـــدى الأديب والناقد ، وقضية التلاؤم بين اللفظ والمعنى في المعـــنى في العمـــل الأدبي ، وقضية التخلص والاقتضاب ، وقضية التجريد في الشعر ، وقضية التضمين في الشعر، وقضية الموازنات الشعرية ، وقضية السرقات الأدبيـة ،

وكل هذا من خلال حديث ابن الأثير عن هذه القضايا ومدى تأثره فيها ببعض السابقين عليه من النقاد ، مع بعض الموازنات بين موقف ابن الأثير من هذه القضايا وبين من تأثر بهم في حديثه عنها .

أما الفصل الرابع فهو في نقد ابن الأثير لبعض الشعراء . وتحدثت فيه عن نقد ابن الأثير لأبرز شعراء العصور السابقة على عصره ممن توقف ابن الأثير مع شعرهم أكثر من وقوفه مع شعر غيرهم . فتحدثت عن نقده لامرئ القيس ، وللفرزدق ، ولأبي نواس ، ولأبي تمام ، وللبحتري ، وللمتنبي ، ولأبي العلاء المعري . وألمحت في حديثي إلى تأثر ابن الأثير في نظرته إلى بعض أشعار هؤلاء الشعراء بغيره من النقاد السابقين عليه ، موازنا بين أقواله وأقوالهم في بعض الأحيان .

ويأتي الفصل الخامس والأخير في الحديث عن موقف ابن الأثير من بعض النقاد والكتاب ، واختصرت فيه القول عن موقف ابن الأثير من بعض النقاد والكتاب ومناقشته لبعض آرائهم ، وذكرت رأيي في بعض ما أبداه من آراء ومناقشات على أقوال هؤلاء النقاد ، فعرضت لموقفه من كل من : قدامه بن جعفر ، وأبي إسحاق الصابي ، وابن سنان الخفاجي ، وابن حمدون البغدادي .

وقد ختمت البحث بثبت لأهم المراجع التي رجعت إليها في إعداده مرتبة حسب الترتيب الأبجدي لاسم الكتاب ، ثم بفهرس للموضوعات التي احتواها البحث .

وإني لأرجو أن أكون بهذا العمل قد وفقت في بيان معالم النقد الأدبي في كتاب المثل السائر لابن الأثير ، وأعطيت صورة واضحة لجهود هـــذا الرجل في مجال النقد الأدبي . كما أرجو من القارئ الكريم أن يغفر لي مــا أكون قد وقعت فيه من أخطاء غير مقصـــودة ولم تســـعفني الذاكـــرة في تداركها ، فإني لا أعدو عن كوني إنسانا يخطئ ويصيب ، والكمال عزيـــز في النفس البشرية .

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، وأن يجعلـــه نافعا مقبولا .

" وما توفيقي إلا بالله عليه توكلتُ وإليه أنيب "

دكتور

مصطفى مصطفى عطا

١٥/٦/٢٠٠٢م

التمهيد

ابن الأثير وكتابه (المثل السائر)

أولا : ابن الأثير :

هو أبو الفتح نصر الله ضياء الدين بن أبي الكرم أثير الدين محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري الموصلي .

ولد في العشرين من شهر شعبان من عام ثمانية وخمسين وخمسمائة في جزيرة ابن عمر . وهي — كما يقول ياقوت الحموي — بلدة كبيرة في شمالي الموصل وبينهما ثلاثة أيام ، وقد انتقل ابن الأثير في شبابه من جزيرة ابن عمر إلى الموصل واستقر بها ، فالجزري التي تطلق على ابن الأثير نسبة إلى جزيرة ابن عمر هذه ، والموصلي نسبة إلى وجوده بالموصل واستقراره بها.[1]

وهناك عدد من علماء العرب يطلق على كل منهم لقب (ابن الأثير) منهم ثلاثة إخوة ، وهم : ضياء الدين بن الأثير صاحب كتاب

---

١ – انظر معجم البلدان – ياقوت الحموي – دار الفكر العربي – بدون تأريخ – ١٣٨/٢، وفيات الأعيان لابن خلكان – تحقيق : يوسف علي طويل ومريم قاسم طويل – دار الكتب العلمية – بيروت ط ١-١٩٩٨م-٥٦٣/٤ ، ومقدمه كتاب : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير ، بقلم / محمد محي الدين عبد الحميد – المكتبة العصرية – بيروت – طبعة عام ١٩٩٠م – ص١١

المثل السائر ، والذي ينعقد حوله هذا البحث ، وأخوه أبو السعادات مجد الدين بن الأثير صاحب كتاب (النهاية في غريب الحديث والأثر) ، وأخوه عز الدين علي بن الأثير ، وهناك ابن الأثير الحلبي ، كما يعرف بابن الأثير رجلان آخران أولهما أب للثاني ، فالأب هو عماد الدين إسماعيل بن أحمد بن الأثير المتوفى عام ٦٩٩ هـ ، وهو صاحب كتاب (كنز البراعة في أدوات ذي البراعة) ، وكتاب (مفتاح المنشا في صناعة الإنشا) . أما الابن فهو أحمد بن عماد الدين إسماعيل المتوفى عام ٧٣٧ هـ . وله مختصر على كتاب والده (كنز البراعة) سماه (جواهر الكنز)، ويمت هذان الرجلان إلى مدرسة ضياء الدين بن الأثير البلاغية ، ولكن شهرة ضياء الدين بن الأثير في النقد والبلاغة والأدب تعطيه وحده اسم (ابن الأثير) لدى من يشتغلون بالبلاغة والأدب والنقد . [١]

نشأته وحياته :

نشأ ابن الأثير بجزيرة ابن عمر ، ثم انتقل مع والده إلى الموصل ، وكان الوالد يعمل في خدمة آل زنكي أتابكة الموصل ، وكان رجلا ذا مكانة معروفا بحسن الرأي واليسار وكرم الخلق ، وكان له الفضل في إعداد أولاده الثلاثة إعدادا أهلهم للكتابة والوزارة والولاية .

وفي الموصل اشتغل ضياء الدين بن الأثير بحفظ القرآن الكريم

---

١ – انظر كتاب : نصوص نقدية لأعلام النقاد العرب – د/ محمد السعدي فرهود – دار الطباعة المحمدية – ط ٢–١٩٧٩م–ص ٣٠٢ .

والحديث النبوي ، وتحصيل علوم الدين واللغة ، وحصل مقدارا عظيما من الشعر العربي قديمه وحديثه . وبعد أن تزود بالزاد العلمي المناسب وأحس باكتمال أدوات الكتابة عنده قصد جناب السلطان الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي بالقاهرة عام ٥٨٧ هـ ، واستعان على ذلك بالقاضي الفاضل — وهو يومئذ آثر الناس عند صلاح الدين — فوصله القاضي بخدمة صلاح الدين فعمل بدواوينه نحو أربعة أشهر ، وقد أعجب به صلاح الدين وقربه منه ووافق على اختياره وزيرا لابنه الملك الأفضل في دمشق حين أرسل الأفضل إلى أبيه يلتمس منه أن يرسل إليه ابن الأثير، ويقال إن صلاح الدين خيره بين الاستمرار في خدمته أو أن ينتقل إلى خدمة ولده الأفضل فاختار ابن الأثير أن ينتقل إلى خدمة الأفضل فمضى إليه في شوال من عام ٥٨٧ هـ فاستوزره الملك الأفضل وحسنت حالته عنده .

ولما توفي صلاح الدين الأيوبي صارت دمشق للأفضل وكلف ضياء الدين بتدبير شئونها فاستقل ضياء الدين بالوزارة وردت أموال الناس إليه وصار الاعتماد في جميع الأحوال عليه — كما يقول ابن خلكان —[1] ولكن ابن الأثير أساء السيرة في سياسته مع الأمراء والجند ، واشتط في معاملته مع الناس حتى ترك جماعة من أكابر الناس دمشق إلى مصر فلقيهم الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين وأكرم مثواهم كما يقول ابن تغري

---

١ - وفيات الأعيان ٥٦٤/٤ .

بردي.[١] ومن هنا تعرض ابن الأثير لمحاولة القتل من أهالي دمشق أكثر من مرة ، ولما أصبح الأفضل سلطانا على مصر لحق به ابن الأثير سرا في صندوق مقفل عليه خوفا من الدمشقيين أن يقتلوه .

ويظل الأفضل في مصر عاما ثم يأخذها منه عمه العادل ويعوضه عنها قلعة على الفرات تسمى سميساط . ولما استقر الأفضل في سميساط انتقل ابن الأثير إليها مستترا ، ولكن لم يطل مقامه عنده ففارقه نهائيا عام ٦٠٧ هـ واتصل بأخيه الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب ، ولا يطول مقام ابن الأثير عنده فعاد سريعا إلى الموصل ولكن لم تستقم بها حاله فيفارقها إلى إربل سنة ٦١١ هـ . ولا يستقر بها أيضا فيفارقها إلى سنجار ، ثم يعود إلى الموصل فيستقر بها منذ سنة ٦١٨ هـ ويتولى كتابة الإنشاء لصاحبها ناصر الدين محمود بن الملك القاهر عز الدين مسعود بن نور الدين أرسلان شاه . يظل بهذ الوظيفة حتى وفاته عام ٦٣٧ هـ ، إذ أرسله ناصر الدين في بعض المهام إلى بغداد في هذه السنة فأدركه بها الموت.[٢]

ورغم ما عرف به ابن الأثير من علم وأدب إلا أنه كان في حياته السياسية سيئ السيرة والتدبير مشتطا في تعامله مع الناس . ويتحدث

---

١ - انظر:النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - جمال الدين بن تغري بردي - ط دار الكتب المصرية - ٢٠/٦ .

٢ - انظر : عصر الدول والإمارات - الجزرة العربية والعراق وإيران - د/ شوقي ضيف - دار المعارف - ط ١ ص ٤٥٠ .

المقريزي عن سوء سيرته في وزارته للأفضل فيقول إنه في سنة ٥٩٠ هـ قويت الوحشة بين العزيز عثمان وأخيه الأفضل ، وتنافرت القلوب ، واضطربت أحوال الأفضل ، وخرج العزيز عثمان من القاهرة بعساكره من مصر يريد الشام لينتزعها من أخيه الأفضل ، وهم الأفضل بمراسلة أخيه العزيز واستعطافه فمنعه من ذلك وزيره ابن الأثير وعدة من أصحابه وحسنوا له محاربته . (١)

ويقول في ذلك أيضا (٢) : " وفي سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة وصل الملك الأفضل إلى دمشق وتفرقت العساكر إلى بلادها ، ولزم الأفضل الزهد وأقبل على العبادة،وصارت أمور الدولة بأسرها مفوضة إلى وزيره ضياء الدين بن الأثير،فاختلت به الأحوال غاية الاختلال ، وكثر شاكوه " .

وهكذا كان ابن الأثير في وزارته سيئ السيرة مع رجال الدولة والناس فيها ، وساءت أحوال دولة الأفضل بسببه ، وكان يحاول دائما الإيقاع بين الملك الأفضل وأخيه الملك العزيز عثمان في ا لوقت الذي كان الأمر فيه يتطلب توحيد الكلمة ولم الشمل للوقوف في وجه الصليبيين . كما كان ابن الأثير هو السبب في إغضاب القاضي الفاضل وخروجه مع مجموعة من الأمراء من دمشق إلى مصر ، مع أن القاضي

---

١ - السلوك لمعرفة دول الملوك - المقريزي - تحقيق : محمد مصطفى زيادة - مطبعة دار الكتب المصرية - ١٩٣٤م - الجزء الأول - القسم الأول - ص ١٢٣.

٢ - المرجع السابق ١٢٩.

الفاضل هو الذي قر به من الملوك وفتح له باب الاتصال بصلاح الدين .
" ولسنا ندري أكان ذلك راجعا إلى المحيط الذي يعيش فيه ضياء الدين ، وهو محيط مضطرب دائم الاصطخاب كثير المنازعات والمشاكل ، أم كان يرجع إلى خلق فيه . فإنا نلمح في كتابته آثار الكبرياء والصلف والاعتداد بالنفس . وهذا خلق ينأى بصاحبه كثيرا عن الحكمة والاتزان والنظر إلى الأمور بعين الإنصاف ووزنها بميزان الروية والعقل ". [١]

ثقافته ومؤلفاته :

أخذ ابن الأثير نفسه بالثقافة التي دعا هو صاحب البيان إلى تحصيلها، وسماها في كتابه (المثل السائر) بآلات علم البيان وأدواته وأفد د منها في كتاباته . فدعوته إلى التسلح بهذه الأدوات تدل على اقتناعه بها وإدراكه لقيمتها .

وكان ابن الأثير أديبا موهوبا وكاتبا لامعا . وقد نحا بالبيان منحى أعلامه الأول من أمثال الجاحظ ، وابن سنان الخفاجي ، وابن المعتز . وقد احتل مكانة عالية في الكتابة والبيان . وإن كان يؤخذ عليه افتخاره المتواصل بنفسه في كتابه المثل السائر . كما حظي ابن الأثير عند أسلافه بشهرة عظيمة لروعة أسلوبه في رسائله التي يقول عنها ابن خلكان : إنها كانت تشغل مجلدات . والمختار منها — كما يقول — مجلد واحد [٢]

---

١ - مقدمة كتاب المثل السائر ١٥ .

٢ - انظر : وفيات الأعيان ٤/٥٦٦ .

أما عن مؤلفات ابن الأثير فهي كثيرة ذكرها ابن خلكان وغيره من المؤلفين أصحاب التراجم . وتدل مؤلفاته — كما يقول ابن خلكان —[١] " على غزارة فضله وتحقيق نبله " . وهذه أهم مؤلفاته :

١ — كتاب (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر) . وهو أشهر مؤلفات ابن الأثير . ويقول عنه ابن خلكان : " وهو في مجلدين جمع فيه فأوعى ولم يترك شيئا يتعلق بعين الكتابة إلا ذكره " [٢] .

٢ — كتاب (الوشي المرقوم في حل المنظوم) . ويقول عنه ابن خلكان : " وهو مع وجازته في غاية الحسن والإفادة " [٣] . وهو عبارة عن ثلاثة فصول : الأول : في حل الشعر ، والثاني : في حل آيات القرآن الكريم ، والثالث : في حل الأخبار النبوية [٤].

٣ — كتاب (المعاني المخترعة في صناعة الإنشاء) . ويقول عنه ابن خلكان : " وهو أيضا نهاية في بابه " [٥].

٤ — ومن مؤلفات ابن الأثير مجموع اختار فيه من شعر أبي تمام ، والبحتري ، وديك الجن ، والمتنبي ، ويقول عنه ابن خلكان : " وهو في

---

١ – وفيات الأعيان ٤/٥٦٥.
٢ – وفيات الأعيان ٤/٥٦٥ .
٣ – وفيات الأعيان ٤/٥٦٥ .
٤– انظر مقدمة كتاب المثل السائر ١٥ .
٥ – وفيات الأعيان ٤/٥٦٥ .

مجلد واحد كبير وحفظه مفيد " [١].

٥ — ومن مؤلفاته : ديوان ترسل . وهو في عدة مجلدات ، كما يقول ابن خلكان [٢].

٧ — كتاب (الجامع الكبير في صناعة المنظوم والمنثور) [٣] . ولم يذكر ابن خلكان هذا الكتاب ضمن مؤلفات ابن الأثير .

٨ — كتاب (الاستدراك على المآخذ الكندية من المعاني الطائية) . وقد ذكره له الدكتور محمد السعدي فرهود .[٤]

هذا وكان ابن خلكان من المعاصرين لابن الأثير وإن لم يلتق به . ويتحدث ابن خلكان عن علاقته بابن الأثير فيقول : " ولقد ترددت إلى الموصل من إربل أكثر من عشر مرات وهو مقيم بها ، وكنت أود الاجتماع به لآخذ عنه شيئا ، ولما كان بينه وبين الوالد — رحمه الله — من المودة الأكيدة فلم يتفق ذلك . ثم فارقت بلاد المشرق وانتقلت إلى الشام وأقمت به مقدار عشر سنين ، ثم انتقلت إلى الديار المصرية وهو في قيد الحياة . ثم بلغني بعد ذلك خبر وفاته وأنا بالقاهرة " . [٥]

١ – وفيات الأعيان ٤/٥٦٦.
٢ – وفيات الأعيان ٤/٥٦٦.
٣ – انظر مقدمة المثل السائر ١٦ .
٤ – نصوص نقدية لأعلام النقاد العرب ٣٠٥ .
٥ – وفيات الأعيان ٤/٥٦٥ .

وإنما ذكرت ذلك لأبين مدى الثقة فيما يرويه ابن خلكان عن ابن الأثير من أخبار ، وما يذكره من مؤلفاته وكتاباته . وهذه المؤلفات التي ذكرها ابن خلكان وغيره لابن الأثير تدل على تنوع ثقافته وتعدد مجالات التفوق لديه . ولم يكن يعيبه سوى شدة اعتداده بنفسه وافتخاره الدائم بوصوله إلى ما لم يصل إليه غيره ، وجرأته في التطاول على غيره . ويذكر الدكتور إحسان عباس أن جرأة ابن الأثير هذه واعتداده بنفسه — واللذان يبلغان لديه حد الغرور — كانا ستارا يحجب بهما ابن الأثير ضعف تحصيله الثقافي وعدم تنوعه .[١]

ولا أتفق مع الدكتور إحسان عباس في اتهام ابن الأثير بضعف الحصيلة الثقافية وعدم التنوع الثقافي لديه ، فمؤلفات الرجل تدل على محصوله العلمي الوفير ، وتعدد مواهبه وألوان ثقافته . ويكفي للاقتناع بذلك أن نطلع على كتابه المثل السائر ، ومن خلال قراءته نقف على الكثير من الآراء الصائبة والمناقشات العلمية الدالة على غزارة معارفه وتنوعها . وينبغي أن نفرق بين المحصول الثقافي للأديب وبين ما قد يتصف به من حدة في الطبع أو جرأة في مهاجمة الخصوم .

كما يذكر الدكتور إحسان عباس أن ابن الأثير كان " على قسط غير قليل من حدة الطبع في معالجته للشعر والنثر أو في تعليقه على

---

١ – انظر : تاريخ النقد الأدبي عند العرب – دار الشروق للنشر والتوزيع – ط٢– ١٩٦٢م – ص ٥٩٢ .

الأشخاص . و لكنه أكثر النقاد إلحاحا على المعنى ، وربما كان أوضحهم استعمالا للطريقة الإحصائية في النقد ، وأشدهم جرأة في النقد التطبيقي لا على البيت المفرد بل على القصيدة كاملة . وتلك مظاهر تفرد منهجه النقدي ، وهو منهج يشتمل على كثير من المحاذير والأخطار . لقد اقترن نقد ابن الأثير بقوة شخصيته فلهذا تميز عمن مارس النقد في هذه الفترة في مصر والشام والعراق ، إذ كان أكثر النقاد سواه إما أن يقفوا عند حدود المحاولات الجزئية أو يكتفوا بجمع الشواهد للمصطلح البلاغي . فإن أراد أحدهم التفرد وسع من نطاق ذلك المصطلح " [١]. ولكن إحسان عباس يرى أن الدقة الإحصائية في نقد ابن الأثير للشعر لم تكن جزءا أصيلا في طبيعته . " وإنما كانت ستارا دون نقائص يحسها في ثقافته الفلسفية العلمية . ولهذا فإن هذا الناقد الذي يلبس ثوب العالم سرعان ما كان يخلع عنه هذا الرداء المستعار وينطلق نحو الأحكام الجارفة متكئا على مثل قوله : (لقد غربلت الأشعار قديمها وحديثها) ومثل : (ولقد وقفت من الشعر على كل ديوان ومجموع وأنفدت شطرا منه في المحفوظ والمسموع) . يمهد بمثل هذه الأقوال ليستولى على القارئ ، ثم يطالعه بمثل هذا الحكم : (ولو لم يكن لجرير سوى هذه الأبيات لتقدم بها على الشعراء) ... ثم هو يطرب لهذه الأحكام الجارفة التي يوردها غيره ويقتبسها كأنها الحجة القاطعة في الفصل بين الآراء » [٢].

---

١ – تاريخ النقد الأدبي عند العرب ٦٠٧ .

٢ – تاريخ النقد الأدبي عند العرب ٦٠٣ .

وأرى أن الدكتور إحسان عباس قد اتخذ من جرأة ابن الأثير واعتداده بنفسه وسيلة للطعن فيه وفي علمه . وأقولها مرة ثانية : إنه ينبغي أن نفرق بين علم الرجل وثقافته وبين ما قد يتصف به من جرأة وتيه وإعجاب بالنفس . ولقد اعترف بفضل ابن الأثير وغزارة علمه كثير من الأدباء منهم الدكتور شوقي ضيف الذي ذكر " أن ضياء الدين بن الأثير كان من الكتاب المجيدين ، ولم تحظ العراق بعده بكاتب ديواني على مثاله "(١).

ثانيا : كتاب المثل السائر :

يعتبر كتاب (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر) أشهر مؤلفات ابن الأثير على الإطلاق . وقد جمع فيه الكثير مما قاله السابقون ، وكان يناقش آراءهم ويؤيدها أو يرفضها أو يوضح ما غمض منها . كما أضاف فيه أبوابا جديدة إلى ما وضعه السابقون في علمي النقد والبلاغة .

وقد بنى ابن الأثير كتابه على مقدمة ومقالتين : فالمقدمة جعلها في الحديث عن أصول علم البيان . أما المقالتان فهما في فروع هذا العلم . وأولاهما في الصناعة اللفظية ، والأخرى في الصناعة المعنوية .

وقد أوضح في المقدمة أن مدار علم البيان على حاكم الذوق السليم ، وأن الدربة والإدمان أجدى فيه وأهدى سمعا وبصرا ، وأن

---

١ - عصر الدول والإمارات - الجزيرة العربية - العراق - إيران ص ٤٥٢ .

معرفة هذا العلم لا توجب للأديب تأليف الكلام وإنما تدله على مواطنه.

وجعل ابن الأثير هذه المقدمة عشرة فصول :

الفصل الأول : في موضوع علم البيان وهو الفصاحة والبلاغة . والأديب إنما ينظر إلى فضيلة دلالة الألفاظ على المعاني ،وليس شأنه شأن النحوي الذي ينظر إلى دلالتها من جهة الوضع اللغوي [١].

والفصل الثاني : في آلات علم البيان وأدواته . وقوامها الطبع . فإذا لم يوجد الطبع لم تغن هذه الآلات شيئا ، وعنده أن الطبع يتفاوت في الصناعة الواحدة ، فصاحب الطبع في الكلام المنظوم لا يجيد في جميع الفنون الشعرية ، وكذلك صاحب الطبع في الكلام المنثور . كما يرى ابن الأثير أن معرفة العروض والقوافي لا توجب قرض الشعر ، وإنما النظم مبنى على الذوق . وقد ينبو الذوق عن بعض الزحافات مع أنه قد يكون جائزا في العروض . كما يرى أن صاحب هذه الصناعة يحاج إلى التشبث بكل فن حتى إنه ليحتاج إلى معرفة ما تقوله النادبة والماشطة . ومن ينادون على السلع في الأسواق . [٢]

والفصل الثالث : في الحكم على المعاني ، وفيه يذكر ابن الأثير أن من المعاني ما يحمل على ظاهر لفظه ، ومنها ما يتأول . وباب التأويل

---

١ - المثل السائر - تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد - طبع المكتبة العصرية - بيروت - ١٩٩٠م - ٢٦/١ .

٢ - المثل السائر ٢٧/١ : ٢٨ .

واسع وقد يعطي معنى واحدا ، وقد يعطي أكثر من معنى [١].

والفصل الرابع : في الترجيح بين المعاني . وذكر ابن الأثير أنـــه لا يتمكن من الترجيح بين المعاني إلا صاحب الفكرة المتقدة واللمحة المنتقدة. ثم أخذ في بيان مواضع الترجيح [٢].

والفصل الخامس : في جوامع كلم الرسول ﷺ وهي الكلم الجوامع للمعاني . وقسمها ابن الأثير إلى قسمين : الأول ما تركب مـــن ألفـــاظ تتضمن من المعنى ما لا تتضمنه أخواها مما يجوز أن يســـتعمل في مكاهـــا موجزة أو غير موجزة . والثاني ما يقصد فيه الإيجاز والدلالـــة بالألفـــاظ القليلة على المعاني الكثيرة [٣].

والفصل السادس : في الحكمة التي هي ضالة المؤمن . ويرى ابـــن الأثير أن الأديب ينبغي عليه أن يتتبع أقوال الناس جميعـــا في مفاوضـــاهم ومحاوراهم . فقد يعثر على هذه الحكمة على أفواه من لا يتوســـم فيـــهم قولها . وضرب أمثلة على ذلك مما سمعه هو أو شاهده [٤].

والفصل السابع : في الحقيقة والمجاز ، ويرى أن مـــن يقـــول بـــأن الكلام كله حقيقة غير مصيب تماما كمن يقول بأن الكلام كلـــه مجـــاز .

---

١ – المثل السائر ٤٩/١ : ٥٦ .
٢ – المثل السائر ١/ ٥٧ : ٦٤ .
٣ – المثل السائر ٦٥/١ : ٦٨ .
٤ – المثل السائر ٦٩/١ : ٧٣ .

وعنده أن المجاز أولى بالاستعمال في باب الفصاحة والبلاغة ، وأن المجاز يجب أن تكون فيه زيادة زائدة على الحقيقة ، وإلا لم يعدل عنها إليه [١].

والفصل الثامن : في الفصاحة والبلاغة . ويرى ابن الأثير أن الفصيح من الألفاظ هو الحسن وهو الظاهر البين ، ومناط الحسن هو لذة السمع باللفظ . والبلاغة تعم اللفظ والمعنى معا عند تأليف الكلام [٢].

والفصل التاسع : في أركان الكتابة . وجعلها ابن الأثير خمسة أركان : جودة المطلع ، واستنباط الدعاء في صدر الكتاب من المعنى الذي بني عليه الكتاب ، وحسن التخلص ، وسبك المعنى سبكا غريبا يجعل القارئ يظن أنها ليست مما في أيدي الناس والواقع أنها مما في أيديهم ، وتضمين الكتاب معاني القرآن الكريم والحديث النبوي على حسب ما تقتضيه معاني الكلام [٣].

والفصل العشر : في الطريق إلى تعلم الكتابة . وتتمثل عنده في ثلاثة شعب : إما أن يحذو حذو المتقدمين في كتاباتهم ، وإما أن يمزج كتابة المتقدمين بما يستجيده لنفسه من زيادة حسنة ، وإما أن يبتدع بعد أن يتسلح لذلك بما يؤهله له من حفظ القرآن الكريم والأحاديث النبوية ، وعدة من دواوين فحول الشعراء [٤].

---

١ – المثل السائر ١/٧٤ : ٧٩ .
٢ – المثل السائر ١/٨٠ : ٨٦ .
٣ – المثل السائر ١/٨٧ : ٩٠ .
٤ – المثل السائر ١/٩١ : ١٤٨ .

وبالنظرة المتأملة في هذه الفصول تدرك أن ابن الأثير لم يكن يقتصر في النظر إلى علم البيان بنظرة البلاغيين إليه بل ينظر إليه نظرة لغوية شاملة تجمع كل ما يحصل به حسن البيان والإفصاح .

وبعد هذه المقدمة يتناول ابن الأثير في المقالة الأولى الحديث عن الصناعة اللفظية فتحدث أولا عن اللفظة المفردة ونقدها وما يتصل بها ، واشترط فيها دقة الاختيار ، ونظم كل كلمة مع ما يشاكلها ، ومجيئها متناسبة مع الغرض المقصود من الكلام ، وفصل الكلام في ذلك وضرب العديد من الأمثلة [١]. ثم تحدث عن اللفظة في حال تركيبها وتأليفها ، وجعل ما تقتضيه صناعة تأليف الكلام محصورا في ثمانية أنوا ع :

الأول : السجع والتصريع [٢] . والثاني : التجنيس [٣] ، والثالث : الترصيع [٤]، والرابع : لزوم مالا يلزم [٥] ، والخامس : الموازنة [٦] ، والسادس : في اختلاف صيغ الألفاظ واتفاقها [٧] ، والسابع : في المعاظلة اللفظية [٨] ، والثامن في المنافرة بين الألفاظ في السبك [٩] . وقد جلس

---

١ – المثل السائر ١٤٩/١ : ١٩٤ .
٢ – المثل السائر ١٩٥/١ : ٢٤٠ .
٣ – المثل السائر ٢٤١/١ : ٢٥٨ .
٤ – المثل السائر ٢٥٨/١ : ٢٦١ .
٥ – المثل السائر ٢٦١/١ : ٢٧٢ .
٦ – المثل السائر ٢٧٢/١ : ٢٧٤ .
٧ – المثل السائر ٢٧٤/١ : ٢٨٤ .
٨ – المثل السائر ٢٨٥/١ : ٢٩٦ .
٩ المثل السائر ٢٩٦/١ : ٣٠٠ .

ابن الأثير مع كل ما احتوته هذه المقالة وتأنى في دراسة أبوابها . وأتى بالكثير من الأمثلة والشواهد على أقواله وآرائه في كل باب . كما ذكر الكثير من الملحوظات النقدية الصائبة بين طيات حديثه عنها .

وفي المقالة الثانية تناول ابن الأثير الصناعة المعنوية ، وقسمها قسمين: الأول في الكلام عن المعاني مجملا ، والثاني في الكلام عليها مفصلا . وجاء ذلك في ثلاثين بابا أو نوعا ناقش فيها أقوال غيره عارضا فيما ذهب إليه ومسفها ما يخالف رأيه . وهذه الأنواع هي : الاستعارة ، والتشبيه ، والتجريد ، والالتفات ، وتوكيد الضميرين ، وعطف المظهر على ضميره والإفصاح به بعده ، والتفسير بعد الإبهام ، واستعمال العام في النفي والخاص في الإثبات ، والتقديم والتأخير ، والحروف العاطفة والجارة ، والخطاب بالجملة الفعلية والجملة الاسمية والفرق بينهما ، وقوة اللفظ لقوة المعنى ، وعكس الظاهر ، والاستدراج ، والإيجاز ، والإطناب، والتكرير ، والاعتراض ، والكناية والتعريض ، والمغالطات المعنوية (التورية) ، والأحاجي ، والمبادي والافتتاحات ، والتخلص و الاقتضاب، والتناسب بين المعاني ، والاقتصاد والتفريط والإفراط ، والاشتقاق ، والتضمين ، والإرصاد ، والتوشيح ، والسرقات الشعرية . وبانتهاء الحديث عن هذه الأنواع ينتهي الكتاب .

والكتاب في مجمله يضع تحت أعيننا طريقة ابن الأثير وخصائصه في رسائله وكتاباته وهو يعني فيها قبل كل شئ بالسجع وتوشيتها بالصور

البيانية والمحسنات البديعية مع نثر ألفاظ القرآن الكريم والحديث النبـــوي فيها ، وحل أبيات الشعر العربي ، ويسوق ابن الأثير في هذا الكتاب أمثلة كثيرة من كتاباته يصور بها جوانب من صناعته في رسائله . كما وضح فيه بشكل تام ما يحتاج الكاتب إلى العكوف عليه واستيعابه وتمثله من العلـــوم اللغوية والبلاغية ، والأشعار والأمثال ، وحفظ القرآن الكريم ، والحديث النبوي مع معرفة الأحكام السلطانية وخاصة أحكام الخلافة والولايـــات ، وما يتصل بذلك من الفقه .

هذا وإن كان ابن الأثير قد أعلن في مقدمة كتابه عن تقريظه لكتاب الموازنة للآمدي ، وسر الفصاحة لابن سنان الخفاجي دون غيرهمـــا مـــن المؤلفات التي تناولت علم البيان إلا أنه من الواضح أنه تـــأثر في كتابـــه بمجموعة من علماء البيان من أمثال قدامة بـــن جعفـــر ، وأبـــو هـــلال العسكري ، وابن المعتز ، وابن جنى وغيرهم .

وقد أعلن ابن الأثير عن منهجه واتجاهه في مقدمة كتابه حين قال :

" إن علم البيان لتأليف النظم والنثر بمترلة أصول الفقه للأحكـــــام وأدلة الأحكام ، وقد ألف الناس فيه كتبا وجلبوا ذهبا وحطبا ، وما مـــن تأليف إلا وقد تصفحت شينه وسينه ، وعلمت غثه وسمينه ، فلم أجد مـــا ينتفع به في ذلك إلا كتاب الموازنة لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمـــدي ، وكتاب سر الفصاحة لأبي محمد عبد الله بن سنان الخفـــاجي . غـــير أن كتاب الموازنة أجمع أصولا وأجدى محصولا . وكتاب سر الفصاحـــة وإن

نبه فيه على نكت منيرة فإنه قد أكثر مما قل به مقدار كلامه من ذكر الأصوات والحروف والكلام عليها ، ومن الكلام على اللفظة المفردة وصفاته مما لا حاجة إلى أكثره ، ومن الكلام في مواضع شذ عنه الصواب فيها ... على أن كلا الكتابين قد أهملا من هذا العلم أبوابا ، ولربما ذكروا في بعض المواضع قشورا وتركا لبابا . وكنت عثرت على ضروب كثيرة منه في غضون القرآن الكريم . ولم أجد أحدا ممن تقدمني تعرض لذكر شئ منها . وهي إذا عدت كانت في هذا العلم بمقدار شطره . وإذا نظر إلى فوائدها وجدت محتوية عليه بأسره . وقد أوردتها هنا وشفعتها بضروب أخر مدونة في الكتب المتقدمة بعد أن حذفت منها ما حذفته وأضفت إليها ما أضفته . وهداني الله لابتداع أشياء لم تكن من قبلي مبتدعة ، ومنحي درجة الاجتهاد التي لا تكون أقوالها تابعة وإنما هي متبعة . وكل ذلك يظهر عند الوقوف على كتابي هذا وعلى غيره من الكتب "[1].

وبغض النظر عما في الكلام من الادعاء والزيادة فإن مراجعة أبواب كتاب المثل السائر تدل على أن ابن الأثير قد أخذ كثيرا من سابقيه واستفاد ممن توصلوا إليه قبله . وهذا شئ طبيعي لا ينجو منه مؤلف . ولكن غير الطبيعي هو محاولة الغض من المتقدم والاستطالة عليه والتقليل من شأنه .

ولم يكد كتاب (المثل السائر) يظهر حتى تداوله الناس وقرأوه

---

١ - المثل السائر ص ٢٣ ، ٢٤ .

وأخذوا في تقريظه والانتفاع به ، وذاع أمره في البلاد حتى نقله الناس إلى بغداد وكان فيها الفقيه الشيخ عز الدين أبو حامد عبد الحميد المعروف بابن أبي الحديد . فلما رأى هذا تقريظ الناس للكتاب وشغفهم به واشتغالهم بدراسته ونسخه تصدى لمؤاخذته ونقده ، وجمع مؤاخذاته عليه في كتاب سماه (الفلك الدائر على المثل السائر) وقال في مقدمته :
"وبعد: فقد وقفت على كتاب نصر الدين بن محمد الموصلي المعروف بابن الأثير الجزري المسمى كتاب (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر) فوجدت فيه المحمود والمقبول ، والمردود والمرذول . أما المحمود منه فإنشاؤه وصناعته ، فإنه لا بأس بذلك إلا في الأقل النادر ، وأما المرذول منه فنظره وجدله واحتجاجه واعتراضه فإنه لم يأت في ذلك في الأكثر الأغلب بما يلتفت إليه ، ولا بما يعتمد عليه . فحداني على تتبعه ومناقضته في هذه المواضع النظرية أمور : منها إزراؤه على الفضلاء ، وغضه منهم وعيبه عليهم ؛ فإن في ذلك ما يدعو إلى الغيرة عليهم والانتصار لهم . ومنها إفراطه في الإعجاب بنفسه والتبجح برأيه ، والتقريظ لمعرفته وصناعته ، وهذا عيب قبيح يحبط عمل الإنسان ويوجب المقت من الله والعباد . ومنها أنه قد أومأ مرارا في كتابه إلى عتاب دهره إذ لم يعطه حقه على قدر استحقاقه فأردنا أن نعرفه أن الأرزاق ليست على مقادير الاستحقاق ، وأن الرزق مقسوم لا يجلبه الفضل ولا يرده النقص ، ومنها أن جماعة من أكابر الموصل قد حسن ظنهم في هذا الكتاب جدا وتعصبوا له حتى فضلوه على أكثر الكتب المصنفة في هذا الفن وأوصلوا منه نسخا

معدودة إلى مدينة السلام (بغداد) وأشاعوه وتداوله كثير من أهلها . فاعترضت عليهم بهذا الكتاب ... " [١].

ولم يكتف ابن أبي الحديد بهذا الكتاب في نقد ابن الأثير في المثل السائر بل كان ينتهز الفرص في شرحه على نهج البلاغة فينقل كلام ابن الأثير وينقده ويبدي اعتراضه عليه [٢].

وممن صنف كتابا في الرد على ابن الأثير في المثل السائر أبو القاسم محمود بن الحسين الركن السنجاري المتوفى عام ٦٤٠ هـ ، فقد وضع في ذلك كتابه (نشر المثل السائر وطي الفلك الدائر) . ومنهم صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي المتوفى عام ٧٦٤ هـ ، والذي صنف في ذلك كتابا سماه (قطع الدابر عن الفلك الدائر) [٣] .

ورغم كل ما يؤخذ على المثل السائر وصاحبه من مآخذ فإن الكتاب يمثل قيمة أدبية كبيرة ويحتوي على محصول علمي غزير ، ويضم بين دفتيه كما هائلا من الآراء الصائبة في قضايا أدبية ونقدية وبلاغية عديدة . فهو — كما يقول عنه الدكتور أحمد أمين : " كتاب قيم مملوء بالالتفاتات الأدبية الرائعة التي تدل على ذوق بار ع . لولا أن صاحبه كثير الفخر بنفسه والاعتداد بها . وقد يقع على آراء قيمة ينسبها إلى

---

١ — مقدمة المثل السائر ١٨ ، ١٩.
٢ — انظر المرجع السابق ٢٠ .
٣ — نفس المرجع ٢١ .

نفسه وهو مسبوق إليها . وذكر القصص في القرآن وأبان بلاغتها وكـــان خيرا من ذلك أن يتعرض لغير بلاغة القرآن حتى يكون حرا في النقد "[١].

ونلاحظ أن كل ما أخذ على الكتاب إنما يتصل بصلـــف صاحبــه وتيهه بنفسه واعتداده بها وادعائه أنه سبق إلى أشياء وهو مسبوق إليــها . أما الكتاب نفسه فهو ذو قيمة أدبية وبلاغية ونقدية عظيمة ويحتوي علــى العديد من قضايا الأدب والبلاغة والنقد أحسن ابن الأثير عرضها وبيـــان أوجه الصواب فيها .

---

١ - النقد الأدبي - أحمد أمين - دار الكتب العلمية - بـيروت - ط ٤ - ١٩٦٧ م - ص ٤٨٨.



الفصل الأول

الحس الفني عند ابن الأثير

في المثل السائر

الحاسة الفنية لدى الأديب أو الناقد " هي المحور الذي تنبني على أساس منه كل فصائل الإبداع الأدبي بطرقه المختلفة ووسائله المتعددة وانطلاقاته التي لا حد لها ، ولا قدرة على إدراك سر انبثاق الإلهام فيها .

وهي الشهادة التي تضع طابعها الخالد على أعمال الفنانين والعباقرة لتشهد لهم ، وتضع كل واحد منهم في درجته اللائقة به حيث وضعه فنه "[1].

والحاسة الفنية لدى الأديب الناقد هي تلك الملكة التي يدرك بها هذا الناقد نواحي الحسن والجمال في العمل الأدبي ، كما يستطيع عن طريقها أن يقف على مظاهر الضعف والتخلف فيه . والناقد العبقري ذو الحس الفني الصادق لا يقف في عمله عند حدود المقاييس والضوابط التي حددها غيره في النظر إلى العمل الأدبي أو في إنشائه ، ولا يقف عند القواعد والضوابط التي ترتبط بموضوع عمله الفني ، بل عليه أن " يتلقى الحقيقة ليعكسها في شكل حي ويزيد فيها لمسة الشعور بجمالها الفني

١ - الفكر النقدي في تراث عبد القاهر الجرجاني - د/ محمود لبدة - طبعة عام ١٩٨٦ م - ص ١١

فيعطيها معناها الحق وزيادة ، ومن هنا يتفاوت الناس تفاوتا كبيرا لأن الحس الفني بالجمال يكبر في أناس ويصغر في آخرين "[١].

وكان ابن الأثير من النقاد الذين توافرت فيهم الحاسة الفنية ، وكبرت في نفوسهم ، وأبرزها في كثير من مواضع كتابه (المثل السائر) فاستطاع عن طريق استعانته بها أن يقوم الكثير من أعمال غيره ، وأن ينظر إلى الأمور الفنية نظرة ناقد بصير يضع الأمور في نصابها وتصلح أن تكون منارة يهتدي بها السالكون في دروب الفن والأدب . وقد صرح هو في كتابه أنه اعتمد على خاطره وحسه الأدبي في تحقيق الغرض الذي وضع الكتاب من أجله، فنراه يقول : " إذ الغرض إنما هو الحصول على تعليم الكلم التي بها تنظم العقود وترصع ، وتخلب العقول فتخدع . وذلك شئ تحيل عليه الخواطر ، ولا تنطق به الدفاتر "[٢].

- ويجعل ابن الأثير للذوق دورا كبيرا في قوة البيان وسلامته ، بل جعل الذوق السليم أنفع لصاحبه في قوة البيان من ذوق التعليم [٣]. ومن هنا فإنه يأخذ على بعض النقاد في نقدهم للشعر وتفسيرهم له اقتصارهم على شرح المعنى وما يتصل به من توضيح للكلمات اللغوية وتبيين مواضع الإعراب فيها دون إعمال ذوقهم في بيان ما تتضمنه تلك الأشعار من أسرار الفصاحة والبلاغة [٤].

---

١ - الفكر النقدي في تراث عبد القاهر الجرجاني ١١ .

٢ - المثل السائر ١/٢٥ .

٣ - المثل السائر ١/٢٥ .

٤ - المثل السائر ١/٢٦ .

كما يجعل ابن الأثير من الذوق السليم أداة إبداع وتذوق للبيـــان . وفي هذا يقول في الحكم على اللفظة تأتي مقبولة في موضع ومســتكرهة في موضع آخر : " وهذا كله يرجع إلى حاكم الذوق السليم . فإن صــاحب هذه الصناعة يصرف الألفاظ بضروب التصريف ، فما عذب في فمه منها استعمله ، وما لفظه فمه تركه "[١].

فالذوق عنده إحساس فني ينبغي أن يكون هو واسطة التعامل بـــين الناقد والفن وبين الفنان وفنه . ويرى ابن الأثير أن الفن الحقيقي ما كـــان له تأثير في النفس فيقول وقد طرب لبيتين في الخمر وكاساتها قالهما أحـــد المغاربة : " وهذا معنى مبتدع أشهد أنه يفعل في العقول فعل الخمر سكرا، ويرق كما رقت لطفا ، ويفوح كما فاحت نشرا "[٢].

كما يجعل ابن الأثير الذوق أساسا في تقرير بعض الحقائق النقديـــة ، ومن ذلك قوله في تقرير بعض خصائص ألفاظ الكلام المنظوم وأن منـــها مالا يسوغ استعماله في الكلام المنثور : " فاعلم أن كـــل مـــا يســـوغ استعماله في الكلام المنثور من الألفاظ يسوغ استعماله في الكلام المنظوم . وليس كل ما يسوغ استعماله في الكلام المنظوم يسوغ استعماله في الكلام المنثور . وذلك شئ استنبطه واطلعت عليه لكثرة ممارستي لهـــذا الفن ، ولأن الذوق عندي دلني عليه "[٣].

---

١ – المثل السائر ٢٨٠/١ .
٢ – المثل السائر ٣٢٠/١ .
٣ – المثل السائر ١٧٢/١ .

ويجعل ابن الأثير للذوق الفني دورا كبيرا في صحة الحكم على الألفاظ وتمييز الحسن منها عن قبيحها ، كما أن للسمع دورا أساسيا في ذلك فالذي يستلذه السمع منها ويميل إليه هو الحسن ، والذي يكرهه السمع وينفر عنه هو القبيح . ألا ترى أن السمع يستلذ صوت البلبل من الطير وصوت الشحرور ويميل إليهما ، ويكره صوت الغراب ونهيق الحمار وينفر منهما ، والألفاظ جارية هذا المجرى ، فإن لفظتي (الديمة ، والمزنة) حسنتان يستلذهما السمع لأن كلا منهما مألوفة الاستعمال ، أما لفظة (البعاق) مع أنها تدل على معناهما فهي قبيحة يكرهها السمع لأنها غير مألوفة الاستعمال [1].

– والحس الفني الصافي الذي يتمتع به ابن الأثير مكنه من التقاط ما في الأساليب من حكم صافية وعبارات بليغة . فاستنادا إلى حسه الفني الصافي وعملا بقول النبي ﷺ : " الحكمة ضالة المؤمن فهو أحق بها إذا وجدها " حدثنا ابن الأثير عن التقاطه لعدد من الحكم البليغة التي سمعها من غيره أثناء تنقلاته والتقائه ببعض الرجال من البدو والأصدقاء .

فمن ذلك ما ذكره من أنه سار في بعض الطرق وفي صحبته رجل بدوي من الأنباط لا يعتد بقوله فكان يقول له : غدا ندخل البلد وتشتغل عني . وكان الأمر كما قال البدوي فقد دخل ابن الأثير حلب وشغل عن الرجل أياما ثم التقى به فقال الأعرابي لابن الأثير : " من تروي فترت

---

١ – المثل السائر ٨١/١

عظامه " . فأعجب ابن الأثير بهذه المقولة وجعلها من الحكمة الضالة التي يطلبها مؤمنوا الفصاحة والبلاغة [١].

ومثل ذلك ما سمعه ابن الأثير من هذا البدوي بصدد شيء يسير أخذه ابن الأثير من صاحب له في حلب وأراد أن يرده إليه فقال معبرا عن استقلاله لهذا الشيء : " الماء أروى لشدوق النيب" . وهي أيضا من باب الحكمة الضالة المعبرة [٢].

كما حدثنا عن سفرة له وفي صحبته رجل بدوي فسأله ابن الأثير عن المسافة بين تدمر وأراك ، فقال البدوي : " إذا خرج سرحاهما تلاقيا". وهي عبارة حكيمة تعبر عن قرب المسافة بين البلدين بأوجز عبارة وأبلغها.

ثم سأله ابن الأثير في ليلة من الليالي عن الصبح فقال : " قد ظهر الصبح إلا أنه لم يملك الإنسان بصره " . وهي عبارة تدخل في باب الحكمة أيضا [٣].

ومن ذلك عبارة سمعها ابن الأثير من أحد الأطباء النصارى — وكان لا يحسن أن يقول كلمة واحدة — بعد أن سأله ابن الأثير عن زيارة شخص وهل يتردد إليه أم لا : " ظلام الليل يهديني إلى باب من

---

١ – المثل السائر ٦٩/١ .
٢ – المثل السائر ٦٩/١ .
٣ – المثل السائر ٧٠/١ .

أوده ، وضوء النهار يضل بي عن باب من لا أوده " وهي عبارة حسنة تحمل معنى لطيفا. فهي من باب الحكمة [١].

ومن ذلك عبارة الموت " الموت طعام لا تجشه المعدة " والتي نطق بها فدم من أهل بصرى كان جنديا في معركة وتعاهد مع اثنين من فرسان المسلمين على الحملة على العدو ثم تلكأ عنهما فقيل له في ذلك فقال هذه الكلمة . وقد علق ابن الأثير على هذه العبارة فقال : " فلما سمعت هذه الكلمة استحسنتها " [٢].

ومن ذلك ما حكاه ابن الأثير عن امرأة توفي لها ولد وهو بكرها وأول ولدها فقالت : " كيف لا أحزن لذهابه وهو أول درهم وقع في الكيس " . وقد أعجب الأثير بهذه المقولة فاستعارها وأودعها كتابا من كتبه في التعازي كتب به إلى بعض الإخوان وقد توفي ولده البكر فقال : " وهو أول درهم ادخرته في كيس الادخار وأعددته لحوادث الليل والنهار"[٣].

وهكذا كان ابن الأثير بحاسته الفنية يتمكن من التقاط ما في كلام العوام وغيرهم من ذوي الاختصاص من بليغ العبارات وفصيح الألفاظ ، وفيما اخترته فيما سبق دليل على ذلك . وقد ذكر ابن الأثير أنه لو أخذ

---

١ - المثل السائر ٧١/١.
٢ - المثل السائر ٧١/١ .
٣ - المثل السائر ٧٢/١ .

في ذكر ما سمعه من هذا لأطال ، وإنما ذكر اليسير من ذلك للتدليل على المراد . وهو أنه يجب على الشاعر والناقد أن يتتبع أقوال الناس في محاوراتهم فإنه لا يعدم مما يسمعه منهم حكما كثيرة ولو أراد استخراج ذلك بفكره لأعجزه (١).

ـ وبحسه الفني وبما يتمتع به ابن الأثير من طبع أصيل وذوق صاف أصدر عددا من الأحكام النقدية التي صدر فيها عن طبعه الخاص وذوقه الشخصي وكان فيها ناقدا ذاتيا بعيدا عن النقد التحليلي المعلل . ومن ذلك نظرته إلى قول الشاعر أبي بكر يحيى بن بقي الأندلسي (٢):

بأبي غزالٌ غازلتْهُ مقلتي ... بين الغوير وبين شطّي بارقِ
عاطيتُه والليلَ يسحبُ ذيلَه ... صهباءَ كالمسك الفتيق لِنَاشِقِ
وضممتُه ضمَّ الكميِّ لسيفه ... وذؤابتاه حمائلٌ في عاتقي
حتى إذا مالت به سِنَةُ الكرى ... زحزحتُه شيئا وكان معانقي
أبعدتُه عن أضلعٍ تشتاقُهُ ... كي لا ينامَ على وسادٍ خافِقِ

فقد اكتفى ابن الأثير بالتعليق عليها بقوله : " وهذا من الحسن والملاحة بالمكان الأقصى . ولقد خفت معانيه حتى كادت ترقص رقصا . والبيت الأخير منه هو الموصوف بالإبداع . وبه وبأمثاله أقرت الأبصار بفضل الأسماع " (٣).

---

١ - المثل السائر ٧١/١ .
٢ - الأبيات في وفيات الأعيان ١٦٨/٥ .
٣ - المثل السائر ٣١٩/١ .

ومن ذلك حكمه على بيتي يزيد بن الطثرية في محبوبته :

بنفسي مَن لو مـــرَّ بـَـرْدُ بنانــِـه على كَبدي كانت شــفاءَ أنامِلُـهْ
ومَنْ هابَني في كلِّ شـيءٍ وهبتُــه فلا هو يعطيــني ولا أنــا سـائلُهْ

فقد أعجب ابن الأثير بهذه البيتين إعجابا شديدا ، وإن كان لم يعلل هذا الإعجاب بغير ما يفهم من كلامه السابق على ذكره لهما من حديث عن رقة الألفاظ وعذوبتها ، فجعلهما مما ترقص الأسماع له ويرن على صفحات القلوب . ثم قال معبرا عن مزيد إعجابه بهما : " وإذا كان هذا قول ساكن في الفلاة لا يرى إلا شيحه وقيصومه ، ولا يأكل إلا ضبا أو يربوعا فما بال قوم سكنوا الحضر ووجدوا رقة العيش يتعاطون وحشي الألفاظ وشظف العبارات " (١).

ومن هذا القبيل ما عقب به ابن الأثير على قول الشاعر المعروف بالحافظ في تشبيهه البهار :

عيونُ تِبرٍ كأنما سُرِقَت سوادُ أحداقِها من الغَسَقِ
فإن دَجَا ليلُها بظلمتِه ضمَّمْن من خوفه على السَّرَقِ

فقد اكتفى بالتعقيب عليها بقوله : " وهذا تشبيه بديع لم يسمع بمثله وهو من اللطافة مالا خفاء به " (٢).

ومن ذلك أيضا ما عبر به عن رأيه في قول الشاعر :

---

١ - المثل السائر ١/١٧٨ .
٢ - المثل السائر ١/٣٢٠

حملتْ حمائلُه القديمةُ بقلـــةً ... من عهد عادٍ غضةً لم تذبـــلِ

إذ قال معبرا عن إعجابه به : " وهذا مـــن الحســـن مـــا يشـــهد لنفسه"[١]. ومنه ما عقب به على قول ابن حمديس الصقلي :

يا سالباً قمرَ الســـماءِ جمالَـــه ... ألبستني للحزنِ ثـــوبَ سمائِـــهِ
أضرمتَ قلبي فارتمى بشـــرارةٍ ... وقعتْ بخدك فانطفتْ من مائِـــهِ

فقد اكتفى بالتعليق عليها بقوله : " وهذا المعنى دقيق جدا ، وقـــد سمعت في الخال ما شاء الله أن أسمع فلم أجد مثل هذا "[٢].

ومن ذلك أيضا حكمه على بيتي المتنبي :

كلِّ جريحٍ تُرْجَى ســـلامتُه ... إلا جريحًا دهته عيناهـــا
تبلُّ خدي كلما ابتســـمتْ ... من مطرٍ برقُـــهِ ثناياهـــا

فقد رأى أن البيت الثاني من الأبيات الحسان التي تتواصف . ولكنه لم يعلل لهذا الحكم ، وحسن الاستعارة فيه أنه جـــاء ذكـــر المطـــر مـــع البرق[٣].

وقد يصدر ابن الأثير بعض الأحكام النقدية الذاتيـــة بعيـــدا عـــن التعليل ويمزجها بشئ من الفكاهة الحلوة المستساغة . كقوله عن أبيـــات عبد السلام بن رغبان المعروف بديك الجن :

لما نظرتِ إليَّ عن حـــدقِ المَـــها ... وبســـمتِ عـــن متفتّـــحِ النَّـــوَّارِ

---

١ - المثل السائر ٣٦٦/١ .
٢ - المثل السائر ٣٢١/١ .
٣ - المثل السائر ٣٦٨/١ .

وعقدتِ بين قضيب بانٍ أهيــفٍ وكثيــبِ رمـلٍ عقــدةَ الزنــارَ
عفَّرتُ خدي في الثرى لكِ طائعــاً وعزمتُ فيكِ علىَ دخــول النــارَ

فقد قال معلقا على هذه الأبيات معبرا عن إعجابه بهــا : " وهــذه الأبيات لا تجد لها في الحسن شريكا . ولأن يسمى قائلها شــحرورا أولى من أن يسمى ديكا " [1].

وغير ذلك كثير مما نطق به ابن الأثير من عبارات جاءت في شــكل أحكام نقدية ، تعد من قبيل النقد الذاتي التأثري غير المعلل ، وإنما تعــبر عن شخصية ابن الأثير النقدية وتعبر عن ذاتيته وتأثره فيها بذوقه الخــاص وطبعه الشخصي وحسه النقدي .

وبحسه الفني وما يتصف به من صفاء الطبع تمكن ابن الأثير مــن التقاط الحسن والغث من الكلام ، ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في بــاب المعاظلة الشعرية وما فيها من كراهة وثقل من ناحية ، وتعبر عن ضيقــه بالبيت المتعاظل وصاحبه من ناحية أخرى .

فبيت المتنبي مثلا :

كيف ترثي التي ترى كلَّ جفنٍ راءَها غيرَ جفنها غيرَ راقي

علق عليه ابن الأثير بقوله :" وهذا وأمثاله إنما يعرض لقائله في نوبــة الصرع التي تنوب في بعض الأيام "[2].

---

١ - المثل السائر ٣٦٢/١ .
٢ - المثل السائر ٢٩٠/١ .

وقول كشاجم :

والزهـرُ والقطـرُ في رُباهَـا ما بـين نظـم وبـين نـثر
حدائـقٌ كـفَّ كـل ريـح حل بهـا خيـطَ كـلِّ قطـر

علق عليه ابن الأثير بقوله : " وهذ البيت يحتاج الناطق به إلى بركار يضعه في شدقه حتى يديره له "[١].

وقول أحد الشعراء :

مللتُ مطالَ مولودٍ مفدَّي مليح مانـع مني مرادي

علق عليه ابن الأثير بقوله : " وهذه الميمات كأنها عقـد متصلـة بعضها ببعض "[٢].

– وبالحس الفني الصادق يرى ابن الأثير أن الترجيح بين المعاني هـو ميزان الخواطر الذي يوزن به نقد درهمها وديناراها ، وهو المحك الـذي يعلم به مقدار عيارها . ولم يهب الله – سبحانه وتعالى – هذا الميزان لكل إنسان . وإنما فضل به إنسانا على آخر فلا يزن به إلا ذو فكـر متقـد ، فليس كل من حمل ميزانا سمي صرافا ، ولا كل من وزن به سمى عرافا[٣].

ومما يثبت به أن ابن الأثير هو ممن وهبهم الله هذا الميزان الذي بـه يستطيع التمييز بين الجيد والرديء تلـك الأحكـام النقديـة الصائبـة

---

١ – المثل السائر ٢٩٠/١ .
٢ – المثل السائر ٥٧/١ .
٣ – المثل السائر ٥٧/١ .

المصحوبة بالأدلة والعلل الدالة على صحة ما ذهب إليه . فإن كان ابـــن الأثير قد ثبت عنه الكثير من صور النقد غير المعلل، والتى كان فيها نـاقدا ذاتيا فله الكثير من النقد العلمي الموضوعي المعلل . ومنها نقـــده لقـــول مروان الأصغر :

سقى اللهُ نجدًا والسلامُ على نجـــدِ	ويا حبذا نجدٌ على النأي والبعـدِ
نظرتُ إلى نجدٍ وبغــــدادُ دونهـــا	لعلِّي أرى نجدًا وهيهات من نجـدِ

فقد جعل التكرير في البيتين من التكرير غير المفيد ، وقال عنه : إنـه من العي الضعيف . وبين سبب ذلك فقال إن الشاعر كرر كلمة (نجـــد) في البيت الأول ثلاثا وفي الثاني ثلاثا ، ومراده في الأول الثناء على نجـــد ، وفي الثاني أنه تلفت إليها ناظرا من بغداد ، وذلك مرمى بعيـــد ، وهـــذا المعنى لا يحتاج إلى مثل هذا التكرير . أما البيت الأول فيحمل على الجـائز من التكرير لأنه مقام تشوق وتحرق وموجدة لفراق نجد . ولما كان كذلك أجيز فيه التكرير . وقد كان يمكنه أن يأتي بالمعنى الوارد في البيتين من غير أن يأتي بهذا التكرير المتتابع ست مرات [1].

فنرى هنا نقدا موضوعيا معللا يتوقف فيه ابن الأثير مع النص ويبين سبب حكمه الذي أصدره عليه أولا .

ومن ذلك أيضا حكمه على بيتي مهيار الديلمي في مقدمة قصيدتـــه في الاعتذار لجلال الدولة بن بويه :

أمَـا وهواهـــا عـــذرةً وتنصُّلا	لقد نقلَ الواشي إليـــها فـــأمحلا

---

١ — المثل السائر ٢/١٥٩.

سعى جهده لكن تجـــاوز حـــدّه وكثّر فارتابت ولو شـــاء قلّـــلا

فقد حكم ابن الأثير على البيتين بأنهما من لطيف الابتداءات [١]. ثم علل لهذا الحكم بأن الشاعر " أبرز الاعتذار في هيئة الغزل وأخرجـــه في معرض النسيب وكان وشى به إلى الممدوح فافتتح قصيدته بهـــذا المعـــنى فأحسن "[٢].

ومن هذا الباب قوله حول بيتي الشاعر — من العراقيين المتأخرين :

وراءك أقوالَ الوشـــاةِ الفواجـــرِ ودونك أحوالَ الغـــرامِ المخـــامرِ

ولولا ولوعٌ منك بالصبرِ ما ســـعوا ولولا الهوى لم أنتـــدب للمعـــاذرِ

حيث جعل الابتداء بهذين البيتين أيضا من لطيف الابتـــداءات لأن الشاعر أبرز اعتذاره إلى فتاته في هيئة الغزل مثلما فعل مهيار في المطلـــع السابق ، إلا أن هذا الشاعر زاد على مهيار زيادة حسنة وهي المعاتبة على الإصغاء إلى أقوال الوشاة والاستماع منهم . وذلك من أغرب ما قيـــل في هذا المعنى [٣].

وفي حديثه عن التقسيم وصحته وفساده في كلام الأديب ذكر ابـــن الأثير موقف أبي هلال العسكري من قول جميل بثينة :

لو كان قلبي كقدر قُلامَةٍ حبًّا وصلتك أو أتتك رسائلي

---

١ – المثل السائر ٢/٢٣٢ .

٢ – المثل السائر ٢/٢٣٣ .

٣ – المثل السائر ٢/٢٣٣ .

وقوله عنه : " فإتيان الرسائل داخل في الوصل " [1]. ولم يوافق ابن الأثير على رأي أبي هلال ، لأن جميلا أراد بقوله : (وصلتك) أي أتيتك زائرا وقاصدا أو كنت راسلتك مراسلة . والوصل لا يخرج عن هذين الوصفين : إما زيارة ، وإما مراسلة [2].

والحق مع ابن الأثير ، فالتقسيم في بيت جميل صواب ولا ضير فيه ، فهو يريد بالوصل الزيارة والرؤية ، وبذلك يكون الوصل عن طريقين : الزيارة والمراسلة . ولا ثالث لهما .

وقوة الحس الفني لدى ابن الأثير وصفاء طبعه وسلامة ذوقه مكنته من التفريق بقوة بين قبيح الألفاظ وحسنها على أساس من صياغتها صياغة معينة أو على حسب مجيئها على وزن دون وزن ، أو الإتيان بها مفردة أو غير مفردة . ونبه على أن ذلك يعرف بالذوق السليم ، ويتنبه إليه صاحب الطبع الصافي ويظهر ذلك واضحا في باب اختلاف صيغ الألفاظ واتفاقها . وقد ذكر ابن الأثير في هذا الباب أن من هذا النوع ألفاظ يعدل عن استعمالها من غير دليل يقوم على العدول عنها ، ولا يستفتى في ذلك إلا الذوق السليم . وذكر من ذلك لفظة (اللب) الذي هو العقل ، فإنها على خفتها وبعد مخارج حروفها لا تحسن إلا في استعمالها مجموعة . ولذلك لم ترد في القرآن الكريم إلا بصيغة الجمع ولم ترد فيه

---

١ – الصناعتين – أبو هلال العسكري – تحقيق : على محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم – المكتبة العصرية – صيدا وبيروت – طبعة عام ١٩٨٦ م – ص ٣٤٤ .

٢ – انظر المثل السائر ٢/٢٩٠ .

مفردة . ومن ذلك قوله – تعالى – : ﴿ وليتذكَّرَ أولُو الألبابِ ﴾[١]. وقوله تعالى : ﴿ إنَّ في ذلك لَذِكرى لأولي الألباب ﴾[٢]. وأشباه ذلك . وقد تستعمل مفردة بشرط أن تكون مضافة أو مضافا إليها . أما كونها مضافا إليها فكقول جرير:

إنَّ العيونَ التي في طرفِها حَوَرٌ قتلنَنا ثم لم يُحيِين قتلانَا
يَصْرَعْنَ ذا اللبِّ حتى لا حِرَاك بـه وهنَّ أضعفُ خلقِ الله أركانا

وأما كونها مضافة فكقول النبي ﷺ في ذكر النساء : " ما رأيت ناقصات عقل ودين أذهب للب الحازم من إحداكن يا معشر النساء " . فإن كانت هذه اللفظة عارية عن الجمع والإضافة فإنها لا تأتي حسنة . ولا تجد دليلا على ذلك إلا مجرد الذوق الصحيح[٣].

ومثل كلمة (اللب) في الأحكام السابقة كلمة (كوب) ، فإنها لم تأت في القرآن الكريم مفردة ولا مثناة . وهي في حال الجمع أحسن منها في حال الإفراد . وقد ترد مفردة مع ألفاظ أخر تندرج معهن فيكسوها ذلك حسنا ليس لها . ومثل ابن الأثير لذلك ببيتين من نظمه هو في الحديث عن الخمر وهما قوله :

ثلاثةٌ تعطِي الفَرَحْ كأسٌ وكوبٌ وقَدَحْ
ما ذُبِحَ الذوقُ بها إلا وللهَمِّ ذَبَحْ

---

١ – من الآية رقم ٢٩ من سورة ص .
٢ – من الآية رقم ٢١ من سورة الزمر .
٣ – المثل السائر ٢٧٧/١ .

فلما وردت لفظة (كوب) مع الكأس والقدح حسن استعمالها[١].

ومن هذه الألفاظ لفظة (رجا) بالقصر . فلم تستعمل إلا مجموعة كما في قوله — تعالى — : ﴿ والمَلَكُ على أرْجائِها ويحملُ عرشَ ربِّك فوقهم يومئذٍ ثمانية ﴾[٢].

ومنها لفظة (الصوف) . فإنها لم ترد في القرآن إلا مجموعة وتحسن مفردة إذا كانت مستعملة استعمالا حقيقيا . فإذا جاءت مجازية قبحت كما في قول أبي تمام :

كانوا برودَ زمانِهم فتصدَّعوا ... فكأنما لبسَ الزمانُ الصوفا

فإنما أزرى بها أنها جاءت مجازية في نسبتها إلى الزمان [٣].

ومثل ذلك لفظة (خبر وأخبار) فلم ترد في القرآن إلا مجموعة . وهي هكذا أحسن منها مفردة [٤].

وعلى الضد من ذلك ما ورد استعماله من الألفاظ مفردا ولم يرد مجموعا كلفظة (الأرض) فإنها لم ترد في القرآن الكريم إلا مفردة ، ولما أريد أن يؤتى بها مجموعة قيل : ﴿ اللهُ الذي خلقَ سبْعَ سماواتٍ ومن الأرضِ مثلهُنَّ ﴾ [٥].

---

١ – المثل السائر ٢٧٨/١ .
٢ – الآية رقم / ١٧ من سورة الحاقة .
٣ – المثل السائر ٢٧٩/١ .
٤ – المثل السائر ٢٧٩/١ .
٥ – من الآية الأخيرة من سورة الطلاق .

ومثلها كلمة (البقعة) فاستعمالها مفردة أحسن منها مجموعة ، وإن استعملت مجموعة فالأولى أن تكون مضافة كقولنا : بقاع الأرض [١].

وكذلك لفظة (طيف) في ذكر طيف الخيال . فإنها لم تستعمل إلا مفردة وجمعها قبيح . ومن العجيب أن لفظة (ضيف) مثلها عدة ووزنا ومع ذلك فهي حسنة مفردة وجمعا . وهذا مما لا يعلم السر فيه ، والحاكم في ذلك هو الذوق [٢].

فانظر إلى سلامة ذوق ابن الأثير وصفاء طبعه وقوة تميزه بين استعمالات هذه الألفاظ وأمثالها ، وقد عقب ابن الأثير على ذلك بما يؤكد احتكامه في هذا الباب إلى الذوق وحده فيقول : " وهذا كله يرجع إلى حاكم الذوق السليم فإن صاحب هذه الصناعة يصرف الألفاظ بضروب التصريف . فما عذب في فمه منها استعمله وما لفظه فمه تركه"[٣].

— ونقاء الحس الفني لدى ابن الأثير مكنه من الوقوف على مكامن البراعة في كثير من الآيات القرآنية واستخراج ما في القرآن الكريم وتعبيراته من بلاغة وحسن بيان . ويتجلى ذلك من خلال ما عبر به عن فهمه لبعض آيات الكتاب الحكيم وما عقب به على كل منها تعقيبا يدلنا

---

١ — المثل السائر ٢٧٩/١.
٢ — المثل السائر ٢٨٠/١.
٣ — المثل السائر ٢٨٠/١ .

على دقة نظرته في كتاب الله — تعالى — ومحاولة الوقوف الصحيح على أسرار إعجازه . ومن ذلك نظرته في قوله — تعالى — : ﴿ فخَرَّ عليهم السقفُ من فوقِهم ﴾ [١]. فقد أبان ابن الأثير أن لذكر لفظة (فوقهم) فائدة لا توجد مع إسقاطها من هذا الكلام . ثم ذكر ما يدل على أهمية الحس الإيماني في هذا الموقف فيقول لمخاطبه : وأنت تحس هذا من نفسك، فإنك إذا تلوت هذه الآية يخيل إليك كأن سقفا خر على أولئك من فوقهم وحصل في نفسك من الرعب مالا يحصل مع إسقاط تلك اللفظة [٢].

وفي وقوفه مع قوله — تعالى — : ﴿ وجعلنا الليلَ لباسًا ﴾ [٣].أبان ابن الأثير عن حسن تشبيه الليل باللباس في هذه الآية بأن الليل يستر الناس بعضهم عن بعض لمن أراد هربا من عدوءأو ثباتا لعدوءأو إخفاء مالا يحب الاطلاع عليه من أمره . ثم ذكر أن هذا من التشبيهات التي لم يأت بها إلا القرآن الكريم . فإن تشبيه الليل باللباس مما اختص به دون غيره من الكلام المنظوم والمنثور [٤].

وعن قوله — تعالى — : ﴿ نساؤُكُم حرثٌ لكُم ﴾ [٥]. قال ابن الأثير : " إن هذا من أحسن التشبيهات . ويكاد ينقله تناسبه عن درجة

---

١ — من الآية رقم ٢٦ من سورة النحل .
٢ — المثل السائر ١٢٣/٢ .
٣ — الآية رقم / ١٠ من سورة النبأ .
٤ — المثل السائر ٣٨٣/١ .
٥ — من الآية رقم / ٢٢٣ من سورة البقرة .

المجاز إلى الحقيقة . والحرث هو الأرض التي تحرث للـــزرع ، وكذلـك الرحم يزدرع فيه الولد ازدراعا كما يزدرع البذر في الأرض [١].

وعن قوله — تعالى — : ﴿ وآيةٌ لهم الليلُ نسلَخُ منه النَّـهارَ ﴾ [٢]. أبان ابن الأثير عن حسن تشبيه تبرؤ الليل من النهار بانســلاخ الجلـد المسلوخ بأنه لما كانت هوادي الصبح عند طلوعه ملتحمة بأعجاز الليـل أجرى عليهما اسم السلخ . وكان ذلك أولى من أن يقال (يخرج) . لأن السلخ أدل على الالتحام من الإخراج . وهذا تشبيه في غاية المناسبة[٣].

ومما يدل على دقة نظرات ابن الأثير في القرآن الكريم موقفه مـن الكناية في قوله — تعالى — : ﴿ أيحبُّ أحدُكُـم أن يـأكلَ لحـمَ أخيـه مَيْتاً ﴾[٤]. فقد أبان عن براعة التعبير وحسن الأسلوب وأثر الكنايـة فيـه فقال : " فإنه كنى عن الغيبة بأكل الإنسان لحم إنسان آخر مثلـه . ثم لم يقتصر على ذلك حتى جعله ميتا ، ثم جعل ما هو في الغاية من الكراهـة موصولا بالمحبة ، فهذه أربع دلالات واقعة على ما قصدت لـه مطابقـة للمعنى الذي وردت من أجله . فأما جعل الغيبة كأكل الإنسـان لحـم إنسان آخر مثله فشديد المناسبة جدا ؛ لأن الغيبة إنما هي ذكـر مثـالب الناس وتمزيق أعراضهم ، وتمزيق العرض مماثل لأكل الإنسان لحـم مـن

---

١ — المثل السائر ٣٨٣/١.
٢ — من الآية رقم/ ٣٧ من سورة يس .
٣ — المثل السائر ٣٨٣/١ .
٤ — من الآية رقم / ١٢ من سورة الحجرات .

يغتابه لأن أكل اللحم تمزيق على الحقيقة ، وأما جعله كلحم الأخ فلما في الغيبة من الكراهة لأن العقل والشرع مجمعان على استكراهها آمران بتركها والبعد عنها . ولما كانت كذلك جعلت بمنزلة لحم الأخ في كراهته. ومن المعلوم أن لحم الإنسان مستكره عند إنسان آخر إلا أنه لا يكون مثل كراهته لحم أخيه . فهذا القول مبالغة في استكراه الغيبة . وأما جعل اللحم ميتا فمن أجل أن المغتاب لا يشعر بغيبته ولا يحس بها . وأما جعله ما هو في الغاية من الكراهة موصولا بالمحبة فلما جبلت عليه النفوس من الميل إلى الغيبة والشهوة لها مع العلم بقبحها . فانظر أيها المتأمل إلى هذه الكناية تجدها من أشد الكنايات شبها ، لأنك إذا نظرت إلى كل واحدة من تلك الدلالات الأربع ... وجدتها مناسبة لما قصدت له "[1].

وهذا كلام يدل على دقة فهمه لمرامي الآية القرآنية والإحساس بجمال التعبير فيها وإدراك ما وراء كل كلمة من جمال بياني وإبداع فكري.

وانظر إلى دقة فهمه لمرامي القرآن الكريم في موضع آخر من خلال تأويله لقوله — تعالى — : ﴿ قالوا أأنتَ فعلتَ هذا بآلهتنا يا إبراهيمُ . قال بل فعلَهُ كبيرُهم هذا فاسألوهُمْ إن كانوا ينطِقون ﴾ [2]. فقد قال المفسرون إن غرض إبراهيم — عليه السلام — من هذا الكلام هو إقامة

١ – المثل السائر ٢/١٩١.
٢ – الآيتان ٦٢ ، ٦٣ من سورة الأنبياء .

الحجة عليهم لأنه قال : (فأسألوهم إن كانوا ينطقون) على سبيل الاستهزاء بهم . وقد يقال : إن إبراهيم – عليه السلام – لم يرد بذلك نسبة الفعل الصادر عنه إلى الصنم وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته على أسلوب تعريض يبلغ فيه غرضه من إلزام الحجة عليهم والاستهزاء بهم . وهذا ما قاله ابن الأثير واتفق فيه مع كثير من المفسرين. ولكنه جاء مع ذلك بشيء لم أقرأه لغيره ممن وقفوا مع القرآن الكريم قبله ويدل في الوقت نفسه على دقة فهمه وحسن درايته بتأويل آيات القرآن الكريم ، فذكر أنه قد يراد من الآية (أن كبير الأصنام غضب أن تعبد معه هذه الأصنام الصغار فكسرها . وغرض إبراهيم – عليه السلام – من ذلك أنه لا يجوز أن يعبد مع الله – تعالى – من هو دونه ، فإن من دونه مخلوق من مخلوقاته . فجعل إحالة القول إلى كبير الأصنام مثالا لما أراده) [١].

وقد وجدت بعض من جاء بعد ابن الأثير يذكرون هذا التأويل وكأنهم تأثروا بنظرته إلى هذه الآية [٢]. كما تأثر بنظراته في بعض آي القرآن الكريم ووقوفه مع كلماته بعض الأدباء في العصر الحديث .

فحول قوله – تعالى – : ﴿ فأرسَلْنا عليهم الطوفانَ والجرادَ والقمَّلَ

---

١ – المثل السائر ٢/١٩٩ .

٢ – انظر : فتح القدير للشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) مراجعة وتعليق : هشام البجاوي وخضر عكازي – المكتبة العصرية – صيدا وبيروت – ط علم ١٩٩٧ م ٣/٥١٥ . وانظر تفسير القرطبي (ت ٦٧١ هـ) طبعة دار الغد العربي – ط ١ – ١٩٩٠ م ٦/٤٤٧٨ .

والضفادعَ والدَّمَ آياتٍ مفصَّلات ﴾ [١]. ذكر الأستاذ مصطفى صادق الرافعي أن في الآية (خمسة أسماء أخفها في اللفظ (الطوفان والجراد والدم) وأثقلها (القمل والضفادع) ، فقدم (الطوفان) لمكان المدّيْن فيها حتى يأنس اللسان بخفتها . ثم الجراد وفيها كذلك مد ، ثم جاء باللفظين الشديدين مبتدئا بأخفهما في اللسان وأبعدهما في الصوت لمكان تلك الغنة فيه . ثم جئ بلفظة (الدم) آخرا وهي أخف الخمسة وأقلها حروفا ليسرع اللسان فيها ويستقيم لها ذوق النظم ويتم بها هذا الإعجاز في التركيب .

وأنت فمهما قلبت هذه الأسماء فإنك لا ترى فها فصاحة إلا في هذا الموضع . لو قدمت أو أخرت لبادرك التهافت والتعثر ، ولأعنتك أن تجئ منها بنظم فصيح . ثم لا ريب أحالك ذلك عن قصد الفصاحة وقطعك دون غايتها . ثم لخرجت الأسماء في اضطراب النطق على ذلك بالسواء . ليس يظهر أخفها من أثقلها) [٢].

وهذا كلام قريب جدا مما قاله ابن الأثير بصدد هذه الآية [٣].

وانظر إلى حسن تعليقه ودقة فهمه لقوله — تعالى — :﴿ إنّك أنتَ الأَعْلَى ﴾ [٤]. إذ توقف معها وقفة الأديب البصير بأسرار التعبير فقال

---

١ — من الآية رقم / ١٣٣ من سورة الأعراف .
٢ — تاريخ آداب العرب — دار الكتاب العربي — بيروت — ط ٢ — ١٩٧٤م — ٢/٢٣٥.
٣ — المثل السائر ١/١٥٥.
٤ — من الآية رقم / ٦٨ من سورة طه .

معلقا عليها : " إن توكيد الضميرين هنا في قوله ﴿ إنكَ أنتَ الأعْلَى ﴾ أنفى للخوف من قلب موسى وأثبت في نفسه للغلبة والقهر . ولو قال (لا تخف إنك الأعلى) أو (فأنت الأعلى) لم يكن له من التقرير والإثبات لنفي الخوف مالقوله ﴿ إنك أنت الأعلى ﴾ "[١].

ثم يغوص ابن الأثير في أعماق التعبير القرآني أكثر من ذلك ويعمل حسه البلاغي ليتفوق على ما قاله من سبقه من المفسرين فيذكر أن في هذه الكلمات الثلاث ﴿ إنك أنت الأعلى ﴾ ست فوائد :

الأولى : أن المشددة التي من شأنها الإثبات لما يأتي بعدها وتقوية ذلك الإثبات .

الثانية : تكرير الضمير في قوله – تعالى – : ﴿ إنك أنت ﴾ ولو اقتصر على أحد الضميرين لما كان بهذه المكانة في التقرير لغلبة موسى والإثبات لقهره .

الثالثة : لام التعريف في قوله : ﴿ الأعلى ﴾ ولم يقل (أعلى ولا عال) لأنه لو قال ذلك لكان قد نكره ، وكان صالحا لكل واحد من جنسه ، كقولك : رجل . فإنه يصلح أن يقع على كل واحد من الرجال. وإذا قلت (الرجل) فقد خصصته من بين الرجال بالتعريف وجعلته علما فيهم . وكذلك جاء قوله – تعالى – : ﴿ إنَّكَ أنتَ الأعْلَى ﴾ أي دون غيرك .

---

١ – المثل السائر ١٨/٢ .

الرابعة : لفظ (أفعل) الذي يفيد التفضيل . ولم يقل (العالي) .

الخامسة : إثبات الغلبة له من العلو لأن الغرض من قوله ﴿الأعلى﴾ أي الأغلب إلا أنه في الأعلى زيادة وهي الغلبة من عال .

السادسة : الاستئناف . ولم يقل لأنك أنت الأعلى . لأنه لم يجعل علة انتفاء الخوف عنه كونه عاليا ، وإنما نفى الخوف عنه أولا بقوله ﴿ لا تخف ﴾ ثم استأنف الكلام فقال : ﴿ إنك أنت الأعلى ﴾ فكان ذلك أبلغ في إيقان موسى – عليه السلام – بالغلبة والاستعلاء وأثبت ذلك في نفسه [1].

–ويرى ابن الأثير أنه لا يوجد في القرآن الكريم لفظ زائد لا معنى له

ويرى أن من ذهب إلى أن في القرآن لفظا زائدا لا معنى له فإما أن يكون جاهلا بهذا القول ، وإما أن يكون متسمحا في دينه واعتقاده . وأما مثل قول النحاة : إن (ما) في قوله – تعالى – : ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ﴾ [2]. زائدة ، فإنما يعنون به أنها لا تمنع ما قبلها من العمل ، كما يسمونها في موضع آخر (كافة) أي أنها تكف الحرف العامل عن عمله . كقولك : إنما زيد قائم ، فما قد كفت (إن) عن العمل في زيد . أما (ما) في الآية فلم تمنع عن العمل فهي لم تمنع الباء عن العمل في خفض الرحمة . وهذا معنى كونها زائدة [3].

---

١ – المثل السائر ١٨/٢ ، ١٩ .

٢ – من الآية رقم ١٥٩ من سورة آل عمران .

٣ – المثل السائر ٣٥٨/١ .

– وكما قرر ابن الأثير بأنه لا يوجد حرف زائد لا فائدة منه في القرآن الكريم قرر أيضا أنه لا يوجد في القرآن الكريم شئ مكرر لا فائدة من تكريره . فإن رأيت فيه شيئا منه تكرر من حيث الظاهر فأنعم النظر فيه وانظر إلى سوابقه ولواحقه لتنكشف لك الفائدة منه [١].

وأبطل ابن الأثير قول من قال بأن (أنْ) الواردة بعد (لما) وقبل الفعل زائدة وذلك في مثل قوله تعالى : ﴿ فلمَّا أنْ أراد أن يبطشَ بالذي هو عدوٌّ لهما ﴾ [٢]. وفي مثل قوله تعالى : ﴿فلمَّا أنْ جاء البشيرُ ﴾ [٣]. ومن قال بذلك ظن أن المعنى بوجودها كالمعنى إذا أسقطت وهذا يدل على أنها زائدة . ورد ابن الأثير على ذلك بأن الأمر ليس كذلك بل إذا وردت (لما) وورد الفعل بعدها بإسقاط (أنْ) دل ذلك على الفور وإذا لم تسقط لم يدل ذلك على أن الفعل كان على الفور وإنما كان فيه تراخ وإبطاء . وعلى ذلك فلا يصح القول بزيادتها . وبيان ذلك من وجهين :

الأول : أن الألفاظ وضعت لتكون أدلة على المعني . فإذا وردت لفظة من الألفاظ في كلام بليغ فالأولى أن تحمل تلك اللفظة على معنى ، فإن لم يوجد لها معنى بعد التنقيب والبحث قيل هذه زائدة . و(أنْ) الواقعة بعد (لما) وقبل الفعل دالة على معنى ، وإذا كانت دالة على معنى فكيف يقال إنها زائدة ؟!

---

١ – المثل السائر ١٤٩/٢.

٢ – من الآية رقم / ١٩ من سورة القصص .

٣ – من الآية رقم / ٩٦ من سورة يوسف .

الثاني : أن هذه اللفظة لو كانت زائدة لكان ذلك قدحا في كـــلام الله تعالى – وذلك أنه يكون قد نطق بزيادة في كلامـــه لا حاجـــة إليـــها والمعنى يتم بدونها ، وحينئذ لا يكون كلامه معجـــزا . لأن مـــن شـــرط الإعجاز عدم التطويل الذي لا حاجة إليه [1].

– وبجانب هذه النظرات الثاقبة في كتاب الله – تعالى – للوصـــول إلى دلائل الإعجاز فيه ، نرى ابن الأثير يوازن في بعـــض الأحيـــان بـــين الأسلوب الواحد في القرآن الكريم وكلام البشر ، ومن ذلك موازنته بـــين الفاء في عبارة (شفيعك فاشكر) في قول دعبل بن علي الخزاعي :

شفيعَك فاشكُرْ في الحوائج إنه   يصونُك عن مكروهها وهو يَخلقُ

وبينها في الآيات : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ، قُمْ فَأَنذِرْ ، وربـــك فكـــبِّرْ ، وثيَابك فطَهِّرْ ﴾ [2]. فأبان عن قبح موقع الفاء في قول دعبل ، وإنهـــا في هذه العبارة (شفيعك فاشكر) كأنها ركبة البعير ، وهي في زيادتها كزيادة الكرش ، وبينها وبين الفاء في الآيات فرق ظـــاهر يـــدرك بـــالعلم أولا وبالذوق ثانيا . أما العلم فإن الفاء في ﴿ وربَّك فكبِّرْ ، وثيابَك فطَـــهِّرْ ﴾ فهي الفاء العاطفة ، فإنها واردة بعد ﴿ قُمْ فأنذِر ﴾ وهي مثل الفـــاء في : (امش فأسرع ، وقل فأبلغ) . أما الفاء في (شفيعك فاشكر) فهي زائـــدة لا موضع لها . ولو جاءت في الآيات كما جاءت في بيت دعبل لابتـــدئ

---

١ – المثل السائر ١٥٢/٢.

٢ – الآيات ١،٢،٣،٤ من سورة المدثر .

الكلام فقيل : ربك فكبر ، وثيابك فطهر . وأما الذوق فإنه ينبو عن الفاء في قول دعبل ويستثقلها . ولا يوجد ذلك في الفاء الواردة في الآيات [١].

وأنا أرى أن الفاء في البيت حسنة لا بأس بها ، وإن كانت في قوله – تعالى – : ﴿ وربَّك فكبِّرْ ﴾ أحسن موقعا . والذي حسن ذكرها في الآيتين هو موقعها بعد الفاء في قوله – تعالى – : ﴿ قمْ فأنذِرْ ﴾ كما ذكر ابن الأثير . وليس لزيادتها في البيت وكونها عاطفة في الآيات دخل في ذلك . كما أرى أنها ليست زائدة في البيت وإنما هي واقعة في جواب (لما) المقدرة . إذ تقدير الكلام : أما شفيعك فاشكر في الحوائج . وعلى ذلك فإن الذوق لا ينبو عنها ولا يستثقلها كما يقول ابن الأثير .

هذا ولو تقصينا المواطن التي توقف فيها ابن الأثير مع آيات القرآن الكريم وأعمل فيها فكره وذوقه وحسه الفني ، ودلت على توفر الذوق النقدي المصقول بقوة المعرفة لمادة اللغة عنده والتصرف في أدائها والخبرة بالتمييز بين جيدها ورديئها وبتنزيل الأساليب منازلها لوجدناها كثيرة غير محصورة في كتابه المثل السائر. وكلها تدل أصدق الدلالة على إدراك ابن الأثير لمعنى الفن الأدبي والنقدي وطبيعته وغايته إبداعا وتذوقا . ولكننا نكتفي بما سقناه له ، ونختم تلك المواطن بموقف ابن الأثير مع حسن الإيجاز في قوله – تعالى – :﴿ ولكُمْ في القِصَاصِ حياةٌ يا أُولِي الألبابِ﴾[٢].

---

١ – المثل السائر ٢٩٨/١ .

٢ – من الآية رقم / ١٧٩ من سورة البقرة .

و إن كان حديث ابن الأثير عن هذه الآية أقل روعة من حديث غيره من البلاغيين ممن وقفوا على بلاغتها فإن حديثه عنها يتسم بكثير من الجلال والروعة . فقد أبان عن أن معنى هذه الآية مما لا يمكن التعبير عنه بألفاظ أخرى مثلها في عدهما . لأن معنى ﴿ القصاص حياة ﴾ أنه إذا قتل القاتل امتنع غيره عن القتل فأوجب ذلك حياة للناس .

ويقارن ابن الأثير بين التعبير عن المعنى في هذه الآية وبين تعبير العرب عن المعنى نفسه بقولهم : (القتل أنفى للقتل) مفضلا التعبير القرآني على تعبير العرب . وذكر في بداية موازنته أن من لا يعلم يظن أن قول العرب على وزن الآية ، وليس كذلك بل بينهما فرق من ثلاثة أوجه: الأول : أن ﴿ في القصاص حياة ﴾ لفظتان ، و (القتل أنفى للقتل) ثلاثة ألفاظ . والثاني : أن في قولهم (القتل أنفى للقتل) تكريرا ليس في الآية . والثالث : أنه ليس كل قتل نافيا للقتل إلا إذا كان على حكم القصاص [1].

هذا ما قاله ابن الأثير عن الآية والموازنة بينها وبين التعبير العربي ، وهو – على وجازته – متأثر فيه كثيرا بما قاله قبله أبو هلال العسكري الذي وازن بين الآية الكريمة وبين ما جاء عن العرب في معناها ، ورفع من شأن الآية الكريمة بيانا وتأليفا منزها الآية عن كل خلل ونقص وأسقط من الجملة العربية إسقاطا شنيعا من أوجه متعددة . يقول أبو هلال

---

١ – المثل السائر ١١٧/٢.

العسكري: " الإيجاز : القصر والحذف . فالقصر : تقليل الألفاظ وتكثير المعني . وهو قول الله – عز وجل – : ﴿ ولَكُمْ في القِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ . ويتبين فضل هذا الكلام إذا قرنته بما جاء عن العرب في معناه وهو قولهم : (القتل أنفى للقتل) . فصار لفظ القرآن فوق هذا القول لزيادته عليه في الفائدة . وهو إبانة العدل لذكر القصاص ، وإظهار الغرض المرغوب عنه فيه لذكر الحياة ، واستدعاء الرغبة والرهبة لحكم الله به ، ولإيجازه في العبارة ، فإن الذي هو نظير قولهم : (القتل أنفى للقتل) إنما هو ﴿القصاص حياة ﴾ وهذا أقل حروفا من ذاك . ولبعده عن الكلفة بالتكرير وهو قولهم : (القتل أنفى للقتل) ولفظ القرآن برئ من ذلك ، وبحسن التأليف وشدة التلاؤم المدرك بالحس ، لأن الخروج من الفاء إلى اللام أعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة " [1].

وحينما ننظر إلى كلام أبي هلال في هذه الموازنة ونقرأ كلام ابن الأثير السابق نجد أن كلام أبي هلال أفضل وأحسن لما أتى به من وجوه تفوقت بها الآية القرآنية على قول العرب لم يأت بها ابن الأثير . هذه الوجوه ترجع إلى دقة الفهم وعمق التأمل في الآية الكريمة وما تدل عليه . بينما نجد ابن الأثير يقتصر في موازنته على ذكر الأمور الظاهرة التي ترجع إلى الألفاظ أولا ، وهي أيضا مما جاء في كلام أبي هلال .

كما يبدو من كلام ابن الأثير عن الآية تأثره إلى حد كبير أيضا بما

---

١ – الصناعتين – أبو هلال العسكري – تحقيق : على محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم – المكتبة العصرية • صيدا وبيروت – ط عام ١٩٨٦ م – ص ١٧٥ .

قاله عبد القاهر الجرجاني الذي وقف مع الآية أكثر من مرة مبينا في كـل مرة وجها من وجوه الإعجاز فيها . وقبل أن أذكر ما قاله عبد القـاهر في هذا الصدد أنبه إلى أن عبد القاهر قد قال بتخطئة من وازن بـين الآيـة الكريمة وبين أي كلام بشري يشترك معها في المعنى سواء نسب إلى العرب أم إلى غيرهم .

يقول عبد القاهر في ذلك : " وينبغي أن تكون موازنتهم بين بعـض الآي وبين ما قاله الناس في معناها كموازنتهم بين ﴿ ولَكُمْ في القِصَـاصِ حَيَاةٌ ﴾ وبين (قتل البعض إحياء للجميع) خطأ منهم لأنا لا نعلم لحديـث التحريك والتسكين وحديث الفاصلة مذهبا في هذه الموازنة ولا نعلمـهم أرادوا غير ما يريده الناس إذا وازنوا بين كـلام وكـلام في الفصاحـة والبلاغة ودقة النظم وزيادة الفائدة . ولولا أن الشيطان قد استحوذ علـى كثير من الناس في هذا الشأن ، وأنهم بترك النظر وإهمال التدبر وضعـف النية وقصر الهمة قد طرقوا له حتى جعل يلقي في نفوسهم كل محال وكـل باطل ، وجعلوا هم يعطون الذي يلقيه حظا من قبولهم ويبوءونه مكانا مـن قلوبهم لما بلغ من قدر هذه الأقوال الفاسدة أن تدخل في تصنيف ويعـاد ويبدأ في تبيين لوجه الفساد فيها وتعريف " (١).

وعبد القاهر يشير بذلك إلى ما قام به بعض علمـاء البيـان مـن موازنات بين الآية الكريمة ﴿ ولكُم في القِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ وبين قول بعـض

---

١ - دلائل الإعجاز - تحقيق : محمود محمد شاكر - الهيئة المصرية العامة للكتاب - مكتبة الأسرة - ٢٠٠٠ م - ص ٣٨٩ .

العرب (قتل البعض إحياء للجميع) مما نقله الجاحظ ونسبه إلى بعض الحكماء [١]، أو بينها وبين ما ذكره أبو هلال العسكري في الصناعتين على أنه من قول العرب دون أن ينص على قائله وهو قولهم : (القتل أنفى للقتل) كما في كلامه السابق ، أو بينها وبين أي كلام قاله واحد من البشر كائنا من كان . فهو يرى أن جلال القرآن وعظمته يمنعان من أي موازنة بينه وبين أي كلام آخر ؛ لأن القرآن كلام الله تعالى - ، وكلام الخالق - سبحانه وتعالى - لا يستوي بكلام المخلوق ، ولا يصح أن نتزل به إلى مستوى كلام البشر ؛ لأن معنى الموازنة بين الكلامين النزول بكلام الله إلى مستوى كلام البشر أو الارتفاع بكلام البشر إلى مستوى كلام الله - تعالى - . وفي هذا إساءة إلى الآية الكريمة والنزول بها .

ويذكر عبد القاهر الجرجاني أن دخول مثل هذه الأقوال الفاسدة في التصنيف يرجع إلى عدة أشياء منها استحواذ الشيطان على عقول كثير من الناس ، وإلقاؤه في روعهم مثل هذه الأمور ، وخضوعهم له حتى يلقي في نفوسهم كل محال وباطل .

ومع ابتعاد عبد القاهر عن الموازنة بين الآية والقول العربي فإنه أشار إلى لفتات فكرية قوية في الآية ، وأجال نظره فيها ، ونبه إلى بعض أوجه الإعجاز فيها ، وإن كان كلامه عنها جاء قاصرا عن بيان وجوه الإعجاز

---

١ - انظر : البيان والتبيين - تحقيق : عبد السلام هارون - دار الجيل - بيروت - ط علم ١٩٩٠ م - ٣١٦/٢ .

فيها من جميع الوجوه ، وإنما عني خاصة بأسرار التنكير في كلمة ﴿ حيـاة ﴾ ولم يبحث عن حكمة اختيار الآية لهذه الألفاظ دون غيرها للدلالة علـى المعنى المقصود . " ولعل السر في ذلك أنه كان يعقـد فصـولا متعـددة لأسرار البيان في النظم القرآني فكان مشغلته في تجلية أسرار التفكـير في فصل ، وأسرار الحذف في فصل آخر ، وأسرار التقديم والتأخير في فصـل ثالث وهكذا .

فلم يكن هذا التقصير منه بمتعمد ولا عن عجز ونقص في طبيعتـه ، وإنما كان استيفاء لما وجه إليه همته ، وشحذ من أجل تبيانه طاقته " [١].

أما عن أسرار التنكير في كلمة ﴿ حياة ﴾ في الآية فقد ذكر عبـد القاهر الجرجاني ثلاثة أوجه أوجبت تنكير الحياة فيها . وكان عبد القـاهر فيها موفقا بارعا في تحليله .

وأول هذه المعاني هو ما أشار إليه عبد القاهر بقوله : " أنـه ليـس المعنى على الحياة نفسها ، ولكن على أنه لما كان الإنسان إذا علم أنـه إذا قَتل قُتل ارتدع بذلك عن القتل ، فسلم صاحبه ، وصار حياة هذا المهموم بقتله في مستأنف الوقت مستفادة بالقصاص . وصار كأنه قـد حيـي في باقي عمره به . وإذا كان المعنى على حياة في بعض أوقاته وجب التنكـير وامتنع التعريف من حيث كان التعريف يقتضي أن تكون الحياة قد كـانت بالقصاص من أصلها ، وأن يكون القصاص قد كان سببا في كونها في كافة

١ - الفكر النقدي في تراث عبد القاهر الجرجاني - د/ محمود لبدة - ص ١٣٦ .

الأوقات . وذلك خلاف المعنى وغير ما هو المقصود " [١].

فالمقصود من الآية توافر حياة خاصة وهي الحياة المستفادة من ارتداع القاتل عن القتل خشية القصاص . وهذه الحياة لا تقتصرعلى القاتل وحده ولا على من كان هم بقتله قبل تشريع القصاص وحده ، وإنما هي حياة تشملهما معا . وكلاهما قد استفاد بالقصاص ، " وكلاهما قد حيي باقي عمره بالقصاص . وحياة كهذه يجب بل يجمل ويحسن فيها التنكير لأنه هو الذي يدل على هذا المعنى بهذه الصيغة " [٢]. لأن التعريف يوحي بأن القصاص أصل وسبب في الحياة من أولها إلى آخرها وأنها مسببة عنه ، وذلك خلاف المعنى المقصود ، لأن المقصود – كما قلت – حياة خاصة لكل من القاتل الذي ارتدع عن القتل خوفا من القصاص ، ولمن كان القاتل يهم بقتله .

والمعنى الثاني الذي أوجب تنكير كلمة ﴿ حياة ﴾ في الآية هو خصوصية الحياة المستفادة من القصاص لبعض الناس دون البعض ، وهم أولئك الذين لهم أعداء يهمون بقتلهم ثم يرتدعون خوف القصاص دون من ليسوا كذلك ، والتعريف يوحي بأنه ما من إنسان في هذه الحياة إلا وله عدو يهم بقتله ثم يمنعه ويردعه خوف القصاص ، والأمر ليس كذلك. " وليس بواجب أن لا يكون إنسان إلا وله عدو يهم بقتله ثم

---

١ – دلائل الإعجاز ٢٨٩ .

٢ – الفكر النقدي في تراث عبد القاهر الجرجاني ١٣٧ .

يردعه خوف القصاص . وإذا لم يجب ذلك فمن لم يهم إنسان بقتله فكفى ذلك الهم لخوف القصاص فليس هو ممن حي بالقصاص . وإذا دخل الخصوص فقد وجب أن يقال ﴿ حياة ﴾ ولا يقال (الحياة) ، كما وجب أن يقال ﴿ شفاء ﴾ ولا يقال (الشفاء) في قوله تعالى: ﴿ يَخْرُجُ من بطونها شَرَابٌ مختلفٌ ألوانُه فيه شفاءٌ للناس ﴾ [1]. حيث لم يكن شفاء للجميع"[2].

المعنى الثالث : أن الحياة المقصودة من الآية إنما هي حياة لمن كان يقتل لولا القصاص . واستفادة هذا من وجود القصاص تختلف عن حياة من كان يهم بالقتل فلم يقتل خوف القصاص . فالاستفادة الحقيقية "إنما هي لمن كان يقتل لولا القصاص وذلك محال في صفة القاصد للقتل . فإنما يصح في وصفه ما هو كالضد لهذا ، وهو أن يقال : إنه كان لا يخاف عليه القتل لولا القصاص .وإذا كان هذا كذلك كان وجها ثالثا في وجوب التنكير " [3].

وكلام عبد القاهر الأخير يوحي بأن القصاص قد شرع في الإسلام أساسا ليكون عقوبة وجزاء فعليا يوجد بوجود سببه وهو القتل جريمة واعتداء . وليس هذا دقيقا ؛ فالغرض الأصلي من تشريع الإسلام للقصاص هو تمثل الإنسان في المجتمع الإسلامى لهذه العقوبة الشرعية

---

١ - من الآية رقم / ٦٩ من سورة النحل .
٢ - دلائل الإعجاز ٢٩٠ .
٣ - دلائل الإعجاز ٢٩٠ .

"وتصورها دائما في نفس كل إنسان يسول له شيطانه قتل الناس وإزهاق أرواحهم . فهذا التمثيل القائم في النفس يكف القاتل عن الشر فيهبه الحياة ويهب الأبرياء حياة آمنة مطمئنة . هذه الحياة ليست حياة نفس يخرج ويعود فقد تكون مثل هذه الحياة موجودة ولكن صاحبها يموت كل يوم مائة مرة ، وإنما هي حياة الأمن والاطمئنان التي بها تعمر الأرض ويسود العدل في المجتمع الإنساني " [١].

هذا وقد وازن الأستاذ / مصطفى صادق الرافعي بين الآية وبين القول العربي (القتل أنفى للقتل) وذلك من خلال رده على سلامة موسى الذي تطاول على كلام الله وفضل هذا القول العربي على الآية الكريمة ، وذلك في كتابه وحي القلم . فعلى الرغم من أن الرافعي كان يرى ما يراه عبد القاهر الجرجاني من عدم جواز الموازنة بين كلام الله – تعالى – وكلام البشر ، وأعلن ذلك في الجزء الأول من كتابه وحي القلم حين قال :[٢] " إن كل كلمة في الآية تكاد تكون آية . وليست الكلمة في القرآن كما تكون في غيره ، بل السمو فيها على الكلام أنها تحمل معنى وتومئ إلى معنى وتستتبع معنى . وهذا ما ليس في الطاقة البشرية وهو الدليل على أنه كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير " .

أقول على الرغم من ذلك فإن غيرته على كتاب الله وضيقه هؤلاء

---

١ – الفكر النقدي في تراث عبد القاهر الجرجاني ١٣٨ .

٢ – وحي القلم – طبع مكتبة الإيمان بالمنصورة – تحقيق : سعد كريم الفقي – طبعة عام ١٩٩٩ م – ص ١٩٦ .

الذين طمس الله على قلوبهم وأعمى بصائرهم قد دفعاه إلى إجابة داعيه في الرد على من أساء الأدب مع كتاب الله وفضل كلام البشر على إحدى آياته . وفي هذا المجال قام الرافعي بتفنيد كلام سلامة موسى وبيان بطلانه أولا ، ثم بين وجوه الإعجاز في الآية الكريمة وأوجه تفوقها على القول العربي فذكر فيها ثلاثة عشر وجها من الإعجاز أسقط بها الكلمة العربية أو المنسوبة إلى العربية – على خلاف بين الرواة في ذلك – وأبان عن قصورها الشديد عن الآية [1].

وهكذا تمكن ابن الأثير بذوقه الفني وحسه البياني من الوقوف أمام العديد من الآيات القرآنية يتعرف على أسرارها ، ويستخرج ما لاح له من معانيها ويتمثل روح الجمال في فصاحتها العالية على نحو يجمع بين العقل والذوق دون الفصل بينهما .

---

١ – اقرأ حديث الرافعي في هذه القضية في كتابه : وحي القلم ص ٣٢١ : ٣٢٨.

الفصل الثاني

تأصيل الفكر النقدي في المثل السائر

جمع ابن الأثير بين موهبتين : موهبة الكتابة الفنية والإبـداع الأدبي . فقد كان كاتبا بارعا ، وأديبا قديرا . بل عرف عنه أنه كان شـاعرا لـه العديد من المقطوعات الشعرية الجيدة .

وموهبة النقد بمعناه الشامل التي بها استطاع أن يقيِّم كل مـا يقـع تحت مرآته ويضعه في مكانه الصحيح من الفن الأدبي والبلاغي .

وقد كان لتمتعه بهاتين الموهبتين الأثر الكبير في اكتمال أدوات الفـن عنده فإذا رأى أن العمل المنقود ناقص سعى لاستكماله ، وإن كان فاسـدا صححه ، وإذا كان مشوها حسنه ، وأبان عن الصورة الـتي ينبغـي أن يكون عليها .

وفي هذا الفصل محاولة لتوضيح جهود ابن الأثير في تأصيل بعـض القضايا ووضع الأسس والمقاييس التي تقوم عليها . وهي :

أولا : آلات علم البيان وأدواته :

ذكر ابن الأثير أن موضوع علم البيان الذي يسأل فيه عن أحوالـه التي تعرض لذاته هو الفصاحة والبلاغة . وصاحب البيان يسأل فيه عـن أحوالهما اللفظية والمعنوية . ويشترك البياني والنحوي في أن النحوي ينظـو

في دلالة الألفاظ على المعاني من جهة الوضع اللغوي ، و تلك دلالة عامة، وصاحب علم البيان ينظر في فضيلة تلك الدلالة ، وهي دلالة خاصة يـراد بها أن يكون على هيئة مخصوصة من الحسن . وذلك أمـــر وراء النحـــو والإعراب ، لأن النحوي يفهم معنى الكلام المنظوم والمنثـــور ، ويعلـــم مواقع إعرابه ، ومع ذلك فلا يهتم بما فيه من الفصاحة والبلاغة [1].

ومن القضايا النقدية التي أصلها ابن الأثير في كتابه تحديـــد الآلات التي يعتمد عليها الأديب في صناعة الأدب ، وبالتالي لابـــد أن يراعيـــها الناقد في نقده للعمل الفني . وجعل في مقدمة هذه الآلات الطبع لـــدى الأديب والناقد . فإذا لم يتوافر الطبع لدى الأديب فلن تغنيه بقيـة الآلات شيئا ، ولا بد مع الطبع من مجموعة من الآلات التي تقوِّم هـــذا الطبـــع وتهذب منه ، ولا بد للأديب من التسلح بها. وحصرها ابن الأثير في ثمانيـة أنواع هي :

الأول : معرفة علم العربية من النحو والتصريف ، فالنحو ضـــابط لمعنى الكلام وحافظ لها من الاختلاف . والتصريف مصحـــح لأوضـــاع الكلام .

الثاني : معرفة المتداول المألوف من اللغة ليكون المنشئ في سعة مـن القول عند الإنشاء والاختيار وهو غير الوحشـــي الغريـــب والمســـتكره المعيب.

---

١ - المثل السائر ٢٦/١ .

الثالث : معرفة أمثال العرب وأيامهم ووقائعهم . فالمنشئ في حاجة إليها عند ارتياض مناحي القول ودراسة التواريخ والحوادث والأسباب .

الرابع : الاطلاع على تأليف السابقين من الأدباء شعرا ونـــــثرا . فذلك يعينه على معرفة أغراضهم ونتائج أفكارهم ومنـــــاحي صناعتـــهم للاستفادة منها والإضافة إليها .

الخامس : معرفة الأحكام السلطانية للحاجة إليها عند تولي الإمارة والقضاء والحسبة وما إلى ذلك .

السادس : حفظ القرآن الكريم والتدرب للتعرف علـــى أفـــانين الكلام والتدرب على تضمين آياته وإدراجها في كلامه .

السابع : حفظ حديث رسول الله — صلى الله عليـــــه وســـلم — والسلوك به مسلك القرآن في الاستفادة والتضمين .

الثامن : معرفة العروض والقوافي — وهي خاصة بالشعراء — لإقامة ميزان الشعر وتقويمه وإصلاحه [1].

وأخذ ابن الأثير في تفصيل هذه الآلات وتوضيح فائدة كل منـــــها للأديب . وختم كلامه عنها بالتنبيه على فائدة علم العـــروض ومعرفـــة الشاعر به وبما يجوز فيه من الزحافات وما لا يجوز . ونظر ابن الأثـــير إلى

---

١ — المثل السائر ٢٧/١ وما بعدها .

هذا الأمر نظرة واقعية ، فهو يرى أن الشاعر عليه معرفة العروض لأنه قد يحتاج إليه عندما ينبو ذوقه عن بعض الزحافات مع جوازها له . و ليس للاستعانة به على النظم ، فإن النظم مبنى أولا على الذوق . ولو نظم الشاعر بتقطيع الأفاعيل لجاء شعره متكلفا غير مرضي .

وهذا الأمر نفسه ينطبق على احتياج الشاعر إلى العلم بالقوافي والحركات ليعلم الروي والردف وما يصح من ذلك وما لا يصح [١]. ويذكر ابن الأثير أن على الكاتب أن يأخذ المعنى من الشعر فيجعله مثل الإكسير في صناعة الكيمياء ثم يخرج منه ألوانا مختلفة من جوهر وذهب وفضة ، وهذا أعلى الدرجات في نثر المعاني الشعرية في نظر ابن الأثير[٢].

كما ينصح ابن الأثير الكاتب والشاعر بدوام النظر في القرآن الكريم والأخذ من معانيه وألفاظه ما يقوّم به أسلوبه والإتيان بالمعجب من المعاني والعبارات.ويقول في ذلك " ومن آتاه الله في القرآن بصيرة فإنه يسبك ألفاظه ومعانيه في كلامه ويستغني به عن غيره . إلا أنه ينبغي أن يكون فيه صواغا يخرج منه ضروب المصوغات ، أو صرافا يتجهبذ في نقوده المختلفة من الذهب المختلف الألوان ، ولا أقول من الفضة فإنه ليس فيه من الفضة شئ وهو أعلى من ذلك . أو يكون فيه تاجرا يديره على يده ويتصرف في أرباحه ، ويخرج من الأمتعة المجلوبة من مناسجه كل غريبة عجيبة . وكل هذا يفهمه من عرف فلزم وحكم بما علم .

---

١ - المثل السائر ٤٧/١ ، ٤٨ .
٢ - المثل السائر ١١٩/١ .

وما كلُّ مَنْ قالَ القريضَ بشاعرٍ ولا كلُّ مَنْ عانَى الهوى بمتيَّمِ

واعلم أن المتصدي لحل معاني القرآن الكريم يحتاج إلى كثرة الدرس، فإنه كلما ديم على درسه ظهر من معانيه ما لم يظهر من قبل "[1].

وفي نهاية حديثه عن آلات الكتابة وأدواتها يرى ابن الأثير أن الأديب — شاعرا كان أم ناثرا — " يحتاج إلى التشبث بكل فن من هذه الفنون حتى إنه ليحتاج إلىمعرفة ما تقوله النادبة بين النساء والماشطة عند جلوة العروس ، وإلى ما يقوله المنادي في السوق على السلعة ... والسبب في ذلك أنه مؤهل لأن يهيم في كل واد فيحتاج أن يتعلق بكل فن "[2].

ويبدو تأثر ابن الأثير في تعداده لآلات الكتابة وأدواتها بابن قتيبة ، وما ذكره في هذا المجال في مقدمة كتابه " أدب الكاتب " . فقد أوجب على من يتصدر للكتابة دراسة أخبار الناس ، وحفظ عيون الحديث ليدخلها في تضاعيف سطوره متمثلا بها إذا كتب ، ويصل بها كلامه إذا حاور [3].

كما ذكر أنه يستحب للكاتب أن يدع في كلامه التقعير والتعقيب، وأن يعدل بكلامه عن الجهة التي تلزمه مستثقل الإعراب ليسلم من اللحن وقباحة التقعير ، وأن يترل ألفاظه في كتبه منازل المخاطبين بها

---

١ – المثل السائر ١٢٦/١ .

٢ – المثل السائر ٤٨/١ .

٣ – أدب الكاتب – ابن قتيبة – تحقيق : على فاغور – دار الكتب العلمية – بيروت – ١ – ١٩٨٨م – ص ١٦ .

فيجعلها على قدر الكاتب والمكتوب إليه ، وأن لا يعطي خسيس النـــاس رفيع الكلام ، ولا رفيع الناس وضيع الكلام [١].

وكما أشار ابن الأثير إلى أهمية الطبع لدى الأديب ، فقد أشار قبلـه ابن قتيبة إلى أن مدار الأمر على القطب وهو العقل وجودة القريحـة ، وأن القليل معهما كاف ، والكثير مع غيرهما مقصر [٢].

وكما ذكر ابن الأثير أن الأديب إذا أكمل معرفة الآلات ، وكـــان ذا طبع مجيب وقريحة مواتية ، واطلع على ما أودعه ابن الأثير في كتابـــه فقد اكتملت أدوات الفن لديه ، أشار قبله ابن قتيبة إلى أن من تكـــاملت له هذه الأدوات التي اختارها للكاتب وأمده الله بآداب النفـــس فـــهذا المتناهي في الفضل ، العالي في ذرى المجد ، الحادي قصب السبق [٣].

كما يبدو تأثر ابن الأثير في هذا الباب واضحا بابن سنان الخفـــاجي في الفصل الذي تحدث فيه عما يحتاج مؤلف الكلام إلى معرفته . فقد ذكر في هذا الفصل احتياج مؤلف الكلام إلى معرفة ما ذكره ابن الأثير جميعـه . غير أنه لم ينبه على ضرورة حفظه للقرآن الكريم ، والحديث النبـــوي . وحديث ابن الأثير عن آلات الكتابة شبه واضح بحديث ابن سنان في هذا الشأن [٤].

---

١ - أدب الكاتب ١٨، ١٩ .

٢ - أدب الكاتب ١٦ .

٣ - أدب الكاتب ٢١ .

٤ - انظر : سر الفصاحة - تحقيق : علي فودة - مكتبـــة الخـــانجي بالقـــاهرة - ط ٢ - ١٩٩٤م - ص ٢٧٣ : ٢٧٥ .

ثانيا : أركان الكتابة والطريق إلى تعلمها :

ومن القضايا النقدية التي أصلها ابن الأثير ووضع لها أسسا وقواعد ما يتصل بأركان الكتابة والطريق إلى تعلمها . وذكر ابن الأثير أنه موضوع لم يتكلم فيه أحد بشئ قبله ، وهذا شئ غير مطابق للواقع ، فلقد سبقه إلى كثير من المسائل التي تحدث عنها في هذا الباب عدد من النقاد السابقين عليه كما سيتضح من خلال عرض حديث ابن الأثير وآرائه فيما ذكر من مسائل ومدى تأثره بغيره من السابقين عليه .

وقد ذكر ابن الأثير أركانا عدة لتحقيق قوة الكتابة وتوفر صفة البلاغة فيها سواء في ذلك كتابة الشعر أم كتابة النثر .

وأول هذه الأركان : أن يكون المطلع متميزا بالجدة والرشاقة ، فإن الكاتب الجيد هو من أجاد المطلع والمقطع سواء في ذلك الشاعر والناثر[1].

ويرى ابن الأثير أن مطالع القصائد والرسائل ينبغي أن تكون دالة على المعنى المقصود من الكلام ، إلا إذا كان الموضوع مديحا خالصا فالشاعر حينئذ مخير بين الالتزام بالتقاليد الشعرية الموروثة في مجال المقدمات الغزلية ، فيفتتح قصيدته بالغزل أو لا يفتتحها بالغزل ، بل يمكن أن يرتجل المديح ارتجالا من أولها . أما إذا كانت القصيدة في حادثة من

---

١ - المثل السائر ٨٧/١ .

الحوادث كفتح مقفل ، أو هزيمة جيش ، أو غير ذلك فإنه لا ينبغي أن يبدأ فيها بغزل . وإن فعل ذلك دل على ضعف قريحة الشاعر وقصوره عن الغاية ، وعلى جهله بمواضع الكلام [١].

والركن الثاني : أن يكون المودع في صدر الكتاب ذا صلة قوية بالموضوع الذي بنى عليه الكتاب . وأرى أن هذا الركن يتصل بكتابة النثر أكثر من اتصاله بكتابة الشعر .

والركن الثالث : ألا يكون انتقال الكاتب من معنى إلى معنى انتقالا فجائيا ، بل يجب أن تكون هناك رابطة بين المعاني التي يخرج الكاتب من إحداها إلى ما بعدها لتكون رقاب المعاني آخذة بعضها ببعض، وهذا الركن يشترك فيه الشاعر والناثر ، وهو ما يعرف في علم البديع بحسن التخلص . وفصل ابن الأثير الكلام عليه في باب التخلص والاقتضاب[٢].

وقد سبق ابن رشيق ابن الأثير إلى التنبيه على حسن المطالع ولطف الخروج في الشعر فقال في ذلك : " حسن الافتتاح داعية الانشراح ، ومطية النجاح . ولطافة الخروج إلى المديح سبب ارتياح الممدوح ، وخاتمة الكلام أبقى في السمع ، وألصق بالنفس لقرب العهد بها . فإن حسنت حسن ، وإن قبحت قبح " [٣].

---

١ - المثل السائر ٢٢٣/٢.

٢ - انظر المثل السائر ٢٤٤/٢ وما بعدها .

٣ - العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده - تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد - دار الجيل - بيروت ط ٤ - ١٩٧٢ م - ٢١٧/١.

والركن الرابع : أن تكون ألفاظ الكتاب غـــير مخلوقـــة بكـــثرة الاستعمال . وليس معنى ذلك أن تكون ألفاظه غريبة ، فإن ذلك عيـــب فاحش ، بل المراد أن تكون الألفاظ المستعملة مسبوكة سبكا غريبا يظـــن السامع أنها غير ما في أيدي الناس وإن كانت من جنس ما في أيديـــهم . وقد عبر البحتري عن هذا النوع من الألفاظ فقال [1]:

باللفظِ يقرُبُ فهمُه في بُعْدِه   عنـــّـا ويبعُدُ نيلُه في قربهِ

فمفردات الألفاظ لدى الكاتب البارع مستعملة مألوفـــة ولكـــن سبكه وتركيبه لها هو الغريب العجيب . وهذا الركن أيضا يشترك فيـــه الكاتب والشاعر .

والركن الخامس : الاقتباس من القرآن الكريم ، والحديث النبـــوي الشريف ، وتضمين الكتاب بعضا من معانيهما ، فإنهما معدن الفصاحـــة والبلاغة . ويرى ابن الأثير أن حل معاني القرآن الكريم والأخبار النبويـــة أفضل من إيراد هذه المعاني عن طريق التضمين [2].

ويرى ابن الأثير أن هذا الركن يختص بالكاتب دون الشاعر . " لأن الشاعر لا يلزمه ذلك ، إذ الشعر أكثره مدائح ، وأيضا فإنه لا يتمكن من صوغ معاني القرآن والأخبار في المنظوم كما يتمكن منه في المنثور .ولربمـــا

١ - البيت في ديوان البحتري - شرح يوسف الشيخ محمد - دار الكتـــب العلميـــة - بيروت - ط ١ - ١٩٨٧م - ٢٨٦/٢ .

٢ - المثل السائر ٨٧/١ وما بعدها .

أمكن ذلك في الشئ اليسير في بعض الأحيان [١].

وأنا أرى أن الشاعر في هذا الركن كالكاتب ، فكلما تضمن الشعر معنى من معاني القرآن الكريم أو الحديث النبوي كان أقوى وأجود مديحا كان الشعر أم في أي غرض آخر . وإن كان تضمين الشعر بعضا من معاني القرآن الكريم أو الأخبار النبوية يحسن في شعر الرثاء والحكمة أكثر من غيرهما .

كما يرى ابن الأثير أن من شروط الكتابة أن يتضمن الكتاب فض المعنى المقصود . فتعازي النساء مثلا غير تعازي الرجال ، وهي من مستصعبات فن الكتابة ، وتختلف كذلك الكتابة في تعازي الرجال ، فلا يعزى بالميت على فراشه كما يعزى بالميت قتيلا ، ولا يعزى بالقتيل كما يعزى بالغريق . وهكذا يجري الحكم في جميع المعاني . وذكر أن هذا شئ لا يتنبه له إلا الراسخون في هذا الفن من أرباب النثر والنظم [٢].

وما ذكره ابن الأثير بصدد اختلاف الكلام في معنى عن الكلام في معنى آخر صواب .وإن كنت أرى أن هذا شئ يسير يدركه كل إنسان مبتدئ في هذا الفن .

أما عن الطريق التي ينبغي أن يسلكها الكاتب ليصبح كاتبا مجيدا فقد ذكر ابن الأثير أن الطريق إلى تعلم الكتابة ينقسم إلى ثلاث شعب :

---

١ - المثل السائر ٩٠/١ .

٢ - المثل السائر ٣٢٩/١ .

الأولى : أن يتصفح الكاتب كتابة المتقدمين ، ويطلع على أوضاعهم في استعمال الألفاظ والمعاني ثم يحذو حذوهم ، ويرى أن كتاب هذه الطريقة هم أدنى طبقات الكتاب .

الثانية :أن يمزج كتابة المتقدمين بما يستجيده لنفسه من زيادة حسنة يستعين بها في تحسين ألفاظه أو في تحسين معانيه .وهذه هي الطبقة الوسطى.

الثالثة : ألا يتصفح كتابة المتقدمين ولا يطلع على شئ منها بل يصرف همه إلى حفظ القرآن الكريم وكثير من الأخبار النبوية وعدة من دواوين فحول الشعراء المجيدين ، ثم يأخذ في الاقتباس من هذه الثلاثة ؛ فيقوم ويقع ، ويخطئ ويصيب ، ويضل ويهتدي حتى يستقيم على طريقة في الكتابة تعبر عنه وتدل على شخصيته الأدبية ، وتميزه عن غيره . ويرى ابن الأثير أن هذه الطريق هي طريق الاجتهاد ، وصاحبها يعد إماما في فن الكتابة [1].

وأنا أتفق مع ابن الأثير في تحديده لهذه الطرق الثلاث ، وهي تمثل التدرج الذي يسير فيه أي كاتب يرغب في تعلم الكتابة ، فالكاتب الواحد عادة ما يسلك الطرق الثلاث في سبيل التفوق في هذا الميدان ، بحيث يستعين بالطريقة الأولى في بداية حياته الأدبية ، ثم يرتقي إلى الطريقة الثانية ، ثم يستعين بالطريقة الثالثة في الوصول إلى درجة التفوق والنبوغ في فن الكتابة .

---

١ – انظر المثل السائر ١/٩١ .

ويرى ابن الأثير أن الكاتب إذا أحب الترقي إلى درجة الاجتهاد في الكتابة فإنه يحتاج إلى أشياء كثيرة إلا أن رأسها وعمود سنامها ثلاثة أشياء هي حفظ القرآن الكريم، والإكثار من حفظ الأحاديث النبوية، والأشعار [١].

وفي موضع آخر يذكر ابن الأثير أن من أحب أن يكون كاتبا بارعا فعليه أن يحفظ العدد الكثير من الدواوين الشعرية، ثم يأخذ في نثر الشعر من محفوظات، وطريقه أن يبتدئ فيأخذ قصيدا من القصائد فينثره بيتا بيتا على التوالي، ولا يستنكف في الابتداء أن ينثر الشعر بألفاظه أو بأكثرها، وإذا مرن نفسه وتدرب خاطره ارتفع عن هذه الدرجة وصار يأخذ المعنى ويكسوه عبارة من عنده ثم يرتفع عن ذلك حتى يكسوه ضروبا من العبارات المختلفة، وحينئذ يحصل لخاطره بمباشرة المعاني لقاح، فيستنتج منها معاني غير تلك المعاني. ولا يزال على ذلك مدة طويلة حتى يصير له ملكة. فإذا كتب كتابا أو خطب خطبة تدفقت المعاني في أثناء كلامه، وجاءت ألفاظه معسولة لا مغسولة [٢].

وهذا الكلام يمثل طريقة أخرى من طرق تعلم الكتابة والتدرج فيها حتى الوصول إلى درجة التفوق والنبوغ.

أما عن سبب وصيته بحفظ الشعر دون النثر فهو ما ذكره بأن

---

١ - المثل السائر ١/٩٣.
٢ - المثل السائر ١/٩٩.

الأشعار أكثر والمعاني فيها أغزر [١]. كما أن حفظ الشعر أسهل من حفظ النثر ، والشعر أعلق بالأذهان من النثر .

ويرى ابن الأثير أن الأصل المعتبر في اختيار الكلام هو أن يسلك الأديب المذهب القويم في تركيب الألفاظ على المعاني بحيث لا تزيد هذه على هذه مع الإيضاح والإبانة .ولهذا فهو يعيب على من يرى أن كتب الفتوح وما جرى مجراها مما يقرأ على العوام من الناس ينبغي أن تكون مطولة مطنبا فيها . لأن القائل بذلك إن كان قد عني بذلك أن هذه الكتب تكون ذات معان متعددة قد استقصى فيها شرح تلك الحادثة من فتح أو غير ذلك فذلك مسلم له ، وذلك لأن فهم العامة ليس شرطا معتبرا في اختيار الكلام ، لأن ذلك لو كان شرطا لوجب على قياسه أن يستعمل في الكلام الألفاظ العامية المبتذلة عندهم ليكون ذلك أقرب إلى فهمهم [٢]. كما أن كتاب الله – تعالى – لم يجعل لخواص الناس فقط ، وإنما جعل لعوامهم وخواصهم وأكثره بل جميعه مفهوم الألفاظ للعوام إلا في كلمات معدودة وهي التي تسمى غريب القرآن . وعلى هذا فينبغي أن تكون الكتب جميعها مما يقرأ على عوام الناس وخواصهم ذات ألفاظ سهلة مفهومة وكذلك الأشعار والخطب . وعلى ذلك فإن الإطناب لا يختص به عوام الناس وإنما هو للعوام كما هو للخواص [٣].

---

١ – المثل السائر ٩٩/١.
٢ – المثل السائر ٧٠/٢ .
٣ – المثل السائر ١١٩/٢ ، ١٢٠ .

وهذه نصائح يسديها ابن الأثير إلى الكتاب حتى يبلغ الكاتب درجة التفوق وتلقى كتاباته قبولا ورضا لدى الناس . ويواصل ابن الأثير إسداء نصائحه فيذكر أنه يجب على الكاتب — شاعرا كان أم ناثرا — أن يجتنب ما يضيق به مجال الكلام في بعض الحروف كالثاء ، والذال ، والخاء، والشين ، والصاد ، والطاء ، والظاء ، والغين . وفي الحروف الباقية مندوحة عن استعمال مالا يحسن من هذه الأحرف.والناظم في ذلك أشد ملامة من الناثر ، لأنه يتعرض لأن ينظم قصيدة متعددة الأبيات فيأتي في أكثرها بالبشع الكريه الذي يمجه السمع . ولا يعاب إذا لم ينظم هذه الأحرف في شعره ، بل يعاب إذا نظمها وجاءت كريهة مستبشعة ، فينبغي أن لا ينظم عليها إلا مقاطيع أبيات من الشعر ، وأما القصائد المقصدة فلا تصاغ منها ، وإن صيغت جاء أكثرها بشعا كريها .وأما الناثر فإنه أقرب حالا من الناظم ؛ لأن غاية ما يأتي به سجعتان أو ثلاث أو أربع على حرف من هذه الحروف، ولا يعسر عليه أن يتخير ما يروق منها إذا كان بهذه العدة اليسيرة [1].

كانت هذه أهم الأسس والقواعد التي رآها ابن الأثير ونصح بها من أراد أن يغزو طريق الكتابة وتعلمها . وله في ثنايا كتابه المثل السائر العديد من التوجيهات التي طالب بها الكتاب حتى يستقيم أسلوبهم الكتابي أو تقوى بها ملكتهم الشعرية . وسوف تقف أيها القارئ على بعض هذه

---

١ — المثل السائر ١/١٨١ ، ١٨٢ .

التوجيهات والأصول أثناء قراءة موضوعات هذا البحث وأبوابه . وإن كنت أنبه إلى أن ابن الأثير لم ينفرد بالحديث عن هذا الموضوع كما قال، فهناك من تكلم فيه قبله كما ذكرت . وصحيفة بشر بن المعتمر في البلاغة فيها الكثير مما ذكره ابن الأثير ، وحين نقرؤها نجد كلام ابن الأثير متفقا مع كثير مما جاء فيها [١]. بجانب ما ذكره ابن رشيق وغيره من النقاد القدامى في هذا الباب .

ثالثا : الحسن والقبيح من الألفاظ والتراكيب :

وفي مجال الحديث عن الحسن والقبيح من الألفاظ والتراكيب في الشعر أو في النثر ذكر ابن الأثير العديد من الأصول والأسس التي سبق بها غيره ، وكان أصلا في ذلك .

وفي مجال الحكم على الألفاظ المفردة بالحسن أو القبح جعل ابن الأثير الأساس في الحكم على اللفظة أحسنة هي أم قبيحة إلى السمع والذوق والطبع السليم . وجعل الحسن من الألفاظ هو الفصيح منها ، والقبيح من الألفاظ هو ما بعد عن الفصاحة ، والكلام الفصيح هو الظاهر البين ، ويعنى بالظاهر البين أن تكون ألفاظه مفهومة لا يحتاج في فهمها إلى استخراج من كتاب لغة ، وذلك بسبب أنها مألوفة الاستعمال بين أرباب النثر والنظم دائرة في كلامهم .

وإنما كانت الألفاظ الفصيحة مألوفة الاستعمال لأن أرباب النظم

---

١ - اقرأ هذه الصحيفة في كتاب العمدة لابن رشيق ٢١٢/١ .

والنثر غربلوا ألفاظ اللغة فاختاروا الحسن من الألفاظ فاستعملوه ونفوا القبيح منها فلم يستعملوه ، فحسن الألفاظ سبب استعمالها دون غيرها، واستعمالها دون غيرها سبب ظهورها وبيانها [١].

وبناء على ذلك يرى ابن الأثير أن السمع هو المرجع الأساسي في تمييز الحسن من القبيح من الألفاظ . فما استلذه السمع من الألفاظ فهو الحسن ، وما كرهه هو القبيح . كما أن حسن الألفاظ وقبحها يرجعان إلى اللفظ وليس إلى المعنى ، لأن الألفاظ المترادفة في الدلالة على المعنى سواء[٢]. وذلك مثل (المزنة والديمة والبعاق) فهي في الدلالة على المطر سواء مع أن المزنة والديمة حسنتان ، والثالثة قبيحة غير فصيحة .

وفي موضع آخر يجعل ابن الأثير اللفظ المستقبح قسما من قسمي الألفاظ الوحشية . فيذكر أن هناك جماعة من الأدباء خفي عليهم المراد من اللفظ الوحشي وظنوه المستقبح من الألفاظ ، وليس كذلك ، وإنما الوحشي قسمان : أحدهما غريب حسن ، والأخير غريب قبيح . لأن الوحشي منسوب إلى اسم الوحش الذي يسكن القفار وليس بأنيس ، وليس من شرط الوحشي أن يكون مستقبحا بل هو النافر الذي لا يألف الإنس ، وتارة يكون حسنا وتارة يكون قبيحا. وعلى هذا فإن أحد قسمي الوحشي – وهو الغريب الحسن – يختلف باختلاف النسب والإضافات . وأما القسم الآخر من الوحشي الذي هو قبيح فإن الناس في

---

١ – المثل السائر ٨١/١ .
٢ – المثل السائر ٨٢/١ .

استقباحه سواء .

- وأحسن الألفاظ في رأي ابن الأثير هو ما كان مألوفا متداولا لمكان حسنه . فإن أرباب الشعر والنثر - كما سبق أن ذكر - نظروا إلى الألفاظ ونقبوا عنها ثم عدلوا إلى الأحسن منها فاستعملوه وتركوا ما سواه . وهذه الألفاظ الحسنة تتفاوت في درجات الحسن . ومن هنا يقسم ابن الأثير الألفاظ إلى ثلاثة أقسام : قسمين حسنين ، وقسم قبيح . فالقسمان الحسنان أحدها ما تداول استعماله الأول والآخر من الزمن القديم إلى زماننا هذا ، ولا يطلق عليه أنه وحشي ، والآخر : ما تداول استعماله الأول دون الآخر ، ويختلف في استعماله بالنسبة إلى الزمن وأهله. وهذا القسم من الألفاظ لا يعاب استعماله عند العرب لأنه لم يكن عندهم وحشيا وهو عندنا وحشي . و قد تضمن القرآن الكريم منه كلمات معدودة وهي ما يطلق عليه غريب القرآن . وكذلك تضمن الحديث النبوي شيئا منه وهو ما يطلق عليه غريب الحديث . وأما القبيح من الألفاظ - وهو القسم الثالث من الألفاظ عند ابن الأثير - فهو الذي يعاب استعماله ، ولا يسمى وحشيا فقط ، بل يسمى الوحشي الغليظ . وقد خلا القرآن الكريم من مثل هذا النوع من الألفاظ . فإن ألفاظه كلها من أسهل الألفاظ وأقر بها استعمالا يفهمها كل أحد وإن لم يفهموا ما تحتها من أسرار الفصاحة والبلاغة . فإن أحسن الألفاظ ما عرف الخاصة فضله وفهم العامة معناه . وهكذا فلتكن الألفاظ المستعلمة في سهولة فهمها وقرب متناولها . والمقتدي بألفاظ القرآن الكريم يكتفي بها

عن غيرها من جميع الألفاظ المنثورة والمنظومة [١].

وأما الحديث النبوي فقد جاء فيه بعض الألفاظ الوحشية التي عبر بها رسول الله ﷺ ردا على من خاطبه بمثلها مجاراة له ليثبت قدرته على الإتيان بمثل ما أتى به مخاطبه . ومن ذلك حديث طهفة بن أبي زهير النهدى[٢].

---

١ - انظر المثل السائر ١٦١/١ : ١٦٣.

٢ - وذلك أنه لما قدمت وفود العرب على النبي - صلى الله عليه وسلم - قام طهفة بن أبي زهير فقال : أتيناك يارسول الله من غورى تهامة على أكوار الميس (شجر صلب) ، ترتمي بنا العيس (الإبل) ، نستجلب الصبير (سحاب أبيض) ، ونستخلب الخبير (نبات) ونستعضد البرير (ثمر الأراك) ، ونستخيل الرهام (نظن المطر الضعيف) ، ونستخيل الجهام (السحاب لا ماء فيه) ، في أرض غائلة النطاء (البعيدة ، المهلكة) غليظة الوطاءة ، قد نشف المدهن (نقرة في الجبل) ، ويبس الجعثن (أصل النبات) ، وسقط الأملوج (نوع من أوراق الشجر) ، ومات العسلوج (الغصن اليابس) ، وهلك الهدى (ما يهدي إلى البيت الحرام) ، ومات الودى (مات صغارالنحل) ، برئنا إليك يا رسول الله من الوثن والفتن ، وما يحدث الزمن ، لنا دعوة السلام ، وشريعة الإسلام ما طمي البحر وقام تعار (اسم جبل) ، ولنا نعم همل أغفال (لا علامة لها) ، ما تبض ببلال (ما يقطر منها لبن) ، ووقير (الغنم) كثير الرَّسَل ، قليل الرِّسْل (اللبن) أصابتنا سنة حمراء مؤزلة (مجدبة) ليس لها علل ولا نهل .

فقال رسول الله ﷺ ردا عليه : " اللهم بارك لهم في محضها ومخضها (لبنها الخالص) ومذقها (خليطها) وفرقها (مكيال يكال به اللبن) ، وابعث راعيها في الدثر (الخصب) بيانع الثمر ، وافجر له الثمد (القليل) وبارك له في المال والولد . ومن أقام الصلاة كان مسلما ، ومن آتى الزكاة كان محسنا ، ومن شهد أن لا إله إلا الله كان مخلصا . لكم يابني نهد ودائع الشرك (العهود و المواثيق) ، ووضائع (جمع =

ومثل هذا الكلام هو الذي نعده في زماننا وحشيا لعدم الاستعمال . فليس بصحيح – في رأي ابن الأثير – أن الوحشي من الألفاظ هـو مـا يكرهه السمع ويثقل النطق به ، وإنما الغريب الذي يقل استعماله ، فتـارة يخف على سمعك ولا تجد به كراهة ، وتارة يثقل على سمعك وتجـد فيـه الكراهة . وبذلك يكون قد اجتمع في اللفظ عيبان أديا إلى قبحه : أحدهما أنه غريب الاستعمال ، والآخر أنه ثقيل على السمع كريه على الـذوق . وهذا هو اللفظ الوحشي الغليظ ، ويسمى أيضا المتوعر ، وليس وراءه في القبح درجة أخرى . ومثل له ابن الأثير بلفظة (جحيش) في قول تـأبط شرا :

يظلُّ بموماةٍ ويُمسِي بغـيرهـا ... جَحيشًا ويعْرَوْرَي ظهورَ المسالكِ

وقد علق ابن الأثير على هذا البيت تعليقا جميلا يدل على خبرتـه ودرايته بالنقد وحسن ذوقه فقال : " فإن لفظة (جحيش) من الألفـاظ

=وضيعة وهي الوظيفة السياسية) الملك . لا تلطط في الزكاة (لا تمنعـها) ، ولا تلحد في الحياة (لا تمل عن الحق) ، ولا تتثاقل عن الصلاة " .

وكتب معه كتابا إلى بني نهد قال فيه : " من محمد رسول الله إلى بني نهد : السـلام على من آمن بالله ورسوله ، لكم يا بني نهد في الوظيفة الفريضة (فريضة الزكـاة) ، ولكم الفارض (المسن من الإبل) والفريش (الناقة الحديثة النتاج) ، وذو العنـان الركوب ، والفلو الضبيس (المهر العسر) ، لا يمنع سرحكم (ماشـيتكم) ، ولا يعضد طلحكم (لايقطع شجركم) ، ولايحبس دركم ، ولا يؤكل أكلكم ، مـا لم تضمروا الإماق (الغدر) ، وتأكلوا الرباق (تنقضوا العهد) . من أقر بما في هـذا الكتاب فله من رسول الله الوفاء بالعهد والذمة ، ومن أبى فعليه الربوة (العقوبة)". المثل السائر ١٦٣/١ .

المنكرة القبيحة . ويالله العجب ! أليس أنها معنى (فريد) ؟! وفريد لفظة حسنة رائقة ، ولو وضعت في هذا البيت موضع جحيش لما اختل شئ من وزنه . فتأبط شرا ملوم من وجهين في هذا الموضع : أحدهما أنه استعمل القبيح ، والآخر أنه كانت له متدوحة عن استعماله فلم يعدل عنها " (١).

كما مثل ابن الأثير للقبيح من الألفاظ بلفظتي (اطلخم) و (دهاريس) في قول أبي تمام :

قد قلتُ لما اطلخَمَّ الأمرُ وانبعثَتْ ... عشواءَ تاليةً غبساً دهاريسا

وبلفظة (جفخ) في قول أبي الطيب المتنبي :

جَفَخَتْ وهم لا يَجْفخُون بها بِهِمْ ... شيمٌ على الحسبِ الأغرِّ دلائلُ

وبلفظة (حيدر) في قول أبي تمام :

نَعَمْ متاعُ الدنيا حباكَ به ... أروعُ لا حيدرٌ ولا جبسُ (٢).

فالعرب البدو إذن - على رأي ابن الأثير - لا تلام على استعمال الغريب الحسن وإنما تلام على استعمال الغريب القبيح . وأما الحضري فإنه يلام على استعمال القسمين معا ، وهو في الثاني أشد ملامة في استعماله من الأول .

ويرى ابن الأثير أن الغريب الحسن من الألفاظ يسوغ استعماله في الشعر دون النثر ، وضرب لذلك عدة أمثلة منها لفظة (شر نبثة) في

---

١ - المثل السائر ١٦٨/١ .

٢ - المثل السائر ١٦٨/١ .

قول الفرزدق :

ولولا حياءٌ زدتُ رأسَكَ شجّةً إذا سُبِرتْ ظلّت جوانبُها تغلي

شَرَنْبَثَةً شمطاءَ من يرَ ما بها تُشبِّهُ ولو بين الخُماسيِّ والطفلِ

فيرى أن هذه اللفظة (شَرَنْبَثَة) من الألفاظ الغريبة التي يسوغ استعمالها في الشعر وهي هنا غير مستكرهة ، إلا أنها لو وردت في كلام منثور لعيبت على مستعملها .

وكذلك لفظة (مشمخر) في قول بشر بن عوانة :

وأطلقتُ المهنّدَ عن يميني فقدَّ لهُ من الأضلاعِ عشْرا

فخرَّ مدرَّجًا بدمٍ كأنّي هدمتُ به بناءً مشمخرّا

وفي قول البحتري في قصيدته في ديوان كسرى :

مشمخرٌّ تعلو له شُرُفاتٌ رفعتْ فهي رؤوسُ رضوى وقُدْسِ

فيرى أن هذه اللفظة لا يحسن استعمالها في النثر ولا بأس بها ههنا في الشعر . ويذكر أنها وردت في خطب الشيخ ابن نباتة ، كقوله في خطبة يذكر فيها أهوال يوم القيامة : " اقمطر وبالها ، واشمخر نكالها " فكانت غير حسنة .

ومن ذلك لفظة (الكنهور) في وصف السحاب كقول المتنبي :

ياليتَ باكيةً شجاني دمعُها نظرتْ إليكَ كما نظرْتَ فتعْذرا

وترى الفضيلةَ لا تَرد فضيلةً الشمسُ تشرقُ والسحابُ كَنَهْوَرَا

نرى أن هذه اللفظة لا تعاب نظما وتعاب نثرا [١].

ولا أدري على أي أساس فرق ابن الأثير بين استعمال مثل هذه الألفاظ في الشعر والنثر إلا أن يكون قد حكَّم الذوق والسمع في هذه التفرقة كما قال هو : " فما استلذه السمع منها فهو الحسن ، وما كرهه ونبا عنه فهو القبيح " [٢].

وذوق القارئ وسمعه — في رأيي — لا يفرقان بين وجود مثل هذه الألفاظ في الشعر أو في النثر .

وقد بنى ابن الأثير على هذا حكما آخر وهو :" أن كل مايسوغ استعماله في الكلام المنثور من الألفاظ يسوغ استعماله في الكلام المنظوم . وليس كل ما يسوغ استعماله في الكلام المنظوم يسوغ استعماله في الكلام المنثور " [٣].

ويعيب ابن الأثير من يعتقدون أن الكلام الفصيح هو الذي يعز فهمه ويبعد متناوله فيعدونه حسنا . وإذا رأوا كلاما وحشيا غامض الألفاظ يعجبون به ويصفونه بالفصاحة مع أن بالضد من ذلك لأن الفصاحة تعني الظهور والبيان وليس الغموض والخفاء [٤].

وياليت ابن الأثير قد ذكر لنا بعض هؤلاء الذين يقولون كلاما لا

---

١ - انظر المثل السائر ٦٩/١ ، ٧٠ .
٢ - المثل السائر ١٥٥/١ .
٣ - المثل السائر ١٧٢/١ .
٤ - المثل السائر ١٧٢/١ .

يعقل . فأنا أعتقد أنه لا يوجد من علماء البيان واللغة من يطلق صفة الفصاحة على الكلام الذي يعز فهمه ويبعد متناوله ، أو على الكلام الوحشي الغامض الألفاظ ، لأن هذا فعلا ضد الفصاحة التي تعنى الظهور والبيان كما يقول ابن الأثير .

والذي نستخلصه من كلام ابن الأثير السابق أنه يفرق بين حسن الكلمة وقبحها بالألفة والغرابة . فالكلمة عنده تكون مألوفة ، وهذا ناشئ من حسن مخارجها وسلاسة أصواتها ، والكلمة تكون قبيحة إذا كانت غريبة غير مألوفة . وكونها غريبة غير مألوفة ناشئ من قبح مخارجها. والحق أن علاقة صفة الكلمة بالألفة وعدمها أمر له صلة بالبيئات والأحوال وتطور الطباع ، فقد نألف صوتا في جيلنا ويصبح غير مألوف في الجيل القادم . وهو ينسى أن الكلمة المفردة ليست لها قيمة فنية أو جمالية في ذاتها ، وإنما الذي يجعل لها هذه القيمة هو ما ينشأ عن استعمالها في سياق يستطيع الفنان المبدع بهذا السياق أن يحول الألفاظ المفردة إلى صور من الجمال الفني .

وخطأ ابن الأثير – وأنا معه في ذلك – قول من يقول بأنه ليس هناك لفظ قبيح ، وأن كل الألفاظ حسنة ، وأن الواضع لم يضع إلا حسنا. فهنا ك فرق واضح بين لفظة (الغصن) ولفظة (العسلوج) ، وبين لفظة (المدامة) ولفظة (الإسفنط) ، وبين لفظة (السيف) ولفظة (الخنشليل) ، وبين لفظة (الأسد) ولفظة (الفدوكس) على سبيل

المثال . ومن يسوي بين اللفظتين من هذه في الفصاحة كمن يسوي بين صورة زنجية سوداء مظلمة السواد شوهاء الخلق ، وبين صورة رومية بيضاء مشربة بحمرة ذات خد أسيل وطرف كحيل ومبسم كأنما نظم من أقاح وطرة كأنها ليل على صباح [١].

- ويقسم ابن الأثير الألفاظ في الاستعمال إلى جزلة ورقيقة ، وجعل لكل منهما موضعاً يحسن استعماله فيه :

فالجزل منها يستعمل في وصف الحروب ، وفي قوارع التهديد والتخويف وأشباه ذلك ، وأما الرقيق منها فإنه يستعمل في وصف الأشواق وذكر أيام البعاد ، واستجلاب المودات ، وملاينات الاستعطاف، وأشباه ذلك .

ولا يعني ابن الأثير بالجزل من الألفاظ أن يكون وحشيا متوعرا عليه عنجهية البداوة بل يعني بالجزل أن يكون متينا على عذوبته في الفم ولذاذته في السمع . كما أنه لا يعني بالرقيق أن يكون ركيكا سفسفا ، وإنما يعني به اللطيف الرقيق الحاشية الناعم الملمس . كقول أبي تمام :

ناعماتَ الأطرافِ لو أنها تلبسُ أغنتْ عن الملاءِ الرقيقِ [٢]

وكما جعل ابن الأثير من السمع والذوق المقياس الأول للحكم على الألفاظ عموما فقد ذكر أن الجزل والرقيق من الألفاظ تجري من

---

١ - المثل السائر ١/١٥٦ .
٢ - المثل السائر ١/١٧٢ .

السمع مجرى الأشخاص من البصر ، فالجزل فيها يتخيل في السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار ، والرقيق منها تتخيل كأشخاص ذي دماثة ولين أخلاق ولطافة مزاج [١].

- ومن أوصاف الكلمة الحسنة عند ابن الأثير ألا تكون مبتذلة بين العامة [٢]. وهي من الأوصاف الثمانية التي ذكرها ابن سنان الخفاجي للفظة المفردة حتى تكون حسنة مقبولة [٣].

وقسم ابن الأثير الألفاظ المبتذلة بين العامة إلى قسمين : القسم الأول : ما كان من الألفاظ دالا على معنى وضع له في أصل اللغة فغيرته العامة وجعلته على معنى آخر .وهو ضربان :

الضرب الأول : ما يكره ذكره منها كلفظة (الصرم) في قول المتنبي :

أذاقَ الغواني حسْنُهُ ما أذَقْنَني ... وعفَّ فجازاهُن عني بالصَّرْم

فإن (الصرم) في وضع اللغة هو القطع . يقال صرمه إذا قطعه . فغيرتها العامة وجعلتها دالة على المحل المخصوص من الحيوان دون غيره فأبدلوا السين صادا . ومن أجل ذلك استكره استعمال هذه اللفظة وما جرى مجراها ، لكن المكروه منها ما يستعمل على صيغة الإسمية كما في البيت ، وأما إذا استعملت على صيغة الفعل كقولنا : صرمه وصرمته

١ - المثل السائر ١/١٨١.
٢ - المثل السائر ١/١٨٣.
٣ - انظر سر الفصاحة - تحقيق : علي فودة - مكتبة الخانجي بالقاهرة - ط٢ - ١٩٩٤ م - ص ٦٩ .

ونصرمه فإنها لا تكون كريهة لأن استعمال العامة لا يدخل في ذلك .

وهذا الضرب من الألفاظ لا يعاب البدوي على استعماله كما يعاب المتحضر ، لأن البدوي لم تتغير الألفاظ في زمنه ولا تصرفت العامة فيها كما تصرفت في زمن المتحضرين من الشعراء.ولذا يعاب استعمال لفظة (الصرم) وما جرى مجراها على الشاعر المتحضر ولا يعاب على الشاعر المبتدئ ، ولذا فلا عيب على استعمال أبي صخر الهذلي لهذه اللفظة في قوله :

قد كان صَرْمٌ في الممات لَنا　　　فَعَجِلْتِ قبلَ الموتِ في الصَّرْمِ

كما عيب على المتنبي استعمالها في البيت السابق [١].

والضرب الثاني : هو ما وضع من الألفاظ في أصل اللغة لمعنى فجعلته العامة دالا على غيره إلا أنه ليس بمستقبح ولا مستكره ، وذلك كتسميتهم الإنسان ظريفا إذا كان دمث الأخلاق حسن الصورة أو اللباس أو نحو ذلك - والظرف في أصل اللغة مختص بالنطق فغيرته العامة عن بابه .

وممن غلط في هذا الموضع أبو نواس حين قال :

اختصم الجودُ والجمالُ　　　فيك فصارا إلى جدالِ

فقال هذا يمينُه لي　　　للعُرفِ والبَذْلِ والنَّوالِ

وقال هذاك وجهُه لي　　　للظَّرفِ والحُسْنِ والكَمالِ

---

١ - المثل السائر ١/١٨٣.

وأخطأ فيه كذلك أبو تمام حين قال :

لك هضبةُ الحِلمِ التي لو وازَنَــتْ   أجـأً إذن ثقلـت وكـان خفيفـا
وحلاوةُ الشِّيمِ التي لـو مـازَجَتْ   خُلقَ الزمانِ القـدم عـادَ ظريفـا

فقد أخطأ أبو نواس في وصف الوجه بالظرف وهو مـن صفـات النطق ، وأخطأ أبو تمام في وصف الخلق بالظرف وهو من صفات النطـق أيضا ، إلا أن هذا خطأ لا يوجب قبحا في هذه اللفظة لكنه جهل بمعرفـة أصلها في وضع اللغة [١].

على أني وجدت في لسان العرب أن لفظة (الظـرف) تسـتعمل لوصف النطق كما قال ابن الأثير ، ولوصف الوجه أيضا كما اسـتعملها أبو نواس ، ولوصف الخلق كما استعملها أبو تمام . ومن قـال باقتصـار استعمال الظرف على النطق فقط الأصمعي وابن الأعرابي ، يقـول ابـن منظور " الأصمعي وابن الأعرابي : الظريف : البليغ الجيد الكلام . وقـالا الظرف في اللسان ... وقال غيرهما : الظريف : الحسن الوجه واللسان .. والظرف في اللسان : البلاغـة ، وفي الوجـه الحسـن ، وفي القلـب : الزكاء .. وقال محمد بن يزيد : الظريف : مشتق من الظرف وهو الوعاء. كأنه جعل الظريف وعاء للأدب ومكارم الأخـلاق "[٢]. وعلـى هـذا فاستعمال أبي نواس وأبي تمام للظرف فيما استعملاه فيه صحيح ولا غبـار عليه .

---

١ - المثل السائر ١/١٨٤ .
٢ - لسان العرب - طبعة دار المعارف - مادة (ظرف) .

والقسم الثاني : مما ابتذلته العامة هو الذي لم تغيره عن وصفه وإنما أنكروا استعماله لأنه مبتذل بينهم لا لأنه مستقبح ، ولا لأنه مخالف لما وضع له . وهذا القسم منه ما يكثر تداوله بين العامة وهو جميل فصيح كالسماء والأرض والنار والحجر والماء والطين وأشباه ذلك . وقد نطق بها القرآن الكريم في مواضع كثيرة منه ، وجاءت في كلام الفصحاء نظما ونثرا . وهذا لبس مرادا هنا .أما المراد بالمبتذل من هذا القسم إنما هو الألفاظ السخيفة الضعيفة سواء تداولتها العامة أو الخاصة . ومن ذلك قول أبي الطيب المتنبي :

وملمومةٌ سيفيةٌ ربعيةٌ يصيحُ الحَصا فيها صياحَ اللقالِقِ

فإن لفظة (اللقالق) مبتذلة بين العامة جدا . ومنه قول النابغة الذبياني :

أو دميةٍ في مرمرٍ مرفوعةٍ بُنيتْ بآجرٍ يشادُ بقرمَدِ

فلفظة (آجر) مبتذلة جدا . وأقام ابن الأثير الدليل على ذلك من استعمال القرآن الكريم لها ، وذلك أنه لما جئ ذكر الآجر في القرآن الكريم لم يذكر بلفظه ولا بلفظ (الفرقد) أيضا ، ولا بلفظ (الطوب) لأن هذه الأسماء مبتذلة . وإنما ذكرت في القرآن على وجه آخر كما في قوله – تعالى – : ﴿ وقال فرعونُ يا أيُّها الملأُ ما علمتُ لكم من إلهٍ غيري فأوقدْ لي يا هامانُ على الطينِ فاجعلْ لي صرحًا ﴾ [1]. فعبر عن الآجر

---

١ – من الآية رقم / ٣٨ من سورة القصص .

بالوقود على الطين [١].

ـ ومن أوصاف الكلمة الحسنة عند ابن الأثير أن لا تكون مشتركة بين معنيين أحدهما يكره ذكره وإذا وردت وهي غير مقصود بها ذلك المعنى قبحت ، وذلك إذا كانت مهملة بغير قرينة تميز معناها عن القبح . فأما إذا جاءت ومعها قرينة فإنها لا تكون معيبة ، وذلك كلفظة (التعزير) في قوله – تعالى – : ﴿ فالذين آمنُوا به وعزّرُوهُ ونصرُوهُ واتبعوا النورَ الذي أنزلَ معه أولئكَ هُمُ المفلحون ﴾ [٢]. فلفظة (التعزير) مشتركة تطلق على التعظيم والإكراه ، وعلى الضرب الذي هو دون الحد ، وذلك نوع من الهوان وهما معنيان ضدان ، وحينما وردت في هذه الآية جاء معها قرائن من قبلها ومن بعدها فخصت معناها بالحسن وميزته عن القبيح. ولو وردت بدون قرينة وأريد بها المعنى الحسن لسبق إلى الوهم ما اشتملت عليه من المعنى القبيح . فلو قال قائل : لقيت فلانا فعزرته . لسبق إلى الوهم أنه ضربه وأهانه . ولو قال : لقيت فلانا فأكرمته وعزرته، لزال ذلك اللبس .

وهناك من الكلام ما إذا جاءت معه قرينة أوجبت قبحه ، ولو لم تأت معه هذه القرينة ما استقبح . كقول الشريف الرضي :

أعززْ عليَّ بأن أراكَ وقد خَلَا   عن جانبيكَ مقاعدُ العوّادِ

---

١ – المثل السائر ١/١٨٥ .

٢ – من الآية رقم / ١٥٧ من سورة الأعراف

فلفظة (مقاعد) في البيت معيبة لإضافتها إلى العواد ، وقد جاءت في القرآن الكريم غير مضافة فجاءت حسنة مرضية ،كما في قوله تعالى : ﴿ وإذْ غَدَوْتَ من أهلكَ تبوِّئُ المؤمنين مقاعدَ للقتال ﴾ [1]. وقوله تعالى : ﴿ وأنَّا كنَّا نقعدُ منها مقاعدَ للسمع ﴾ [2].

وقد أفاد ابن الأثير في حديثه عن هذا الوصف من أوصاف الكلمة الحسنة من حديث ابن سنان الخفاجي عنه ، بل ونقل بعض عباراته وأشار إلى بعض ما استخدمه من أمثلة [3].

- ومن أوصاف الكلمة الحسنة عند ابن الأثير أن تكون الكلمة مؤلفة من أقل الأوزان تركيبا . وهذا أيضا مما ذكره ابن سنان الخفاجي من شروط الكلمة الفصيحة وأخذه عنه ابن الأثير ووافقه على بعض ما جاء به وخالفه في البعض الآخر [4]. وسوف أتوقف معهما في هذا الصدد في الفصل الخامس من هذا البحث إن شاء الله

ويذكر ابن الأثير في هذا الباب أنه ينبغي أن يجتنب الأديب الألفاظ المؤلفة من حروف يثقل النطق بها سواء كانت الكلمة طويلة أم قصيرة ككلمة (مستشزرات) في قول امرئ القيس :

---

١ - من الآية ١٢١ من سورة آل عمران .
٢ - من الآية رقم / ٩ من سورة الجن . وانظر المثل السائر ١/ ١٨٨.
٣ - انظر : سر الفصاحة ص ٧٨ .
٤ - المثل السائر ١/١٩٠ : ١٩٢.

غدائرُهُ مستشزِراتٌ إلى العُلا تضلُّ المدارَي في مُثنّى ومرسَلِ [١]

ـ ومن أوصاف الكلمة الحسنة عند ابن الأثير أن تكون مبنية على حركات خفيفة ليخف النطق بها . ولذا فإنه إذا توالت حركتان خفيفتان في كلمة واحدة لم تستثقل . أما إذا توالت حركتان ثقيلتان فى كلمة واحدة استثقلت . ولذا استثقلت الضمة على الواو ، والكسر على الياء ، لأن الضمة من جنس الواو ، والكسرة من جنس الياء ، فتكون عند ذلك كأنهما حركتان ثقيلتان .

ومثال ذلك كلمة (الجزع) . فلو فتح أولها فقيل (الجَزْع) ، أو كسر فقيل (الجِزْع) لكان ذلك أحسن من أن لو جعلنا أولها مضموما فقلنا (الجُزْع) . وكذلك إذا والينا حركة الفتح فقلنا (الجَزَع) كان ذلك أحسن من موالاة حركة الضم فقلنا (الجُزُع) . ومع ذلك فإنه قد توالت حركة الضم في بعض الألفاظ ولم يحدث فيها كراهة ولا ثقلا ، كقوله تعالى : ﴿ ولَقَدْ أنذرَهُم بطشَتَنا فتمارَوْا بالنذُر ﴾ [٢]. وكقوله تعالى: ﴿ إن المجرمينَ في ضلالٍ وسُعُر ﴾ [٣]. وكقوله تعالى : ﴿ وكلُّ شيء فعلوهُ في الزُّبُر ﴾ [٤]. وهذا لا ينقض ما قيل أولا ، لأن الغالب أن يكون توالي حركة الضم مستثقلا ، فإذا شذ عن ذلك شئ يسير فإنه لا ينقض

١ - انظر المثل السائر ١/١٩٠ : ١٩٢ .
٢ - الآية رقم / ٣٦ من سورة القمر .
٣ - الآية رقم / ٥٢ من سورة القمر .
٤ - الآية رقم / ٤٧ من سورة القمر .

الأصل المقيس عليه [١].

هذا عن أهم ما يحدد نظرة ابن الأثير للفظة المفردة وأهم الصفات التي تجعلها حسنة مقبولة أو قبيحة مستكرهة ، ولا تنسى أن قد جعل المقياس الأول في ذلك استحسان السمع وقبوله لها أو نفوره منها وكرهه لها. فما استلذه السمع منها فهو الحسن ، وما كرهه ونبا عنه فهو القبيح، ثم وضع بعد ذلك أو صافا معينة لهذا المقياس ليحدد به الألفاظ الحسنة المقبولة من المعيبة القبيحة . وقد تأثر ابن الأثير في بعض مما قاله عن أوصاف اللفظة المفردة بابن سنان الخفاجي في حديثه عن شروط الكلمة الفصيحة ، وكان مؤصلا للبعض الآخر غير مسبوق به .

– أما عن تأصيل ابن الأثير للحسن والقبيح من التراكيب فهذا يتبين من وقوفه طويلا مع الألفاظ المركبة ، وأهم الأصول والقواعد التي يستقيم بها أود التراكيب وتحسن على لسان القارئ وأذن السامع .

وبداية أذكر أن ابن الأثير قد أوصى باختيار الألفاظ التي يستعملها الكاتب والشاعر في إنتاجه الأدبي وانتقائها وضم كل لفظة منها إلى ما يشاكلها ثم المجيء بها متفقة مع الغرض والمعنى الذي جاءت الألفاظ للتعبير عنه . وقال في ذلك [٢]: " اعلم أنه يحتاج صاحب هذه الصناعة في تأليفه إلى ثلاثة أشياء : الأول منها اختيار الألفاظ المفردة ، وحكم ذلك حكم

---

١ – المثل السائر ١٩٣/١ ، ١٩٤ .
٢ – المثل السائر ١٤٩/١ .

اللآلئ المبددة فإنها تتخير وتنتقى قبل النظم . والثاني نظم كل كلمة مع اختها المشاكلة لها لئلا يجئ الكلام قلقا نافرا عن مواضعه ، وحكم ذلك حكم العقد المنظوم ، فتارة يجعل إكليلا على الرأس ، وتارة يجعل قلادة في العنق ، وتارة يجعل شنفا في الأذن ، ولكل موضع من هذه المواضع هيئة من الحسن تخصه .

فهذه ثلاثة أشياء لا بد للخطيب والشاعر من العناية بها وهي الأصل المعتمد في تأليف الكلام من النظم والنثر " .

ويستشهد ابن الأثير على كلامه السابق بلفظتين تدلان على معنى واحد وكلاها حسن في الاستعمال وهما على وزن واحد وعدة من الحروف واحدة إلا أنك ترى أنه لا يحسن استعمال هذه في كل موضع تستعمل فيه الأخرى ، بل يفرق بينهما في مواضع السبك . ومن ذلك لفظتا (البطن، والجوف) في قوله تعالى : ﴿ ما جعلَ اللهُ لرجلٍ من قلبَيْن في جوفه﴾ [١] وقوله – تعالى – : ﴿ ربِّ إني نذرتُ لكَ ما في بطْني محرَّرًا﴾[٢]. فقد استعمل (الجوف) في الأولى ، واستعمل (البطن) في الثانية ، ولم يستعمل الجوف في موضع البطن ، ولا البطن في موضع الجوف . مع أن اللفظتين سواء في الدلالة ، وهما ثلاثيتان في عدد الحروف ووزنهما واحد [٣].

---

١ – من الآية رقم ٤ من سورة الأحزاب .
٢ – من الآية رقم ٣٥ من سورة آل عمران .
٣ – المثل السائر ١ ١٥٠ .

على أني أختلف مع ابن الأثير في قوله بأن اللفظتين سواء في الدلالة. فالواقع أن الجوف غير البطن ، ولهذا لم يضع القرآن الكريم أيا منهما مكان الآخر ، فالجوف يطلق على المنطقة التي تعلو البطن من داخل الإنسان وفيها القلب ، أما البطن فهو أسفل من الجوف . والمرأة تحمل الجنين في بطنها لا في جوفها . ولذا عبر القرآن الكريم بالجوف في حديثه عن القلب في الآية الأولى ، وعبر بالبطن في حديثه عن الحمل في الآية الثانية . قال ابن منظور في لسان العرب : " والجوف : ما انطبقت عليه الكتفان والعضدان والأضلاع الصقلان "[١].

ولكني أتفق مع ابن الأثير في استعمال كل من (الفؤاد والقلب) في مثل قوله –تعالى– : ﴿ ما كَذَبَ الفؤادُ ما رَأى ﴾ [٢].وقوله – تعالى–: ﴿ إنَّ في ذلك لَذِكْرى لمن كانَ له قلبٌ أو ألقَى السمعَ وهو شَهيد ﴾ [٣]. فالقلب والفؤاد سواء في الدلالة ولم يستعمل القرآن أحدهما مكان الآخر.

ومما ورد من ذلك في الشعر لفظتا (العسل) و(الشهد) . فالأولى في مثل قول الأعرج من أبيات الحماسة :

نحنُ بنُو الموتِ إذا الموتُ نَزَلْ   لا عارَ بالموتِ إذا حُمَّ الأجَل

الموتُ أحلَى عندنا من العَسَلْ

١ – لسان العرب – مادة (جوف) .
٢ – الآية رقم ١١ من سورة النجم .
٣ – الآية رقم ٣٧ من سورة ق .

وجاء اللفظ الثاني في مثل قول أبي الطيب المتنبي :

إذا شئتَ حَفَّتْ بي على كلِّ سابحٍ   رجالٌ كأنَّ الموتَ في فمها شَهْدُ

واللفظتان (العسل والشهد) كلاهما حسن مستعمل . وقد وردت لفظة (العسل) في القرآن الكريم دون لفظة الشهد لأنها أحسن منها . ومع هذا فإن لفظة (الشهد) وردت في بيت أبي الطيب فجاءت أحسن من لفظة (العسل) في بيت الأعرج [١].

وكنت أنتظر من ابن الأثير أن يذكر سبب ذلك ولكنه لم يفعل ، ولعل ذلك يرجع إلى أن فرس أبي الطيب وإن كانت تستعذب الموت في ميادين القتال إلا أنها تجد له في فمها بعض المرارة أو الشوائب التي تشوب حلاوته . وهذا ما يتناسب مع الشهد الذي يطلق غالبا على العسل ما دام لم يعصر من شمعه كما جاء في لسان العرب [٢]. أما العسل فيطلق على ذلك الشراب الخالص من الشوائب بدليل أن القرآن الكريم حينما استعمل كلمة العسل أتبعها بوصف (المصفى) الذي يدل على نقائه وبعده عن الشوائب الموجودة في الشهد . وذلك في قوله — تعالى —: ﴿ وأنهارٌ من خمرٍ لذةٍ للشَّاربين وأنهارٍ من عَسَلٍ مصفًّى﴾[٣].

ويذكر ابن الأثير أن تفاوت التفاضل بين الأدباء يقع في تركيب

---

١ — المثل السائر ١/١٥١ .

٢ — لسان العرب مادة (شهد) .

٣ — من الآية رقم ١٥ من سورة محمد .

الألفاظ أكثر مما يقع في مفرداتها ، لأن التركيب والتلاؤم بين الألفاظ أعسر وأشق والدليل على ذلك أن الألفاظ في القرآن الكريم من حيث انفرادها قد استعملها العرب ومن بعدهم ، ومع ذلك فإنه يفوق جميع كلامهم ويعلو عليه . وليس ذلك إلا لفضيلة تركيبه وإعجازه في الجمع بين مفردات ألفاظه . وضرب ابن الأثير مثالا على ذلك بقوله – تعالى-: ﴿ وقيلَ يا أرضُ ابلَعي ماءَكِ ويا سَماءُ أقلعي وغيضَ الماءُ وقُضِي الأمرُ واستوت على الجُودِيِّ وقيلَ بُعْداً للقوم الظالمين ﴾ [1]. فيقول معلقا على هذه الآية وبعض مظاهر البلاغة فيها : " إنك لم تجد ما وجدته لهذه الألفاظ من المزية الظاهرة إلا لأمر يرجع إلى تركيبها ، وأنه لم يعرض لها هذا الحسن إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة ، وكذلك إلى آخرها . فإن ارتبت في ذلك فتأمل هل ترى لفظة منها لو أخذت من مكانها ، وأفردت من بين أخواتها كانت لابسة من الحسن ما لبسته في موضعها من الآية " [2].

وقد تأثر ابن الأثير في كلامه هذا بكلام عبد القاهر الجرجاني عن الآية والذي رأى فيها هذا الرأي وعبر عنه في كتابه دلائل الإعجاز[3]. فقد تناول عبد القاهر الجرجاني هذه الآية وأبان عن مظاهر الفصاحة فيها قبل ابن الأثير وأرجع الفصاحة فيها – كما فعل ابن الأثير – إلى تلاؤم

---

١ – الآية رقم ٤٤ من سورة هود .
٢ – المثل السائر ١٥٢/١ .
٣ – انظر دلائل الإعجاز ص ٤٤ وما بعدها .

كلماها مجتمعة ، وتأثر به ابن الأثير ونقل بعض عباراته . يقول عبد القاهر في صدد حديثه عن وصف الألفاظ بالفصاحة بعد اعتبار مكانها من النظم وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها ، وفضل مؤانستها لأخواتها : " وهل تشك إذا فكرت في قوله — تعالى : ﴿ وقيلَ يا أرضُ ابلَعِي ماءَكِ ويا سماءُ أقلِعِي وغيضَ الماءُ وقُضِيَ الأمرُ واستوتْ على الجودِيِّ وقيلَ بُعْدًا للقومِ الظالمين ﴾ . فتجلى لك منها الإعجاز ، وبهرك الذي ترى وتسمع أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة ، والفضيلة القاهرة إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض ، وأن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية، والثالثة بالرابعة ، وهكذا إلى أن تستقريها إلى آخرها ، وأن الفضل تناتج ما بينها وحصل من مجموعها ؟

إن شككت فتأمل : هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت لأدت من الفصاحة ما تؤديه وهي في مكانها من الآية . قل (ابلعي) واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وما بعدها . وكذل فاعتبر سائر ما يليها .

وكيف بالشك في ذلك ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض ثم أمرت ، ثم في أن كان النداء بـ (يا) دون (أي)نحو (يا أيتها الأرض) ، ثم إضافة (الماء) إلى (الكاف) دون أن يقال : (ابلعي الماء) ، ثم أن اتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها،ثم أن قيل : (وغيض الماء) فجاء الفعل على

صيغة (فُعِلَ) الدالة على أنه لم يغض إلا بأمر آمر وقدرة قادر . ثم تأكيد ذل وتقريره بقوله تعالى : ﴿ وقضي الأمر ﴾ . ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور وهو ﴿استوت على الجودي ﴾ ثم إضمار (السفينة) قبل الذكر كما هو شرط الفخامة ، والدلالة على عظم الشأن . ثم مقابلة (قيل) في الخاتمة ب (قيل) في الفاتحة ؟ .

أفترى لشئ من هذه الخصائص التي تملؤك بالإعجاز روعة ، وتحضرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها تعلقا باللفظ من حيث هو صوت مسموع وحروف تتوالى في النطق ؟ أم كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب ؟

فقد اتضح إذن اتضاحا لا يدع للشك مجالا أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ، ولا من حيث هي كلم مفردة ، وأن الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها وما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ " [1].

وإن كان ابن الأثير اتفق مع عبد القاهر الجرجاني في أن بلاغة هذه الآية لا ترجع إلى فصاحة كلماتها مفردة وإنما ترجع إلى ملاءمة معنى كل كلمة فيها لمعاني جاراتها وحسن الاتفاق بين ألفاظها ، فإن كلام عبد القاهر أحسن تناولا وأفضل عرضا ، وأقوى إقناعا من كلام ابن الأثير في تناولهما لهذه الآية .

---

١ - دلائل الإعجاز ٤٥ ، ٤٦ .

وذكر ابن الأثير دليلا آخر على أن التفاضل يقع في تركيب الألفاظ أكثر مما يقع في مفرداتها ، وهو أنك ترى اللفظة تروقك في كلام ثم تكرهها وينفر سمعك منها في كلام آخر . ومما يشهد بصحة ذلك أنه قد تأتي اللفظة الواحدة في آية قرآنية وفي بيت من الشعر وتكون في القرآن جزلة متينة وفي الشعر ركيكة ضعيفة . فأثر التركيب فيها هذين الوصفين الضدين . ومن ذلك لفظة (تؤذى) . فقد جاءت في قوله – تعالى –: ﴿ فإذا طَعِمتُمْ فانتشِرُوا ولا مستأنسِينَ لحديث إنَّ ذلكُم كان يؤذِي النبيَّ فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق ﴾ [1].

ووردت في بيت من الشعر وهو قول المتنبي :

تَلَذُّ له المروءةُ وهي تُؤذي ... ومن يَعشَقْ يَلَذُّ له الغرامُ

فلفظة (تؤذي) قد جاءت في البيت ، وفي الآية من القرآن فحطت من قدر البيت لضعف تركيبها ، وحسن موقعها في تركيب الآية . وذكر ابن الأثير السبب في ذلك هو أن لفظة (تؤذي) إذا جاءت في الكلام فينبغي أن تكون مندرجة مع ما يأتي بعدها متعلقة به كما في الآية ، أما في بيت المتنبي فجاءت منقطعة ، وجاء بعدها بكلام مستأنف . ومما يؤيد ذلك أن هذه اللفظة بعينها قد جاءت في الحديث النبوي وأضيف إليها كاف الخطاب فأزال ما بها من ضعف وركاكة ، وذلك أن النبي ﷺ اشتكى من ألم فجاءه جبريل ورقاه فقال : " بسم الله ، أرقيك من كل داء

---

١ – من الآية رقم / ٥٣ من سورة الأحزاب .

يؤذيك " فانظر إلى السر في استعمال اللفظة الواحدة ، فإنه لما زيد عليها حرف واحد أصلحها وحسنها [١].

ومثل لفظة (يؤذي) كلمة (لي) . فإذا جاءت مندرجة متعلقة بما بعدها حسنت واستجيدت ، وإذا جاءت منقطعة عما بعدها كانت غير لائقة ، وقد جاءت في القرآن الكريم حسب الحالة الأولى في مثل قوله – تعالى –: ﴿ إنَّ هذا أخي له تسعٌ وتسعونَ نعجةً وليَ نعجةٌ واحدةٌ ﴾ [٢]. فحسن موقعها ، أما في بيت المتنبي :

تُمسِي الأمانِي صَرْعَى دون مبلغِهِ فما يقولُ لشيءٍ ليتَ ذلِك لي

فجاءت منقطعة غير لائقة .

وهناك فرق واضح بين كلمة (لي) في بيت المتنبي السابق وبينها في قوله :

ما أجدرَ الأيامَ والليالي بأن تقولَ مالَهُ ومالي

فإن لفظة (لي) ههنا وردت بعد (ما) وقبلها (مالـه) فجاء الكلام على نسق واحد . ولو جاءت ههنا كما جاءت في البيت الأول لكانت منقطعة عن النظير والشبيه فكان يعلوها الضعف والركة [٣].

ومن ذلك أيضا لفظة (القمل) فقد وردت في آية قرآنية حسنة فصيحة ، ووردت في بيت شعر للفرزدق فجاءت نابية غير مقبولة ، أما

---

١ – المثل السائر ١٥٣/١.
٢ – من الآية رقم / ٢٣ من سورة (ص) .
٣ – المثل السائر ١٥٣/١ ، ١٥٤ .

الآية فهي قوله تعالى :﴿ فأرسَلْنا عليهم الطوفانَ والجرادَ والقمَّلَ والضفادعَ والدَّمَ آياتٍ مفصَّلات ﴾ (١). وأما بيت الشعر فقول الفرزدق:

مِنْ عِزِّهِ احتجرتْ كليبٌ عندَهُ   زَربًا كأنهُمُ لديه القمَّلُ

وإنما حسنت هذه اللفظة في الآية دون البيت لأنها جاءت في الآية مندرجة في ضمن الكلام ولم ينقطع الكلام عندها . أما في البيت فجاءت آخرا انقطع الكلام عندها (٢).

وابن الأثير في هذا متأثرا بعبد القاهر الجرجاني ونقل عنه صدر كلامه في هذا الشأن وهو قوله : "أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر " (٣). وإن كان عبد القاهر استدل على صحة ما قاله بالمقارنة بين موقع اللفظة الواحدة في بيت شعري ، وبين موقعها في بيت شعري آخر ، بينما استدل ابن الأثير بموقع الكلمة الواحدة في آية قرآنية وبموقعها في بيت شعري . وسوف أتوقف مع أبيات عبد القاهر في هذ الشأن في موضع آخر من هذا البحث إن شاء الله .

- ومن سمات التراكيب الحسنة عند ابن الأثير أن يأتي بها صاحبها متفقة مع مقدار المعنى المراد منها ومراعاة المقام وما يتطلبه من إيجاز أو

---

١ - من الآية رقم / ١٣٣ من سورة الأعراف .
٢ - المثل السائر ١/١٥٤ .
٣ - دلائل الإعجاز ٤٦ .

إطناب أو تصريح أو تعريض ، ومما يتصل بالإيجاز في الكلام ذكر ابن الأثير أن بعض علماء البيان " ذهبوا إلى أن الكلام ينقسم قسمين : فمنه ما يحسن فيه الإيجاز كالأشعار والمكاتبات ، ومنه ما يحسن فيه التطويل كالخطب والتقليدات وكتب الفتوح التي تقرأ في ملأ من عوام الناس . فإن الكلام إذا طال في مثل ذلك أثر عندهم وأفهمهم ، ولو اقتصر فيه على الإيجاز والإشارة لم يقع لأكثرهم "[١].

أما ابن الأثير فلم يوافق على ما ذهب إليه هؤلاء ؛ لأن فهم العامة ليس شرطا معتبرا في اختيار الكلام ، لأنه لو كان شرطا لوجب على قياسه أن يستعمل في الكلام الألفاظ العامية المبتذلة عندهم ليكون ذلك أقرب إلى فهمهم ، لأنه لو كانت العلة في اختيار تطويل الكلام هي فهم العامة إياه لوجب أن تكون تلك العلة بعينها هي الأساس في اختيار المبتذل من الكلام ، لأن العامة إلى فهم المبتذل منه أقرب من فهم ما يقل ابتذالهم إياه ، وهذا الشيء مدفوع وباطل .

" وأما الذي يجب توخيه واعتماده أن يسلك المذهب القويم في تركيب الألفاظ على المعاني بحيث لا تزيد هذه على هذه مع الإيضاح والإبانة وليس على مستعمل ذلك أن يفهم العامة كلامه . فإن نور الشمس إذا لم يره الأعمى لا يكون ذلك نقصا في استنارته ، وإنما النقص في بصر الأعمى حيث لم يستطع النظر إليه .

---

١ - المثل السائر ٢ / ٦٩ .

عليَّ نحتُ القَوافِي من معادِنِها   وما عليَّ بأن لا تفهمَ البقرُ [١].

وما قاله ابن الأثير فيه جانب كبير من الصواب في باب استعمال الألفاظ والإتيان بها على قدر المعاني . ولكن يجب مع ما قال مراعاة أحوال المخاطبين ومقدار ما يحملونه من ثقافة حتى يكون للكلام فائدته ، ويكون واقعا موقعه .

وبناء على رأى ابن الأثير السابق وضع هو حدا لكل من الإيجاز والتطويل فقال : " حد الإيجاز هو دلالة اللفظ على المعنى من غير أن يزيد عليه . والتطويل هو ضد ذلك وهو أن يدل المعنى بلفظ يكفيك بعضه في الدلالة عليه " [٢] .

وعلى ذلك أخذ في نقد البيت التالى وبيان ما فيه من تطويل لا داعى له وهو قوله الهجير السلولى :

طلوعُ الثنايَا بالمطايَا وسابقٌ   إلى غايةٍ مَنْ يبتدرْها يُقدَّمِ

فرأى أن صدر هذا البيت فيه تطويل لا حاجة إليه . وعجزه من محاسن الكلام المتواصفة . وموضع التطويل من صدر البيت إنه قال (طلوع الثنايا بالمطايا) لأنه لفظة (المطايا) فضلة لا حاجة إليها وهو تطويل غث بارد . ويقاس على هذا المثال ما يجرى مجراه من التطويلات التى إذا أسقطت من الكلام بقي على حاله لم يتغير شيء [٣].

---

١ - المثل السائر ٢ /٧٠ .
٢ - المثل السائر ٢ / ٧٠ .
٣ - المثل السائر ٢ / ٧١ .

ويرى ابن الأثير أن الألفاظ التى يوصل بها الكلام كثيرا ما تأتى بغير فائدة . وكثيرا ما يأتى بها الشاعر لمجرد الوزن ، وقليلا ما تـــأتى لفـــائدة تتصل بالمعنى . وذلك نحو قولهم : لعمرك ، ولعمرى ، ونحـــو أصبـــح ، وظل، وأمسى ، وأضحى ، وبات ، وأشباه ذلك . ونحـــو ياصـــاحبي ، ويا خليلي وما يجرى هذا المجرى . ومن ذلك قول أبي تمام :

أَقَرَّوا لَعَمْرِى لحكمِ السيوفِ ... وكانت أحقَّ بفصْلِ القضاءِ

فإن قوله (لعمرى) زيادة لا حاجة للمعنى إليها وهـــى حشـــو فى البيت لا فائدة منها إلا إصلاح الوزن لا غير . ومثلها كلمة (ياصـــاحبى) فى قول البحترى :

ما أحسنَ الأيامَ إلا أنَّـــها ... يا صاحِبَيَّ إذا مضَتْ لم ترجعِ

فهى زيادة لا حاجة بالمعنى إليها ، وإنما وردت لتصحيـــح الـــوزن فقط[١].

غير أن مجئ مثل هذه الألفاظ بغرض تصحيح الوزن يجعلـــها غـــير معيبة لأنا لو عبناها على الشعراء لحجرنا عليهم وضيقنا . والـــوزن قـــد يضطر الشاعر إلى الإتيان بمثل ذلك . ولذا فلا ينبغى أن يعاب الشاعر بهـــا لكنها إذا وردت فى الكلام المنثور وكـــانت حشـــوا ليســـت لفـــائدة كانت عيبا[٢].

---

١ – المثل السائر ٢ / ٧١ .
٢ – المثل السائر ٢ / ٧٢ .

ومفهوم كلام ابن الأثير أن ألفاظ الوصل هذه إذا جاءت لغير فائدة للمعنى يتسامح فيها في الشعر ولم تكن معيبة ؛ لأنها تفيد فى إقامة وزن الشعر ، أما إذا وردت كذلك فى النثر كانت عيبا .

هذا ولابن الأثير جهود فى تأصيل الحسن والقبيح من التراكيب وبيان الأسس والقواعد التى بها يتخلص الأديب مما يؤدى بأدبه إلى القبح والكراهة . وسوف تتبين هذه الأسس والقواعد من الحديث عن العنصر التالى :

رابعا : صناعة تأليف الكلام :

يقصد بالحديث عن صناعة تأليف الكلام بيان العوامل والأنواع التى تقوِّم التراكيب فى الكلام ، ويحسن الوضع فى تأليفها ، ويتقن من صناعتها ، حتى يخيل للناظر أن هذه الألفاظ ليست هى تلك التى كانت مفردة .

وصناعة تأليف الكلام تنقسم عند ابن الأثير إلى ثمانية أنواع وهى : السجع ، والتصريع ، والتجنيس ، والترصيع ، ولزوم ما لا يلزم ، والموازنة ، واختلاف صيغ الألفاظ ، والمعاظلة اللفظية ، والمناقرة بين الألفاظ فى السبك .

ويحسن أن نتوقف مع حديث ابن الأثير عن هذه الأنواع لنتبين مدى تأصيله لقواعد كل منها ، ومدى تأثره بغيره فيها على مقدار ما يحتمله البحث .

النوع الأول : السجع والتصريع .

وعرفه ابن الأثير بأنه تواطؤ الفواصل فى الكلام المنثور على حرف واحد . ولم يوافق ابن الأثير من ذم السجع وقلل من شأنه ، وأرجع ذلك إلى عجزهم أن يأتوا به فى كلامهم . ولو كان مذموما كما قالوا لما ورد فى القرآن الكريم ولا فى الحديث النبوى . فإنه قد أتى فى القرآن الكريم كثيرا حتى إنه ليؤتى بالسورة كلها مسجوعة ، كسورة الرحمن ، وسورة القمر ، وغيرهما.وبالجملة فلم تخل منه سورة من السور . كما أنه ورد فى كثير من الأحاديث النبوية ، مما يدل على إباحته وحسنه فى الكلام .

وقد احتج بعض من يذمون السجع بأن النبى ﷺ أنكره على بعض مخاطبيه بكلام مسجوع فقال : " أسجعا كسجع الكهان " ؟ . فلولا أن السجع مكروه لما أنكره النبى ﷺ . وقد رد ابن الأثير على ذلك بأن النبى ﷺ لو كان كره السجع مطلقا لقال : " أسجعا " وسكت ، وكان المعنى يدل على إنكار هذا الفعل مطلقا . فلما قال : (أسجعا كسجع الكهان) صار المعنى معلقا على أمر وهو إنكار الفعل لم كان على هذا الوجه ، فعلم أنه إنما ذم من السجع ما كان مثل سجع الكهان لا غير ، ولا يذم السجع على إطلاقه . هذا فضلا عن أنه ورد فى القرآن الكريم كثيرا ، ونطق به الرسول ﷺ فى كلامه .

على أن هذا الحديث النبوى الذى يتضمن إنكار سجع الكهان وروده فيه نظر . فإن الوهم يسبق إلى إنكاره . فالنهى لم يكن عن السجع

نفسه وإنما النهى عن حكم الكاهن الوارد باللفظ المسجوع . ألا ترى أنه لما أمر الرسول ﷺ فى الجنين بغرة عبد أو أمة قال الرجل : " أأدى من لا شرب ولا أكل ، ولا نطق ولا استهل ، ومثل ذلك يطل " . فقال رسول الله ﷺ : " أسجعا كسجع الكهان " ؟ أى : أتتبع سجعا كسجع الكهان ؟ . فإن الكهان كانوا إذا سئلوا عن أمر ما أو تحدثوا فى أى شأن جاءوا بالكلام كله مسجوعا متكلفا .

فالسجع إذن ليس بمنهى عنه ، وإنما المنهى عنه هو الحكم المتبوع فى قول الكاهن . فقول رسول الله ﷺ : " أسجعا كسجع الكهان " ؟ معناه أحكما كحكم الكهان ؟ . وإلا فالسجع الذى أتى به الرجل لا بأس به وكلامه حسن وليس بمنكر لنفسه ، وإنما المنكر هو الحكم الذى تضمنه في امتناع الكاهن أن يدى الجنين بغرة عبد أو أمة . (١)

وأنا أخالف ابن الأثير في تفسيره الأخير للحديث . فالمفهوم من كلام رسول الله ﷺ : " أسجعا كسجع الكهان " ؟ إنكار السجع الذى نطق به الرجل ، وليس إنكار الاعتراض . وذلك لتكلف السجع فيه ومجيئه مماثلا للسجع الذى ينطق به الكهان . وليس هناك ما يفيد أن فى اعتراض الرجل إشارة إلى امتناع الكاهن أن يدى الجنين بغرة عبد أو أمة.

هذا ويذكر ابن الأثير أن الأصل فى السجع إنما هو الاعتدال فى مقاطع الكلام . والاعتدال مطلوب فى جميع الأشياء ، ومع هذا فليس

---

١ - انظر المثل السائر ١ / ١٩٥ : ١٩٧.

المراد الوقوف فى السجع عند الاعتدال فقط ، ولا عند تواطؤ الفواصل عند حرف واحد ؛ إذ لو كان ذلك هو المراد من السجع لكان كل أديب من الأدباء سجاعا . بل ينبغى أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة طنانة حادة رنانة ، لا غثة ولا باردة . أى لا يصرف المتكلم همه إلى السجع نفسه من غير نظر إلى مفردات الألفاظ المسجوعة وما يشترط لها من الحسن ، ولا إلى تركيبها وما يشترط له من الحسن . وهذا مقام تزل عنه الأقدام ولا يستطيعه إلا الواحد من أرباب هذا الفن بعد الواحد . ومن أجل ذلك كان أربابه قليلين .

فإذا صفى الكلام المسجوع من الغثاثة والبرد فإن وراء ذلك مطلبا آخر فى التركيب وهو أن يكون اللفظ فيه تابعا للمعنى ، لا أن يكون المعنى تابعا للفظ . فإنه يجيء عند ذلك كظاهر مموه على باطن مشوه .

وإذا خلا السجع من التكلف والتعسف وجاء محمولا على الطبع فإنه يجيئ فى غاية الحسن . وهو أعلى درجات الكلام .فإن قيل : إذا كان السجع أعلى درجات الكلام كان ينبغى أن يأتى القرآن الكريم كله مسجوعا وليس الأمر كذلك ، بل منه المسجوع ومنه غير المسجوع . قيل فى الجواب بأن أكثر القرآن مسجوع حتى إن السورة لتأتى جميعها مسجوعة فى بعض الأحيان ، وما منع أن يأتى القرآن كله مسجوعا إلا أنه سلك به مسلك الإيجاز والاختصار ، والسجع لا يؤاتى فى كل موضع من الكلام على حد الإيجاز و الاختصار . كما أن ورود غير المسجوع من

القرآن معجزا أبلغ فى باب الإعجاز من ورود المسجوع . ومن أجل ذلك تضمن القرآن القسمين جميعا (١).

وإلى هنا يبدو كلام ابن الأثير عن السجع والاحتجاج على إباحته وفضله فى الكلام ، وعدم وجود ما يعيب القرآن والحديث النبوى بوجوده فيهما - إلى هذا الحد يبدو كلام ابن الأثير عاديا نقرأ مثله فى كلام من تناول هذا الموضوع قبله من أمثال ابن سنان الخفاجى (٢) ، وأبى هلال العسكرى (٣) . مع الاحتفاظ بفضل ابن الأثير بحسن العرض وقوة الحجة .

ولكن ابن الأثير لم يتوقف عند هذا الحد فى حديثه عن السجع ، وإنما قسمه إلى عدة أقسام . وقبل أن يتحدث عن أقسام السجع نبه على أن للسجع سرا هو خلاصته المطلوبة ، وإن عرى الكلام المسجوع منه فلا يعتد به أصلا ، وهو " أن تكون كل واحدة من السجعتين المزدوجتين مشتملة على معنى غير المعنى الذى اشتملت عليه أختها . فإن كان المعنى فيهما سواء فذاك هو التطويل بعينه ؛ لأن التطويل إنما هو الدلالة على المعنى بألفاظ يمكن الدلالة عليه بدونها . وإذا وردت سجعتان يدلان على معنى واحد كانت كافية فى الدلالة عليه (٤) " .

---

١ - المثل السائر ١ / ١٩٧ :١٩٩ .
٢ - انظر : سر الفصاحة ١٦٣ / ١٧١.
٣ - انظر الصناعتين : ٢٦٠: ٢٦١ .
٤ - المثل السائر ١ / ١٩٩.

فالكلام المسجوع إذا عند ابن الأثير يحتاج إلى أربع شرائط لابد للمتكلم والكاتب من مراعاتها حتى يؤدى السجع فى كلامه الفائدة المرجوة منه وهى : الأولى : اختيار مفردات الألفاظ المسجوعة حلوة طنانة رنانة لا غثة ولا باردة . والثانية : اختيار التركيب على الوجه الذى تتوافر فيه شرائط الحسن والجمال . والثالثة : أن يكون اللفظ فى الكلام المسجوع تابعا للمعنى وليس المعنى تابعا للفظ . الرابعة : أن تكون كل واحدة من الفقرتين المسجوعتين دالة على معنى غير المعنى الذى دلت عليه أختها [١] . وهذا كلام جيد لم أقرأه لغير ابن الأثير ممن قرأت لهم كلاما عن السجع . وقد أورد ابن الأثير العديد من كتاباته المسجوعة التى توخى فيها توافر الشروط الأربعة التى نادى بها فى كل كلام مسجوع . ودعا إلى الاحتذاء بها ، ثم أورد كلاما مسجوعا من إنشاء غيره من كبار الكتاب ، وأبان عما فيه من اختلال لبعض الشروط التى وضعها . وعند قراءة كلامه وكلام غيره يتضح فعلا صحة ما قاله ابن الأثير . وسأكتفى هنا بإيراد جزء يسير من كتابة ابن الأثير ، وبنموذج قصير من كلام أبى إسحاق الصابى ليتضح الفرق بين الكلامين . فمن كلام ابن الأثير قوله من كتاب يتضمن العناية ببعض الناس [٢] :

" الكريم من أوجب لسائله حقا ، وجعل كواذب آماله صدقا ، وكان خرق العطايا منه خلقا ، ولم ير بين ذممه وبين رحمه فرقا . وكل ذلك

---

١ - المثل السائر ١ / ١٩٩ .

٢ - المثل السائر ١ / ٢٠٠ .

موجود فى كرم مولانا أجراه الله من فضله على وتيرة ، وجعل همه على تمام كل نقص قديرة ، وأوطأه من كل مجد سريرا كما بوأه من كل قلب سريرة . ولا زالت يده بالمكارم جديرة ، ومن الأيام مجيرة ......"

أما عن كلام أبى إسحاق الصابى فمنه قوله فى صدر كتاب : " الحمد لله الذى لا تدركه الأعين بألحاظها ، ولا تحده الألسن بألفاظها ، ولا تخلقه العصور بمرورها ، ولا تهرمه الدهور بكرورها ". ثم انتهى إلى الصلاة على النبى ﷺ فقال : " لم ير للكفر أثرا إلا طمسه ومحاه ، ولا رسما إلا أزاله وعفاه ....[1] "

وحين نقرأ النموذجين نجد الفرق واضحا بين السجع فيهما . ففى كلام ابن الأثير نجد أن كل واحدة من الفقر المسجوعة تختص بمعنى ليس فى أختها التى تليها . أما كلام الصابى فليس كذلك وإنما فيه تكرير للمعانى بواسطة الألفاظ المترادفة . فلا فرق بين مرور العصور ، وكرور الدهور ، وكذلك لافرق بين محو الأثر ، وعفاء الرسم .

أما ما ورد فى القرآن الكريم من وجود لفظتين بمعنى واحد فى آخر إحدى الفقرتين المسجوعتين كقوله – تعالى – : " واذكُرْ فى الكتَابِ إسماعيلَ إنَّه كانَ صادقَ الوعدِ وكانَ رسولاً نبيًّا [2] " . فكل رسول نبى. فقد أجاب عن ذلك ابن الأثير بأن هذا ليس كالذى اشترطه فى اختصاص

---

١ – المثل السائر ١ / ٢٠١ .

٢ – الآية رقم ٥٤ من سورة مريم .

كل فقرة بمعنى غير الذى اختصت به أختها . وإنما هذا من إيراد لفظتين بمعنى واحد فى آخر إحدى الفقرتين ، وهذا لا بأس به لمكان طلب السجع. فأكثر سورة مريم مسجوعة على حرف الياء فاستدعى السجع الإتيان بمثل ذلك.وهو غير ما اشترطه ابن الأثير من اختصاص كل فقرة بمعنى غير المعنى الذى اختصت به أختها . ألا ترى أن النبى ﷺ غير اللفظة عن وضعها طلبا للسجع فى قوله : " إرجعن مأزورات غير مأجورات " ، فقال (مأزورات) بدلا من (موزورات) . وفى قوله : " أعيذه من الهامة والسامة وكل عين لامة " . فقال (لامة) بدلا من (ملمة) . إلا أنه ليس فى ذلك زيادة معنى ، بل يفهم من (مأزورات) أنها قائمة مقام (موزورات) ويفهم من (لامة) أنها بمعنى (ملمة) . فالسجع قد أجيز معه تغيير وضع اللفظة ، وأجيز معه إيراد لفظتين بمعنى واحد فى آخر إحدى الفقرتين . ومع هذا فلم يجز فى استعماله إيراد فقرتين بمعنى واحد لأنه تطويل لا فائدة فيه [1] .

وقسم ابن الأثير السجع باعتبار التناسب بين فقراته إلى ثلاثة أقسام:

الأول : - أن يكون الفصلان متساويين لا يزيد أحدهما على الآخر. كقوله - تعالى - : ﴿ فأمَّا اليتيمَ فلا تقهَرْ . وأما السَّائِلَ فلا تَنْهَرْ ﴾ [2] . وقوله - تعالى - : ﴿ والعاديات ضَبْحًا . فالمُورِيات قَدْحًا .

١ - المثل السائر ١ / ٢٠٤.

٢ - الآيتان ٩، ١٠ من سورة الضحى .

فالمُغيرات صُبْحًا . فأثَرْنَ به نقعاً . فوسَطْنَ به جَمْعاً ﴾ [١] . وأمثال هـذا فى القرآن الكريم كثير ، وهو أشرف السجع منزلة للاعتدال الذى فيه .

الثانى : — أن تكون الفقرة الثانية أطول من الأولى لا طولا يخرج به عن حد الاعتدال خروجا كثيرا . فإنه إن كان كذلك كان قبيحا مستكرها . ومن ذلك قوله — تعالى — : ﴿ بل كذَّبوا بالسَّاعةِ وأعتَدْنا لِمَن كذَّبَ بالسَّاعةِ سعيرا . إذا رأتْهُم من مكانٍ بعيدٍ سمِعُوا لها تغيُّظًا وزفيرا . وإذا ألقُوا مِنْها مكانًا ضيِّقًا مقرَّنين دَعَوْا هنالِكَ ثُبُورا ﴾ [٢] . فالأولى ثمانى لفظات ، والثانية تسع ، والثالثة تسع كذلك . وأمثال هذا فى القرآن الكريم كثير أيضا .

والثالث : أن تكون الفقرة الثانية أقصر من الأولى . وهذا عند ابن الأثير معيب فاحش ؛ وذلك أن السجع يكون قد استوفى أمده من الفقرة الأولى بحكم طوله ، ثم تجئ الفقرة الثانية قصيرة عن الأولى فتكون كالشئ المبتور فيبقى الإنسان عند سماعه كمن يريد الانتهاء إلى غاية فيتعثر دونها .

وقد ذكر أبو هلال العسكرى أحد هذه الأقسام وهو الأول ، وذكر للسجع قسمين آخرين لم يذكرهما ابن الأثير . أحدهما أن تكون ألفاظ الجزأين المزدوجين مسجوعة فيكون الكلام سجعا فى سجع . مثل قول القائل : " حتى عاد تعريضك تصريحا ، وتمريضك تصحيحا .

---

١ — الآيات من ١ : ٥ من سورة العاديات .

٢ — الآيات ١٠ ، ١١ ، ١٢ من سورة الفرقان .

فالتعريض والتمريض سجع . والتصريح والتصحيح سجع آخر .
وثانيهما: أن تكون الأجزاء متعادلة ، وتكون الفواصل على أحرف متقاربة المخارج إذا لم يمكن أن تكون من جنس واحد [١] .

وقسم ابن الأثير السجع باعتبار طول فقراته بصفة عامة إلى قسمين:
أحدهما : يسمى السجع القصير . وهو أن تكون كل واحدة من السجعتين مؤلفة من ألفاظ قليلة ، وكلما قلت الألفاظ كان السجع أحسن ؛ لقرب الفواصل المسجوعة من سمع السامع . ويرى ابن الأثير أن هذا الضرب أوعر السجع مذهبا وأبعده متناولا . وهو كثير في القرآن الكريم . ومنه قوله - تعالى - ﴿ يا أيُّهَا المدثِّرُ . قُمْ فأنذِر . وربَّكَ فكبِّرْ . وثيابَكَ فطهِّرْ . والرُّجْزَ فاهْجُر . ولا تمنُنْ تستكثِر . ولربِّك فاصْبِرْ ﴾[٢] .

والضرب الآخر : يسمى السجع الطويل وهو ضد الأول لأنه أسهل متناولا . وإنما كان قصير السجع أوعر مسلكا من الطويل لأن المعنى إذا صيغ بألفاظ قصيرة عز مواتاة السجع فيه لقصر تلك الألفاظ وضيق المجال في استجلابه .

وكل واحد من هذين الضربين تتفاوت درجاته من حيث عدد الألفاظ . فالسجع القصير أحسنه ما كان مؤلفا من لفظتين لفظتين كآيات سورة المدثر السابقة . ومنه ما يكون مؤلفا من ثلاثة ألفاظ أو أربعة أو

---

١ - الصناعتين ٢٦٣ .
٢ - الآيات ١ : ٧ من سورة المدثر .

خمسة إلى العشرة . وما زاد على ذلك فهو الطويل .

وأما السجع الطويل فتتفاوت درجاته أيضا فى الطول ، فمنه ما يقرب من السجع القصير وهو ما كان مؤلفا من إحدى عشرة إلى اثنتى عشرة لفظة ، وأكثره خمس عشرة لفظة . كقوله – تعالى – ﴿ ولئنْ أذقْنا الإنسانَ منَّا رحمةً ثم نزعناهَا منه إنَّه ليئوسٌ كفور . ولئن أذقنَاه نَعْمَاءَ بعد ضرَّاءَ مسته ليقولَنَّ ذهبَ السيئاتُ عنّى إنه لفَرِحٌ فخور ﴾ [1]. فالأولى إحدى عشرة لفظة ، والثانية ثلاث عشرة لفظة .

ومن السجع الطويل ما يكون تأليفه من العشرين لفظة فما حولها . ومنه ما يزيد على هذا العدد وهو غير مضبوط [2] .

وهكذا أتى ابن الأثير فى كلامه عن السجع بالكثير من الأصول والقواعد التى هذبت منه وجعلته فنا له أثره فى تهذيب الكلام وتحسينه .

وجعل ابن الأثير السجع خاصا بالنثر ، وجعل التصريع فى الشعر بمنزلة السجع فى الكلام المنثور . وذكر أن فائدة التصريع فى الشعر أنه يدل على قافية القصيدة قبل كمال البيت الأول منها . وشبه البيت المصرع بباب له مصراعان متشاكلان . وفيه دلالة على سعة قدرة الشاعر فى أفانين الكلام . فأما إذا كثر التصريع فى القصيدة لم يكن حسنا لما تبدو عليه من أمارات الكلفة .

١ – الآيتان ٩ ، ١٠ من سورة هود .
٢ – المثل السائر ١ / ٢٣٦ .

والتصريع عند ابن الأثير ينقسم إلى سبع مراتب .

الأولى : وهى أعلى التصريع درجة - أن يكون كل مصراع من مصراعى البيت مستقلا بنفسه فى فهم معناه ، غير محتاج إلى صاحبه الذى يليه . ويسمى هذا التصريع الكامل . ومنه قول امرئ القيس :

أفاطمَ مهلاً بعضَ هذا التدلُّلِ وإن كنتِ قد أزمعْتِ صَرْمِى فأجمِلى

الثانية : أن يكون المصراع الأول مستقلا بنفسه غير محتاج إلى الذى يليه . فإذا جاء الثانى كان مرتبطا به . ومنه قول امرئ القيس :

قِفا نبكِ مِنْ ذِكرَى حبيبٍ ومنزلِ بسَقْطِ اللِّوَى بين الدَّخولِ فَحَوْمَلِ

وقول أبى تمام :

ألم يَأنِ أن تُروَى الظِباءُ الحوائمُ وأن ينظِمَ الشملَ المبَدَّدَ ناظِمُ

الثالثة : أن يكون الشاعر مخيرا فى وضع كل مصراع موضع صاحبه، ويسمى التصريع الموجه . ومنه قول ابن الحجاج البغدادى :

من شروطِ الصَّبُوحِ فى المهرجانِ خفةُ الشَّرْبِ مع خلو المكانِ

فهذا البيت من الممكن جعل مصراعه الأول ثانيا ، والثانى أولا . وهذه المرتبة كالثانية فى الجودة .

الرابعة : أن يكون المصراع الأول غير مستقر بنفسه ولا يفهم معناه إلا بالثانى . ويسمى التصريع الناقص . وليس هذا النوع بمرضى ولا حسن . ومنه قول المتنبى :

مَغَانِى الشِّعْبِ طيبًا فى المغانى   بمنزلةِ الربيعِ من الزمانِ

الخامسة : أن يكونَ التصريع فى البيت بلفظة واحدة وسطا وقافية . ويسمى التصريع المكرر . وهو قسمان : أحدهما أن يكون بلفظة حقيقية لا مجاز فيها ، وهو أنزل الدرجتين . كقول عبيد بن الأبرص :

فكــلُّ ذِى غيبةٍ يئوبُ   وغـائبُ الموتِ لا يئوبُ

والآخر أن يكون التصريع بلفظة مجازية يختلف المعنى فيها كقـول أبى تمام :

فتىً كان شِرْبًا للعفاةِ ومرتَعاً   فأصبح للهنديَّةِ البيضِ مرتَعا

السادسة : أن يذكر المصراع الأول ويكون معلقا على صفة يـأتى ذكرها فى أول المصراع الثانى ، ويسمى التصريع المعلق . ومنه قول امرىء القيس :

أَلَا أيُّها الليلُ الطويلُ أَلَا انجلى   بصبحٍ وما الإصباحُ منك بأمثَلِ

فالمصراع الأول معلق على قوله (بصبح) وهذا عند ابـن الأثـير معيب جدا .

السابعة : أن يكون التصريع فى البيت مخالفا لقافيتـه . ويسـمى التصريع المشطور وهو أنزل درجات التصريع وأقبحها . ومنه قـول أبى نواس :

أقِلْنى قد ندمتُ على الذنوبِ   وبالإقرارِ عدت عن الجُحودِ

فصرع بحرف الباء فى وسط البيت ثم قفاه بحرف الدال . وهذا قليل

نادر الاستعمال [١] .

وقال ابن الأثير -كما قال قبله ابن سنان الخفاجى،[٢] وابن رشيق[٣]- بحسن التصريع إذا قل فى الكلام ، وجرى مجرى الغرة من الوجه أو الطراز من الثوب ، مثله فى ذلك مثل الترصيع والتجنيس ، والطباق . أما إذا تواترت هذه الأنواع وكثرت لم تكن مرضية ، وكانت دالة على التكلف . ولكن ابن الأثير لم يتحدث عن موضعه من القصيدة ، وهل يجوز استعماله فى أثنائها أم لا ، كما أشار إلى ذلك ابن سنان وابن رشيق، وكره استعماله فى غير البيت الأول منها . غير أن ابن الأثير قد تفوق على ابن سنان وابن رشيق بتقسيم درجات التصريع إلى المراتب السبعة المذكورة وتأصيله لذلك .

النوع الثانى : التجنيس :

تحدث ابن الأثير عن التجنيس فى الكلام شعره ونثره ، ومدحه فجعله غرة شادخة فى وجه الكلام . وذكر أن علماء البيان قد تصرفوا فيه فغربوا وشرقوا وصنف الناس فيه كتبا كثيرة ، وجعلوه أبوابا متعددة ، واختلفوا فى ذلك .

وذكر السبب فى تسمية هذا النوع بالتجنيس بأن حروف ألفاظه

---

١ - انظر المثل السائر ١ / ٢٣٧ / ٢٤٠ .

٢ - سر الفصاحة ١٨٠ .

٣ - العمدة ١ / ١٧٣ وما بعدها .

يكون تركيبها من جنس واحد . وعرفه بكون اللفظ فيه واحدا ، والمعنى مختلفا . وعلى هذا فإن الجناس هو اللفظ المشترك ، وما عداه فليس من التجنيس الحقيقي في شيء إلا إنه قد خرج من ذلك ما يسمى تجنيسا . وهي تسمية بالمشابهة ولا تدل على حقيقة المسمى بعينه . ويذكر بن الأثير أنه نظر في التجنيس وما شبه به فأجرى مجراه فوجده سبعة أقسام ، واحد منها يدل على حقيقة التجنيس ؛ لأن لفظه واحد لا يختلف ، وستة أقسام خارجة عن التجنيس الحقيقي مشبه به .

فالقسم الأول – وهو التجنيس الحقيقي – هو أن تتساوى حروف ألفاظه في تركيبها ووزنها . ومنه قوله تعالى -: ﴿ ويومَ تقومُ الساعةُ يقسِمُ المجرمون ما لَبِثُوا غيرَ سَاعة﴾ [١] وليس في القرآن الكريم منه سوى هذه الآية . ومنه في الحديث النبوى قول النبيﷺ – للصحابة الذين نازعوا جرير بن عبد الله البجلي زمامه : (خلوا بين جرير والجرير) . أي دعوا زمامه . ومنه قول أبي تمام :

فأصبحت غررُ الأيام مشرقةً ... بالنصر تضحَكُ عن أيامِكَ الغُرر

فالغرر الأولى استعارة من غرر الوجه ، والثانية مأخوذة من غرة الشيء بمعنى أكرمه . فاللفظ واحد والمعنى مختلف .[٢]

وأما الأقسام الستة المشبهة بالتجنيس الحقيقي فالقسم الأول منها أن تكون الحروف متساوية في تركيبها ، مختلفة في وزنها . ومنه قول

---

١ – من الآية رقم ٥٥ من سورة الروم .
٢ – المثل السائر ١ / ٢٤١ .

النبي ﷺ :" اللهم كما حسنت خَلْقي حسن خُلُقي " ومنه قول بعضهم : " لا تنال غرر المعاني إلا بركوب الغَرَر واهتبال الغُرَر" . وقول الشاعر :

قد ذُبْتُ بين حُشَاشَةٍ وذماء ما بين حرِّ هوًى وحرّ هَوَاءِ

والقسم الثاني : هو أن تكون الألفاظ متساوية في الوزن مختلفة في التركيب بحرف واحد لا غير . فإن زاد على ذلك خرج من التجنيس ومن هذا القسم قوله - تعالى - : "ووجُوهٌ يومئذٍ ناضرةٌ.إلى ربِّها ناظرة"[1]. وقوله - تعالى- : " وهُمْ ينهَوْنَ عنه وينْأَوْنَ عنه " [2] ومنه قول النبي ﷺ :" الخيلُ معقودٌ بنواصيها الخير " . وقول أبي تمام :

يمدُّون من أيدٍ عواصٍ عواصِمِ تصولُ بأسيافٍ قواضٍ قواضبِ

والقسم الثالث : هو أن تكون الألفاظ مختلفة في الوزن والتركيب بحرف واحد . ومنه قوله - تعالى - : " والتفت السَّاقُ بالسَّاقِ . إلى ربِّك يومئذ المَسَاق " .[3] وقوله - تعالى - " وهم يحسَبُون أنهُم يحسِنُون صنعا"[4] .وقول النبي ﷺ : " المسلمُ من سَلِم المسلمُون من لسانِهِ ويده". وقول أبي تمام :

أيام تَدمى عينَه تلك الدُّمَى فيها وتقمرُ لبَّه الأقمارُ

والقسم الرابع : ويسمى المعكوس . وهو ضربان : أحدهما عكس

---

١ - الآيتان ٢٢ ، ٢٣ من سورة القيامة.
٢ - من الآية رقم ٢٦ من سورة الأنعام .
٣ - الآيتان ٢٩ ، ٣٠ من سورة القيامة .
٤ - من الآية رقم ١٠٤ من سورة الكهف .

الألفاظ ، والآخر عكس الحروف . فالأول كقول بعضهم : عادات السادات سادات العادات . وقول الآخر : شيم الأحرار أحرار الشيم .
ومنه قول الشاعر الجاهلي الأضبع بن قريع :

قد يجمعُ المالَ غيرُ آكلِهِ ... ويأكلُ المالَ غيرُ مَنْ جَمَعَهْ
ويقطَعُ الثوبَ غيرُ لابِسِه ... ويلبَسُ الثوبَ غيرُ مَنْ قَطَعَهْ

ومنه أيضا قول المتنبي :

فلا مجدَ في الدنيا لمن قلَّ مالُه ... ولا مالَ في الدنيا لمن قَلَّ مجدُه

ومن هذا القسم قوله – تعالى – : " يخرِجُ الحيَّ من الميتِ ويخرِجُ الميتَ من الحيِّ "[1] وقول النبي –ﷺ : " جَار الدار أحق بدار الجار".ووسم بن الأثير هذا الضرب من التجنيس بأن له حلاوة وعليه رونق .[2]

ولكني ألا حظ أن هذا الضرب ليس من التجنيس؛ لأن الشرط الأول في التجنيس عموما أن تكون الألفاظ مختلفة المعنى ، وما جاء به ابن الأثير من أمثلة لهذا الضرب ليس بين الألفاظ المتجانسة فيها اختلاف في المعنى .

والضرب الثاني من التجنيس المعكوس هو عكس الحروف . كقول بعضهم :

---

١ – من الآية رقم ١٩ من سورة الروم .
٢ – المثل السائر١ / ٢٥٥ .

جاوبتُها والريحُ تجذبُ عقربًا من فوقِ خدٍ مثل قلبِ العَقْرَبِ
وطفقتُ ألثُمُ ثغرَها فتمنَّعتْ وتحجَّبتْ عنى بقلبِ العقربِ

وإذا قلب لفظ (عقرب) صار (برقع) . وذكر ابن الأثير أن هذه الضرب نادر الاستعمال ؛ لأنه قلما تقع كلمة تقلب حروفها فيجئ معناها صوابا[1] .

وأنا أرى أن هذا الضرب أيضا ليس له علاقة بالتجنيس لأن المتكلم لم ينطق بكلمتين متجانستين ، وإنما ذكر كلمة وأراد مقلوبها لتكون متجانسة مع هذه الكلمة . والجناس إنما هو ضرب بلاغى بين كلمتين مذكورتين فعلا على وجه مخصوص.

والقسم الخامس : وهو المسمى بالمجنب . وهو أن يجمع مؤلف الكلام بين كلمتين إحداهما كالتبع للأخرى والجنيبة لها . ومنه قول بعضهم :

أبا العباسِ لا تحسَبْ بأنّى لشيءٍ من حِلى الأشعارِ عارى
فلى طبعٌ كسلسالٍ مَعينٍ زلالٍ مِن ذرا الأحجارِ جارى

ويرى ابن الأثير أن هذا القسم أولى بأن يلتحق بلزوم مالا يلزم من أن يلتحق بالتجنيس ؛لأن التجنيس هو اتفاق اللفظ واختلاف المعنى . وهنا لم يتفق إلا جزء من اللفظ وهو أقله ، وأما اللزوم فى الكلام المنثور فهو تساوى الحروف التى قبل الفواصل المسجوعة .وهذا هو كذلك لأن

---
١ - المثل السائر ١ / ١٥٧ .

العين والألف والراء تساوت فى البيت الأول بين(الأشعار وعار) ، والجيم والألف والراء اتفقت فى البيت الثانى بين(الأحجار) و(جارى) [١] .

وأنا أتفق مع ابن الأثير فى هذا ؛ لأن الكلمتين فى هذا القسم لم تتفق فى كل الحروف أو فى معظم الحروف كما هو الشرط في التجنيس ، وإنما اتفقتا فى أقل من نصف حروف الكلمة الطويلة . وهذا ما يخرجه من التجنيس .

والقسم السادس : هو ما يساوى وزنه تركيبه غير أن حروفه تتقدم وتتأخر . ومن ذلك قول أبى تمام :

بيضُ الصَّفائحِ لا سودُ الصحائفِ فى متونِـهنَّ جـلاءُ الشكِّ والريبِ

فالصفائح والصحائف مما تقدمت بعض حروفه وتأخرت . ومما ورد منه فى المنثور قول النبى - ﷺ - فى فضيلة تلاوة القرآن الكريم : " يقال لصاحب القرآن : اقرأ وارق واتل كما كنت ترتل فى الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأ " . فقوله : (اقرأ) و (ارق) من هذا القسم المشار إليه [٢] .

وعلى هذا النحو من التقسيم والتفريع والتبويب والتنظيم يؤصل ابن الأثير لباب التجنيس ، ويضع له الأسس والقواعد التى توضحه ، وتحدد صوره وأشكاله . ولقد قرأت باب الجناس فى مؤلفات بعض

---

١ - المثل السائر ١ / ٢٥٧ .

٢ - المثل السائر ١ / ٢٥٨ .

البلاغيين والنقاد قبل ابن الأثير فما وجدت فى كلامهم شيئا من هذا التبويب والتنظيم ، وإنما وجدت كلاما عاما ، مع ذكر أمثلة لبعض الشعراء المكثرين منهم والمقلين فى استخدامهم للتجنيس بحيث يعد كلام ابن الأثير بالنسبة لما تحدَّثُ ثوابه فى هذا الباب جديدا ، ويعد ابن الأثير بالنسبة لهم رائدا فى هذا الميدان (١) . حتى إن عبد القاهر الجرجانى - وهو إمام البلاغيين - قد اقتصر فى كلامه عن التجنيس ببيان فضيلته وأثره فى الكلام ، وجاء حديثه عن ذلك مختصرا للغاية (٢) .

النوع الثالث : الترصيع :

تحدث ابن الأثير عن الترصيع وذكر أنه مأخوذ من ترصيع العقد . وذاك بأن يكون فى أحد جانبى العقد من اللآلئ مثل ما فى الجانب الآخر . وذكر ابن الأثير أن هذا اللون لا يوجد فى كتاب الله - تعالى - منه شئ لما فيه من زيادة التكلف . فأما ما ذكره بعضهم بأن فى القرآن الكريم شيئا منه كقوله - تعالى : ﴿ إنَّ الأبرارَ لَفِى نعيمٍ . وإن الفجَّارَ لفِى جَحيم﴾(٣)، فليس هذا من الترصيع ؛ لأن لفظة (لفِى) قد وردت فى الفقرتين معا ، وهذا يخالف شرط الترصيع ، وإن كان هذا قريبا منه .

---

١ - اقرأ : سرالفصاحة لابن سنان الخفاجى ١٨٣ : ١٨٨ . والصناعتين لأبى هلال العسكرى ٣٢١ : ٣٣٦ . والعمدة لابن رشيق ١ / ٣٢١ : ٣٣٢ .

٢ - انظر : أسرار البلاغة - شرح وتعليق د / محمد عبد المنعم خفاجى - مكتبة القاهرة - ط ٣ - ١٩٧٩ م - ١ / ٩٩ ، ١٠٠ .

٣ - الآيتان ١٣ ، ١٤ من سورة الانفطار .

وأما فى الشعر فذكر ابن الأثير أنه لم يجد من الترصيع شيئا فى الشعر القديم لكنه عثر على شئ منه فى شعر المحدثين وإن كان قليلا جدا . ومنه قول بعضهم :

فمكارمٌ أوليتَهَا متبرِّعًا وجرائمٌ ألفيتَها متورِّعا

(فمكارم) بإزاء (جرائم)، (وأوليتها) بإزاء (ألفيتها) ، و (متبرعا) بإزاء (متورعا) .

ومن الترصيع فى المنثور قول الحريرى فى إحدى مقاماته : (فهو يطبع الأسجاع بجواهر لفظه ، ويقرع الأسماع بزواجر وعظه) . وقول ابن الأثير فى جواب كتاب إلى بعض الإخوان : (وشته فطرة التصوير ، وحشته فكرة التزوير) . وقول بعضهم : (من أطاع غضبه ، أضاع أدبه) .

وذكر ابن الأثير أن بعض النقاد أجاز أن يكون أحد ألفاظ الفصل الأول مخالفا لما يقابله من الفصل الثانى . وإن كان ابن الأثير لم يوافق على هذا لمخالفته حقيقة الترصيع . ومثل لذلك بقول ذى الرمة :

كَحْلاءُ فى دَعَجٍ صفراءُ فى نَعَجٍ كأنها فضةٌ قد مسَّهَا ذَهَبُ (1)

ولعله يشير (ببعضهم) إلى قدامة بن جعفر الذى ذهب إلى أن هذا من الترصيع وأنه كثير فى شعر القدماء والمحدثين من الشعراء الفحول . وذكر من أمثلة هذا النوع من الترصيع أمثلة كثيرة من شعر القدماء ،

---

١ - المثل السائر ١ / ٢٥٨ ، ٢٥٩ .

ومنها قول امرئ القيس :

مخشٌّ مجشٌّ مقبلٍ مدبرٍ معـــاً ... كتيــس ظباء الحلَّب العدوانِ

وقول زهير بن أبي سلمى :

كبداءُ مقبلةً وركاءُ مدبــرةً ... قوداءُ فيها إذا استعرضتَها خَضَعُ

وقول طرفة بن العبد :

بطيءٌ إلى الداعي سريعٌ إلى الخنَا ... ذلولٌ بإجماع الرجالِ ملهدُ

وقول الأفوه الأودى :

سودٌ غدائرُها بُلْجٌ محاجرُهَا ... كأن أطرافَها لما اختلى الطنفُ

بل وذكر أن من الشعراء القدماء والمحدثين من نظم شـــعره كلــه ووالى بين أبيات كثيرة مرصعة ، ومنهم أبو صخر الهذلى ، وأبو المثلـــم ، وذكر أن هذا غالبا ما يدل على التكلف [١] .

وقد اتفق ابن سنان الخفاجى مع قدامة بن جعفر فيما قاله فى هـــذا الشأن وذكر له العديد من الأمثلة التى ذكرها قدامة [٢] . ووافقهما أبـــو هلال العسكرى فيما قالاه ، وذكر لذلك العديد من الأمثلة [٣] .

ولم يرتض ابن الأثير ما ذهب إليه هؤلاء من اعتبار هذا من بـــاب الترصيع ، لأن حقيقة الترصيع عنده هو أن تكون كل لفظة من ألفـــاظ

---

١ - انظر : نقد الشعر - تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجى - مكتبة الكليات الأزهريـة - ط ١ - ١٩٧٨ م - ص ٨٠ : ٨٥ .

٢ - انظر : سر الفصاحة ١٨١ .

٣ - انظر : الصناعتين ٣٧٥ : ٣٧٩ .

الفصل الأول مساوية لكل لفظة من ألفاظ الفصل الثانى . وهذا موجـــود فيما ذهب هو إليه دون غيره [١] .

النوع الرابع : لزوم ما لا يلزم :

وصف ابن الأثير هذا النوع بأنه من أشق هذه الصناعـــة مذهبـــا وأبعدها مسلكا . وذلك لأن مؤلفه يلتزم ما لا يلزمه . فـــإن الـــلازم فى الكتابة إنما هو السجع الذى هو تساوى أجزاء الفواصل من الكلام المنثور فى قوافيها . وهذا فيه زيادة على ذلك ، وهو أن تكون الحروف التى قبـــل الفاصلة حرفا واحدا . وهو فى الشعر أن تتساوى الحروف التى قبـــل روى الأبيات الشعرية .

ومن هذا النوع فى المنثور ما ذكره ابن الأثير فى جملة كتاب يتضمـــن ذم جبان فقال : " إذا نزل به خطب ملكه الفرق ، وإذا ضل فى أمر لم يؤمـــن إلا إذا أدركه الغرق " [٢] .

وقرر ابن الأثير أنه لا ينبغى لمؤلف الكلام أن يستعمل هذا النـــوع ؛ لأنه لا يستقيم له إلا إذا كان متكلفا غالبا . ومثاله فى هذا المقام كمـــــن أخذ موضوعا رديئا فأجاد فيه صنعته فإنه يكون عند ذلك قد راعى الفرع وأهمل الأصل ، فأضاع جودة الصنعة فى رداءة الموضوع [٣] .

---

١ – المثل السائر ١ / ١٦١ .
٢ – المثل السائر ١ / ٢٦٢ .
٣ – المثل السائر ١ / ٢٦٣ .

ولم أجد ممن رجعت إليهم من النقاد من نبه إلى هذا الموضوع غير ابن الأثير ، وإن كان أبو هلال العسكرى قد أشار إشارة خفيفة إلى فرع منه فقال فى حديثه عما يحتاج إليه الكاتب إلى ارتسامه وامتثاله فى مكاتباته[١]:

" واعلم أن الذى يلزمك فى تأليف الرسائل والخطب هو أن تجعلها مزدوجة فقط ولا يلزمك فيها السجع . فإن جعلتها مسجوعة كان أحسن ما لم يكن فى سجعك استكراه وتنافر وتعقيد . وكثر ما يقع ذلك فى السجع ، وقل ما يسلم - إذا اطال - من استكراه وتنافر " .

وذكر ابن الأثير أن العرب قد جاء فى شعرهم من هذا النوع شئ قليل . ومنه قول بعضهم :

إن التى زعمَتْ فؤادَك ملَّها ... خَلَقتْ هواكَ كما خَلَقْتَ هوًى لها

بيضاءُ باكرَها النعيمُ فصَاغَها ... بلباقَةٍ فأدقَّهَا وأجلَّها

حجبت تحيتَها فقلتُ لصاحِبى ... ما كان أكثرَها لنا وأقلَّها

وإذا وجدتَ لها وساوِسَ سلوَةٍ ... شفع الضميرُ إلى الفؤاد فسَلَّها

ومنه قول حجر بن حية العبسى[٢] :

ولا أدوِّمُ قِدْرى بعد ما نضجَتْ ... بُخْلاً فتمنع ما فيها أثا فيها

حتى تقسم شقَّ بين ما وسِعَتْ ... ولا يؤنبُ تحت الليلِ عافيها

---

١ - الصناعتين ١٥٩ .

٢ - المثل السائر ١ / ٢٦٦ .

وفرق ابن الأثير بين لزوم ما لا يلزم ، وبين حرف الروى فى الشعر. ومن هنا اعترض على من قال بأن قول الشاعر :

وَفَيْشَةٍ ليست كهذى الفَيْشِ قد ملئتْ من تَرَفٍ وطَيْش
إذا بدتْ قلتَ أميرَ الجيشِ مَنْ ذاقها يعرفْ طعمَ العيش

من باب لزوم ما لا يلزم . ولم يوافق ابن الأثير على هذا ؛ لأن اللزوم هو أن يلتزم الناظم والناثر ما لا يلزمه كقولنا مثلا : شرق ، وفرق. أما فى البيتين السابقين وما ماثلهما فالأمر مختلف ؛ لأن الياء قبل الشين فى البيتين هو الردف . وإذا جاء ذلك فى الشعر أو فى الكلام المنثور لا يقال إنه التزام ما لا يلزم ؛ لأن الملتزم ما لا يلزم له مندوحة فى العدول إلى غيره وههنا لا مندوحة [1] .

وإذا صغرت الكلمة الأخيرة ، من بيت الشعر أو فواصل الكلام المنثور فإن ذلك يكون من باب اللزوم أو ملحقا باللزوم كما يقول ابن الأثير ، ولا تكون ياء التصغير حينذاك ردفا ، ويكون التصغير عوضا عن تساوى الحروف قبل روى الأبيات الشعرية ، والحروف التى قبل الفاصلة من النثر . ومن ذلك قول بعضهم [2] :

عزَّ على ليلَى بذات سُدَير سوءُ مبيتى ليلةَ الغُمَير
مقضَّبًا نفسى فى طُمَير تنتهز الرعدةَ فى ظُهَيرى
يهفُو إلىَّ الزورُ من صُدَيرى ظمآن فى ريحٍ وفى مُطَير

١ — المثل السائر ١ / ٢٧٠ .
٢ — المثل السائر ١ / ٢٧٠ .

وازِرٍ قـــــرٍ ليـــــسَ بـــــالغُرير   مِـنْ لَـدُ مـا ظُـهْرٍ إلى سُـحَير
حـــتى بَـدَتْ لى جبهَـةُ القُمَـيرِ   لأربـعٍ خلَـوْنَ مـــن شُـهَير

وذكر ابن الأثير أنه قد ورد فى القرآن الكريم شئ يسير جدا من بـــاب اللزوم. ومنه قوله – تعالى – : ﴿ اقرأْ باسم ربِّك الذى خَلَـــق . خلــقَ الإنسانَ من علقٍ﴾ [1] . وقولـه – تعـالى – : ﴿ والطّـــور . وكتـــابٍ مسطور﴾ [2] . وقوله – تعالى – : ﴿ فذكِّرْ فما أنتَ بنعمة ربِّك بكــاهنٍ ولا مجنون . أم يقولونَ شاعرٌ نتربَّصُ به ريــبَ المنُــون ﴾ [3] . وقولـــه – تعالى– : ﴿ فى سِدرٍ مخضودٍ . وطلحٍ منضود ﴾ [4] . وغير ذلـــك فى القرآن الكريم ولكنها قليلة على كل حال .

وهكذا وضع ابن الأثير الأصول والقواعد التى يقوم عليـــها هـــذا النوع . وكان رائدا فى هذا الميدان . غير أنى لا أوافقه على وجود هـــذا النوع فى القرآن الكريم لأنه ينسب فى معظمه إلى التكلـــف ، والقـــرآن الكريم برئ من ذلك كل البراءة .

النوع الخامس : الموازنة :

وعرفها ابن الأثير بقوله : " وهى أن تكون ألفاظ الفواصـــل مـــن الكلام المنثور متساوية فى الوزن ، وأن يكون صـــدر البيـــت الشـــعرى

---

١ – الآيتان ١ ، ٢ من سورة العلق .
٢ – الآيتان ١ ، ٢ من سورة الطور .
٣ – الآيتان ٢٩ ، ٣٠ من سورة الطور .
٤ – الآيتان ٢٨ ، ٢٩ من سورة الواقعة .

وعجزه متساوي الألفاظ وزنا " [١] . وبين ابن الأثير فائدتها فى الكلام بأنها تضفى على الكلام رونقا . وسبب ذلك الاعتدال فإنه إذا كانت مقاطع الكلام معتدلة وقعت من النفس موقع الاستحسان .

وهناك علاقة قوية بين السجع والموازنة . فالموازنة أخت السجع فى المعادلة دون المماثلة ؛ لأن فى السجع اعتدالا وزيادة على الاعتدال وهى تماثل أجزاء الفواصل لورودها على حرف واحد . أما الموازنة ففيها الاعتدال الموجود فى السجع ولا تماثل فى فواصلها . فيقال إذن : كل سجع موازنة ، وليس كل موازنة سجعا . فالسجع أخص من الموازنة إذن. وهذا رأى ابن الأثير [٢] ، وعليه فإن مثل قوله – تعالى – : ﴿ فأما اليتيمَ فلا تقهَرْ . وأما السَّائِل فلا تَنْهَرَ ﴾ سجع وموازنة . اما ما هو مثل قوله – تعالى – : ﴿ وآتيناهما الكتابَ المستبين . وهديناهُما الصِّراطَ المستقيم﴾ [٣] . فهو موازنة وليس سجعا .

وقد وردت الموازنة كثيرا فى القرآن الكريم . بل معظم آياته جارية على هذا النهج حتى إنه لا تخلو منه سورة من السور . ومنه قوله –تعالى– ﴿ مَنْ أعرَضَ عنه فإنه يحملُ يومَ القيامةِ وزراً . خالدين فيه وسَاءَ لهم يومَ القيامةِ حِمْلا ﴾ [٤] . وأما ما ورد شعرا من هذا النوع فمنه قول ربيعة

---

١ – المثل السائر ١ / ٢٧٢ .
٢ – المثل السائر ١ / ٢٧٢ .
٣ – الآيتان ١١٧ ، ١١٨ من سورة الصافات .
٤ – الآيتان ١٠٠ ، ١٠١ من سورة طه .

ابن ذؤابة :

إنْ يقتلوك فقد ثَلَلْتَ عروشَهُمُ ... بعتيبــةَ بن الحرثِ بن شهابِ

بأشدِّهِــم بأساً على أصحابه ... وأعزِّهِمْ فقداً على الأصحابِ

والموازنة فى البيت الثانى بين (بأشدهم بأسا) و (أعزهم فقدا).[1]

النوع السادس : اختلاف صيغ الألفاظ واتفاقها :

وأعلى ابن الأثير من هذا النوع وجعله من صناعة تأليف الكـــلام بمنزلة علية ،ومكانة شريفة . وجل الألفاظ اللفظية منوطة به .

ويرى ابن الأثير أن صيغ الألفاظ إذا نقلت من هيئة إلى هيئة كنقلها مثلا من وزن من الأوزان إلى وزن آخر ، أو كنقلها من صيغة الاســم إلى صيغة الفعل ، أو من صيغة الفعل إلى صيغة الاسم ، أو كنقلها من المـاضى إلى المستقبل أو من المستقبل إلى الماضى ، أو من الواحد إلى التثنيــة أو إلى الجمع أو إلى النسب أو إلى غير ذلك انتقل قبحها فصار حسنا ، وحسـنها فصار قبحا . وضرب لذلك ابن الأثير المثل ببعض الألفاظ التى تحســن فى تركيب وتقبح فى آخر ، أو تكون حسنة فى صيغة ما وقبيحة فى صيغــة أخرى وهكذا .

فمن ذلك لفظة (خود) فهى تعنى المرأة الناعمة . وإذا نقلــت إلى صيغة الفعل فقيل (خَوَّد) على وزن (فَعَّل) ومعناها (أسرع) رأيتــها على صيغة الاسم حسنة رائقة ، وإذا جاءت على صيغة الفعــل لم تكــن

---

١ - المثل السائر ١ / ٢٧٣ ، ٢٧٤ .

حسنة . كما نراها فى قول أبى تمام :

وإلى بنى عبدِ الكريمِ تواهَقَتْ   رتك النعام رأى الظلام فخوَّدَا

وإذا نقلت هذه اللفظة من الحقيقة إلى المجاز خف عنها ذلك القبح . كقول أحد شعراء الحماسة :

أقولُ لنفسِى حين خــوَّدَ رألُها   رويدكِ لما تشفِقِى حين مشفِقِ
رويدكِ حتى تنظرى عمَّ تنجلى   غيابــةَ هذا البارقِ المتألقِ

والرأل : النعام . والمراد به هنا أن نفسه فرت وفزعــت . وشبه ذلك بإسراع النعام فى فراره وفزعه . ولما أورده الشاعر على حكم المجـاز خف بعض القبح على لفظة (خوَّد) [١] .

ومن هذا النوع لفظة (وَدَع) وهى فعل ماض ثلاثى لا ثقــل بهــا على اللسان . ومع ذلك فلا تستعمل على صيغة الفعل الماضى إلا جاءت غير مستحسنة . أما إذا استعملت بصيغة المضارع أو الأمر جاءت حسنة. ولذا لم تأت فى القرآن الكريم إلا بصيغة الأمر ، كقوله - تعــالى - ﴿ ولا تُطعِ الكافرين والمنافقين وَدَعْ أذاهُم وتوكَّلْ على الله ﴾ [٢] . واســتعملت فى الحديث النبوى بلفظ المضارع كقوله - ﷺ - وقد واصــل فى شــهر رمضان فواصل معه قوم : " لو مد لنا الشهر لواصلنا وصالا يـــدع لــه المتعمقون تعمقهم " . وجاءت فى قول المتنبى بصيغــة المســتقبل أيضــا فحسنت ، كقوله :

---

١ - المثل السائر ١ / ٢٧٤ ، ٢٧٥ .
٢ - من الآية رقم ٤٨ من سورة الأحزاب .

تشقكم بقناها كل سلهبة   والضرب يأخذ منكم فوق ما يدع

أما الماضى من هذه اللفظة فلم يستعمل إلا شاذا ولا حسن له كقول أبى العتاهية :

أثروا فلم يدخلوا قبورهم   شيئا من الثروة التى جمعوا
وكان ما قدموا لأنفسهم   أعظم نفعا من الذى ودعوا

فهذا غير حسن فى الاستعمال . وهذه لفظة واحدة لم يتغير من حالها شئ سوى أنها نقلت من الماضى إلى المستقبل أو الأمر ، فتغيرت من قبيح إلى حسن (١) .

ومثل ذلك لفظة (وذر) . فهى لا تستعمل ماضية ، ولم ترد فى القرآن الكريم إلا بصيغتى المضارع والأمر . ولو استعملت بصيغة الماضى كانت شاذة قبيحة (٢) .

ومن أمثلة ابن الأثير لهذا النوع أيضا كلمة (الأخدع) وذكر أنها وردت فى بيتين من الشعر وكانت فى إحداهما حسنة رائقة ، وفى الآخر ثقيلة مستكرهة . فقد جاءت فى قول الصمة بن عبد الملك من شعراء الحماسة :

تلفت نحو الحى حتى وجدتنى   وجعت من الإصغاء ليتا وأخدعا

وقول أبى تمام :

يا دهر قوم من أخدعيك فقد   أضججت هذا الأنام من خرقك

---

١ — المثل السائر ١ / ٢٧٦ .
٢ — المثل السائر ١ / ٢٧٦ .

وذكر أن القارئ يجد لها فى بيت أبى تمام من الثقل على السمع والكراهة فى النفس أضعاف ما يجد لها فى بيت الصمة بن عبد الله من الروح والخفة ، والإيناس والبهجة ، وذكر سبب ذلك أنها جاءت موحدة فى أحدهما مثناة فى الآخر ، وكانت حسنة فى حالة الإفراد مستكرهة فى حالة التثنية [١] .

وابن الأثير فى كلامه عن هذه اللفظة (الأخدع) متأثر إلى حد كبير بكلام عبد القاهر الجرجانى عنها . بل إنه من الممكن القول بأن ابن الأثير متأثر بعبد القاهر فى حديثه عن هذا النوع من الكلام ؛ لأن معنى كلام ابن الأثير هو نفس معنى كلام عبد القاهر فى هذا الصدد . ويتضح ذلك حينما نقرأ كلام ابن الأثير السابق ثم نقرأ كلام عبد القاهر الذى يبين فيه " أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هى ألفاظ مجردة ، ولا من حيث هى كلم مفردة ، وأن الفضيلة وخلافها فى ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التى تليها ، وما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ . ومما يشهد بذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك فى موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك فى موضع آخر كلفظ (الأخدع) فى بيت الحماسة :

تلفَتُّ نحو الحيِّ حتى وجدتُنى وجعتُ من الإصغاء ليتاً وأخدَعَا

وبيت البحترى :

وإنىِّ وإنْ بلغتَنى شرفَ الغِنى وأعتقتَ من رقِّ المطامعِ أخدَعِى

---

١ - المثل السائر ١ / ٢٧٧ .

فإن لها فى هذين المكانين ما لا يخفى من الحسن . ثم إنك تتأملها فى بيت أبى تمام :

يا دَهْرُ قَوِّمْ من أخدعَيْك فقد أضجَجْتَ هذا الأنامَ من خرقك

فتجد لها من الثقل على النفس ومن التنغيص والتكدير أضعاف ما وجدت هناك من الروح والخفة والإيناس والبهجة .

ومن أعجب ذلك لفظة (الشئ) فإنك تراها مقبولة حسنة فى موضع وضعيفة مستكرهة فى موضع .... " [١] .

فالاتفاق بينهما واضح . حتى إن ابن الأثير ليعبر ببعض عبارات عبد القاهر فى ذلك .

كما أن هناك شبها واضحا بين موقف ابن الأثير من لفظة (الأخدع) فى البيتين اللذين ذكرهما ، وبين موقف كل من الآمدى ، والقاضى الجرجانى ، وأبى هلال العسكرى من هذه اللفظة فى البيتين المذكورين . وفى بعض الأبيات الأخرى التى ذكرها هؤلاء وفيها لفظ (الأخدع) . وإن كان هؤلاء النقاد قد ذكروا هذه الأبيات للتمثيل بها على قبح الاستعارة وعدم التوفيق فيها .

فالآمدى ذكر فى (باب ما فى شعر أبى تمام من قبيح الاستعارات)[٢]

---

١ - دلائل الإعجاز ٤٦ ، ٤٧ .

٢ - انظر : الموازنة بين أبى تمام والبحترى - تحقيق : محمد محى الدين عبد الحميد - المكتبة العلمية - بيروت - ط عام ١٩٤٤ م - ص ٢٣٢ .

ثلاثة أبيات لأبي تمام وردت في كل منها كلمـــة (الأخـــدع) ثم قومـــها ونقدها فقال في هذا الصدد : " فمن مرذول ألفاظه وقبيح استعاراته قوله:

يا دَهْرُ قوِّم من أخدعَيْك فقد   أضجَجْتَ هذا الأنامَ من خرقك

وقال :

سأشكرُ فرجَةَ اللَّبَبِ الرخيِّ   وليـــنَ أخـــادِعِ الدهرِ الأبيِّ

وقال :

فضربتُ الشتاءَ في أخدعيْه   ضربةً غادرته عُوداً رَكُوبَا

ثم قال عن البيت الأول : " أي ضرورة دعته إلى الأخدعين ؟ وكان يمكنه أن يقول : (قوم من اعوجاجك) أو (قوم من صنعك) . أي يـــا دهر أحسن بنا الصنيع . لأن الأخرق هو الذى لا يحسن العمل وضــــده الصنع " [١] .

وقال عن البيت الثانى : " وأما قول أبي تمام : (ولين أخادع الدهـــو الأبى) فأى حاجة إلى الأخادع يستعيرها للزمن ، وكان يمكنه أن يقـــول : (ولين معاطف الدهر الأبى ، أو لين جوانب الدهر ، أو خلائق الدهــــر . كما تقول : فلان سهل الخلائق ، ولين الجوانب ، وموطأ الأكتاف . ولأن الدهر قد يكون سهلا وحزنا ولينا وصعبا على قدر تصرف الأحوال فيه . لأن هذه الألفاظ كانت أولى بالاستعمال في هذا الموضع ، وكانت تنـــوب عن المعنى الذى قصده ، ويتخلص من قبح الأخادع ، فـــإن في الكـــلام

---

١ - المرجع السابق ص ٢٤٠ .

متسعا " [١] .

وقال عن البيت الثالث : " فأما قولــه : (فضربــت الشــتاء فى أخدعيه) فإن ذكر الأخدعين - على قبحها - أسوغ لأنه قال (غادرتــه عودا ركوبا) . وذلك أن العود : المسنة من الإبل يضرب على صفحــتى عنقه فيذل . فقربت الاستعارة ههنا من الصواب قليلا " [٢] .

ونجد الآمدى هنا ناقدا موضوعيا يوازن فيستحسن أو يســتهجن ثم يعلل ويقوم فيضع كل شئ موضعه الصحيح ، تساعده على ذلك فطرتــه النقدية وذوقه المصقول ، وقدرته على التمييز بــين الأشــعار ومعانيــها ودرجاها فى الحسن والإجادة .

أما القاضى الجرجانى فقد ذكر لأبى تمام خمسة أبيات وردت فى كــل منها لفظ (الأخدع) ، وذكر أنه أحسن فى واحد منها وأساء فى الباقى .

أما ما أحسن فيه فقوله :

وما هُوَ إلا الوحيُ أو حَدُّ مرهَفٍ ... تــميلُ ظُبَــاهُ أخدعَيْ كل مائِلِ

وما أساء فيه قوله :

ذلَّت بهم عنقَ الخليطِ وربَّمَــا ... كان الـــمُمنع أخدعًا وصَليفا

وقوله :

سأشكرُ فرجَة اللَّبَبِ الرخيِّ ... ولــينِ أخــادعِ الزمنِ الأبيِّ

---

١ - الموازنة ٢٣٨ .

٢ - الموازنة ٢٣٩ .

وقوله :

فضربتُ الشتاءَ فى أخدَعْيه ضَرْبةً غادرتْه عودًا ركُوبَا

وذكر أن البحترى ذكر (الأخدع) صفحا فجاء ذكره له حسنا لطيفا فقال :

عَطَفَ أدكارُك يوم رامَةَ أخدعِى شوقًا وأعناقُ المطىِّ قواصدُ [١]

ثم قال فى موضع آخر مبينا قبح الاستعارة فى أحد أبيات أبى تمام :" وإذا قال أبو تمام :

يادهرُ قوِّمْ منْ أخدعَيْكَ

فإنما يريد : اعدل ولا تجر ، وأنصف ولا تحف ، لكنه لما رآهم قد استجازوا أن ينسبوا إليه الجور ، وأن يقذفوه بالعسف والظلم والخرق والعنف ، وقالوا : قد أعرض عنا وأقبل على فلان ، وقد جفانا وواصل غيرنا ، وكان الميل والإعراض إنما وقع بانحراف الأخدع وازورار المنكب استحسن أن يجعل له أخدعا وأن يأمر بتقويمه . وهذه أمور متى حملت على التحقيق ، وطلب فيها فحص التقويم أخرجت عن طريقة الشعر . ومتى اتبع فيها الرخص وأجريت على المسامحة أدت إلى فساد اللغة واختلاط الكلام . وإنما القصد فيها التوسط والاجتزاء بما قرب وعرف، والاقتصار على ما ظهر ووضح [٢] " .

---

١ - انظر : الوساطة بين المتنبى وخصومه - تحقيق: هاشم الشاذلى - مطبعة دار إحياء الكتب العربية -صـ ٦٣ .

٢ - الوساطة ٣٨٧ ، ٣٨٨ .

وأما أبو هلال العسكرى فقد عاب هو الآخر الاستعارة فى لفـــظ (الأخدع) فى أبيات أبى تمام ، فذكر ثلاثة من الأبيـــات الـــتى ذكرهـــا القاضى الجرجانى والآمدى وعابها عليه [١] .

كما نجد ابن سنان الخفاجى يعيب الاستعارة فى لفـــظ الأخـــادع للدهر فى أبيات أبى تمام فيقول فى الحديث عن الاستعارة فى شعره : " وأما قوله :

يا دهرُ قَوِّمْ من أخدَعَيكَ فقــد أضجَجْتَ هذا الأنامَ من خرقِك

وقوله :

فضربتُ الشتــاءَ فى أخدعَيْـــهِ ضـــربةً غـــادَرَتْهُ عودًا ركُوبا

وقوله :

سأشكرُ فرجَةَ اللَّبَبَ الرخِـــىِّ ولينِ أخـــادِعِ الدهرِ الأبِـــىِّ

فإن أخادع الدهر والشتاء من أقبح الاســـتعارات وأبعدهـــا مما استعيرت له ، وليس بقبح ذلك خفاء . ولا يعرف أبو تمام الوجه الـــذى لأجله جعل للشتاء والدهر أخادع إلا سوء التوفيق فى بعض المواضع"[٢] .

وحين نقرأ ما كتبه ابن الأثير فى باب اختلاف صيغ الألفاظ واتفاقها نجده يتفق فى كثير مع ما ذكره عبد القاهر الجرجانى فى حديثه عن الكلمـة المفردة ومدى صلاحيتها ودرجاتها فى أداء المعنى . وكان تأثره به واضحـا

---

١ - انظر الصناعتين ٣٠٣ ، ٣٠٤ .

٢ - سر الفصاحة ١١٧ ، ١١٨ .

فى حديثه عن لفظة (الأخدع) إلى حد أنه اقتبس بعض عباراته فى هـــذا الشأن كما قلت .

كما يتفق ابن الأثير فى كثير مما ذكره عن لفظ الأخدع مع ما ذكره كل من الآمدى ، والقاضى الجرجانى ، وأبى هلال العسكرى ، وابن سنان الخفاجى عن هذه اللفظة ، وإن جاء حديث هؤلاء عنها من جانب قبـــح الاستعارة فيها ، وجاء حديث ابن الأثير عنها كمثال على اللفظة تحسن فى موضع وتستهجن فى موضع آخر .

ويذكر ابن الأثير فى باب اختلاف صيغ الألفاظ أن بعض الألفـــاظ تحسن إذا جمعت جمعا معينا ، وتقبح إذا جمعت جمعا آخر . ومن هذا قولهم: سهم صائب . فإنه إذا جمع الجمع الحسن الذى يعذب فى الفم قيل : سهام صوائب وصائبات رصيَّب . فإذا جمع الجمع القبيح قيل : سهام صُيُـــب ، على وزن كُتُب .

وكذلك لفظة (أقياد) جمع قيد . مما لا يحسن استعماله على هـــذه الصيغة . والأحسن أن يقال فى جمعه(قيود) . وكذلك لفظة (قُبَب) جمع قبة ، فإن ذلك من المستبشع الكريه ، والأحسن المستعمل هو (قباب)[1].

وذكر أن من المجموع ما يختلف استعماله حسب ما يدل عليـــه وإن كان متفقا فى لفظة واحدة كالعين الناظرة ، وعين الناس وهو النبيه فيهم . فالعين الناظرة تجمع على عيون ، وعين الناس تجمع على أعيان . وهـــذا

---

١ - المثل السائر ١ / ٢٨١ .

يرجع فيه إلى الاستحسان لا إلى جائز الوضع اللغوي [١].

ونصح ابن الأثير الكاتب والناظم أن يتفقد أمثال هـــذه المواضـــع ليتعلم كيف يضع يده في استعمالها. " فكثيرا ما يقع فحـــول الشـــعراء والخطباء فى مثلها . ومؤلف الكلام من كاتب وشاعر إذا مرت به ألفـــاظ عرضها على ذوقه الصحيح ؛ فما يجد الحسن منها مجموعا جمعه . وكذلك يجري الحكم فيما سوى ذلك من الألفاظ " [٢].

النوع السابع : المعاظلة اللفظية :

وتحدث ابن الأثير عن المعاظلة فى الكلام وقسمها إلى معاظلة لفظيـــة ومعاظلة معنوية . وذكر أن المعاظلة اللفظية فى الأصل تعنى الـــتراكب فى الألفاظ . كما أن المعاظلة المعنوية تعنى التراكب فى المعنى . وهى فى اللغـــة مأخوذة من قولهم : تعاظلت الجرادتان ، إذا ركبت إحداهما الأخـــرى . فسمى الكلام المتراكب فى ألفاظه أو فى معانيه معاظلة أخذا من ذلـــك . والمعاظلة مكروهة فى الكلام شعرا ونثرا . ولذا مدح عمر بـــن الخطـــاب زهير بن أبي سلمى فقال : كان لا يعاظل بين الكلام [٣].

وتعريف ابن الأثير للمعاظلة اللفظية وكلامه عن أصلها اللغـــوى قال به بعض علماء البيان قبله ، ومنـــهم الآمـــدى [٤] ، وأبـــو هـــلال

---

١ – المثل السائر ١ / ٢٨٢ .
٢ – المثل السائر ١ / ٢٨٤ .
٣ – المثل السائر ١ / ٢٨٥ .
٤ – انظر الموازنة ٢٥٩ .

العسكرى[١] ، وابن سنان الخفاجى [٢] . أما ابن رشيق فقد نقل أقوال غيره فى تعريف المعاظلة دون أن يذكر هو تعريفا خاصا به [٣] .

أما قدامة بن جعفر فقد خالف الجميع وقال بأن المعاظلة تعنى فاحش الاستعارة ، ولم يوافق على تعريف غيره لها بأنها مداخلة بعض الكلام فى بعض ؛ لأنه إذا كانت المعاظلة فى اللغة تعنى مداخلة الشيء فى الشيء "فمن المحال أن ننكر مداخلة بعض الكلام فيما يشبهه من وجهه أو فى ما كان من جنسه ، وبقى النكير إنما هو في أن يدخل بعضه فيما ليس من جنسه وما هو غير لائق به. وما أعرف ذلك إلا فاحش الاستعارة [٤] .

هذا نص كلام قدامة بن جعفر عن مفهوم المعاظلة . وقد مثل لها بأمثلة عديدة أولها قول أوس بن حجر :

وذاتِ هِدَمٍ عارٍ نواشرُها تصمتُ بالماءِ تولَبًا جَدَعا

فسمى الصبى تولبا وهو ولد الحمار . ومنها قول الشاعر :

وما رقدَ الولدانِ حتى رأيتُه على البكرِ يمريه بساقٍ وحافِرِ

فسمى رجل الإنسان حافرا.فإن ما جرى هذا المجرى من الاستعارة قبيح لا عذر فيه [٥] .

---

١ – انظر الصناعتين ١٦٢ .
٢ – انظر سر الفصاحة ١٥١ .
٣ – انظر العمدة ٢ / ٢٦٤ .
٤ – نقد الشعر ١٧٤ .
٥ – نقد الشعر ١٧٥ .

وقد رد على قدامة فى تعريفه للمعاظلة ولتمثيله لها بما ذكر علماء النقد والبيان كالآمدي ، وأبى هلال العسكرى ، وابن سنان الخفاجى. وتابعهم فى الرد عليه ابن الأثير ، وحكموا على ما قاله فى هذا الشأن بأنه " غلط كبير منه " كما قال أبو هلال العسكري . " لأن تسمية القدم بحافر ليست بمداخلة كلام فى كلام وإنما هو بعد فى الاستعارة " [١] . أو غلط قبيح كما يقول الآمدى [٢]

أما ابن الأثير فقد فصل القول فى الرد على قدامة فقال معقبا على كلامه : " هذا ما ذكره قدامة بن جعفر . وهو خطأ ؛ إذ لو كان ما ذهب إليه صوابا لكانت حقيقة المعاظلة دخول الكلام فيما ليس من جنسه . وليست حقيقتها هذه ، بل حقيقتها ما تقدم وهو التراكب ، من قولهم : تعاظلت الجرادتان إذا ركبت إحداهما الأخرى وهذا المثال الذى مثل به قدامة لا تركب فى ألفاظه ولا فى معانيه " [٣] .

هذا عن تعريف المعاظلة والوقوف على حقيقتها ومفهومها . أما الذى انفرد به ابن الأثير فعلا دون هؤلاء جميعا فهو تقسيمه للمعاظلة إلى لفظية ومعنوية ، ثم تقسيمه للمعاظلة اللفظية إلى خمسة أقسام وهى :

الأول : ما يختص بأدوات الكلام نحو (مِن ، وعن ، وإلى ،

---

١ - الصناعتين ١٦٣ .
٢ - الموازنة ٢٥٩ .
٣ - المثل السائر ١ / ٢٨٦ .

وعلى) وأشباهها . فإن منها ما يسهل النطق به إذا ورد مع أخواتـــه ، ومنها مالا يسهل النطق به بل يرد ثقيلا على اللسان . فمما هو ثقيل قول أبي تمام :

كأنَّــــه لاجتماعِ الروحِ فيه ِله   في كلِّ جارحةٍ من جسمِه روحُ

فقوله (في) بعد قوله (فيه له) مما لا يحسن وروده . ومنه قـــول المتنبي :

تبيتُ وفودُهُمْ تسرِي إليه   وجدواه التي سألوا اغتفارُ
فخلَّفَهُمْ بردِّ البيضِ عنهم   وهامُهُـــمُ لـــه معهم مُعارُ

فقوله : (وهامهم له معهم معار) مما يثقل النطق به ويتعثر اللســـان فيه . ومما هو سهل في النطق قول أبي تمام :

دارٌ أجلُّ الهـــوى عن أن أُلِمَّ بها   في الركْبِ إلا وعيني من منائحِها [1]

وقد أشار أبو هلال العسكري قبل ابن الأثير إلى هذا النـــوع مـــن المعاظلة ولكن ليس في باب المعاظلة وإنما في باب ما يحتـــاج الكـــاتب إلى ارتسامه وامتثاله في مكاتباته ، وقال في ذلك : " وينبغي أن يتجنب إعـادة حروف الصلات والرباطات في موضع واحد إذا كتبـــت . مثـــل قـــول القائل: منه له عليه ، أو عليه فيه ، أو به له منه . وأخفـــها لـــه عليـــه . فسبيله أن تداويه حتى تزيله بأن تفصل ما بين الحرفين . مثل أن تقـــول : أقمت به شهيدا عليه . ولا أعرف أحدا كان يتتبع العيوب فيأتيها غـــير

١ - المثل السائر ١ / ٢٨٦ : ٢٨٨ .

مكترث بها إلا المتنبي فإنه ضمن شعره جميع عيوب الكلام ما أعدمه شيئا منها حتى تخطى إلى هذا النوع فقال :

ويُسعِدنى فى غمرةٍ بعد غمرةٍ   سبوحٌ له منها عليها شواهد

فأتى من الاستكراه بما لا يطار غرابه " [١].وقد اتفق ابن الأثير مع أبي هلال فى أن المعاظلة اللفظية توجد فى شعر أبي الطيب كثيرا [٢] .

والقسم الثانى من المعاظلة اللفظية عند ابن الأثير : هو ما يختص بتكرير الحروف . وهو عبارة عن تكرير حرف واحد أو حرفين فى كل لفظة من ألفاظ الكلام المنثور أو المنظوم مما يؤدى إلى ثقل النطق به . ومنه قول بعضهم :

وقبرُ حربٍ بمكانٍ قفرٍ   وليس قربُ قبرِ حربٍ قبرُ

ومنه قول الحريري فى إحدى مقاماته :

وازورَّ من كانَ له زائراً   وعافَ عافِي العرفِ عرفانَه

فقوله : (وعاف عافى العرف عرفانه) من التكرير الثقيل .

ومنه فى النثر قول بعضهم فى وصف رجل سخى [٣] : " أن المديح كبدا تريح . والمليح إن تجهم المليح بالتكليح عند سائل تلوح . بل يفوق إذ يروق مرأى لوح . يا مغبوق كأس الحمد يا مصبوح ، ضاق عن نداك اللوح ، وببابك المفتوح تستريح ، وتريح ذا التبريح ،وترفه الطليح ".

---

١ – الصناعتين ١٦٠.

٢ – المثل السائر ١ / ٢٩٦ .

٣ – المثل السائر ١/ ٢٩٠ .

فتكرار حرف الحاء فى كثير من ألفاظ هذا الكلام أدى إلى الثقل والغثاثه . وقد تحدث ابن سنان الخفاجى عن هذا النوع من المعاظلة ولكن تحت مسمى الصفات التى تؤدى إلى فصاحة التأليف ، والصفة الأولى منها أن يجتنب الناظم تكرار الحروف المتقاربة من تأليف الكلام ، ومثل لذلك بالبيت الذى مثل به ابن الأثير :

وقبرُ حربٍ بمكانٍ قفـــر　　　وليس قربُ قبرِ حربٍ قبرُ

وبقول القائل :

لو كنتَ كتمتَ الحبَّ كنتَ كما　　　كنا نكـــونُ ولكـــن ذاكَ لم يكنِ

وقول القائل :

فالمجد لا يرضى بأن ترضى بأن　　　يرضى المؤمل منك إلا بالرضى

وبغير ذلك من الأبيات [1] .

والقسم الثالث : أن ترد ألفاظ على صيغة الفعل يتبع بعضها بعضا. فمنها ما يختلف بين ماض ومستقبل ، ومنها ما لا يختلف .

فالأول كقول القاضى الأرجانى :

بالنَّارِ فرقتِ الحوادثُ بيننا　　　وبها نذرتُ أعودُ أقتلُ روحى

فقوله : (نذرت أعود أقتل) من المعاظلة .

وأما ما يرد على نهج واحد من الصيغة الفعلية فكقول أبى الطيب المتنبى :

---

١ - انظر : سر الفصاحة ٩٠ ، ٩١ .

أقلْ أنلْ اقطعْ احمِلْ علِّ سُدّ أعِدْ   زِدْ هِشّ بِشّ تفضّلْ ادنُ سِرّ صِلِ[١]

والقسم الرابع : هو الذى يتضمن مضافات كثيرة . كقولهم :

سرج فرس غلام زيد . وإن زيد على ذلك قيل : لبد سرج فـــرس غلام زيد . ومنه قول ابن بابك الشاعر :

حمامةُ جرعا حومةَ الجندلِ اسجَعى
فأنتِ بمرأىً من سعادِ ومسمَعِ [٢]

والقسم الخامس : أن ترد صفات متعددة على نحو واحد . ومنـــه قول أبى تمام يصف جملا :

ســأخرِقُ الخــرقَ بــابن خرقـَــا	ءِ كالهيق إذا ما استحمّ مـــن نجـده
مقابل فى الجديــل صلــب القـــرا	لَوْحَــكٌ مـــن عجبــه إلى كتَــده
تامكَــه نهْـــدَه مداخلـُـــــه	ملمومُـــه محزئلـــهُ أجـــــدُه

فالبيت الثالث من المعاظلة التى قلع الأسنان دون إيرادها [٣] .

وهكذا فاق ابن الأثير غيره فى هذا الباب فى حديثه عـــن أقســام المعاظلة وتأصيله لها وحسن تناوله وعرضه لهذه الأقسام مـــع التوضيــح بالأمثلة الدالة على وجودها فى شعر الشعراء .

---

١ - المثل السائر ١ / ٢٩١ ، ٢٩٢ .
٢ - المثل السائر ١ / ٢٩٣ .
٣ - المثل السائر ١ / ٢٩٤ .

النوع الثامن : المنافرة بين الألفاظ فى السبك :

وتحدث ابن الأثير عن المنافرة بين الألفاظ فى السبك وفرق بينها وبين المعاظلة ونصح الكاتب والناظم أن يتنبه لهذين النوعين ، لأنه إذا لم يكن مؤلف الكلام عارفا بهما فإن مقاتله تبدو كثيرة .

وعرف ابن الأثير المنافرة بقوله : أن يذكر لفظ أو ألفاظ يكون غيرها مما هو فى معناها أولى بالذكر [1] . ثم فرق بين المنافرة والمعاظلة بأن المعاظلة هى التراكب والتداخل فى الألفاظ أو فى المعانى . أما المنافرة فلا تراكب فيها ، وإنما هى إيراد ألفاظ غير لائقة بموضعها الذى ترد فيه ويقسم ابن الأثير المنافرة إلى قسمين : أحدهما يوجد فى اللفظة الواحدة ، والآخر فى الألفاظ المتعددة .

وإذا وجدت المنافرة فى اللفظة الواحدة أمكن تبديل هذه اللفظة بغيرها مما هو فى معناها . وأما إذا وجدت فى الألفاظ المتعددة كان من العسير تبديلها بغيرها فى الشعر من أجل الوزن ، وإن أمكن ذلك فى النثر خاصة .

ومن أمثلة القسم الأول قول المتنبى :

فلا يُبرَمُ الأمرُ الذى هو حالِلٌ ولا يُحلَلُ الأمرُ الذى هو يبرِمُ

فلفظة (حالل) نافرة فى موضعها وكانت له مندوحة عنها ؛ لأنه لو استعمل عوضا عنها لفظة (ناقض) لجاءت قارة فى مكانها غير قلقة ولا

---

١ – المثل السائر ١ / ٢٩٦ .

نافرة . ومن أمثلة القسم الثانى قول أبى الطيب المتنبى أيضا :

لا خَلْقَ أكرمُ منك إلا عارفٌ   بك راءَ نفسك لم يقلْ لكَ هاتها

فعجز هذا البيت نافر عن موضعه [١] .

هذا عن أهم مقومات صناعة تأليف الكلام عند ابن الأثير كما تحدث عنها فى المثل السائر . وقد لاحظنا أنه كان فى كثير مما أتى به سابقا لغيره ، مؤصلا له بوضعه للكثير من الأسس والقواعد والمفاهيم التى تنظم كل باب ، وتجعل ابن الأثير صاحب فكر نقدى أصيل ، وأنه لم يكن مسبوقا فى كل ما جاء به ، وإنما هداه تفكيره النقدى وما كان يتمتع به من طبع أصيل وذوق نقدى إلى سبق غيره فى كثير من المواضيع والقضايا النقدية والبلاغية .

خامسا : أهمية المعنى فى العمل الفنى :

أولى ابن الأثير المعنى الشعرى اهتماما كبيرا . وكان المعنى فى رأيه سببا فى تقديم شعر الشاعر فى أحيان كثيرة . ومن يقرأ الفصل الذى عقده فى الجزء الأول من المثل السائر فى الحديث عن الصناعة المعنوية يجد الكثير من الأمثلة والشواهد الشعرية التى حكم ابن الأثير عليها بالجودة لأن الشاعر أجاد فى معناها فارتفع قدرها إلى مكانة رفيعة فى نظره .

ومن الأجدر بنا أن نذكر بعض الأمثلة والشواهد التى استشهد بها ابن الأثير فى هذا الفصل على رفعة الشعر وسموه لسمو معانيه ورفعتها .

---

١ - انظر المثل السائر ١ / ٢٩٦ وما بعدها .

فمن أمثلة المعانى المخترعة التى ابتدعها صاحبها من غير أن يسبق إليـها ولم يقتد فيها بمن سبقه ، وإنما يعثر عليها عند الحوادث المتجددة ويتنبه لهـا عند الأمور الطارئة ، وذلك لأن الشاعر أو الكـاتب ينظـر إلى الحـال الحاضرة ثم يستنبط لها ما يناسبها من المعانى قول ابن حمديس الصقلـى فى وصف الهلال آخر الشهر :

كأنما أدهَمَ الظلماءِ حين نجا   من أشهبِ الصبحِ ألقى نعلَ حافِره

فقد أعجب ابن الأثير بهذا المعنى وقال إنه لم يأت به غـير الشـاعر وهو من الحسن واللطافة فى الغاية القصوى [١] .

ومن ذلك قول أبى نواس فى وصف الخمر :

يا شقيقَ النفسِ من حكمٍ   نمت عـن ليلِـى ولم تنمِ
فاسقِنى الخمرَ التى اختمرتْ   بخمـارِ الشيب فى الرحمِ

فقد أعجب ابن الأثير بهذا المعنى وعبر عن إعجابه بـه بقولـه : " وهذا معنى مخترع لم يسبق إليه ، وهو دقيق يكاد لدقته أن يلتحق بالمعـانى التى تستخرج من غير شاهد حال متصور " [٢] .

وذكر ابن الأثير أن الشاعر والناثر قد يستخرج من المعنى الـذى ليس بمبتدع معنى مبتدع . ومن ذلك قول الشاعر ابن السراج فى الفهد :

تنافَسَ الليلُ فيه والنهارُ معًا   فقمَّصاه بجلبابٍ من المُقَلِ

---

١ - المثل السائر ١ / ٣٠٧ .
٢ - المثل السائر ١ / ٣٠٧ .

فليس هذا المعنى غريبا ، ولكنه تشبيه حسن وواقع فى موقعه كما يقول ابن الأثير . وجاء بعده شاعر من أهل الموصل يقال له ابن مسهر فاستخرج من هذا البيت معنى غريبا فقال :

ونقّطتهُ حِبَاءً كى يسالمَها على المنايا فعاجَ الرملُ بالحِدَقِ

وكان المعنى الجميل الرائع سببا فى رفعة شأن هذا البيت عند ابن الأثير . فهو عنده معنى غريب لم يسمع بمثله فى مقصده الذى قصد من أجله [1].

وأنا مع ابن الأثير فى استعماله لهذين البيتين ولما يحملاه من معنى. فالمعروف أن جلد الفهد منقوط نقطا صغيرة ما بين أبيض وأسود . وكأن الليل والنهار تنافسا فى اكتسائه فقمصاه بهذا الثوب الذى يجمع بين لونيهما . فجاء هذا الثوب المنقوط بالسواد والبياض ، وكأنه يحوى مجموعة من المقل التى ينظر بها إلى فريسته بحدة تساعده على سرعة الانقضاض عليها ، كما يقول ابن السراج .

أما ابن مسهر فقد جعل ثوب الفهد هذا ثوبا من نعاج الرمل أهدته إلى الفهد كى يسالمها على المنايا فجاء جسمه منقوطا هكذا .

وأما توليد معنى مبتدع من معنى ليس بمبتدع فى الكلام المنثور فقد مثل له ابن الأثير بأمثلة عديدة من إنشائه هو . ومن ذلك ما ذكره فى فصل من كتاب : " إذا تخلق المرء بخلق البأس والندى لم يخف عرضه

---

١ - المثل السائر ١ / ٣٠٩ .

دنسا. كما أن الماء إذا بلغ قلتين لم يحمل نجسا " . وذكر أن هذا المعنى ابتدعه هو . وهو مستخرج من الحديث النبوى : " إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثا " [١] .

ومن المعانى المخترعة من معنى سابق ما ذكره ابن الأثير أن عبد الملك بن مروان بنى بابا من أبواب المسجد الأقصى بالبيت المقدس ، وبنى الحجاج بابا إلى جانبه فجاءت صاعقة فأحرقت الباب الذى بناه عبد الملك فتطير لذلك وشق عليه ، فبلغ ذلك الحجاج فكتب إليه كتابا يقول فيه : " بلغنى كذا وكذا فليهن أمير المؤمنين أن الله تقبل منه . وما مثله ومثلى إلا كابنى آدم إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر . فلما وقف عبد الملك على كتابه سرى عنه . وهذا معنى غريب استخرجه الحجاج من القرآن الكريم " [٢] .

ويرى ابن الأثير أن هناك ضربا من المعانى يرتفع بها الشعر درجات فوق درجات الأشعار السابقة ، وهى المعانى التى تستخرج من غير شاهد حال متصورة . فإنها أضعف مثالا مما يستخرج بشاهد الحال ، ولأبكارها سر لا يهجم على مكامنه إلا جنان الشهم ، ولا يفوز بمحاسنه إلا من دق فهمه . ولا يستطيع الوصول إليها إلا الفذ من الأدباء . وليست المعانى فيه إلا كالأرواح ، ولا الألفاظ إلا كالأجسام . ومما جاء من هذا الباب قول أبى نواس :

---

١ - المثل السائر ١ / ٣١٠ .
٢ - المثل السائر ١ / ٣١١ .

شرابُكَ فى السَّراب إذا عَطَشْنا   وخــبزُك عنــد منقطِعِ الترابِ
ومــا روَّحْــتَنَا لتــذبَّ عنَّا   ولكــن خفــتَ مرزئةَ الذبابِ

والبيت الثانى هو الذى يحمل هذا المعنى المبتدع . ويحكى عن هارون الرشيد أنه قال : لم يهج باد ولا حاضر بمثل هذا الهجاء .

ومن هذا الباب قول مسلم بن الوليد :

تنالُ بالرفقِ ما تعيا الرجالُ به   كالموتِ مستعجلاً يأتى على مَهَلِ

ومنه قول علىّ بن جبلة :

تكفَّلَ ساكنىَ الدنيا حميدٌ   فقد أضحتْ له الدنيا عيالاَ
كأن أباه آدمَ كان أوصَى   إليه أن يعولَــهُمُ فعَــالا

فهذا معنى غريب هام به ابن الأثير وقال عنه : " وهذا معنى دنــدن حوله الشعراء وفاز علىٌّ بن جبلة بالإفصاح عنه " (١) .

وبمثل هذه المعانى البارعة المبتدعة يرتفع قدر الشاعر وينال به قائلــه المنزلة السامية . ولمزيد من الإفصاح عن أهمية المعنى وبيان قيمته فى العمــل الفنى يقول ابن الأثير (٢) :

" المعانى المبتدعة شبيهة بمسائل الحساب المجهول من الجبر والمقابلــة . فكما أنك إذا وردت عليك مسألة من المجهولات تأخذها وتقلبها ظــهرا لبطن وتنظر إلى أوائلها وأواخرها ، وتعتبر أطرافها وأوســاطها ، وعنــد

١ - المثل السائر ١ / ٣١٢ .
٢ - المثل السائر ١ / ٣٢٣ .

ذلك تخرج بك الفكرة إلى معلوم ، فكذلك إذا ورد عليك معنى من المعانى ينبغى لك أن تنظر فيه كنظرك فى المجهولات الحسابية . إلا أن هذا لا يقـع فى كل معنى ؛ فإن أكثر المعانى قد طرق وسبق إليه . والإبداع إنما يقـع فى معنى غريب لم يطرق ، ولا يكون ذلك إلا فى أمر غريب لم يأت مثلـــه . وحينئذ إذا كتب فيه كتاب أو نظم فيه شعر فإن الكاتب والشاعر يعـثران على فطنة الإبداع فيه " .

وهذا كلام طيب فى البحث عن المعانى المبتدعة التى يرتفع بها قـــدر الشعر ويسمو ، إلا أن التفكير فى المعانى ألطف مـــن التفكـــير فى الجـــبر والمجهولات الحسابية .

وفى حديث ابن الأثير عن حسن الألفاظ وبراعة الكاتب فى ســبكها وتركيبها كركن من أركان جودة الكتابة ينبه ابن الأثير إلى أهمية المعـــنى ويذكر أنه ليس معنى الاهتمام باللفظ ، والإتيان به موصوفـــا بصفـــات الحسن والملاحة أن يهمل الأديب جانب المعانى أو يقلل من شـــأنها ، ولا يكون تحت هذه الألفاظ الحسنة ما يماثلها ويساويها من المعانى ؛ لأنـــه إذا كان الأمر كذلك كان الأدب كالصورة الحسنة البديعة فى حســنها إلا أن صاحبها بليد أبله ، فينبغى أن تكون هذه الألفاظ الحسنة المليحة جســـما لمعنى شريف [1] .

ولا يتمكن من ذلك إلا صاحب الطبع السليم والذكـــاء الفـــذ .

---

١ - المثل السائر ١ / ٨٨ .

فاستخراج المعانى إنما هو بالذكاء لا بتعلم العلم (١) .

وليثبت ابن الأثير أهمية المعنى فى العمل الشعرى أبان أن العرب كما كانت تعنى بالألفاظ فتصلحها وتهذب منها فإن الاهتمام بالمعانى كان أقوى عندها وأكرم عليها وأشرف قدرا فى نفوسها . وذكر أن العرب كانت عنايتها بألفاظها لأن الألفاظ عنوان على المعانى وطريق من طرق إبرازها ، ولذلك أصلحوها وزينوها وبالغوا فى تحسينها ليكون ذلك أوقع لها فى النفس . وجاء تحسينهم لها وعنايتهم بها ، وصقلها ليس من أجل أنها ألفاظ وفقط ، وإنما فعلوا ذلك خدمة منهم للمعانى . ومثلهم فى ذلك مثل ما يحدث من إبراز صورة الحسناء فى الحلل الموشاة والأثواب المحبرة . فإننا قد نجد من المعانى الفاخرة ما يشوه من حسنها بذاءة ألفاظها وسوء العبارة عنها (٢) .

ولإدراك ابن الأثير لأهمية المعنى عند القدماء دخل فى مناقشة طويلة مع من قلل من اهتمام العرب القدماء بالمعنى ، وقال بأن المعانى الجيدة هى من اختراع المحدثين ، ومن هؤلاء ابن أفلح البغدادى صاحب كتاب (مقدمة ابن أفلح) والتى قصرها على تفصيل أقسام الفصاحة ، والبلاغة . كما يقول ابن الأثير (٣) .

وذكر أنه تأمل هذه المقدمة فوجدها قشورا لا لب تحتها رغم اهتمام

---

١ - المثل السائر ١ / ٨٩ .
٢ - المثل السائر ١ / ٣٤٠ .
٣ - المثل السائر ١ / ٣٣٥ .

العراقيين بها . ومن أعجب ما يعجب منه ابن الأثير فى هذه المقدمة أن صاحب هذا الكتاب يقول بصدد حديثه عن المعانى : أما المعانى المبتدعة فليس للعرب منها شئ ، وإنما اختص بها المحدثون . ثم ذكر للمحدثين معانى وقال هذا المعنى لفلان وهو غريب ، وهذا القول لفلان وهو غريب.

وناقش ابن الأثير هذه الأقوال ، وذكر أن تلك الأقوال التى زعم البغدادى أن قائليها مبتدعون لها ليست كذلك وإنما سبقوا إليها . وعقب ابن الأثير على قول البغدادى : " إنه ليس للعرب معنى مبتدع وإنما هو للمحدثين " بقوله : فيا ليت شعرى من السابق إلى المعانى ؟ من تقدم زمانه أم من تأخر زمانه ؟! إن من المنطق القول بأن المتقدمين هم أسبق إلى المعانى المبتدعة لفصاحتهم وسلامة ألسنتهم ، وبعد لغتهم عن اللحن والفساد .

ثم أورد ابن الأثير من الأدلة ما يثبت بها بطلان ما ذكره ابن أفلح البغدادى ويثبت صحة ما ذهب إليه من براعة المتقدمين وسبقهم إلى المعانى التى رددها المحدثون . وذكر فى هذا المجال ما ورد من المعانى بأن صور المنازل تمثلت فى القلوب ، فإذا عفت آثارها لم تعف صورها من القلوب ، وأن العربى القديم هو أول من أتى بهذه المعانى . فقد قال الحرث بن خالد من أبيات الحماسة :

إنى وما نَحَرُوا غداةَ مِنىً	عندَ الجمارِ يئودُها العُقْلُ
لو بدِّلَتْ أعلى مساكِنِها	سُفْلاً وأصبحَ سُفلُها يعلُو
لعرفتَ مغناها بما احتَمَلتْ	منى الضلوعُ لأهلِها قبْلُ

ثم جاء المحدثون من بعده فرددوا ما قال وحذوا حذوه فقال

أبو تمام:

وقفتُ وأحشائِي منازلُ للأسَى ... به وهو قَفْرٌ قد تعفَّتْ منازلُه

وقال البحترى :

عفت الرسومُ وما عفتْ أحشاؤُهُ ... من عهدِ ما تَحُولُ وتذهَبُ

وقال المتنبى :

لكِ يا مَنازلُ فى القلوبِ منازِلُ ... أقفرتِ أنتِ وهنَّ منكِ أواهِلُ

وهكذا تداول الشعراء المعنى الذى اخترعه الأقدمون [١] .

وجاء ابن الأثير بأدلة أخرى على صحة ما ذهب إليه ، وعلى بطلان قول ابن أفلح من أن المحدثين هم المختصون بابتداع المعانى منها : أن المعروف أن أول من بكى الديار فى شعره رجل يقال له ابن حذام وكان هو المبتدئ لهذا المعنى أولا . وقد ذكره امرؤ القيس فى شعره فقال:

عُوجا على الطَّللِ المحيلِ لعلَّنا ... نبكى الديارَ كما بكى ابنُ حذامِ

ومنها ما أجمع عليه نقلة الأشعار أن لامرئ القيس فى صفات الفرس أشياء كثيرة لم يسبق إليها ولا قيلت من قبله .

وهذا وغيره يدل على أن العرب هم السابقون بالشعر ، وزمانهم هو الأول ، فكيف يكون المتأخرون هم السابقون إلى المعانى ؟ . ولو قيل : إن المحدثين أكثر ابتداعا للمعانى وألطف مأخذا وأدق نظرا لكان ذلك

---

١ - المثل السائر : ١ / ٣٣٦ ، ٣٣٧ .

صوابا ؛ لأن المحدثين عظم الملك الإسلامى فى زمانهم ورأوا ما لم يره المتقدمون [١] . وما ذهب إليه ابن الأثير فى هذه القضية هو الصواب الذى لا مراء فيه . فمنطق الأشياء يقول بأن المتقدمين فى قول الشعر هم المتقدمون فى ابتداع المعانى ؛ لأن الشعر ليس ألفاظا مجردة عن المعانى ، وإنما الشعر معنى عبر عنه بالألفاظ. فالمتقدمون تحدثوا عن معان ثم جاء المحدثون وزادوا فيها وأضافوا إليها .

فالعرب قد اهتموا بالألفاظ فعلا ولكن عنايتهم بها جاءت من جهة أنها عنوان المعانى ووسيلتها إلى إظهار أغراضهم ، ومن أجل أنها الطريق إلى المعانى . ولما كانت العناية بالمعانى تستوجب انتقاء المعانى الجيدة وجب أن يعبر عنها بألفاظ جيدة تماثلها؛ لأن المعانى إذا عرضت فى عبارة سيئة وألفاظ قبيحة شوهت العبارة السيئة بهاءها وأذهبت الألفاظ القبيحة حسنها . يقول ابن الأثير فى ذلك:[٢]

" اعلم أن العرب كما كانت تعتنى بالألفاظ فتصلحها وتهذبها فإن المعانى أقوى عندها وأكرم عليها وأشرف قدرا فى نفوسها . فأول ذلك عنايتها بألفاظها لأنها لما كانت عنوان معانيها وطريقها إلى إظهار أغراضها أصلحوها وزينوها وبالغوا فى تحسينها ليكون ذلك أوقع فى النفس وأذهب بها فى الدلالة على القصد . ألا ترى أن الكلام إذا كان مسجوعا لذ لسامعه فحفظه ، وإذا لم يكن مسجوعا لم يأنس به أنسه فى حالة

---

١ - المثل السائر ١ / ٣٣٨ .
٢ - المثل السائر ١ / ٣٤٠ .

السجع . فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظهم وحسنوها ورققوا حواشيها وصقلوا أطرافها فلا تظن أن العناية إذ ذاك إنما هى بألفاظ فقط بل هى خدمة منهم للمعانى " .

وهذا كلام حق ومقنع فى إثبات اهتمام العرب بالمعنى مع اهتمامهم باللفظ على الرغم من أن ابن الأثير قد تأثر فيه إلى حد كبير بكلام ابن جنى ونقل عنه بعض عباراته فى هذا الصدد [١] .

ومن تتمة موقف ابن الأثير من هذه القضية ما أجاب به عن اعتراض مضمونه : إنا نرى من ألفاظ العرب ما قد حسنوه وزخرفوه ، ولسنا نرى تحته مع ذلك معنى شريفا . ومن ذلك قول بعضهم : [٢]

ولما قضينَا من مِـنًى كـلَّ حاجـةٍ ... ومسَّحَ بالأركانِ مَنْ هـو ماسِـحُ

وشُدَّتْ على دُهْمِ المهارِى رحالُنـا ... ولم ينظر الغادِى الذى هـو رائِـحُ

أخذنا بأطرافِ الأحـاديثِ بيننَـا ... وسالت بأعنـاقِ المطـىِّ الأبـاطِحُ

فيذكر المعترضون على كلام ابن الأثير السابق - من أن اهتمام العرب بحسن الألفاظ وتزيينها وتدبيجها نابع عن اهتمامهم بالمعنى ؛ لأن اللفظ الحسن يحمل معنى حسنا - يقولون : إنك ترى حسن الألفاظ في هذا الشعر وتدبيح أجزائه . ومع ذلك فإن معناه ليس مدانيا له ولا

---

١ - انظر : الخصائص لابن جنى - تحقيق : محمد على النجار - طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦م - ١ / ٢١٦ : ٢١٨ .

٢ - تنسب الأبيات لكثير عزة ، وليزيد بن الطثرية ، ولعقب بن كعب بن زهير ، وللمعلوط السعدى .

مقاربا. فإن مجمل معناها هو : لما فرغنا من الحج وشددنا رحالنا ، ركبنا الطريق راجعين ، وتحدثنا على ظهور الإبل . وهذا المثال له نظائر شريفة الألفاظ خسيسة المعانى .

وقد أجاب ابن الأثير على هذا القول بما يفيد بأن جمال اللفظ فى البيتين [١] تحته معنى جميل فاخر . وعاب فى الوقت نفسه بعض من قللوا من معانيهما من النقاد السابقين . فهو يعترف بأن هذا المثال لا منازعة فى جودة ألفاظه وحسن تأليفها . وإنما المنازعة فى دعوى أن ما يشتمل عليه من معنى لا يدانى ألفاظه ولا يقاربها . ثم أخذ فى إثبات ذلك فرأى أن فى قول الشاعر (كل حاجة) مما يستفيد منه أهل النسيب والرقة والأهواء والمقة ما لا يستفيد منه غيرهم ولا يشاركهم فيه من ليس منهم . ألا ترى أن حوائج منى أشياء كثيرة : فمنها التلاقى ، ومنها التشاكى ، ومنها التخلى للاجتماع ، إلى غير ذلك مما هو تال له ومعقود الكون به . فكأن الشاعر صانع عن هذا الموضع الذى أومأ إليه وعقد غرضه عليه بقوله فى آخر البيت (ومسح بالأركان من هو ماسح) . أى إنما كانت حوائجنا التى قضيناها ، وآرابنا التى بلغناها من هذا النحو الذى هو مسح الأركان وما هو لاحق به ... أى لم نتعد هذا القدر المذكور إلى ما يحتمله أول البيت من التعريض الجارى مجرى التصريح .

وأما البيت الثانى فإن فيه : (أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا) وهذا فيه ما فيه من المعنى الحسن الجميل . ولو قال : أخذنا فى أحاديثنا ، أو نحو

---

١ - لأنه مثل بالبيتين الأول والثالث فقط من الأبيات الثلاثة كما فعل ذلك قبله ابن جنى .

ذلك لكان فيه ما يكبره أهل النسيب ، فإنه قد شاع عنهم واتسع فى محاوراتهم علو قدر الحديث بين الإلفين ، والجذل بجمع شمل المواصلين .

ومن ذلك قول بعضهم :

وحديثُها يا سعدُ عنها فزدْتنى ‏ ‏ ‏ جنونًا فزدنى من حديثك يا سعدُ [1]

وقول الآخر :

وحديثُها السحرُ الحلالُ لوانه ‏ ‏ ‏ لم يجنِ قتلَ المسلمِ المتحرِّزِ

فإذا كان قدر الحديث عندهم على هذا النحو فكيف به إذا قيده بقوله : (أخذنا بأطراف الأحاديث). فإن فى ذلك وحيا خفيا ورمزا حلوا. ألا ترى أنه قد يريد بأطرافها ما يتعاطاه المحبون ، ويتفاوضه ذوو الصبابة من التعريض والتلويح ، والإيماء دون التصريح . وذلك أحلى وأطيب وأغزل وأنسب من أن يكون كشفا ومصارحة وجهرا . وإن كان الأمر كذلك فمعنى البيتين أعلى عندهم وأشد تقدما فى نفوسهم من لفظهما وإن عذب ولذ مستمعه.

كما أن فى قول الشاعر : (وسالت بأعناق المطى الأباطح) من لطافة المعنى وحسنه ما لا خفاء به ، فهؤلاء القوم لما تحدثوا وهم سائرون على المطايا شغلتهم لذة الحديث عن إمساك الأزمة فاسترخت عنهم أيديهم . ولما كان الأمر كذلك وارتخت الأزمة عن الأيدى أسرعت المطايا

---

١ — هكذا ورد البيت فى المثل السائر . وأرى أن الصواب : (وحدثتنى يا سعد ...) وهو هكذا فعلا فى الخصائص لابن جنى ١ / ٢٢٠ .

فى المسير فشبهت أعناقها بمرور السيل على وجـه الأرض فى سـرعته . وهذا موضع كريم حسن لا مزيد على حسنه ، والذى لا ينعم النظر فيـه لا يعلم ما اشتمل عليه من المعنى . وعلى هذا فيجدر القول بأن العـرب تحسن ألفاظها وتزخرفها عناية منها بالمعانى التى تحتها . وينتهى ابن الأثـير إلى أن الألفاظ خدم للمعانى ، ولا شك أن المخدوم أشرف من الخادم .[1]

ومفهوم كلام ابن الأثير ورأيه فى البيتين – على الرغم مـن تـأثره الواضح بابن جنى ونقله عنه كثيرا من عباراته –[2] أنهما يحملان عـدة معان تستوفى مراد الشاعر الناسب ؛ فقد كان همه أن يقضـى مآربـه ، وينال حاجات قلبه . وقد حقق ذلك عن طريق هذا التعميم الذى عـبر عنه فى قوله : (قضينا ... كل حاجة) . ومن هذه الحاجات : التلاقـى والتشاكى والخلوة وعقد المحبة على العفة التى تستوجب القربة مـن الله . فلما حان وقت الرحيل استمر نيل الأوطار بما أخـذ بـه ذوو الصبابـة أنفسهم من تبادل أطراف الأحاديث . فهم لم يتصارحوا بها أو يـهجموا عليها بل فرضت عليهم آداب الحب أن يتناولوا أطرافها مـن التلويـح والتعريض والإشارة والرمز وشغلهم أطراف الأحـاديث المتناقلـة ومـا وجدوا فيها من اللذة والمتعة عن أن يمسكوا بأزمة الرواحل فاسـترخت الأزمة عن أيديهم فأسرعت بهم الرواحل فى بطون الأودية وسارت بهـم

---

١ – انظر المثل السائر ١ / ٣٤١ ، ٣٤٢ .

٢ – انظر الخصائص لابن جنى – تحقيق : محمد على النجار ١ / ٢١٩ .

سيرا متلاحقا أشبه بانحدار سيول الماء على وجه الأرض .[١]

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذا المثال تناوله مجموعة من النقاد القدماء قبل ابن الأثير وبعده ، واختلفت أذواقهم إزاءه ، وكلهم جعلوه ثلاثة أبيات وليس بيتين فقط كما ذكر ابن الأثير وابن جنى.

وأشهر من تناولوا هذه الأبيات بالنقد غير ابن الأثير : ابن قتيبة ، وابن طباطبا ، وأبو هلال العسكرى ، وابن جنى ، وعبد القاهر الجرجانى .

- أما ابن قتيبة فقد أبعد الأبيات عن المعنى المفيد ، وقصر ما فيها على حلاوة الألفاظ فجعلها من الضرب الذى حسن لفظه وحلا فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة فى المعنى ، وقال عنها : " هذه الألفاظ كما ترى أحسن شيء مخارج ومطالع ومقاطع ، وإن نظرت إلى ما تحتها من المعنى وجدته : ولما قضينا أيام منى ، واستلمنا الأركان ، وعالينا إبلنا الأنضاء ، ومضى الناس لا ينتظر الغادى الرائح ابتدأنا فى الحديث وسارت المطى فى الأبطح " [٢]

وقد أبدى ابن الأثير اعتراضه على موقف ابن قتيبة من الأبيات ورد عليه بما سبق .

- أما ابن طباطبا فقد خالف رأى ابن قتيبه ورأى فى الأبيات معنى

---

١ - انظر : نصوص نقدية لأعلام النقاد العرب - د / محمد السعدى فرهود ٣٢٠ .

٢ - الشعر والشعراء - ابن قتيبه - تحقيق وضبط : د / مفيد قميحة ونعيم زرزور - دار الكتب العلمية - بيروت -ط٢ - ١٩٨٥ م - صـ ٢٢ .

معبرا عن مراد الشاعر . فحين تناول ابن طباطبا الشعر الحسن الألفاظ ، الواهى المعنى ، أخرج هذه الأبيات من هذا الحكم ، لأنه وجد فيها " معنى مستوفى على قدر الشاعر " . فالشاعر لم يبعد أن يحكى حاجاته التى وصفها من قضاء حجه ، وأنسه برفقائه ومحادثتهم ، ووصفه سيل الأباطح بأعناق المطى كما تسيل المياه ببطون الأودية . [١]

- وجاء أبو هلال العسكرى فقال برأى ابن قتيبه ، واعتبر هذه الأبيات دليلا على أن مدار البلاغة : تحسين اللفظ ، والبراعة فى الصنعة ، وجودة اللفظ وصفائه وحسنه وبهائه وكثرة طلاوته ومائه ، مع صحة السبك والتركيب ، دون استنباط المعانى . فليس يطلب من المعنى فى رأيه - إلا أن يكون صوابا . [٢] فهذه الأبيات فى نظرة رائقة معجبة ، وما فيها إلا لفظ حلو عذب سهل سلس . يقول أبو هلال معلقا على الأبيات : " وليس تحت هذه الأبيات كبير معنى وهى رائقة معجبة . وإنما هى : ولما قضينا الحج ومسحنا الأركان ، وشدت رحالنا على مهازيل الإبل ولم ينتظر بعضنا بعضا جعلنا نتحدث ، وتسير بنا الإبل فى بطون الأودية "[٣].

فأبو هلال بعود بالأبيات إلى رأى ابن قتيبة حتى إنه ليذكر بعض ألفاظه، ويسقط عنها المعنى الجيد ، ويصف ألفاظها بالحسن والسهولة

---

١ - انظر : عيار الشعر - تحقيق : د / عبد العزيز ناصر المانع - دار العلوم للطباعة والنشر-الرياض - ١٩٨٥ م - ص ١٣٨ .

٢ - انظر الصناعتين ٥٨ .

٣ - الصناعتين ٥٩.

والسلاسة .

- أما ابن جنى فقد وقف طويلا مع هذا المثال وأبان عما فيه من مظاهر جمال المعنى . ولا أرى داعيا لنقل كلامه بعد أن رأيت كلام ابن الأثير صورة طبق الأصل من كلام ابن جنى حتى فى حديثه عن بيتين فقط منها وليس عن الثلاثة ، وبعد أن نقلت معظم كلام ابن الأثير فيما سبق ، فلا داعى لتكراره بنقل كلام ابن جنى [١] .

- ثم جاء الإمام عبد القاهر الجرجانى وانتصر لهذه الأبيات ورأى فيها مثالا يثبت به نظريته فى نظم الكلام ، وأراد أن يثبت من خلالها أن كل حسن فى اللفظ يرجع إلى المعنى الذى لا يصل إلى القلب إلا إذا كان حسن اللفظ جميل الصياغة ، وكانت عبارته بعيدة عن الحشو غير المفيد . ولنترك عبد القاهر يعبر لنا عن موقفه من هذه الأبيات . يقول عبد القاهر[٢] :

" وذلك أن أول ما يتلقاك من محاسن هذا الشعر أنه قال : (ولما قضينا من منى كل حاجة) . فعبر عن قضاء المناسك بأجمعها ، والخروج من فروضها وسننها من طريق أمكنه أن يقصر معه اللفظ وهو طريقة العموم . ثم نبه بقوله : (ومسح بالأركان من هو ماسح) على طواف الوداع الذى هو آخر الأمر ، ودليل المسير الذى هو مقصوده من الشعر. ثم قال : (أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا) . فوصل بذكر مسح الأركان

---

١ - اقرأ : الخصائص ١ / ٢١٩ : ٢٢٢ .

٢ - أسرار البلاغة - تحقيق د / محمد عبد المنعم خفاجى - ط ٣ - ١ / ١١٤ .

ما وليه من زم الركاب وركوب الركبان . ثم دل بلفظـــة (الأطـــراف) على الصفة التى يختص بها الرفاق فى السفر من التصرف فى فنون القـــول وشجون الحديث ، أو ما هو عادة المتظرفين من الإشارة والتلويح والرمـــز والإيحاء . وأنبأ بذلك عن طيب النفوس وقوة النشاط ، وفضل الاغتبـاط، كما توجبه ألفة الأصحاب ، وأنسة الأحباب ، وكما يليق بحال من وفـــق لقضاء العبادة الشريفة ، ورجا حسن الإياب ، وتنسم روائـــح الأحبـــة والأوطان ، واستماع التهانى والتحايا من الخلان والإخوان . ثم زان ذلـك كله باستعارة لطيفة طبق فيها مفصل التشبيه ، وأفاد كثيرا من الفوائـــــد بلطف الوحى والتنبيه . فصرح أولا بما أومأ إليـــه فى الأخـــذ بـــأطراف الأحاديث من أنهم تنازعوا أحاديثهم على ظهور الرواحل وفى حال التوجه إلى المنازل ، وأخبر بعد بسرعة السير ووطاءة الظهر ؛ إذ جعل سلاســـة سيرها بهم كالماء تسيل به الأباطح ، وكان فى ذلك ما يؤكد ما قبلـــه لأن الظهور إذا كانت وطيئة وكان سيرها السير السهل السريع زاد ذلـــك فى نشاط الركبان ، ومع ازدياد النشاط يزداد الحديث طيبا .

ثم قال : (بأعناق المطى) ولم يقل بالمطى ؛ لأن الســـرعة والبـــطء يظهران غالبا فى أعناقها ، ويبين أمرهما من هواديها . وصدورها وســـائر أجزائها تستند إليها فى الحركة ، وتتبعها فى الثقل والخفة . ويعبر عن المرح والنشاط إذا كانا فى أنفسهما بأفاعيل لها خاصة فى العنق والرأس . ويـــدل عليهما بشمائل مخصوصة فى المقاديم " .

ويفهم من كلام عبد القاهر أن حسن هذه الأبيات راجع إلى المعانى التى تحملها من حيث وقعت الاستعارة موقعها ، وجاء ترتيب الكلام على الوجه الذى يوصل المعانى إلى القلب ، وسلم الكلام من الحشو غير المفيد، كما سلمت الألفاظ من التقصير الذى يفتقر معه السامع إلى طلب المزيد .

والحق أن ابن قتيبة وأبا هلال العسكرى لم يحسنا الوقوف مع الأبيات فمسخها كل منهما مسخا شوهها وذهب بأصل الجمال فيها والذى ظهر منه شئ فى ألفاظها . وذلك أنهما لحظا جمال العبارة فقط ، وهذا شئ لا خلاف عليه ، ولكنهما تناولا الأبيات من ناحية الحقيقة العقلية أو الأفكار فقللا من شأنها وأنكرا قيمتها المعنوية بناء على ذلك . كما نلحظ أن ابن قتيبة وأبا هلال قد غفلا فى حديثهما عن الأبيات عن عنصرين من عناصر الشعر ولعلهما أصل جماله وهما العاطفة والخيال . والعاطفة فى الأبيات تتراءى فى أمل الحاج فى المغفرة بعد أداء الحج ، وفى شوقهم إلى أوطانهم الأولى ، وفى التآلف الذى يجمع بين السفر فيدلون عليه بأطراف الأحاديث وأخفها على النفوس . وقد صور الشاعر هذه المشاعر بصور خيالية رائعة فكنى بمسح أركان الكعبة واستلامها عن الانتهاء من مناسك الحج ، وعن الأخذ فى العودة بشد الرحال على متون الإبل . وصور فى البيت الثالث تهالك الناس راجعين ، وتآلفهم سائرين تهفو نفوسهم إلى أوطانهم الأولى وتتعلق قلوبهم بمن فيها من أهل وأصحاب.

هذه هى الحقيقة الأدبية التى غفل عنها ابن قتيبة وأبو هلال العسكرى وأدركها ابن جنى ، وعبد القاهر الجرجانى ، وابن الأثير . وتدل هذه الحقيقة على أن الجدير فى الشعر هو التصوير الخيالى للعواطف وليس التعبير اللغوى المجرد . كما أنه ليس الغرض منه التعليم وإنما التأثير فى الملتقى .

وهكذا أولى ابن الأثير اهتمامه بالمعنى فى العمل الأدبى ، كما أولى الألفاظ فيه اهتماما وعناية ، وجعلهما بهذا الاهتمام شقين متوازيين متلازمين تؤدى الجودة فى أحدهما إلى الجودة فى الآخر . كما أثبت عناية العرب فى القديم والحديث بالمعنى واللفظ معا لأن العناية بهما ترفع من شأن العمل الأدبى .

سادسا : شرح ابن الأثير للنصوص الشعرية :

تحدث ابن الأثير عن حل الأبيات الشعرية وشرحها وكيفية استخراج كنوزها وقسم موقف الدارس مع الأبيات الشعرية وشرحها إلى ثلاثة أقسام :

الأول : — وهو أدناها مرتبة — أن يأخذ الناثر بيتا من الشعر فينثره بلفظه من غير زيادة . ووصف ابن الأثير هذا الصنيع بأنه عيب فاحش ومثاله كمن أخذ عقدا قد أتقن نظمه وأحسن تأليفه فأوهاه وبدده. كما أن فاعل ذلك يعد سارقا لشعر الشاعر لكون ألفاظه باقية لم يتغير

منها شئ [١] .

وذكر ابن الأثير أن هذا الضرب من تحليل النصوص الشعرية لا يكون محمودا إلا إذا كان البيت من الشعر قد تضمن شيئا لا يمكن تغيير لفظه فحينئذ يعذر ناثرة إذا أتى بذلك اللفظ . ومثل لذلك قول الشاعر فى أول الحماسة :

لو كُنْتَ من مازنٍ لم تستبحْ إبِلى بنو اللقيطَةِ من ذُهْلِ بن شيبَانَا

وقد نثر ابن الأثير هذا البيت فقال : " لست ممن تستبح إبله بنو اللقيطة ولا الذى إذا هم بأمر كانت الآمال إليه وسيطة . ولكنى أحمل الهمل وأقرب الأمل ، وأقول : سبق السيف العذل . فذكر بنى اللقيطة ههنا لابد منه حسب ما ذكر الشاعر . وكذلك الأمثال السائرة فإنه لابد من ذكرها على ما جاءت فى الشعر " [٢] .

وإن كانت هذه الطريقة من طرق حل الأبيات الشعرية هى أدنى الطبقات – كما قال ابن الأثير – فإن كثيرا من الكتاب يلجأون إليها .

والقسم الثانى : – وهو الطبقة الوسطى – فهو أن ينثر الكاتب المعنى المنظوم ببعض ألفاظه ويستعيض عن البعض الآخر بألفاظ أخر . وههنا تظهر الصنعة فى المماثلة والمشابهة ومؤاخاة ألفاظ الشاعر بالألفاظ المرتجلة . فإنه إذا أخذ لفظا لشاعر مجيد قد نقحه وصححه فقرئه بما يلائمه

---

١ – انظر المثل السائر ١ / ٩٣ .

٢ – المثل السائر ١ / ٩٤ .

كان كمن جمع بين لؤلؤة وحصاة . ومثل ابن الأثير لذلك ببيت أبي تمام في وصف قصيدة له :

حذَّاءَ تملأُ كلَّ أذنٍ حكمةً   وبلاغةً وتــــدرُّ كلَّ وريدِ

فعبارة (تملأ كل أذن حكمة) من الكلام الحسن . وهو أحسن مـــا في البيت . فإذا أراد الكاتب أن ينثر هذا المعنى فلابد من استعمال لفظـــه بعينه لأنه في الغاية القصوى من الفصاحة والبلاغة وعليه أن يقرنه بمثلـــه وإن كان هذا عسرا جدا [١] .

وأما القسم الثالث : وهو أعلى من القسمين الأولين -- فـــهو أن يأخذ المعنى فيصاغ بألفاظ غير ألفاظه . وفي هذا الموضع يســتبين حـــذق الصائغ في صياغته ويعلم مقدار تصرفه في صناعته . فإن استطاع الكـــاتب الزيادة على المعنى فتلك الدرجة العالية ، وإلا أحسن التصرف ، وأتقـــن التأليف ليكون أولى بذلك المعنى من صاحبه الأول [٢] .

ومثل ابن الأثير لهذا القسم بعدد من أبيات شعر المتنبي وأبي تمـــام والتي نثر معانيها بألفاظ من عنده . ومنها قول أبي الطيب :

إنَّ القتيلَ مضرَّجًا بدموعِهِ   مثلُ القتيلِ مضرَّجًا بدمائِهِ

فقد أخذ ابن الأثير معنى البيت ونثره فقال : " القتيل بسيف العيون كالقتيل بسيف المنون ، غير أن في ذلك لا يجرد مـــن غمـــده ولا يقـــاد

---

١ - انظر المثل السائر ١ / ٩٤ .
٢ - انظر المثل السائر ١ / ٩٥ .

صاحبه بعمده " . ومن ذلك وجه آخر وهو : " دمع المحب ودم القتيل متفقان فى التشبيه والتمثيل ولا تجد بينهما بونا إلا أنهما يختلفان لونا " [١].

وحين ننظر فى كلام ابن الأثير السابق نجده يتفق كثيرا مع ما جاء من كلام أبى هلال العسكرى فى قضية حل المنظوم . فقد قسم أبو هلال المحلول من الشعر إلى أربعة أضرب : الأول منها هو ما يكون بإدخال لفظه بين ألفاظه . وهذا مقابل للقسم الثانى فى تقسيم ابن الأثير . ومثل أبو هلال لهذا الضرب بما رواه الجاحظ عن قليب المعتزلى أنه سمع أبياتا للعتبى وهى : –

أَفَلَتْ بطالتَه وراجعَهُ حِلمٌ وأعقَبَهُ الهوَى ندمَا
ألْقَى عليه الدهرُ كلكَلَهُ وأعارَه الإقتارَ والعَدَمَا
فإذا ألمَّ بِهِ أخُو ثِقَةٍ غَضَّ الجفونَ ومجمجَ الكَلِمَا

" فقال لبعض الملوك يستعطفه على رجل من أهله : جعلنى الله فداءك ليس هو اليوم كما كان . إنه وحياتك – أفلت بطالته ، أى والله وراجعه حلمه ، وأعقبه – وحقك – الهوى ندما . أنحى الدهر – والله – عليه بكلكله فهو اليوم إذا رأى أخا ثقة غض بصره ومجمج كلامه " [٢] .

والضربان الثانى والثالث فى تقسيم أبى هلال : ضرب ينحل بتأخير لفظة منه وتقديم أخرى فيحسن محلوله ويستقيم ، وضرب ينحل على هذا

---

١ – المثل السائر ١ / ٩٦ .
٢ – الصناعتين ٢١٦ .

الوجه ولا يحسن ولا يستقيم . وهذان الضربان مقابلان للقسم الأول فى تقسيم ابن الأثير . ومثل أبو هلال للضرب الأول من هذين الضربين بقول البحترى :

نطلُبُ الأكثرَ فى الدنيا وقدْ نبلغ الحاجةَ فيها بالأقل

فإذا نثرت ذلك ولم تزد فى ألفاظه قلت : تطلب فى الدنيا الأكثر وقد نبلغ منها الحاجة بالقليل [١] .

ومثل للضرب الثالث بقول البحترى أيضا :

يَسَرُّ بعمرانِ الديارِ مضلَّلٌ وعمرانُها مستأنفٌ من خَرَابها

ولم أرتضِ الدنيا أوانَ مجيئها فكيف ارتضائيها أوانَ ذهابها

فإذا نثر بتأخير لفظ وتقديم آخر دون زيادة ولا نقصان قيل : يسر المضلل بعمران الديار ، ومن خرابها عمرانها مستأنف . ولم أرتض أوان مجيئها الدنيا ، فكيف أوان ذهابها ارتضائيها . فهذا نثر فاسد وإذا غيرت بعض ألفاظه حسن [٢] .

والضرب الرابع من حل المنظوم عند أبى هلال هو أن تكون ما تحله من المنظوم ألفاظا من عندك . وهذا أرفع الدرجات [٣] . وهذا هو القسم الثالث فى تقسيم ابن الأثير . وبهذا يتبين تأثر ابن الأثير إلى حد كبير بأبى

---

١ - الصناعتين ٢١٧ .
٢ - الصناعتين ٢١٨ .
٣ - الصناعتين ٢١٩ .

هلال العسكرى فى هذه القضية .

وأشار ابن رشيق إلى قضية حل المنظوم علـــى اســـتحياء دون أدنى تأصيل لها، وإنما ذكر فقط بعض الأمثلة عليها [١] .

هذا وقد وقف ابن الأثير مع كثير مما ذكره مـــن أشـــعار مفســـرا وشارحا . مع اعتقادنا أنه لم يمكن يقدم على شرح البيت الشـعرى إلا إذا رآه يحتاج إلى شرح وتوضيح ، أو رأى أن معنى البيت ومبناه يســـتوقفانه ويدعوانه إلى إبرازهما .

وشرح النصوص الشعرية ليس غاية فى ذاته عند ابن الأثير وإنما هـــو وسيلة لبيان ما قد تحمله من صور فنية وتتضمنه من أســـرار الفصاحـــة والبلاغة . ولذا فهو يعيب من يقتصر فى شرحه للنصوص على مجرد ذكـــو المعنى وما يتصل به من لغة ونحو دون شرح ما تتضمنـــه مـــن أســـرار الفصاحة والبلاغة [٢] .

وكثيرا ما يعتمد ابن الأثير فى شرحه للنصوص الشعرية على ذكـــر المناسبة التى قيلت فيها القصيدة . ومن ذلك ذكره لمناسبة القصيدة الرائية التى قالها أحد شعراء جدة – ويكنى أبا محمد – فى مدح الخليفة هـــارون الرشيد – وحكم ابن الأثير على مطلعها بأنه من أحسن الابتداءات الـــتى دلت على المعنى من أول بيت فى القصيدة . فقد ذكر ابن الأثير المناســـبة

١ – انظر العمدة ٢ / ٢٩٣ .
٢ – انظر المثل السائر ١ / ٢٦ .

التى قال فيها الشاعر القصيدة فحكى عن أبى العباس المبرد أنه ذكر غزوة غزاها هارون الرشيد فى بلاد الروم ، نقفور ملك الروم خضع له وبذل الجزية . فلما عاد عنه هارون الرشيد واستقر بمدينة الرقة وسقط الثلج نقض نقفور العهد فلم يجسر أحد على إعلام هارون الرشيد لمكان هيبته . وبذل يحيى بن خالد للشعراء الأموال على أن يقولوا شعرا فى إعلام الخليفة ، فكلهم أشفق من لقائه بمثل ذلك إلا هذا الشاعر الذى نظم هذه القصيدة وأنشدها هارون الرشيد وأولها :

نقضَ الذى أعطيته نقفورُ ... فعليه دائرةُ البوارِ تدورُ
أبشِرْ أميرَ المؤمنين فإنَّه ... فَتْحٌ أتاك به الإلهُ كبيرُ
نفقورُ إنك حين تغدُرُ أن نأَى ... عنك الإمامُ لجَاهلٌ مغرُورُ
أظننتَ حين غدرتَ أنَّك مفلِتٌ ... هبلتك أمُّكَ ما ظننتَ غرُورُ

فلما أنهى الأبيات قال الرشيد : أوقد فعل ؟ . ثم غزاه فى بقية الثلج وفتح مدينة هرقلة [١] .

ومن ذلك أيضا ما ذكره - نقلا عن كتاب الأغانى - حول قصيدة سديف فى تحريض أبى العباس السفاح على بنى أمية فى أول قيام الدولة العباسية فقال : قدم سديف من مكة إلى الحيرة والسفاح بها ، ووافق قدومه جلوس السفاح للناس . وكان بنو أمية يجلسون عنده على الكراسى تكرمةً لهم . فلما دخل عليه سديف حسر لثامه وأنشده أبياتا

---

١ - المثل السائر ١ / ٢٣١ .

من الشعر ، فالتفت رجل من أولاد سليمان بن عبد الملك وقال لآخر إلى جانبه : قتلنا والله العبد . فلما أنهى الأبيات أمر بهم السفاح فأخرجوا من بين يديه وقتلوا عن آخرهم . وكتب إلى عماله بالبلاد يأمرهم بقتل من وجدوه منهم . ومن الأبيات قوله :

أصبح الدينُ ثابتاً فى الأساس ... بالبهاليل من بنى العباس
أنت مهدىُّ هاشم وهداها ... كم أناس رجوك بعد إياس
لا تقيلنَّ عبد شمس عثاراً ... واقطعنْ كلَّ رقلةٍ وغراس
أنزلوها بحيث أنزلها اللـ ... ـهُ بدار الهوان والإتعاس
خوفُهم أظهر التودد فيهم ... وبهم منكمُ كحزِّ المواسى
أقصهمْ أيها الخليفةُ واحسم ... عنك بالسيف شأفةَ الأرجاس
واذكرنْ مصرعَ الحسين وزيدٍ ... وقتيلاً بجانب المهراس
ولقد ساءنى وساء سوائي ... قربهم من منابرٍ وكراسى [1]

وجعل ابن الأثير هذه الأبيات من فاخر الشعر ونادره افتتاحا وابتداء وتحريضاً وتأليبا . وذكر أنه لو وصفها بما شاء الله وشاء الإسهاب والإطناب لما بلغ مقدار مالها من الحسن [2] .

والحق مع ابن الأثير . فهذه الأبيات من فاخر الشعر افتتاحا وابتداء

---

١ - المهراس : ماء بجبل أحد . والقتيل الذى بجانب المهراس : هو حمزة بن عبد المطلب عم النبى ﷺ . وكان مقتله فى غزوة أحد . قتله عبد اسمه وحشى بتحريض من هند بنت عتبة أم معاوية بن أبى سفيان .

٢ - المثل السائر : ٢ / ٢٣٢ .



أين الروايةُ أم أين النجومُ وما ... صاغوه من زخرفٍ فيها ومن كذبِ
تخرّصًا وأحاديثًا ملفقةً ... ليست بنبعٍ إذا عُدّتْ ولا غربِ

ومن ذلك أيضا ما ذكره ابن الأثير من مناسبة بيتى المتنبى فى مطلع قصيدته الميمية فى مدح سيف الدولة :

عُقْبَى اليمينِ على عُقْبَى الوَغَى ندمُ ... ماذا يزيدُك فى إقدامِك القَسَمُ
وفى اليمينِ على ما أنتَ واعدُهُ ... ما دلّ أنّكَ فى الميعادِ متّهمُ

فقد ذكر حول هذين البيتين معنى ما علق به العكبرى عليهما من أن ابن الشمقشق ملك الروم حلف ليلقين سيف الدولة فى بطارقته كفاحا. فلما التقيا لم يطق ذلك وولى هاربا فافتتح المتنبى قصيدته بذلك ليرد على البطريق ويهجوه ويرفع من شأن سيف الدولة [1] .

ومما يتمم هذا المعنى قول المتنبى بعد البيتين السابقين :

آلى الفتى ابنُ شمشقيقٍ فأحنثَه ... فتى من الضرب تُنْسَى عنده الكَلِمُ
وفاعلٌ ما اشتهى يغنيه عن حَلِفٍ ... على الفعالِ حضورُ الفعلِ والكرمُ

ومن اعتماد ابن الأثير على المناسبة التى قيلت فيها الأبيات فى شرحه للنصوص الأدبية ذكره لمناسبة أبيات ابن الزمكرم الموصلى وهى :

وليلٍ كوجهِ البرقعيديِّ مظلمٍ ... وبردِ أغانيه وطولِ قرونِه
سريتُ ونومى فيه نومٌ مشرّدٌ ... كعقل سليمانَ بنِ فهدٍ ودينِه
على أولقٍ فيه التفاتٌ كأنّه ... أبو جابرٍ فى خَبْطِه وجنونِه
إلى أن بدا ضوءُ الصباحِ كأنّه ... سنا وجهِ قرواشٍ وضوءِ جبينِه

---

١ - المثل السائر ٢ / ٢٢٩ .

فلقد بان ابن الأثير عن معنى هذه الأبيات من خلال ذكره لمناسبتها فقال بأن الممدوح وهو شرف الدولة قرواش صاحب الموصل كان جالسا مع ندمائه فى ليلة من ليالى الشتاء ، وفى جملتهم هؤلاء الذين هجاهم الشاعر . وكان البرقعيدى مغنيا وسليمان بن فهد وزيرا ، وأبو جابر حاجبا . فطلب شرف الدولة من الشاعر أن يهجو المذكورين ويمدحه فأنشد هذه الأبيات ارتجالا . وقد أعجب ابن الأثير بالأبيات وبما فيها من حسن التخلص ورقى المعنى حيث ابتدأ بهجاء البرقعيدى وجاء لتحقيق مراده بأوصاف ليل الشتاء جميعها وهى الظلمة والبرد والطول . وجاءت هذه الأوصاف الثلاثة ملائمة لما شبهت به مطابقة له . وكذلك فى البيتين الثانى والثالث . ثم خرج إلى المديح فى البيت الرابع بألطف وجه وأدق صنعة . وقال ابن الأثير فى ختام تعليقه عليها : وما سمعت فى هذا الباب بأحسن من هذه الأبيات [1] .

ونجد ابن الأثير فى حديثه عن هذه الأبيات يمزج شرحه لها بذكر مناسبتها بإبداء رأيه فيها كما فعل مع أبيات سديف السابقة .

وقد يتعرض ابن الأثير لشرح النص الشعرى لبيان خطأ فهم غيره للأبيات . ومن ذلك ما يتعلق بقول القائل :

لما اعتنقنَا للوداعِ وأعرَبَتْ ... عبراتُنا عنّا بدمعٍ ناطقِ
فرقْنَ بين مَعَاجِرٍ ومَحاجِرٍ ... وجمعْنَ بين بنفسجٍ وشقائقِ

---

١ - المثل السائر ٢ / ٢٥٦ .



فإن نلتُ ما أملتُ منكَ فربما شربتُ بماءٍ يعجزُ الطيرُ وردَه

فقد شرح البيت من خلال حديثه عما يحتمله معناه من مدح وذم . وذلك أنه " إذا أخذ بمفرده من غير نظر إلى ما قبله فإن يكون بالذم أولى منه بالمدح ؛ لأنه يتضمن وصف نواله بالبعد والشذوذ . وصدر البيت مفتتح بإن الشرطية وقد أجيب بلفظه (رب) التى معناها التقليل . أى لست من نوالك على يقين فإن نلته فربما وصلت إلى مورد لا يصل إليه الطير لبعده . وإذا نظر إلى ما قبل هذا البيت دل على المدح خاصة لارتباطه بالمعنى الذى قبله [1] " .

فقد شرح البيت وأبان عن المراد به من خلال تأويله له وما يحتمله من معنى . وفى موقف ابن الأثير من قول على بن جبلة :

وما لا مرىءٍ حاولتَهُ عنكَ مهربٌ ولو حملتْه فى السماء المطامعُ
بلى هاربٌ ما يهتدِى لمكانه ظلامٌ ولا ضوءٌ من الصبح ساطِعُ

أبان أولا عن حسن الإيجاز فيهما فذكر أن هذا هو الكلام الذى ألفاظه رفاق معانيه . وأبان بعد ذلك عن مضمون هذه الجملة فذكر أن هذا الكلام " قد اشتمل على مدح رجل بشمول ملكه وعموم سلطانه ، وأنه لا مهرب عنه لمن يحاوله وإن صعد إلى السماء . ثم ذكر جميع المهارب فى المشارق والمغارب وأشار إلى أنه يبلغ الظلام والضياء . وذلك كله مع إيجاز اللفظ والإتيان بالعبارة غير زائدة على المعنى المندرج تحته ولا

---

١ - المثل السائر ٢ / ٥١ .

قصرت عنه [١] " .

ومثل ذلك موقفه من بيت السموءل بن عاديا الغسانى .

وإنْ هوَ لم يحمِل على النفسِ ضيمَها   فليس إلى حسنِ الثناءِ سبيلُ

فقد جاء شرحه له من خلال تعداد ما يحمله البيت من جمع مكارم الأخلاق ، واشتماله على كثير منها فى لفظ قصير لدخوله تحت باب الإيجاز بالقصر . فقد ذكر ابن الأثير فى شرحه للبيت " أن هذا البيت قد اشتمل على مكارم الأخلاق جميعها من سماحة وشجاعة ، وعفة ، وتواضع، وحلم ، وصبر وغير ذلك . فإن هذه الأخلاق كلها من ضيم النفس لأنها تجد بحملها ضيما : أى مشقة وعناء [٢] " .

ومن خلال هذا النقد يتضح معنى البيت وما يحتوى عليه من حسن وجمال .

ومما هو جدير بالذكر أن ابن الأثير قد عبر عن إعجابه بالبيت وأبان عن الحسن فيه بقوله عنه : إن لفظه تضمن محتملات كثيرة ، ولا أعلم أن شاعرا قديما ولا حديثا أتى بمثله [٣] .

ومن ذلك أيضا موقفه من قول أبى تمام :

وظلمتَ نفسَكَ طالباً إنصافَها   فعجبتُ من مظلومةٍ لم تظلمِ

---

١ - المثل السائر ٢ / ١١٤ .

٢ - المثل السائر ٢ / ١١٦ .

٣ - المثل السائر ٢ / ١١٧ .

فيعد أن أبان عن المقابلة بين بعض الأضداد فى هذا البيت وأنه أخذ معنى هذا البيت من السموءل بن عادياء :

وإن هو لم يحمِل على النفسِ ضيمَها فليس إلى حسنِ الثناء سبيلُ

أوضح ابن الأثير معنى البيت من خلال نقده للمعنى . فذكر أن معنى قول أبى تمام : (وظلمت نفسك طالبا إنصافها) أى أنك أكرهت نفسك على مشاق الأمور ، وإذا فعلت ذلك فقد ظلمتها . ثم إنك مع ظلمك إياها قد أنصفتها لأنك جلبت إليها أشياء حسنة تكسبها ذكرا جميلا ومجدا مؤثلا . فأنت منصف لها فى صورة ظالم إياها . وقوله (فعجبت من مظلومة لم تظلم) أى أنك ظلمتها وما ظلمتها لأن ظلمك إياها أدى إلى ما هو جميل وحسن [١].

وقد يتعرض ابن الأثير لشرح النص الشعرى بغرض بيان ما فيه من معان مقدرة تستخرج من المعانى الظاهرة ، والترجيح بينها وبين المعنى العام الذى يدل عليه لفظ البيت . ومن ذلك حديثه عن بيتى جزء بن كليب الفقعسى وقد خطب إليه ابن كوز ابنته فرده :

تَبَغَّى ابنُ كوزٍ والسفاهةُ كاسمِها ليستادَ منا أن سَنَوْنا لياليا [٢]
فلا تطلُبَنَّهَا يا ابنَ كوزٍ فإنه غذا الناسُ مذ قام النبيُ الجواريَا

فقد شرح البيتين من خلال بيان اشتمال الثانى منهما على معنيين

---

١ — المثل السائر : ٢ / ١١٧ .

٢ — ليستاد منا : أى ليكتسب السيادة عن طريقنا . سنونا : أى دخلنا فى السنة وهى الجدب والقحط .

أحدهما تام والآخر مقدر . " أما التام فإن ابن كوز سأل أبا هذه الجارية أن يزوجه إياها فى سنة . والسنة : الجدب . فرده وقال : قد غذا الناس البنات مذ قام النبي ﷺ - وأنا أيضا أغذو هذه . ولولا ذلك لو أدتها كما كانت الجاهلية تفعل . وفيه وجه آخر وهو أنهم كانوا يئدون البنات قبل الإسلام ، فلما جاء النبى - ﷺ نهى عن ذلك ، فقوله : (غذا الناس مذ قام النبى الجواريا) . أى فى النساء كثرة ، فتزوج بعضهن وخل ابنتى . وهذان المعنيان هما اللذان دل عليهما ظاهر اللفظ . وأما المعنى المقدر الذى يعلم من مفهوم الكلام فإنه يقول : إن النبى ﷺ أمر بإحياء البنات ونهى عن الوأد ولو أنكحتكها لكنت قد وأدتها ؛ إذ لا فرق بين إنكاحك إياها وبين وأدها . وهذا ذم للمخاطب . وهو معنى دقيق [١] ".

وهكذا كان ابن الأثير يتوقف مع معنى البيت أو الأبيات كلما وجد الداعى لذلك . وكانت له أهداف أخرى يهدف إلى تحقيقها كلما توقف مع نص شعرى غير مجرد شرح النص . فلم يكن شرح النصوص وبيان معناها غاية فى ذاتها ، وإنما كان ذلك عنده وسيلة إلى غاية أو غايات يرمى إلى تحقيقها من وراء ذلك .

---

١ - المثل السائر ١ / ٦٢ .

الفصل الثالث

قضايا نقدية فى كتاب المثل السائر

تناول ابن الأثير العديد من قضايا النقد الأدبى فى كتابه المثل السائر، وكان له فى كل منها دوره الكبير فى ترسيخ قواعدها وتوضيح جوانبها ، وفى هذا الفصل عرض لأهم هذه القضايا التى تناولها ابن الأثير فى كتابه ، وكانت له جهود واضحة فيها، وهى :

أولاً: قضية الطبع لدى الأديب والناقد :

تحدث ابن الأثير فى مواضع كثيرة من كتابه عن الطبع لدى الأديب والناقد ، ونبه إلى أهميته مرارا ، وجعل الطبع فى مقدمة الآلات التى يعتمد عليها الأديب فى صناعة الشعر والنثر . وأبان أن الأديب إذا لم يكن مطبوعا ولم يؤته الله زادا من الطبع والذوق فإنه لن تغنيه بقية الآلات شيئا. ومثَّله فى ذلك بمثل النار الكامنة فى الزناد والحديدة التى يقدح بها فإذا لم يكن فى الزناد نار لم تفد تلك الحديدة شيئا .

كما تحدث عن أثر الطباع فى تعلم العلوم وميل بعض أصحاب الطباع إلى علم بعينه ، ونفورهم عن غيره من العلوم مع صعوبة العلم الذى يميلون إليه عن العلم الذى ينفرون منه ، كما أن الشاعر قد يملى عليه طبعه أن يجيد فى غرض من أغراض الشعر دون غرض آخر،وكذلك

الشأن مع صاحب الطبع فى المنثور [١]

ويضرب ابن الأثير مثالا على ذلك بحال الحريرى صاحب المقامات؛ فقد كان الحريرى "واحدا فى زمنه ، فلما حضر ببغداد ووقف على مقاماته قيل : هذا يستصلح لكتابة الإنشاء فى ديوان الخلافة، ويحسن أثره فيه، فأحضر وكلف كتابة كتاب فأفحم ولم يجر لسانه فى طويلة ولا قصيرة" .[٢]

على أن الحريرى فى رأى ابن الأثير قد خانته جودته فى بعض المواضع من مقاماته فجاء بها منحطة عن كلامه فى بقية المقامات ، بل جاء بالغث البارد الذى لا يتفق مع بقية كلامه في مقاماته ، كما كتب أشياء غير المقامات هي أقل بكثير فى جودها مما جاء فى المقامات .

وهكذا تؤثر الطباع فى ميل بعض الناس إلى علوم بذاتها دون غيرها من العلوم ، ويميل البعض الآخر منهم إلى تلك العلوم التى ينفر منها غيرهم ، وهذا مشاهد مسلم به . ولعل الحكمة فى ذلك أن الله سبحانه وتعالى - قد نوع فى طباع الناس وقسم ذلك بين خلقه حتى تكتمل إفادة الإنسان من جميع المعارف والعلوم ، وحتى لا يكون هناك اهتمام بعلم دون آخر، وليستمتع الإنسان بآثار العلوم والمعارف كلها فى حياته.

وبناء على ذلك فعلى الناقد مراعاة اختلاف الطباع حين يجلس

---

١ - انظر : المثل السائر ١\ ٢٧ .
٢ - المثل السائر ١\ ٢٧ .

للنظر فى أعمال الأدباء، وعليه معرفة ما يتمتع به الأديب من طبع وميل قبل إصدار حكمه على عمله الأدبى ، ومدى تأثره بهذا الطبع حتى يكون نقده سليما واقعيا .

كما أن الطبع ضرورى للأديب – كما يرى ابن الأثير– فى إدراكه الحسن والقبيح من الألفاظ. فإن ذلك يرجع أولا إلى السمع والذوق كما سبق أن وضحنا فى الفصل السابق. ولا يتمكن من التمييز بينهما إلا صاحب الطبع السليم والبصيرة الذواقة .

وفى هذا المقام يرى ابن الأثير أن من له أدنى بصيرة يعلم أن للألفاظ فى الأذن نغمة لذيذة كنغمة الأوتار، وصوتا منكرا كصوت الحمار ، وأن لها فى الفم أيضا حلاوة كحلاوة العسل ، ومرارة كمرارة الحنظل. والألفاظ على ذلك – فى رأى ابن الأثير – تجرى مجرى النغمات والطعوم. ومن هنا رأي أن الأساس فى الحكم على الألفاظ بالحسن أو القبح هو السمع والذوق اللذان يتمتع بهما صاحب الطبع السليم . ورفض قول من يضع للألفاظ الفصيحة شروطا محددة إذا فقدها ذهبت فصاحتها . كما رفض قول من يرجع وصف الألفاظ بالفصاحة إلى استعمال العرب لها ، فيرى أن الذى نستحسنه منها فى زماننا هذا هو الذى كان عند العرب مستحسنا ، وأن الذى نستقبحه منها هو الذى كان عندهم مستقبحا .

ويرى أن الاستعمال ليس بدليل على الحسن ، فإنا نستعمل الآن

من الكلام ما ليس بحسن ، وإنما نستعمله للضرورة لأنه ليس استعمال الحسن بممكن فى كل الأحوال . كما أن استحسان الألفاظ واستقباحها لا يؤخذ بالتقليد عن العرب ؛ لأنه شيء ليس للتقليد فيه مجال ، وإنما هو شيء له خصائص وهيئات وعلامات إذا وجدت علم حسنه من قبحه . وأما الذى نقلد العرب فيه من الألفاظ إنما هو الاستشهاد بأشعارها على ما ينقل من لغتها والأخذ بأقوالها فى الأوضاع النحوية فى رفع الفاعل ، ونصب المفعول ،وجر المضاف إليه ، وجزم الشرط ، وأشباه ذلك ، وما عداه فلا . وحسن الألفاظ أو قبحها ليس إضافيا إلى زيد دون عمرو ، أو إلى عمرو دون زيد ، لأنه وصف ذووى لا يتغير بالإضافة ؛ فإذا استعملت العرب لفظا قبيحا لا يكون استعمالهم إياه مخرجا له عن القبح ، ولا يلتفت إلى استعمالهم إياه بل يعاب مستعمله .(١)

كما نبه ابن الأثير على أن للطبع لدى الأديب دورا كبيرا فى حسن الأدب وبعده عن التكلف والاستهجان . " فإن الألفاظ إذا صدرت فيها عن سهولة خاطر وسلاسة طبع ، وكانت غير مستجلبة ولا متكلفة جاءت غير محتاجة إلى التألف . ولا شك أن صورة الخلقة غير صورة التخلق " (٢)

ويبين ابن الأثير أثر الطبع فى مجال العمل الأدبى وحسنه من خلال التفرقة بين المتكلف وغير المتكلف من الأنواع الأدبية ، فيقول فى حديثه

---

١ - انظر المثل السائر ١/ ١٥٦ ، ١٥٧.

٢ - المثل السائر ١/ ٢٦٩ .

عن المتكلف وغير المتكلف فى باب لزوم ما لا يلزم : " أما المتكلف فـــهو الذى يأتى بالفكرة والروية ، وذلك أن ينضى الخاطر فى طلبه ، ويبعـــث على تتبعه واقتصاص أثره . وغير المتكلف يأتى مستريحا من ذلك كلـــه . وهو أن يكون الشاعر فى نظم قصيدته أو الخطيب أو الكاتب فى إنشـــاء خطبته أو كتابته،فبينا هو كذلك إذ سنح له نوع من هذه الأنواع بالاتفاق لا بالسعى والطلب " [١].

هذا ويرى ابن الأثير أن خواطر الناس وإن تفاوتت فى الجـــودة أو الرداءة فإن بعضها لا يكون عاليا على بعض أو منحطا عنـــه إلا بشـــىء يسير، كثيرا ما تتساوى القرائح والأفكار فى الإتيان بالمعانى المتساوية حتى إن بعض الناس قد يأتى بمعنى موضوع بلفظ ، ثم يأتى الآخر بعده بذلـــك المعنى واللفظ بعينهما من غير أن يعلم بما جاء به الأول . وهذا ما يســـمى عند علماء البلاغة والنقد بوقوع الحافر على الحافر.[٢]

وقد كان ابن الأثير - كأديب وناقد - رجلا مطبوعا تتوافر فيـــه ملكة الطبع والتذوق الفطرى للأعمال الأدبية . وقد مكنه طبعـــه مـــن إصدار كثير من الأحكام النقدية الصائبة . وقد سبق الحديث عن ذلك فى الفصل الأول من هذا البحث .

---

١ - المثل السائر ١/ ٢٦٩،

٢ - المثل السائر ١/ ٤٦ .

ثانيًا: التلاؤم بين اللفظ والمعنى فى العمل الأدبى :

تحدث ابن الأثير فى مواضع مختلفة من كتابه المثل السائر عن عـــدة مظاهر تحقق التلاؤم بين اللفظ والمعنى فى العمل الأدبى ،وتجعله عملا فنيـــا مترابطا يتحقق فيه التوازن بين شكله ومضمونه ، والتلاؤم بـــين لفظــه ومعناه .

ولم يكن ابن الأثير أول من تنبه إلى أهمية هذا التلاؤم بـــين اللفــظ والمعنى فى العمل الأدبى وإنما تنبه إلى هذا نقاد عديدون قبله . فقد جـاء فى صحيفة بشر بن المعتمر أن " من أراغ معنى كريما فليلتمس له لفظا كريمــا ، فإن من حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن يصونهمــا عما يفسدهما ويهجنهما " [١].

وأوجب ابن رشيق الارتباط بين اللفظ والمعنى، وجعل اللفظ جسما وروحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم يضعف بضعفه ويقوى بقوته [٢] .

كما تنبه ابن جنى فى الخصائص إلى أن قوة اللفظ تدل علـــى قـــوة المعنى ،وأن اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان ثم نقـــل إلى وزن آخـــر أكثر منه فلابد أن يتضمن من المعنى أكثر مما تضمنه أولا ؛ لأن الألفـــاظ أدلة على المعانى ، وأمثلة للإبانة عنها ، فإذا زيد فى الألفاظ وجبت الزيادة

١ - العمدة لابن رشيق ١/ ٢١٣ .
٢ - العمدة ١/ ١٢٤ .

فى المعنى تبعا لذلك . ومثّل لذلك بلفظتى (خشـــن) و (اخشوشـــن) . فمعنى (خشن) دون معنى (اخشوشن) لما فيه من تكرير العين وزيـــادة الواو . وكذلك قولهم : (أعشب المكان) فإذا أرادوا كثرة العشب فيـــه قالوا : (اعشوشب) .ومن هذا الباب (قدر) و (اقتـــدر) ، فمعـــنى (اقتدر) أقوى من معنى (قدر) .قال الله – سبحانه –: " أخْذَ عزيـــز مقتدِرٍ " [١]. فمقتدر أوفق من قادر من حيث كان الموضع لتفخيم الأمـــر وشدة الأخذ [٢] .

كما نبه أبو هلال العسكرى على أن حسن التأليف يزيـــد المعـــنى وضوحا وشرحا ، وأن سوء التأليف ورداءة الرصف والتركيب شعبة مـــن التعمية . ونقل قول العتابى الذى اتفق فيه مع قول ابن رشيق السابق مـــن أن الألفاظ أجساد والمعانى أرواح ، وإنما تراها بعيون القلـــوب ، فـــإذا قدمت منها مؤخرا ، أو أخرت منها مقدما أفسدت الصـــورة وغـــيرت المعنى[٣] .

فهذه كلها أقوال تنادى بضرورة التلاؤم بين اللفظ و المعنى وقـــوة الارتباط بينهما .وجاء ابن الأثير ونبه على هذه القضية من خلال عـــدة ظواهر تؤدى بمن يراعيها من الأدباء فى كلامه إلى قوة الملاءمـــة وشـــدة الترابط بين شقى العمل الأدبى .

---

١ – من الآية ٤٢ من سورة القمر .
٢ – اقرأ الخصائص ٣/ ٢٦٧ : ٢٧١ .
٣ – انظر الصناعتين ١٦١ .

ومن ذلك ما ذكره من أن للمدح ألفاظا تخصه ، وللذم أيضا ألفاظا تخصه ، ولكن لا ينبغى ألا نفرط فى هذا كما ذهب البعض من النقاد حتى قالوا : إن من الأدب ألا يخاطب الأديب الملوك ومن يقاربهم بكاف الخطاب . ولم يوافق ابن الأثير على ما ذهب إليه هؤلاء ورد عليهم بأن هذا غلط بارد ، فإن الله الذى هو ملك الملوك قد خوطب بالكاف فى مثل قوله- تعالى - : " إِيَّاكَ نعبُدُ وإِيَّاكَ نستعينُ " [١] ، وورد أمثال هذا فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم [٢] .

وقد أشار ابن سنان الخفاجى قبل ابن الأثير إلى أن من دلائل وضع الألفاظ مواضعها " أن لا يعبر عن المدح بالألفاظ المستعملة بالذم .ولا فى الذم بالألفاظ المعروفة بالمدح . بل يستعمل فى جميع الأغراض الألفاظ اللائقة بذلك الغرض ، فى موضع الجد ألفاظه ، وفى موضع الهزل ألفاظه"[٣].

وبذلك يتفق ابن الأثير مع ابن سنان فى أن لكل غرض من أغراض الشعر ألفاظه اللائقة به والتى لا تليق بغيره حتى تكون معانيه أكثر قوة وتسديدا .

ويرى ابن الأثير أن خطاب المخاطب بالكاف لا يعاب فى الشعر

---

١ - الآية رقم ٤ من سورة الفاتحة .

٢ - انظر المثل السائر ٢/ ٣٠٩ .

٣ - سر الفصاحة ١٥٤ .

ويعاب فى الكتابة إذا كان المخاطِب دون المخاطَب درجة . والأولى حينئذ أن يخاطبه مخاطبة الغائب لا مخاطبة الحاضر . وأما إن كان فوقه فلا عيب فى خطابه إياه بالكاف لأنه ليس من التفريط حينئذ فى شيء [١] . وعلى هذا فلا بأس بمثل خطاب النابغة الذبيانى للنعمان بن المنذر بقوله :

فإنكَ كالليلِ الّذى هو مدرِكى وإن خِلتُ أن المنتَأى عنك واسِعُ

ولا بأس بمثل خطاب البحترى ممدوحه بقوله :

ولقد أتيتُكَ طالباً فبسطــتَ لى أمَلِى وأطلُب جودَ كفِّك مطلَبى

ومن الحسن جدا فى هذا الباب فى رأى ابن الأثير أن يترك الأديب الخطاب بالأمر . فلا يقول للممدوح : افعل كذا وكذا ، وإنما يخرجه مخرج الاستفهام فهذا أسلوب حسن جدا وعليه مسحة من جمال بل عليه الجمال كله . ومنه قول البحترى :

فهل أنتَ يا ابنَ الراشدِين مختِّمى بياقوتةٍ تُبهى علىَّ وتشرِقُ

وقول الآخر :

أمقبولَةٌ يا ابنَ الخلائفِ من فَمى لديك بوصفِى غادةَ الشعر رؤدُهُ

فقوله (أمقبولة) من الأدب الحسن الذى نسج فيه على منوال البحترى [٢] .

وينبه ابن الأثير - حتى تكون الألفاظ موائمة للمعانى المرادة - إلى " أن من المعانى ما يعبر عنه بألفاظ متعددة ، ويكون المعنى المندرج تحتها

---

١ - انظر المثل السائر ٣٠٩/٢ .

٢ - انظر المثل السائر ٣١٢/٢ .

واحدا . فمن تلك الألفاظ ما يليق استعماله بالمدح ،ومنها ما يليق استعماله بالذم . ولو كان هذا الأمر يرجع إلى المعنى فقط لكانت جميع الألفاظ الدالة عليه سواء فى الاستعمال ، وإنما يرجع فى ذلك إلى العرف دون الأصل " [١] . ففى مقام مخاطبة الملوك مدحا ينبغى ذكر الرأس والهامة والكاهل وما جرى هذا المجرى . أما إذا كان المقام مقام هجاء ذكر الدماغ والقفا والقذال وما جرى هذا المجرى ، وإن كانت معانى الجميع متقاربة . ومن هنا كانت الكناية أفضل من التصريح فى مثل هذا الموضع [٢].

ومما يتصل بالتلاؤم بين اللفظ والمعنى فى العمل الأدبى ما نبه إليه ابن الأثير بأن الكاتب ينبغى أن يجعل التحميدات فى أوائل الكتب السلطانية مناسبة لمعانى تلك الكتب . وذكر فى هذا الصدد أن الكتب السلطانية دون غيرها التى تصدر بالتحاميد ؛ لأنها غالبا ما تتضمن أمورا لائقة بالتحميد كفتح مقفل ، أو هزيمة جيش ، أو ما جرى هذا المجرى[٣].

ويرى ابن الأثير أن من الافتتاحات التى أخلقت وصارت مؤدراة أن يقال فى أول التقليدات : " إن أحق الخدم بأن ترعى خدمة كذا وكذا ، وإن أحق من قلد الأعمال من اجتمع فيه كذا وكذا ؛ فإن هذا ليس من المبادىء المستحسنة . ومن استعمله أولا فقد ضعفت فكرته عن اقتراح ما

---

١ -المثل السائر ٣١٢/٢ .
٢ -المثل السائر ٣١٣/٢ .
٣ -انظر المثل السائر ٢٣٣/٢ .

يحسن استعماله من المبادىء ، والذى تبعه فى ذلك إما مقلد ليس عنـــده قوة على أن يختار لنفسه ، وإما جاهل لا يفرق بين الحســـن والقبيــح ، والجيد والردىء " (١).

وأنا وإن كنت أوافق ابن الأثير على أن مثل هـــذه المبـــادىء قــد أخلقت وصارت مزدراة فإنى لا أوافقه على هجومه على مستعملى هـــذه المبادىء من الكتاب الأوائل ؛ لأنهم حينما استعملوها كانت بالتـــأكيد متناسبة مع ثقافتهم وعصورهم ومن كانت تكتب لهم وعنهم . وإلا لمـــا رضى بها ولا عنها من صدرت عنهم أو بشأنهم هذه التقليدات ، وكـــانوا أقرب إلى عهد العربية الخالصة من عصر ابن الأثير . فلو لم تكـــن هـــذه المبادىء متفقة مع ذوق هؤلاء العرب وحكامهم لما استمروا فى افتتـــاح تقاليدهم بها .

كما يرى ابن الأثير أن من علامات الإجادة لدى الكاتب أن يجعــل الدعاء فى أول الكتاب من السلطانيات والإخوانيات وغيرهما مضمنا مـــن المعنى ما بنى عليه ذلك الكتاب (٢). كما أنه " من محاسن هذا البـــاب أن يفتتح الكتاب بآية من القرآن الكريم ، أو بخبر من الأخبار النبويـــة ، أو ببيت من الشعر ثم يبنى الكتاب عليه " (٣) .

ومن تتمة حديث ابن الأثير عن المبادىء والافتتاحات ومدى أثرهـــا

---

١ -المثل السائر ٢/٢٣٥ .
٢ -انظر المثل السائر ٢/٢٣٦ .
٣ -المثل السائر ٢/٢٤١ .

فى تحقيق التلاؤم بين عبارات الشاعر وغرضه الذى يهدف إليه ما ذكره من أن الشاعر يجب عليه إذا نظم قصيدا أن يراعى ما يتوافق مع موضوع القصيدة ومع مناسبتها ؛ فإن كانت مديحا صرفا لا يختص بحادثة من الحوادث فهو مخير بين أن يفتتحها بالغزل أو يدخل فى موضوعه وهو المديح مباشرة . وإن كانت القصيدة فى حادثة من الحوادث كفتح مقفل أو هزيمة جيش أو غير ذلك فلا ينبغى أن يبدأ فيها بالغزل . فإنه إن فعل ذلك دل على ضعف القريحة وقصوره عن الغاية ، أو على جهله بمواضع الكلام فى مواضعه ؛ فإن الغزل رقة محضة ، والألفاظ التى تنظم فى الموضوعات المشار إليها من فحل الكلام ومتين القول وهى ضد الغزل . كما أن الأسماع تكون متطلعة إلى ما يقال فى تلك الحوادث ، والابتداء بالخوض فى ذكرها مباشرة لا إلى الابتداء بالغزل . إذ المهم واجب التقديم.

كما يجب على الشاعر ألا يذكر فى افتتاح قصيدة المديح ما يتطير منه كوصف الديار بالدثور ، والمنازل بالعفاء ، وغير ذلك من تشتت الألاف وذم الزمان . وإذا كان ذلك فى التهانى فإنه يكون أشد قبحا . وإنما يستعمل ذلك فى الخطوب النازلة والنوائب الحادثة ، ومتى كان الكلام فى المديح مفتتحا بشىء من ذلك تطير منه سامعه .

وإنما خصت الابتداءات بالاختيار لأنها أول ما يطرق السمع من الكلام . فإذا كان الابتداء لائقا بالمعنى الوارد بعده توفرت الدواعى على

استماعه . ودلل ابن الأثير على ذلك بالابتداءات الواردة فى القرآن الكريم كالتحميدات المفتتح بها أوائل بعض السور ، وكالابتداءات بالنداء، كقوله – تعالى – فى أول سورة النساء : " يا أيُّها الناسُ اتقُوا ربَّكم الذى خلقكُم من نفسٍ واحدَةٍ وخَلَقَ منها زوجَها " . وكقوله – تعالى – فى مفتتح سورة الحج : " يا أيُّها الناسُ اتقوا ربَّكُم إنَّ زلزلَةَ الساعةِ شىءٌ عظيمٌ " . فإن مثل هذا الابتداء مما يوقظ السامعين للإصغاء إليه . وكذلك الابتداءات بالحروف المقطعة مثل (ألم) و (حَمَ) و (صَ) و (قَ) و (طسَ) و (طَسَمَ) ، وغيرها . فإن هذا أيضا مما يبعث على الاستماع إليه. وذلك أنه يقرع السمع بشىء غريب يجعله يتطلع إلى ما بعده ويصغى إليه[1] .

وهناك من الشعراء من أحسن الابتداء فى كثير من قصائده فجاء به متناسبا مع موضوع القصيدة ، ومنهم من أساء ابتداء بعض قصائده . فمن قبيح الابتداءات قول ذى الرمة فى مدح عبد الملك بن مروان :

ما بالُ عينِكَ منها الماءُ ينسَكِبُ   كأنه من كُلًى مفرِيةٍ سَرِبُ

فمقابلة الممدوح بهذا الخطاب مكروه وقبيح ، وخاصة أن عبد الملك كان مصابا – كما يقال – فى إحدى عينيه وهى تدمع دائما،ولذا واجه الشاعر حينما استمع إلى البيت السابق بقوله : وما سؤالك عن هذا يا جاهل وأمر بإخراجه [2].

---

١ – انظر المثل السائر ٢/٢٢٣ ، ٢٢٤

٢ – انظر العمدة ١/ ٢٢٢.

كما أساء الأخطل ابتداء بعض قصائده ، كما في قصيدته الرائيــة في مدح عبد الملك بن مروان إذ بدأها بقوله :

خفَّ القطينَ فراحُوا منكَ أو بَكَرُوا   وأزعجتْهُمْ نوىً في صَرْفِها غِيَرُ

إذ قال عبد الملك عند ذلك : لا بل منك . وتطير من قوله فغيرهـــا الأخطل إلي :

خفَّ القطينُ فراحوا اليومَ أو بَكَرُوا ...[١]

ويذكر ابن الأثير أن من شاء أن يذكر الديار والأطـــلال في بدايـــة قصائده فليتأدب بأدب القطامي على جفاء طبعه وبعده عن فطانة الأدب. فإنه قال :

إنا محيُّوكَ فاسلَمْ أيَّها الطَلَلُ   وإنْ بليتَ وإن طالتْ بكَ الطِّيَلُ

فبدأ قبل ذكر الطلل بذكر التحية والدعاء له بالسلامة [٢].

ومن الابتداءات غير الموفقة في رأي ابن الأثير ما ابتدأ به إســـحاق ابن إبراهيم الموصلى قصيدته في مدح الخليفة المعتصم بعد أن فرغ من بناء قصره بالميدان وجلس فيه مع أهله وأصحابـــه وأمرهـــم أن يخرجـــوا في زينتهم. فاستأذن إسحاق الموصلي وأنشد شعرا حسنا أجاد فيـــه إلا أنـــه استفتحه بذكر الديار وعفائها فقال :

يادارُ غيَّرَكِ البلَى فمَحَاكِ   ياليت شعري ما الذي أبلاكِ

---

١ - المثل السائر ٢ / ٢٥٥ .

٢ - انظر المثل السائر ٢ / ٢٢٥ .

فتطير المعتصم بذلك وتغامز الناس علي إسحاق كيف ذهب عليه ذلك مع معرفته وعلمه وطول خدمته للملوك . ثم قاموا وانصرفوا فما عاد منهم اثنان إلى ذلك المجلس وخرج المعتصم إلي سر من رأي وخرب القصر [١].

وفرق كبير بين حديث إسحاق الموصلى السابق وحديث أشجع السلمى عن الديار فى ابتداء قصيدته :

قَصْرٌ عليه تحيةٌ وسَلَامُ   خلعَتْ عليه جمالَهَا الأيَّامُ [٢]

وفي هذا المجال وما يتصل بالطريقة المثلى في افتتاحيات القصائد والإتيان بها متناسبة مع موضوع القصيدة يذكر ابن الأثير أن بعضهم سئل عن أحذق الشعراء فقال : من أجاد الابتداء والمطلع . ألا تري إلى قصيدة أبي نواس التى مطلعها :

يا دارُ ما فَعلَتْ بك الأيَّامُ   لم تَبقَ فيكَ بشاشَةٌ تستَامُ

لأنها من أشرف شعره وأعلاه منزلة وهي مع ذلك مستكرهة الابتداء لأنها في مدح الخليفة الأمين وافتتاح المديح بذكر الديار ودثورها مما يتطير منه [٣] .

ويذكر ابن الأثير أنه يختار فى ذكر الأماكن والمنازل مارق لفظه وحسن النطق به كالعذيب ، والغوير ، ورامة ، وبارق ، والعقيق ،

---

١ - انظر المثل السائر ٢ / ٢٢٦ .
٢ - المثل السائر ٢ / ٢٢٧ .
٣ - المثل السائر ٢ / ٢٢٧ .

وأشباه ذلك . كما أنه ينبغى أن يختار أسماء النساء فى الغزل نحو سعاد ، وأميم ، وفوز، ونحو ذلك . ولهذا عيب على الأخطل تغزله بقذور (اسم امرأة)، وعيب علي غيره التغزل باسم (تماضر) لثقله على اللسان.

ويستثنى من ذلك ما كان اسم موضع تضمن موقعة من المواقع فإن ذكره لا يكره وإن كان فى اسمه كراهة ، كتلك الأسماء التى ذكرها أبو تمام والمتنبى فى شعرهما لمواضع الوقائع التى تحدثا عنها مثل : الحشال ، وعقوقس ، وهتريط ، وشميصاط ، وغيرها . وهذا لا عيب فى ذكره للضرورة التى تدعو إليها . كما إنه يسامح للشاعر والكاتب فى ذكر ما لابد من ذكره وإن قبح . وإن أمكنه التورية فى ذلك استحب له أن يسلكها [١] .

ومن شروط الابتداء الجيد أيضا عند ابن الأثير ألا يكون مستقبحا وإن لم يتطير منه ، كقول أبى تمام فى أول قصيدته فى مدح يحيى بن ثابت :

قدكَ اتئبْ أربيتَ فى الغَلْوَاءِ　　　كم تعذلون وأنتمُ سُجَرَائى

وكقول أبى الطيب المتنبى فى مدح محمد بن سيار التميمى :

أقلُّ فَعَالى بلْــهُ أكثرُه مجدُ　　　وذا الجدُّ فيهِ - نلتُ أم لم أنلْ - جدُّ [٢]

وهكذا ذكر ابن الأثير الكثير من المبادىء والقواعد التى تجعل ابتداءات القصائد وما يتخيره الشاعر فيها ، من الألفاظ والعبارات

---

١ - المثل السائر ٢ / ٢٢٧ ، ٢٢٨.

٢ - المثل السائر ٢ / ٢٢٨.

متناسبة مع موضوعها والأفكار والمعانى التى يتحدث عنها الشاعر فيـــها ، وما يؤدى ذلك إلى قوة التلاؤم بين الألفاظ والمعانى فى القصائد الشعرية .

على أن ابن الأثير قد اتفق فى معظم ما قاله فى المبادى والافتتاحــات مع من سبقه من النقاد ، كـــابن رشـــيق فى العمـــدة [1]، وأبى هـــلال العسكرى[2]، والآمدى [3] ، وغيرهم .

— ومن مظاهر التلاؤم بين اللفظ والمعنى فى العمل الأدبى — كمـــا يفهم من كلام ابن الأثير — أن يبتعد الأديب عن التكلف فى ألفاظـــــه . ومن هنا عاب على الحريرى تكلفه فى بعض مقاماته ورســـائله . ومنـــها رسالته التى بناها على كلمة معجمة وكلمة مهملة ، ورسالته الأخرى التى بناها من كلمات أحد حروف كل لفظ من ألفاظها معجم والآخر غـــــير معجم . وكذلك ما نظمه هو وغيره من شعر متكلف شـــبيه بالتمـــارين الهندسية . وأخرج ابن الأثير كل هذا وأمثاله من علم البيان ، لأنه خـــارج عن باب الفصاحة والبلاغة . " لأن الفصاحة هى ظهور الألفـــاظ مـــع حسنها ... وكذلك البلاغة فإنما الانتهاء فى محاسن الألفاظ والمعـــانى ... وهذا الكلام المصوغ بما أتى به الحريرى فى رســـالته وأورده الشـــاعر فى شعره لا يتضمن فصاحة ولا بلاغة ، وإنما يأتى ومعانيه غثـــة بـــاردة . وسبب ذلك إنما تستكره استكراها ، وتوضع فى غير مواضعها . وكذلـــك

---

١ - انظر العمدة ١ /٢١٧ وما بعدها .

٢ - انظر الصناعتين ٤٣١ ، وما بعدها .

٣ - انظر الموازنة بين ابى تمام والبحترى ص ٣٨٤ وما بعدها .

ألفاظه فإنها تجئ مكرهة أيضا غير ملائمة لأخواتها . وعلم البيان إنما هو الفصاحة والبلاغة فى الألفاظ والمعانى ، فإذا خرج عنه شئ من هذه الأوضاع المشار إليها لا يكون معدودا منه ولا داخلا فى بابه ، ولو كان ذلك مما يوصف بحسن فى ألفاظه ومعانيه لورد فى كتاب الله -عز وجل- الذى هو معدن الفصاحة والبلاغة ، أو ورد فى كلام العرب الفصحاء ، ولم نره فى شئ من أشعارهم ولا خطبهم [1] ".

والمقياس اللغوى والنحوى له دوره فى تحقيق التلاؤم بين اللفظ والمعنى فى العمل الأدبى . ومما يتصل بهذا الباب توقف ابن الأثير مع قول حسان بن ثابت مفتخرا :

لنا الجفناتُ الغُرُّ يلمعْنَ فى الضُّحَى ... وأسيافنا يقطرْنَ من نجدةٍ دما

وأدلى بدلوه فى النقد الذى وجه إليه فنفى ما أخذه النقاد - ومنهم أبو بكر الصولى - على البيت بسبب إنه جمع الجفنات والأسياف جمع قلة وهو فى مقام الفخر ، وهذا مما يحط من المعنى ويضع منه . ورد ابن الأثير على الصولى وغيره بأن هذا غير صحيح ، فغرض الشاعر إنما هو الجمع سواء أكان جمع قلة أم جمع كثرة . ويدل على ذلك قوله - تعالى -: " إنَّ إبراهيمَ كان أمَّةً قانتاً لله حنيفاً ولم يكُ من المشركين . شاكراً لأنعُمِهِ اجتباه وهداهُ إلى صراطٍ مستقيم [2] ". فهل كانت نعم الله قليلة على

---

١ - المثل السائر ٣٣٤/٢.

٢ - الآيتان ١٢٠ ، ١٢١ من سورة النحل.

إبراهيم – عليه السلام – حتى يجمعها جمع قلة ؟ . وورد ذلك أيضا فى قوله – تعالى – : " وأدخِلْ يَدَكَ فى جيبِك تخرُجْ بيضاءَ من غيرِ سوءٍ فى تسع آياتٍ إلى فرعونَ وقومِهِ إنهم كانوا قوماً فاسقين . فلما جاءتهم آياتُنا مبصرةً قالوا هذا سحرٌ مبين . وجَحَدوا بها واستيقنتها أنفسُهُم ظلماً وعلُوّاً [1] ". فقال : (واستيقنتها أنفسهم) فجمع النفس جمع قله ، وما كان قوم فرعون بالقليل حتى تجمع نفوسهم جمع قلة . وهذا مما يبطل قول الصولى وغيره فى مثل هذا الموضع . وورد فى ذلك قوله – عز وجل – : "الله يَتوفَّى الأنفسَ حين موتِها والتى لم تمُتْ فى منامِها [2]". والنفوس المتوفاة والنائمة لاينتهى إلى كثرتها كثرة لأنها نفوس كل من فى العالم[3] . وهذا كله يثبت أن حسان بن ثابت فى بيته جاء بألفاظ تعبر عما فى نفسه وتتلاءم مع المعنى الذى أراد .

ويرى ابن الأثير-كما يذكر الدكتور إحسان عباس [4] – المعنى مجسدا من خلال اللفظ فيسبغ صورته على اللفظ . فرغم ما قد يبدو من ميل ابن الأثير إلى جانب اللفظ واهتمامه به أكثر من اهتمامه بالمعنى إلا أن كلامه يوحى بوجوب التآلف بين اللفظ والمعنى :"غير أن هذا لا ينفى أن ابن الأثير ذو حساسية تبلغ حد المرض نحو طبيعة اللفظة نفسها. كان

---

١ – الآيات ١٢ ،١٣ ،١٤ ، من سورة النمل .
٢ – من الآية رقم ٤٢ من سورة الزمر .
٣ – انظر المثل السائر ٢ / ٣٠٩ .
٤ – انظر : تاريخ النقد الأدبى عند العرب – دار الشروق – ط ٢ – ١٩٩٢م – ص٦٠٤ .

حضرى المزاج ، يكره وحشى الألفاظ وشظف العبارات ، وكان متفوقا فى هذا الذوق ، شديد الوسواس ، إذا أحس بأن اللفظة ذات إيحاءات رديئة من ناحية الدلالة على العورات أو أنها ميتذلة لدى العامة[1] ".

- ومما يوحى بوجوب التلاؤم بين اللفظ والمعنى عند ابن الأثير حديثة عن الإفراط فى الأسلوب وجعله درجات منها المقبول ومنها المرذول . والإفراط عنده بمثابة الغلو عند غيره . فقد تحدث البلاغيون والنقاد عن المبالغة وجعلوها ثلاث درجات : تبليغ ، وإغراق ، وغلو ، ورفضوا الغلو فى المعنى والأسلوب إلا إذا استعمل الشاعر فى كلامه ما يقرب المعنى إلى القبول والصحة كاستعمال (كاد) أو (لو) أو (لولا) ونحوها ، أو أخرجه مخرج الهزل والخلاعة [2] .

وقد أشار ابن الأثير إلى اختلاف مواقف النقاد والبلاغيين إزاء الإفراط متفقا فى ذلك مع ما جاء فى كتاب العمدة لابن رشيق [3] . وذكر أن هناك من ذم الإفراط وهناك من حمده . وعبر ابن الأثير عن رأيه فى هذه الظاهرة الأسلوبية وقال بأنه لا بأس باستعمال الإفراط ، فإن أحسن الشعر أكذبه ، بل أصدقه أكذبه ، لكن درجاته تتفاوت فمنه المستحسن الذى عليه مدار الاستعمال . ومنه قول عنترة :

وأنا المنيةُ فى المواطِنِ كلِّها والطعنُ منىً سابقُ الآجالِ

١ - تاريخ النقد العربى عند العرب ٦٠٤.
٢ - انظر العمدة ٢/٦٤ وسر الفصاحة ص ٢٥٦ .
٣ - انظر العمدة ٢/٦٠ وما بعدها.

وقول بشار بن برد :

إذا ما غضِبْنا غضبةً مضرِّيةً
هتكنا حجابَ الشمسِ أو قطَرتْ دمَا[١]

ومن الإفراط ما هو مستهجن فى رأى ابن الأثير كقول النابغة الذبيانى متغزلا :

إذا ارتعشَتْ خافَ الجبانُ رعاشَها ومن يتعلَّق حيث علَّق يفرَقُ[٢]

فهو يريد وصف طول قامتها ، لكن وصفه من الأوصاف المنكرة التى خرجت بها المغالاة عن الاستحسان[٣] .

فابن الأثير وإن كان لا يرفض استعمال الشاعر للإفراط فى المعنى أو الأسلوب فإنه يرى أن من الإفراط ما هو حسن ، ومنه ما هو قبيح مستهجن . وهذا ما يجعله يلتقى مع غيره فى هذا الموضوع ، وما يؤكد ميله إلى القول بالتلاؤم بين الألفاظ والمعانى . ولذا فهو يرى أن الاقتصاد فى المعنى والأسلوب هو الحسن المقبول ، فهو وسط بين التفريط والإفراط ومن أحسنه أن يجعل الإفراط مثلا ثم يستثنى فيه بلو أو يكاد أو ما جرى مجراهما . ومنه قول الفرزوق :

يكَادُ يمسِكُهُ عرفانُ راحتِهِ ركنُ الحطِيم إذا ما جاءَ يستَلِمُ

وقول البحترى :

---

١ - انظر المثل السائر ٢ / ٣١٣.

٢ - ارتعشت . تقرطت أى لبست القرط .

٣ - انظر المثل السائر ٢/٣١٤ .

لو أن مشتاقاً تكلَّفَ فوق ما   في وسعِهِ لسَعَى إليك المنبرُ[1]

- ومن الظواهر التي تخل بالتلاؤم بين اللفظ والمعنى ظاهرة التكرير.
وفي هذا يرى ابن الأثير أن تكرير المعنى دون اللفظ يعاب الناثر على استعماله مطلقا إذا أتى لغير فائدة . وأما الناظم فإنه يعاب عليه في موضع دون موضع . فهو يعاب على استعماله في صدور الأبيات الشعرية وما والاها ، ولا يعاب إذا استعمله في أعجاز الأبيات لمكان القافية . ومن تكرير المعنى في عجز البيت قول الشاعر :

وهل ينعمَنْ إلا سعيدٌ مخَلَّدٌ   قليلُ الهموم لايبيتُ بأوَجالِ

فإذا كان قليل الهموم فإنه لايبيت بأوجال . وهذا تكرير للمعنى إلا أنه ليس بمعيب لأنه قافية .

أما في بيت الحطيئة :

قالت أمامةُ لاتجزَعْ فقلتُ لها   إن العزاءَ وإن الصبرَ قد غَلَبا
هلا التمستِ لنا إن كنتِ صادقةً   مالاً نعيش به في الناس أو نَشَبا

فيرى التكرير في البيت الأول معيبا لأنه كرر الصبر والعزاء ومعناهما واحد ولم يردا في القافية . وأما التكرير في البيت الثاني فليس بمعيب لأنه جاء في لفظ النشب وهو قافية [2] .

كما يرى أن من التكرير المعيب قول عنترة :

---

١ - المثل السائر ٢ / ٣١٧ .
٢ - انظر المثل السائر ٢/ ١٦٧ .

حُيِّيتَ من طللٍ تقادَمَ عهدُه أقوى وأقفرَ بعد أمِّ الهيثمِ

فأقوى وأقفر من التكرير المعيب لأنهما لفظان وردا بمعنى واحد فى غير القافية فلا ضرورة إليه ، لأن الضرورة لاتكون إلا فى القافية [١] .

وهكذا نادى ابن الأثير – من خلال ما تحدث عنه من ظواهر أسلوبية – بالتلاؤم بين اللفظ والمعنى فى الأسلوب الأدبى . وهو إن لم يكن قد عقد لذلك فصلا يتحدث فيه حديثا مباشرا عن هذه القضية فإن ما عقده من فصول حول كثير من مقومات الأسلوب وما جاء فيها من أقوال تفيد عدم ميله إلى جانب أحد الشقين على حساب الآخر يدل على قوله بهذا التلاؤم بين الشكل والمضمون ، أو بين اللفظ والمعنى ، وعدم طغيان أحدهما على الآخر .

ثالثا: قضية التخلص والاقتضاب :

تحدث ابن الأثير عن قضية التخلص والاقتضاب فى الكلام المنظوم والمنثور، وعرف التخلص بأنه "هو أن يأخذ مؤلف الكلام فى معنى من المعانى فبينا هو فيه إذ أخذ فى معنى آخر غيره ، وجعل الأول سببا إليه ليكون بعضه أخذا برقاب بعض من غير أن يقطع كلامه ويستأنف كلاما آخر ، بل يكون جميع كلامه كأنما أفرغ إفراغا [٢] " .

والتخلص فى رأى ابن الأثير يعنى ما سماه بعض النقاد بالخروج .

---

١ – انظر المثل السائر ٢ / ١٦٩ .

٢ – المثل السائر ٢ / ٢٤٤ .

وهو أن يخرج المتكلم مما بدأ كلامه به من النسيب مثلا إلى المدح أو غيره بلطف تحيل مع رعاية الملاءمة بينهما بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد دخل فى المعنى الثانى لشدة الممازجة والالتئام بينهما حتى كأنهما أفراغا فى قالب واحد [(١)] .

على أن هناك من أطلق على الخروج تخلصا قبل ابن الأثير ، وإليهم أشار ابن رشيق بقوله : "ومن الناس من يسمى الخروج تخلصا وتوسلا[(٢)]". ولكن ابن رشيق جعل التخلص خاصا بطريقة خاصة يتبعها الشاعر فى نظم الشعر ، وهو تخلص الشاعر من معنى إلى معنى ثم عودته إلى المعنى الأول والأخذ فى غيره ثم يرجع إلى ما كان فيه [(٣)] .

وذكر ابن الأثير أن حسن التخلص " مما يدل على صدق الشاعر وقوة تصرفه من أجل أن نطاق الكلام يضيق عليه ويكون متبعا للوزن والقافية فلا تواتيه الألفاظ على حسب إرادته . وأما الناثر فلأنه مطلق العنان يمضى حيث شاء فلذلك يشق التخلص على الشاعر بأكثر مما يشق على الناثر [(٤)] " .

وأما الاقتضاب فقد عرفه ابن الأثير بأنه ضد التخلص وهو " أن يقطع الشاعر كلامه الذى هو فيه ويستأنف كلاما آخر غيره من مديح أو

---

١ - انظر العمدة ١ / ٢٣٤ .
٢ - العمدة ١ / ٢٣٦ .
٣ - انظر العمدة ١ / ٢٣٧ .
٤ - المثل السائر ٢ / ٢٤٤ .

هجاء أو غير ذلك ولا يكون للثانى علاقة بالأول [١] " . وقد سمى ابن رشيق هذا اللون من الانتقال طفرا وانقطاعا [٢]. ومثل له بقول البحترى:

لولا الرجاءُ لمتُّ من ألمِ الهوَى لكـنَّ قلبى بالرجاءِ موكَّلُ
إن الرعيَّةَ لم تزَلْ فى سيرةٍ عُمَرِيَّةٍ مذ ساسَها المتوكِّلُ

ويرى ابن الأثير أن الاقتضاب كان مذهب العرب ومن يليهم من المخضرمين . وأما المحدثون فإنهم تصرفوا فى التخلص فأبدعوا وأظهروا منه كل قريبة . ومن ذلك قول أبى تمام فى مدح عبد الله بن طاهر :

يقولُ فى قومسٍ صَحْبى وقد أخذَتْ
منّا السُّرى وخطا المهريةِ القودِ
أمطلعَ الشمسِ تبغِى أن تؤُمَّ بنا
فقلت : كلَّا . ولكن مطلعَ الجودِ

فقد تخلص فى براعة من الحديث عن رحلتهم وما ألم بهم فيها من تعب وإرهاق إلى الحديث عن الممدوح وكرمه وجوده . ولذا جعل ابن الأثير البيتين من بديع ما يأتى فى هذا الباب ونادره [٣].

على أن ابن الأثير ليس أول من قال بأن حسن التخلص لم يكن مذهب المتقدمين بل كان مذهب المحدثين من الشعراء . فقد سبقه إلى هذا القول غيره من النقاد القدامى . فابن رشيق يقول فى ذلك :

---

١ - المثل السائر ٢ /٢٤٤ .
٢ - انظر العمدة ١ / ٢٣٩ .
٣ - انظر المثل السائر ٢ / ٢٤٥ .

" وكانت العرب لا تذهب هذا المذهب فى الخروج إلى المدح ؛ بل يقولون عند فراغهم من نعت الإبل ، وذكر القفار وما هم بسبيله : " دع ذا " و " عد عن ذا " ، ويأخذون فيما يريدون أو يأتون بإن المشددة ابتداء للكلام الذى يقصدونه [١] " .

ويقول أبو هلال العسكرى : " كانت العرب فى أكثر شعرها تبتدئ بذكر الديار والبكاء عليها والوجد بفراق ساكنيها . ثم إذا أرادت الخروج إلى معنى آخر قالت : فدع ذا وسل الهم عنك بكذا [٢] "

ونلحظ أن أبا هلال لم يقل بأن حسن التخلص هو مذهب المحدثين وحدهم دون المتقدمين كما يقول ابن الأثير وابن رشيق ، وإنما يجعل ذلك كثيرا فى شعر المحدثين قليلا فى شعر المتقدمين . وقد صرح أبو هلال بذلك فقال عن القدماء : " فأما الخروج المتصل بما قبله فقليل فى أشعارهم. فمن القليل قول دجانة بن عبد قيس التميمى :

وقالَ الغوانى قد تضمَّر جلدُهُ ... وكان قديمًا ناعمَ المتبذلِ
فلا تأسَ أنى قد تلافيتُ شيبتى ... وعزَّ الغوانى من شميطٍ مرجَّلِ
بمشرقهِ الهادى نبذ عنانها ... يمين الغلام الملجم المتدللِ

فوصل وصف الفرس بما تقدم من وصفه الشيب وصلا [٣] " .

---

١ - العمدة ١ / ٢٣٩ .
٢ - الصناعتين : ٤٥٢ .
٣ - الصناعتين : ٤٥٣ .

وأرى أن الصواب مع أبى هلال العسكرى . فالمحدثون - وإن كثر تصرفهم فى التخلص وأبدعوا فيه وأظهروا منة كل غريبه فإن من الخطأ القول بأن الاقتضاب كان مذهب المتقدمين وحدهم ، أو أن حسن التخلص كان مذهب المحدثين وحدهم . فقد وجد الاقتضاب فى شعر بعض الشعراء المحدثين ، كما أن حسن التخلص قد وجد فى شعر المتقدمين كما يقول أبو هلال العسكرى ومثل له بما سبق وغيره .

على أن ابن الأثير قد عاد وناقض نفسه فى هذه القضية ، فبعد أن ذكر أن الاقتضاب هو مذهب المتقدمين من العرب ومن يليهم من المخضرمين ، وأن المحدثين قد تصرفوا فى التخلص وأبدعوا فيه ، وبعد أن ذكر العديد من أمثلة المحدثين فى التخلص عاد وقال : " ولاتظن أن هذا شئ انفرد به المحدثون لما عندهم من الرقة واللطافة ، وفات من تقدمهم لما عندهم من قشف العيش وغلظ الطبع ، بل قد تقدم أولئك إلى هذا الأسلوب وأن أقلوا منه وأكثر منه المحدثون [١] " .

وفى هذا يتفق ابن الأثير مع غيره من النقاد فى القول بأن حسن التخلص ليس مقصورا على المحدثين دون المتقدمين ، وإن كثر عند المحدثين وقل فى شعر المتقدمين .

وقد عرف أبو الطيب بتخلصه الجيد فى قصائده . ومنه ما جاء فى قصيدته التى يمدح فيها أبا محمد بن الحسين بن عبد الله بن طغج :

---

١ - المثل السائر ٢/٢٥٧.

إذا صُلتُ لم أترك مَصالاً لفاتكٍ   وإن قلــتُ لم أتركْ مقالاً لعالِمِ
وإلا فخانتْني القوافي وعاقَــني   عن ابن عبيد الله ضعفُ العزائمِ

ويذكر ابن الأثير أن الشعراء متفاوتون فى تخلصاتهم . وقد يقصــــر عنه الشاعر المفلق المشهور بالإجادة كالبحترى . فهو على جودة شـــعره وعلو مكانه من الشعر لم يوفق فى التخلص من الغزل الى المديح بل اقتضبه اقتضابا ، وليس له من الجيد فى هذا الباب إلا اليسير . ومنه قوله فى مدح أحمد بن إسماعيل بن شهاب :

وكفانى إذا الحوادثُ أظلمْـــ   ــنَ شهابًا بغرة ابن شهابِ

وكقوله فى قصيدته فى مدح صاعد بن مخلد :

قصدَتْ لنجرانَ العراقِ ركابُنا   يطلبنَ أرحبَها محلة ماجــدِ
آليتُ لا تلفين جدًا صاعــدًا   فى مطلبٍ حتى تناخ بصاعدِ (١)

وذكر ابن الأثير أن الاقتضاب في الشعر كثير لا يحصى ، والتخلص بالنسبة إليه قطرة من بحر ولا يوجد التخلص في شعر الشعراء المجيديــن إلا قليلا بالنسبة إلى المقتضب من أشعارهم (٢) .

وعلى هذا فالمتقدمون من الشعراء لا يعـــابون بقلـــة التخلـــص فى أشعارهم فليسوا فى ذلك خارجين على الحكم العام فى هذه القضية .

أما عن الجديد فى حديث بن الأثير عن ظاهرة التخلص والاقتضاب

---

١ - انظر المثل السائر ٢ / ٢٤٩ .
٢ - انظر المثل السائر ٢ / ٢٦١ .

فهو حديثه عن هذه الظاهرة فى النثر بجانب الشعر . فهو لم يقصر التخلص أو الاقتضاب على الشعر دون النثر كما فعل معظم النقاد قبله ، وإنما قال بوجودهما فى النثر كذلك ، وضرب العديد من الأمثلة على حسن التخلص فى النثر من كتاباته وكتابات غيره . كما تعرض لهذه الظاهرة فى كتاب الله - تعالى - ، واعترض على محمد بن الغانم المعروف بالغانمى الذى قال بأن كتاب الله خال من التخلص ، ورد عليه بأن هذا القول فاسد ؛ لأن حقيقة التخلص إنما هى الخروج من كلام إلى كلام آخر بلطيفة تلائم بين الكلام الذى خرج منه والكلام الذى خرج إليه . وفى القرآن الكريم مواضع كثيرة من ذلك كالخروج من الوعظ والتذكير بالإنذار والبشارة بالجنة إلى أمر أو نهى ، ووعد ووعيد ، ومن محكم إلى متشابه ، ومن صفة نبى مرسل ، وملك منزل إلى ذم شيطان مريد ، وجبار عنيد بلطائف دقيقة ومعان آخذ بعضها برقاب بعض [1] .

وكلام ابن الأثير فى هذا دقيق كل الدقة وهو صواب وحق . فالقرآن الكريم هو أعلى درجات النظم ، وأسلوبه فى غاية الإحكام والدقة . وهو عادة ينتقل فى كل سورة من معنى إلى معنى بلطف ودقة دون وجود أى نوع من الانفصام بين المعانى المختلفة . وللتدليل على ذلك نقرأ ما ذكره ابن الأثير من آيات القرآن الكريم كأمثلة على هذه الظاهرة . اقرأ مثلا الآيات من ٦٩ إلى رقم ١٠٢ من سورة الشعراء وهى الآيات التى تبدأ بقوله - تعالى - " واتْلُ عليهِمْ نبأَ إبراهيم " وتنتهى

١ - المثل السائر ٢ / ٢٥١ .

بقوله – تعالى – : " فلو أنَّ لَنَا كَرَّةً فتكونَ من المؤمنين " وما علق به ابن الأثير على حسن التخلص فيها من معنى إلى معنى [١] .

فقد تضمنت هذه الآيات ضروبا من المعانى وتخلص القرآن الكريم من كل ضرب منها إلى الآخر بلطيفة ملائمة حتى كأنة أفرغ فى قالب واحد ؛ فخرج من ذكر الأصنام وتنفير إبراهيم وقومه من عبادتهم إياها مع ما هى فيه من التعرى من صفات الإله الحق ، فهى لا تسمع ولا تبصر، ولا تضر ولا تنفع ، إلى ذكر الله – تعالى – فوصفه بصفات الألوهية فعظم شأنه ، وعدد نعمه ، ثم خرج من هذا إلى ادعائه إياه وخضوعه له ، ثم خرج إلى ذكر يوم القيامة وثواب الله وعقابه [٢]. ومنها ما ورد فى سورة الأعراف بشأن ذكر قصص الأنبياء والأمم الخالية من آدم إلى نوح – عليهما السلام – ثم إلى قصة موسى – عليه السلام – حتى انتهى إلى آخرها .

هذا تخلص من التخلصات الحسان . فإن الله – تعالى – ذكر الأنبياء والقرون الماضية إلى عهد موسى – عليه السلام – فلما أراد ذكر نبينا – صلوات الله عليه وسلامه – ذكره بتخلص انتظم به بعض الكلام ببعض . ألا ترى أنه قال على لسان موسى – عليه السلام – : "واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة " . فأجيب بقوله تعالى – : " قالَ عذابى أصِيبُ به من أشاءُ ورحمَتِى وَسِعَتْ كلَّ شئ ٍ فسأكتبُها للذينَ " من

---

١ – انظر المثل السائر ٢٥١/٢ .
٢ – المثل السائر ٢٥٢/٢ .

حالهم كذا وكذا ، ومن صفتهم كيت وكيت ، وهم الذين " يتَّبِعُون الرسولَ النبيَّ الأمِّيَّ " . ثم وصفه - صلوات الله عليه - بصفاته . إلى آخر الكلام [١]

ومن يقرأ سورة يوسف من أولها إلى آخرها يجد قصة برأسها وهى مضمنة شرح حاله من أول أمره إلى آخره . وفيها عدة تخلصات فى الخروج من معنى إلى معنى .

ولو تتبعنا ما فى القرآن الكريم من هذا ما انتهينا . وفيما ذكرناه كفاية للاستدلال على صحة كلام ابن الأثير بوجود التخلص فى القرآن الكريم .

رابعًا : قضية التجريد فى الشعر :

تحدث ابن الاثير فى المثل السائر عن ظاهرة التجريد فى الشعر ، وجعل التجريد لونا من ألوان البيان ، وعرفه بقوله : " إنه إخلاص الخطاب لغيرك وأنت، تريد به نفسك لا المخاطب نفسه [٢]" .

وقد أكثر الشعراء قديما وحديثا من استخدام هذا الأسلوب فى أشعارهم . وتتمثل أهميته فى رأى ابن الأثير فى أمرين إحداهما أبلغ من الأخرى : الأولى : طلب التوسع فى الكلام ؛ فإنه إذا كان ظاهر الكلام

---

١ - اقرأ الآيات من رقم ١٥٥ إلى رقم ١٥٧ من سورة الاعراف، وانظر المثل السائر ٢/٢٥٣ .

٢ - المثل السائر ١ / ٤٠٥ .

خطابا لغيرك ، وباطنه خطابا لنفسك فإن ذلك يعد من باب التوسع .

والثانية – وهى الأبلغ – أن به يتمكن المتكلم من إجراء الأوصاف المقصودة من مدح أو غيره على نفسه ؛ إذ يكون مخاطبا بها غيره فيكون أعذر وأبرأ من العهدة فيما يقول غير محجور عليه [١] .

وقسم ابن الأثير التجريد إلى قسمين : تجريد محض ، وتجريد غير محض . فالأول : – وهو المحض – أن تأتى بكلام هو خطاب لغيرك وأنت تريد به نفسك.ومنه قول امرئ القيس فى مطلع معلقته :

قِفَانبكِ من ذكرَى حبيبٍ ومنزلِ بسقط اللِّوى بين الدَّخول فحَوْمَلِ

ومثل له ابن الأثير بقول الشاعر المعروف بالحيص بيص [٢] فى مطلع قصيدة له :

إلامَ يـراكَ المجـدُ فى زىِّ شـاعرٍ وقد نحلَتْ شـوقاً فـروعُ المنابرِ
كتمتَ بعيبِ الشعرِ حِلماً وحكمـةً ببعضهما ينقادُ صعـبُ المفاخرِ
أما وأبيك الخيرِ إنك فارسُ الـ ـمقالِ ومحيى الدارسـاتِ الغوابرِ
وإنك أعيَيْـتَ المسـامعَ والنُّهى بقولك عمَّـا فى بطـونِ الدفـاترِ

---

١ – المثل السائر ١ / ٤٠٦ .

٢ – هو الشاعر أبو الفوارس سعد بن محمد بن سعد الصيفي التميمى ، ويلقب بشهاب الدين ، كان فقيهاً شافعى المذهب ، إلا أنه غلب عليه الأدب ونظم الشعر ، كما أن له رسائل فصيحة بليغة . وكان يلبس زى العرب ويتقلد سيفا ولذا لقب بأبى الفوارس . ولقب بحيص بيص لأنه رأى الناس يوما فى حركة مزعجة وأمر شديد فقال : ما للناس فى حيص بيص ؟! فبقى عليه هذا اللقب . توفى فى شعبان سنة ٥٧٤ هـ . انظر وفيات الأعيان ٢ / ٣٠٣ .

فهذا من التجريد المحض لأنه أجرى الخطاب على غيره وهو يريد نفسه مع استمرار الحديث عنها بصيغة المخاطب حتى يتمكن من ذكر ما ذكره من الصفات الفائقة ، وعد ما عده من الصفات التائهة ، وهذا من التجريد الحسن[1].

أما ما قصد به التوسع فقط فمنه قول الأخطل فى مقدمة نقيضة له مع جرير : [2]

خفَّ القطينُ فراحُوا منك أو بَكَرُوا وأزعجتهُمْ نوًى فى صرفِها غِيَرُ

فقد ورد بعد هذا البيت ما يدل على أن المراد بالتجريد هو التوسع. فقد وجه الخطاب إلى النفس فقال :

كأنَّنِى شاربٌ يوم استبدَّ بهم من قرقفٍ ضمنتها حمصُ أو جُدُرُ

فانتقل عن الخطاب التجريدى إلى خطاب النفس . ومثل ابن الأثير لهذا النوع بقول الصمة بن عبد الله :

حننتَ إلى ريَّا ونفسُك باعدَتْ مزارَك من ريا وشعبا كُما معًا

فما حَسَنٌ أن تأتىَ الأمرَ طائعاً وتجزع أنْ راعى الصبابة أسمعا

فقد انتقل الشاعر بعد ذلك إلى خطاب نفسه فقال :

وأذكُرُ أيَّامَ الحِمَى ثم أنثنِى على كبدى من خشيةٍ أن تصدَّعا

بنفسىَ تلك الأرضُ ما أطيبَ الرُّبا وما أحسنَ المصطافَ والمتربعا

---

١ - المثل السائر ١ / ٤٠٦ .

٢ - ديوان الأخطل - شرح : راجى الأسمر - دار الكتاب العربى - ط ١ - ١٩٩٢ م - ص ٧٨ .

ولو استمر على الحالة الأولى لما قضى عليه بالتوسع ، و إنما يكـــون التجريد حينذاك من التجريد البليغ ، وتكون فائدة التجريد حينـــذاك أن ينفى عن نفسه سمعة الهوى ، ومعرة العشق لما فى ذلـــك مـــن الشـــهرة والغضاضة ، لكن هذه الفائدة قد زالت عن الأســـلوب بانتقالـــه عـــن التجريد أولا إلى خطاب النفس [١] .

أما القسم الثانى من التجريد وهو التجريد غير المحض فـــهو توجـــه الشاعر بالخطاب إلى نفسه لا إلى غيره ، ولئن كان بين النفس والبدن فرق إلا أنهما كالشئ الواحد لقوة علاقة كل منهما بالآخر .

وبين التجريد المحض والتجريد غير المحض فرق واضح . والتجريـــد المحض أولى بأن يسمى تجريدا ؛ لأن مفهوم التجريد لائق به لأنه خطـــاب للغير فى الظاهر وخطاب إلى النفس فى الباطن . أما التجريد غير المحـــض فهو نصف تجريد لأنك لم تجرد عن نفسك شيئا ، وإنما خاطبت نفســـك بنفسك كأنك فصلتها عنك وهى منك . ومن هذا القسم قول عمرو بـــن الإطنابة :

أقولُ لها وقد جَشَأَتْ وجاشَتْ   مكانكِ تُحمَدِى أو تستريحى

وقول الآخر :

أقولُ للنفس تأساءً وتعزيةً   إحدى يدىَّ أصابت ولم ترد [٢]

---

١ – المثل السائر ١ / ٤٠٧ .

٢ – المثل السائر ١ / ٤٠٨ .

وقد أورد ابن الأثير رأى أبي على الفارسي في التجريد ثم أبدى اعتراضه عليه ، فذكر قول أبي على الفارسي : " إن العرب تعتقد أن في الإنسان معنى كامنا فيه كأنه حقيقته ومحصوله ، فيخرج ذلك المعنى إلى ألفاظها مجردا من الإنسان كأنه غيره وهو هو بعينه . نحو قولهم : لئن لقيت فلانا لتلقين به الأسد ، ولئن سألته لتسألن منه البحر . وهو عينه الأسد والبحر ، لا أن هناك شيئا منفصلا عنه أو متميزا منه . ثم قال : وعلى هذا النمط كون الإنسان يخاطب نفسه حتى كأنه يقاول غيره ، كما قال الأعشى :

وهل تطيقُ وداعاً أيُّها الرجلُ

وهو الرجل نفسه لا غيره " [١].

ورأى ابن الأثير - وأنا معه في ذلك - أن كلام الفارسي الثاني هو الذى يدخل في باب التجريد دون الأول ؛ لأن الأعشى جرد الخطاب عن نفسه يريدها ، وأما الأول وهو قول القائل : (لئن لقيت فلانا لتلقين به الأسد ، ولئن سألته لتسألن منه البحر) فإن هذا من باب التشبيه المضمر الأداة ؛ إذ يحسن تقدير أداة التشبيه فيه فكأنك تقول : لئن لقيت فلانا لتلقين منه كالأسد ، ولئن سألته لتسألن منه كالبحر . وليس هذا من باب التجريد لأن حقيقة التجريد غير موجودة فيه وإنما هو تشبيه مضمر الأداة [٢].

---

١ - المثل السائر ١ / ٤٠٩ .

٢ - المثل السائر ١ / ٤١٠ .

والفرق واضح فعلا بين هذين المثالين وبين التجريـــد فى الأبيـات الشعرية السابقة والتى مثل بها ابن الأثير فى هذا الباب .

خامسا : قضية التضمين فى الشعر :

عرف ابن رشيق التضمين فى الشعر بأنه " هو قصدك إلى البيت مـن الشعر أو القسيم فتأتى به فى آخر شعرك أو فى وسطه كالمتمثل [١] " .

وتحدث ابن الأثير عن التضمين فى كتابه المثل السائر وقسمه بـين حسن يكتسب به الكلام طلاوة وبين معيب عند بعض النقـاد . وهـو عندهم معدود من عيوب الشعر، فالأول - وهو الحسن - فهو أن يضمـن الشاعر شعره الآيات القرآنية والأخبار النبوية . وجعل ابن الأثير هـذا النوع قسمين : تضمين كلى ، وتضمين جزئى . فالتضمين الكلى أن تذكر الآية أو الخبر بجملتهما . وأما الجزئى فهو درج بعض الآية أو الخبر ضمـن كلام فيكون كالجزء منه .

وذكر ابن الأثير أن هناك من لا يجوّز درج آيات القرآن الكـريم فى غضون الكلام من غير تبيين كى لا يشتبه بكلام البشر . ولم يوافق ابـن الأثير على هذا القول ؛ فإن القرآن الكريم أبين من أن يحتاج إلى بيـان . فإن كانت المفاوضة فى التفرقة بينه وبين غيره من الكلام إذا أدرج فيه مـن جاهل لا يعرف الفرق فذاك لا كلام معه ، وإن كان الكلام مـع عـالم

---

١ - العمدة ٢ / ٨٤ .

فذلك لا يخفى عنه القرآن الكريم من غيره [١] .

وأنا أرى أن المذهب الحق هو تمييز القرآن الكريم عن غيره من كلام البشر الذى أدرج فيه القرآن كى لا يشتبه بكلام البشر خاصة فى عصرنا الذى نعيش فيه وما يتميز به ببعد كثير من القراء عن كتاب الله ، بجانب أنه من الواجب أن نأخذ بعين الاعتبار حساب القارئ العادى غير المتخصص – وهو ما يعنيه ابن الأثير بالجاهل –.فرأى ابن الأثير فى هذه المسألة يتمشى مع القارئ المتخصص العالم بخصائص كلام الله – تعالى – والقادر على التمييز بينه وبين كلام البشر .

ويذهب ابن الأثير إلى أنه فى حالة درج الآية القرآنية فى الكلام من النثر أو الأبيات من الشعر ينبغى ألا يؤخذ حينئذ لفظ الآية بجملتها ، وإنما يؤخذ بعضها ويجعل أولا لكلام أو آخرا حسب ما يقتضيه موضعه . أما إذا قصد التضمين فتؤخذ الآية بكمالها وتدرج درجا . وكذلك الحال بالنسبة للأخبار النبوية . على أنه قد يؤخذ معنى الآية أو الخبر فيكسى لفظا غير لفظه ، وليس لذلك من الحسن ما للقسم الأول [٢] . كما أن للكاتب أو الشاعر أن يأخذ المعنى من شعر غيره ويجعله مثل الإكسير فى صناعة الكيمياء ، ثم يخرج منه ألوانا مختلفة من جوهر وذهب وفضة . ويعتبر هذا أعلى الدرجات فى نثر المعانى الشعرية[٣].

---

١ – انظر المثل السائر ٢ / ٣٧٢ .
٢ – انظر المثل السائر ١ / ١٢٦ ، ٢ / ٣٢٣.
٣ – المثل السائر ١ / ١١٩.

ومفهوم كلام ابن الأثير السابق أن الكاتب أو الشاعر له أن يضمن كتاباته أو منظومه معانى الشعر الجيد ويقتبس بعض ألفاظه ويضمها إلى لفظه هو . أما القرآن الكريم والحديث النبوى فله أن يضمن كتاباته أو منظومه بعضا منهما .كما أن له أن يأخذ بعض آى القرآن الكريم فيجعلها أولا لكلام أو آخرًا حسب ما يقتضيه موضعه . ولكن ليس من المستحب له أن يأخذ المعنى دون اللفظ ؛ لأن ألفاظ القرآن الكريم ينبغى أن يحافظ عليها لمكان فصاحتها . والحديث النبوى فى ذلك مثله مثل القرآن الكريم.

وكلام ابن الأثير هذا يعقل فى النثر ؛ فيمكن للخطيب أو الكاتب أن يضمن كلامه آية كاملة أو عدة آيات من القرآن الكريم ويجعلها أولا أو آخرا . وكذلك يمكنه أن يفعل بالأخبار النبوية . أما فى النظم فلا أدرى كيف يضمن الناظم شعره آية أو آيات بكمالها ويجعلها فى أول القصيدة أو فى آخرها . إنه حينئذ سيجعل من القرآن شعرا ، وهذا غير جائز.

أما النوع الثانى من التضمين فهو تضمين الإسناد . وهو الذى يعده علماء العروض والقافية عيبا من عيوب القافية . وهو " أن تتعلق القافية أو لفظة مما قبلها بما بعدها [1] " . أو " هو تعليق قافية البيت بصدر البيت الذى بعده [2] " وذكر ابن الأثير أنه " يقع فى بيتين من الشعر أو فصلين

١ - العمدة ١ / ١٧١.
٢ - عروض الشعر العربى - د/ محمد عبد المنعم خفاجى - مكتبة القاهرة - ط ١ - بدون تأريخ - ص ١٨٥ .

من الكلام المنثور على أن يكون الأول منهما مسندا إلى الثانى فلا يقـــوم الأول بنفسه ولا يتم معناه إلا بالثانى [١] ".

وهذا النوع من التضمين غير معيب عند ابن الأثير لأنه إن كــــان سبب عيبه أن يعلق البيت الأول على الثانى فليس ذلك بسبب يوجـــب عيبا ؛ إذ لا فرق بين البيتين من الشعر فى تعلق أحدهما بـــالآخر ، وبـــين الفقرتين من الكلام المنثور فى تعلق إحداهما بالأخرى بجـــانب أن الفقـــر المسجوعة التى يرتبط بعضها ببعض قـــد وردت فى القـــرآن الكـــريم فى مواضع كثيرة ، منها قول الله – تعالى – : " فأَقبَلَ بعضُهُمْ علـــى بعـــض يتساءَلُون . قال قائِلٌ منهُمْ إنى كانَ لى قرين . يقولُ أإنك لمن المصدِّقـــين . أئِذا متنا وكنَّا تراباً وعظاماً أئنا لمدِينُون [٢] "

فالآيات الثلاث الآخيرة يرتبط بعضها ببعض ، ولا تفهم كل واحدة منها إلا بالتى تليها . وهذا كالأبيات الشعرية فى ارتباط بعضها ببعـــض . ولو كان ذلك عيبا لما ورد فى كتاب الله – عز وجل [٣] .

ورأيى فى هذه المسألة هو رأى ابن الأثير ؛ فيكفى أن يقيد الشـــعر بقيود الوزن والقافية ونطالب الشاعر بالابتعاد عن عيوبهما ، ولا ينبغى أن نقيده أكثر من ذلك بقيد آخر يوجب عليه أن يأتى بالمعنى كاملا فى بيـــت واحد حتى ولو أدى ذلك إلى بتره أو تشويهه . ومن المؤكد أن الشـــاعر

---

١ – المثل السائر ٢ / ٣٢٤ .
٢ – الآيات من ٥٠ : ٥٣ من سورة الصافات .
٣ – انظر المثل السائر ٢ / ٣٢٤ .

إذا علم أنه من الممكن أن يأتى بالمعنى فى بيتين أو ثلاثة فإنه حينئذ سيجتهد فى التعبير عنه بصورة أجود وأفضل مما لو علم أنه يجب عليه أن ينهى حديثه عنه بنهاية البيت الذى بدأه فيه . بجانب ذلك أن هذا النوع من التضمين قد استعمله العرب كثيرا ، وورد فى شعر فحول شعرائهم . كما يقول ابن الأثير [١] - وهم القدوة لغيرهم من الشعراء . ومن تقصى شعرهم أخذ الخليل بن أحمد قواعده فى الحديث عن العروض والقافية .

ومن وجوده فى شعر فحول شعراء العرب امرئ القيس [٢] :

فقلتُ له لما تمطَّى بصلبهِ وأردفَ أعجازًا وناءَ بكلكلِ

ألا أيُّها الليلُ الطويلُ ألا انجلِى بصبحٍ وما الإصباحُ منك بأمثلِ

وقول الفرزدق [٣] :

وما أحدٍ من الأقوامِ عَدُّوا عروقَ الأكرمين على انتسابِ

بمحتفظين أن فضَّلتمُونا عليهم فى القديمِ ولا غضابِ

والضرب الثانى من التضمين عند ابن الأثير " هو أن يضمن الشاعر شعره والناثر نثره كلاما آخر لغيره قصدا للاستعانة على تأكيد المعنى المقصود . ولو لم يذكر ذلك التضمين لكان المعنى تاما [٤] " .

---

١ - المثل السائر ٢ / ٣٢٥ .

٢ - ديوان امرئ القيس - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - ط ٤ - دار المعارف - ص١٨ .

٣ - ديوان الفرزدق - دار صادر - بيروت - تحقيق - كرم البستانى ١ / ٣٣ .

٤ - المثل السائر ٢ / ٣٢٦ .

وذكر ابن الأثير أن وجود هذا اللون من التضمين شعرا يكــون فى تضمين الشاعر البيت من شعره بنصف بيت أو أقل منه من شعر غــيره . ومثل له بقول جحظة :

قمْ فاسقِنيها يا غلامُ وغــنِّنى ذهبَ الذين يُعاشُ فى أكنافِهِم [1]

فالشطر الثانى هو صدر بيت للبيد بن ربيعة يقول فيه :

ذهبَ الذين يُعاشُ فى أكنافِهِمْ وبقيتُ فى خَلَفٍ كجلدِ الأجربِ

ويرى ابن الأثير أن الشاعر لو لم يقل (ذهــب الذيــن يعــاش فى أكنافهم) لتم المعنى ولم يحتج لشئ آخر ؛ فإن فى الشطر الأول كفايــة إذ لا حاجة لتعيين الغناء ؛ لأن فى ذلك زيادة على المعنى المفــهوم لا علــى الغرض المقصود [2] .

وذكر ابن الأثير أن هذا النوع من التضمين قد ورد فى عدة مواضع من شعر أبى نواس فى الخمريات . ومنه قوله فى مخاطبــة بعــض خلفــاء عصره:

فقلتُ هل لكَ فى الصهباءِ تأخذُهَــا من كف ذاتِ حِرٍ فالعيشُ مقتبــِـلُ
حيريةٍ كشعاعِ الشــمس صافيــةٍ تطير بالكأسِ مــن لألائــها شــعلُ
فقال هاتِ وغنينا علــى طَــرَبٍ ودِّعْ هريرةَ إن الركبَ مرتحِــلُ [3]

١ - المثل السائر ٢ / ٣٢٦ .
٢ - المثل السائر ٢ / ٣٢٦ .
٣ - المثل السائر ٢ / ٣٢٧ .

فالشطر الثانى من البيت الأخير هو صدر بيت مطلع لامية الأعشى

وفيه يقول :

وَدِّعْ هريرةَ إن الركبَ مرتحِلُ وهل تُطيقُ وداعًا أيُّها الرجلُ

وقد ضمن أبو نواس هذا الشطر نفسه فى أبيات أخرى . ومنها قوله:

سقيًا لمجلسِ فتيانٍ أنادمُهُمْ ما فى أديمِهِمُ وَهْيٌ ولا خَلَلُ

اكرِمْ بهِمْ وبنغمٍ مِن مغنيةٍ ففى الغناءِ بنغمٍ يضرَبُ المثَلُ

هيفاءَ تسمعنا والعودُ يطربُنا ودِّعْ هريرةَ إن الركبَ مرتحِلُ

كما يوجد هذا اللون من التضمين فى صورة تضمين الشاعر شعره بيتا كاملا من شعر غيره . ورغم أن ابن الأثير لم يشر إلى هذاالنوع فقد مثل له بما فعله أبو نواس فى قوله :

وظبيٍ خلوبِ اللفظِ حلوٍ كلامُه مقبَّلُهُ سهلٌ وجانبُه وَعْرُ

نحلتُ له منها فخرَّ لوجههِ وأمكنَ منه ما يحيط به الأُزُرُ

فقمتُ إليه والكرَى كحلُ عينهِ فقبَّلتُه والصبُّ ليس له صَبْرُ

إلى أن تجلَّى نومُه عن جفونِهِ وقال كسبتَ الذنبَ قلتُ لى العذرُ

فأعرَضَ مزورًّا كأنَّ بوجههِ تفقؤَ رمانٍ وقد بَرَد الصدْرُ

فمازلتُ أرقيه وألثُمُ خدَّه إلى أن تغنَّى راضيًا وبه سكرُ

ألا يا اسلَمِى يا دارَمَىَّ على البلَى ولا زالَ منهلاً بجرعائِكِ القطْرُ [1]

فالبيت الأخير هو مطلع قصيدة لذى الرمة الشاعر الأموى .

---

١ - المثل السائر ٢ / ٣٢٧ .

هذا وقد أشارابن رشيق إلى نوعى الضرب الثانى من التضمين اللذين تحدث عنهما ابن الأثير ، وإلى ألوان أخرى من التضمين ، وإن اختلفت المصطلحات التى أطلقها عليها [(١)] .

سادسا : الموازنات الشعرية :

ظهرت الموازنة بين الشعراء مبكرة فى الأدب العربى ، وبقيت تسايره على مر العصور إلى اليوم . فإذا صح ما روى عن أم جندب وموازنتها بين امرئ القيس وعلقمة الفحل فى وصف الفرس ، وما روى من أن النابغة الذبيانى كان يحكم بين الشعراء فى سوء عكاظ دلنا ذلك على أن الموازنة كانت أساسا للمفاضلة بين الشعراء منذ الجاهلية .

وفى صدر الإسلام كانت هناك موازنات بين القرآن الكريم وكلام العرب ، وكانت هناك موازنات بين شعراء الرسول ﷺ وخطبائه من ناحية، وبين شعراء الوفود وخطبائهم من ناحية أخرى . وكان العصر الأموى زاخرا بالموازنة بين فحول الشعراء فى النقائض وفى الغزل وفى الشعر السياسى ، وبين الخطباء وغيرهم .

وفى العصر العباسى نشطت الموازنة بين بشار بن برد ومروان بن أبى حفصة ، وبين مسلم بن الوليد وأبى العتاهية وأبى نواس ، ثم بين أبى تمام والبحترى ، وبين المتنبى وخصومه ... إلخ .

---

١ - انظر العمدة ٢ / ٨٤ : ٨٨ .

أما الموازنة بين الأدباء من الناحية التاريخية المتصلة بالتدوين وتقرير الآراء فيعتبر محمد بن سلام الجمحى المتوفى سنة ٢٣١ هـ من أسبق من عرضوا للموازنة وذلك فى كتابه (طبقات فحول الشعراء) . فإن قيام كتابه على تصنيف الشعراء الجاهليين والإسلاميين إلى طبقات يجعله قائما على الموازنة الفنية التى ترجع إلى أساسين : كثرة الشعر ، وجودته .

وجاء ابن قتيبة فى كتابه (الشعر والشعراء) فظهرت الموازنة عنده فى اختياره لكل شاعر مايراه جيدا ، وفى تقسيمه الشعر أقساما فنية أربعة، وفى تقسيمه للشعراء إلى مطبوعين ومتكلفين ... إلى غير ذلك [١] .

وجاء الصولى فى (أخبار أبى تمام) موازنا بين القدماء والمحدثين حين عرف لكل فريق مظاهر تجويده فى وصف بيئته التى شاهدها دون الأخرى التى يصفها تقليدا ، وساق فى كتابه أمثلة للموازنة بين أبى تمام والبحترى مع ميله فيها إلى أبى تمام .

ثم جاء الآمدى فى كتابه (الموازنة بين أبى تمام والبحترى) ففاضل بين الشاعرين وجعل لكل منهما خواصه فى شعره مع ميل إلى البحترى ، وإن حاول إخفاء ذلك وادعى البراءة منه ومن إطلاق القول بأيهما أشعر عنده لتباين الناس فى العلم واختلاف مذاهبهم فى الشعر [٢] .

---

١ - انظر الشعر والشعراء ص ٢١ وما بعدها .

٢ - انظر : أصول النقد الأدبى -أحمد الشايب - مكتبة النهضة المصرية - ط ١ - ١٩٩٩ م - ص ٢٨٠ : ٢٨٢ .

ويعبر الدكتور محمد مندور عن خلاصة مذهب الآمدى فى الموازنة بين الطائيين فيذكر أنها " توضيح لمذهب الشعر العربى ، واستنباط لأصالة كل منهما فى كل معنى عبرا عنه ، ثم مقارنة ما قالاه بما قاله غيرهما من الشعراء ، مع الحكم فى تلك الأصالة حكما يقوم على الذوق والحقائق الإنسانية العامة . وإن لم يخل الأمر من تحكم ، ثم الوقوف فى تفسير التفاوت عند النزعة الفنية دون أى محاولة لرد ذلك إلى الطبيعة النفسية لكل شاعر. وذلك لفطنة الناقد إلى أنه لا علاقة بين شعر هذين الشاعرين وتجارب حياتهما [١] " .

وأما الجرجانى فى (الوساطة بين المتنبى وخصومه) فقد عزا النبوغ فى الشعر إلى الطبع والرواية والدربة . وعلى هذا الأساس وازن بين القدماء والمحدثين ، فوجد أن المحدثين فى حاجة أمس إلى الرواية ، وأفقر إلى كثرة الحفظ . ووازن بين أساليب الشعر من حيث دلالتها على اختلاف الطبائع والخلق . وقال فى هذا الصدد : " وكانت العرب إنما تفاضل بين الشعراء فى الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ واستقامته ، وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب وشبه فقارب وبده فأغزر . ولمن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته ولم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقة ، ولا تحفل بالإبداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر ونظام القريض[٢]" .

---

١ - النقد المتهجى عند العرب - دار نهضة مصر - بدون تأريخ ص ٣٤٧ .

٢ - الوساطة بين المتنبى وخصومه -ص ٣١ .

وجاء بن رشيق فألم فى كتابه العمدة بآراء سابقيه فيما يتصل بالموازنة . فذكر - مثلا - أن أبا عمرو بن العلاء كان يعد جريرا وطبقته مولدين بالنسبة للجاهليين ، وكان لا يعد الشعر إلا للمتقدمين ، ولا يحتج إلا بشعرهم . وسئل عن المولدين فقال : ما كان من حسن فقد سبقوا إليه، وما كان من قبيح فمن عندهم . ليس النمط واحدا : ترى قطعة ديباج ، وقطعة مسيح ، وقطعة نطع . ومثله فى ذلك الأصمعى وابن الأعرابى كل واحد منهم يذهب فى أهل عصره هذا المذهب ، وليس ذلك إلا لحاجتهم فى الشعر إلى الشاهد وقلة ثقتهم بما يأتى به المولدون ثم صارت لجاجة.[١]

كما قسم بن رشيق الشعراء إلى طبقات زمانية وفنية [٢] . وإلى أنصار للفظ وأنصار للمعنى [٣] ، وقسم الشعر إلى مطبوع ومصنوع [٤] ، كما يوازن بين الشعراء فى البديهة والارتجال [٥] ، وفى التصرف فى فنون الشعر [٦] ، ويوازن بين الشعراء والكتاب الذين يراهم أرق شعرا وأحسن أسلوبا وألطف معنى ، وأقدر على التصرف ، وأبعد عن التكلف .

---

١ - انظر العمدة ١ / ٩١ .
٢ - العمدة ١ / ١١٣ .
٣ - العمدة ١ / ١٢٤ .
٤ - العمدة ١ / ١٢٩ .
٥ - العمدة ١ / ١٨٩ .
٦ - العمدة ٢ / ١٠٤ .

وقد أدلى ابن الأثير بدلوه فى باب الموازنة بين الشعراء ، وضـــرب لذلك العديد من الأمثلة . وإن كان لم يعقد لتلك الموازنات بابــا خاصــا وإنما جاءت موازناته بين الشعراء عرضا من خلال حديثه عن معنى مــن المعانى أو حول قضية من القضايا التى تناولها فى كتاب المثل الســائر ، ولم يقصد إليها قصدا ، وإنما كان المقام يفرضها عليه أو يأتى بها تتمة للحديث وتكميلا لتوضيح ما يتحدث عنه من قضية أو معنى ما .وكان ابن الأثـــير يعتمد فى موازناته على ثقافة القارئ وذكائه ؛ ولذا فإنه لم يكـــن يعـــنى بشرح وجه فضيلة الكلام شرحا وافيا ، وإنما كان يقف عند حد الحكـــم بالتفضيل مع الميل إلى التعليل الخفيف فى بعض الأحيان .

- ففى حديثه عن السرقات الشعرية استطرد ابن الأثير إلى الحديـــث عن قضية الموازنة بين الشعراء أو المفاضلة بين المعانى . وقد بـــدأ كلامـــه بمناقشة رأى من قال بمنع المفاضلة بين المعنيين المختلفين لشـــاعرين مـــن الشعراء . وذكر أن من قال بذلك احتج بأن " المفاضلة بين الكلامـــين لا تكون إلا باشتراكهما فى المعنى فإن اعتبار التأليف فى نظـــم الألفـــاظ لا يكون إلا باعتبار المعانى المندرجة تحتها . فما لم يكن بين الكلامين اشـــتراك فى المعنى حتى يعلم مواقع النظم فى قوة ذلك المعنى وضعفه واتساق ذلـــك اللفظ أو اضطرابه ، وإلا فكل كلام له تأليف يخصه بحسب المعنى المنـــدرج تحته . وهذا مثل قولنا : العسل أحلى من الخل . فإنه ليس فى الخل حلاوة

حتى تقاس حلاوة العسل عليها [١] ".

ورد ابن الأثير على هذا القول ووصفه بالفساد . لأنه لو كان ما ذهب إليه هؤلاء من منع المفاضلة بين الكلامين المختلفين فى المعنى حقا لوجب أن تسقط التفرقة بين جيد الكلام ورديئه ، وحسنه وقبيحه ، وهذا محال . وذكر ابن الأثير أن الأصل فى المفاضلة بين الألفاظ والمعانى إنما يكمن فى النظر باتصاف الكلامين بالفصاحة والبلاغة ؛ لأن الكلام لا يختص بمزية الحسن حتى تتصف ألفاظه ومعانيه بهذين الوصفين . فثبت أن النظر إنما هو فى هذين الوصفين وهما الأصل فى المفاضلة بين الألفاظ والمعانى على اتفاقهما واختلافهما ، فمتى وجدا فى أحد الكلامين دون الآخر ، أو كانا أخص به من الآخر حكم له بالفضل [٢] .

وكلام ابن الأثير حق فى أن مقياس المفاضلة بين الكلامين إنما هو فى مدى اتصاف كل منهما بالفصاحة والبلاغة فى الألفاظ والمعانى . ولكن بشرط اتحادهما فى الموضوع الذى يتحدث عنه كلا الشاعرين ؛ لأن اتحاد الموضوع هو الذى يربط بين الكلامين ، ويجعل الموازنة بينهما فى معالجته موازنة حقيقية مجدية. فالذين قالوا باتحاد المعنى فى الكلامين لم ينكروا أن مقياس المفاضلة إنما يكمن فى الفصاحة والبلاغة ، ومدى بلوغ كل من الكلامين الدرجة فيها . ومع ذلك فالواجب اتحاد المعنى والموضوع الذى يعالجه الشاعران . فلا تجوز المفاضلة بين قصيدة فى الرثاء ، وأخرى فى

---

١ - المثل السائر ٢ / ٣٧٥ .

٢ - انظر المثل السائر ٢ / ٣٧٦ .

المديح . أو بين قصيدة فى الهجاء وأخرى فى العتاب مثلا ... وهكذا .

على أن ابن الأثير قد عدل عن رأيه هذا واتفق مع القائلين باتحـــاد الموضوع فى المفاضلة بين شاعرين ، وذلك بعد أن انتهى من المفاضلة بـــين البحترى والمتنبى فى وصف الأسد ، وذلك حين يقول (١) :

" واعلم أن من أبين البيان فى المفاضلة بين أرباب النظم والنـــثر أن يتوارد اثنان منهما على مقصد من المقاصد يشتمل على عـــدة معـــان ، كتوارد البحترى والمتنبى ههنا على وصف الأسد ".

فهذا الكلام يفيد أن المفاضلة الحقة ما كانت قائمة على معنى واحـد يتناوله اثنان من أرباب الكلام .وهذا ما يقول به من اعترض عليهم ابـــن الأثير وخطأ كلامهم .

وذكر ابن الأثير بعض الأقوال التى قيلت قبله حول تفضيل بعـــض الشعراء على بعض ، والتى قرأها وعلق على كل منها بما ينم عـــن رأيـــه فيها. فذكر أنه قرأ فى كتاب الأغانى للأصفهانى فى تفضيل الشعراء أقـــوالا لا تدل على حقيقة المفاضلة،وعذر ابن الأثير أن ما قرأه هى أقوال فى بيـان منزلة الشعراء وليس فى المفاضلة بينهم ولا بين أشعارهم . " فمما وقـــف عليه أنه سئل أبو عمرو بن العلاء عن الأخطل فقال : لو أدراك يوما مـــن الجاهلية ما قدمت عليه أحدا".

وعلق ابن الأثير على هذا بأنه تفضيل بالأعصار لا بالأشعار وفيه مـا

---

١ - المثل السائر ٢ / ٣٨٧ .

فيه. [1] أى أن أبا عمرو بن العلاء يجعل الفضل للمتقدم فى العصر فيفضل أهل الجاهلية على من جاء بعدهم ،وليس هذا من المفاضلة فى شىء." ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوما دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده فى كل دهر ، وجعل كل قديم حديثا فى عصره " كما يقول ابن قتيبة [2] .

وسئل جرير عن نفسه وعن الفرزدق والأخطل فقال : أما الفرزدق ففى يده نبعة من الشعر وهو قابض عليها . وأما الأخطل فأشدنا اجتراء وأرمانا للقرائض . وأما أنا فمدينة الشعر [3] " .

وعلق ابن الأثير على هذا القول بأنه قول إقناعى فى التفضيل لا يحصل منه على تحقيق . لكنه أقرب حالا مما روى عن أبى عمرو بن العلاء.

وأرى أن هذا قول فى بيان منزلة كل شاعر من الشعراء الثلاثة دون مفاضلة بينهم ، أو تفضيل أحدهم على الآخر .

" وسئل الأخطل عن أشعر الناس فقال : الذى إذا مدح رفع ، وإذا هجا وضع . فقيل : فمن ذاك ؟ قال : الأعشى . قيل : ثم من ؟ قال : طرفة [4] " . ويعلق ابن الأثير على هذا القول بأنه " قول فيه بعض التحقيق ؛ إذ ليس كل من رفع بمدحه ووضع بهجائه كان أشعر الناس ؛

---

١ - المثل السائر ٢/٣٧٦ .
٢ - الشعر والشعراء ١٩ .
٣ - المثل السائر ٢ / ٣٧٦ .
٤ - المثل السائر ٢ / ٣٧٦ .

لأن المعانى الشعرية كثيرة ، والمدح والهجاء منها [١] " .

وكلام الأخطل يعبر عن نظرة شخصية ، وإعجاب شخصى بشاعرين من شعراء الجاهلية نبغا فى فنى المدح والهجاء ، وكأنه يرى أن من نبغ فى هذين الغرضين من الشعراء كانت له القدرة على التفوق فيما عداهما من الأغراض .

" وسئل الشريف الرضى عن أبى تمام وعن البحترى وعن أبى الطيب فقال : أما أبو تمام فخطيب منبر ، وأما البحترى فواصف جؤزر ، وأما المتنبى فقاتل عسكر [٢]" .

وعلق ابن الأثير على هذا القول بأنه " كلام حسن واقع فى موقعه ؛ فإنه وصف كلا منهم بما فيه من غير تفضيل [٣] " . أى أنه كلام فى ذكر خصائص [illegible] شعر كل شاعر من هؤلاء الثلاثة . فأبو تمام يتميز شعره بقوة الألفاظ وفخامة العبارة ، وأما المتنبى فبارع فى وصف المعارك الحربية وتصوير ما يدور فى ميادين القتال .

" ويروى عن بشار أنه وصف نفسه بجودة الشعر والتقدم على غيره. فقيل له : ولم ذاك ؟ فقال : لأنى نظمت اثنى عشر ألف قصيدة وما تخلو واحدة منهن من بيت واحد جيد ، فيكون لى حينئذ اثنا عشر ألف

---

١ - المثل السائر ٢ / ٣٧٧ .
٢ - المثل السائر ٢ / ٣٧٧ .
٣ - المثل السائر ٢ / ٣٧٧ .

بيت [١] " . وهذا كلا م من بشار بن برد فى اعتداده بنفسه وبشـــعره ، وغرضه من ذلك بيان كثرة الأقوال الجيدة فى شعره وليس المفاضلة بينـــه وبين غيره من الشعراء فى ذلك .

وعلق ابن الأثير على كلام بشار بأنه كلام يؤخذ على بشار لا لـه . لأن باقلا الذى يضرب به المثل فى العى لو نظم قصيدا لما خلا من بيـــت واحد جيد . ومن الذى ينظم قصيدا واحدا من الشعر ولا يسلم له منـــه بيت واحد ؟ فبشار بذلك عبر عن قلة الجيد من أشعاره ، ولو كان عـدده كبيرا لكنه قليل بالنسبة إلى قصائده ذات العدد الكبـــير . وكـــان الأولى ببشار – كما يقول ابن الأثير – أن يقول لى اثنتا عشرة ألف قصيدة ليس واحدة منهن إلا وجيدها أكثر من رديئها وليس فى واحـــدة منـــهن مـــا يسقط. فإنه لو قال ذلك وكان محقا لاستحق التقدم على الشعراء .

ويذكر ابن الأثير بعد ذلك أنه اطلع على شعر بشار مقصدا ومقطعا فما وجده بتلك الغاية التى ادعاها ، ووجد جيده قليلا بالنسبة إلى رديئـــه وتندر له الأبيات اليسيرة . ومن هنا رد ما بلغه عن الأصمعى وأبى عبيـــدة وغيرهما من قولهم بأن بشار بن برد هو أشعر الشعراء قاطبة . وعذرهـــم بأنهم قالوا ما قالوا قبل أن يقفوا على معانى أبى تمام ولا علـــى معـــانى أبى الطيب المتنبى ، ولا على ديباجة البحترى . وهذا المقام لا يسأل فيه علماء العربية واللغة وإنما يستفتى فيه الكاتب البليغ والشاعر المفلق [٢] .

---

١ – المثل السائر ٢ / ٣٧٧ .

٢ – المثل السائر ٢ / ٣٧٧ .

ويذكر ابن الأثير فى هذا المقام بعض ما يدل على تعصب بعض الرواة للقدماء من الشعراء دون المحدثين منهم ، وأولهم فى ذلك ابن الأعرابى . فيروى " أنه عرض عليه أرجوزة أبى تمام اللامية التى مطلعها :

وعاذلٍ عذلتُهُ فى عذلِهِ فظنَّ أنىَّ جاهلٌ من جَهْلِهِ

وقيل له : هذه لفلان من شعراء العرب القدماء . فاستحسنها غاية الاستحسان وقال : هذا هو الديباج الخسروانى . ثم استكتبها . فلما أتمها قيل له : هذه لأبى تمام فقال : من أجل ذلك أرى عليها أثرا لكلفة . ثم ألقى الورقة من يده وقال : ياغلام : خرق ، خرق [1] .

وهذا يدل على تناقض ابن الأعرابى فيما ذهب إليه ، وتعصبه الذى بنى على غير أساس صحيح . ويصرح ابن الأثير برأيه فى المفاضلة بين الشعراء فيقول : " والمذهب عندى فى تفضيل الشعراء أن الفرزدق وجريرا والاخطل أشعر العرب أولا وآخرا . ومن وقف على الأشعار ووقف على دواوين هؤلاء الثلاثة علم ما أشرت إليه . ولا ينبغى أن يوقف مع شعر امرئ القيس وزهير والنابغة والأعشى . فإن كلا من أولئك أجاد فى معنى اختص به ، وحتى قيل فى وصفهم : امرؤ القيس إذا ركب ، والنابغة إذا رهب ، وزهير إذا رغب ، والأعشى إذا شرب . وأما الفرزدق وجرير والأخطل فإنهم أجادوا فى كل ما أتوا من المعانى المختلفة وأشعر منهم عندى الثلاثة المتأخرون وهم : أبو تمام ، وأبو عبادة

---

١ - المثل السائر ٢ / ٣٧٨ .

البحترى، وأبو الطيب المتنبى . فإن هؤلاء الثلاثة لا يدانيهم مدان فى طبقة الشعراء . أما أبو تمام وأبو الطيب فربا المعانى ، وأما أبو عبـــادة فــرب الألفاظ فى ديباجتها وسبكها [1] " .

وهكذا نرى ابن الأثير يحكم على هؤلاء الشعراء الستة بأنهم أشـــعر الشعراء العرب حتى عصره . وقد سبق أن قصر ابن الأثير حكمه هـــذا على الشعراء العباسيين الثلاثة أبى تمام والبحترى والمتنبى [2] .

وربما يقصد ابن الأثير هنا أن جريرا والفرزدق والأخطل هم أشـعر القدماء ، وأن أبا تمام والبحترى والمتنبى هم أشعر المحدثين . وكذب ابـــن الأثير تلك الحكاية المروية عن البحترى وابنه والتى يفضل فيها البحـــترى الفرزدق على جرير . وتذكر أن أهاجى جرير محدودة المعانى . وهـــاهى الحكاية على لسان ابن الأثير يقول : "وبلغنى أن أبا عبادة البحترى ســأل ولده أبا الغوث عن الفرزدق وجرير أيهما أشعر فقال : جرير أشـــعر . قال : وبم ذلك ؟ قال : لأن حوكه شبيه بحوكك . قال : ثكلتك أمـك أو فى الحكم عصبية ؟ قال : يا أبت فمن أشعر ؟ قال : الفرزدق. قــال : وبم ذلك ؟ قال : لأن أهاجى جرير على أربعة أشياء هى : القين ، والزنـــا ، وضرب الرومى بالسيف ، والنفى من المسجد . ولا يـــهجو الفــرزدق بسوى ذلك . وأما الفرزدق فإنه يهجو جريرا بأنحاء مختلفة ، ففى كــل

---

١ - المثل السائر ٢ / ٣٧٨ .
٢ - انظر المثل السائر ٢ / ٣٤٨ ، ٣٥٠ .

قصيدة يرميه بسهام غير السهام التى يرميه بها فى القصيد الآخر [١]".

ويستبعد ابن الأثير صدور هذا الكلام عن البحترى لمعرفته بأسرار الكلام ، ولا يجوز له أن يدعى على جرير أنه لم يهج الفرزدق إلا بتلك المعانى التى ذكرها وهو القائل :

لما وضعتُ علَى الفرزدقِ ميسَمِى وعلى البعيثِ جدعتُ أنفَ الأخطلِ

فجمع بين هجاء هؤلاء الثلاثة فى بيت واحد [٢] .

ويؤيد ابن الأثير رأيه بتفوق جرير فى الهجاء وعدم اقتصاره على المعانى الأربعة المذكورة وتفوقه على الفرزدق فى كل شعره بأنه تأمل كتاب النقائض فوجد جريرا رب تغزل ومديح وهجاء وافتخار . وقد كسا كل معنى من هذه المعانى ألفاظا لائقة به . ويكفيه من ذلك قوله :

وعاوٍ عوَى من غيرِ شئٍ رميتُه بقافيةٍ إنفاذُها تقطرُ الدَّمَا

وإنى لقَوَّالٌ لكلِّ غـريبةٍ ورودٍ إذا السَّارى بليل ترنَّما

غرائبُ آلافٍ إذا حانَ وِرْدُها أخذنَ طريقاً للقصائدِ مَعْلَمَا

ولو لم يكن لجرير سوى هذه الأبيات لتقدم بها الشعراء [٣] .

ثم أيد ابن الأثير رأيه فى خطأ الرواية السابقة بذكره أشعارا لجرير

١ - المثل السائر ٢ / ٣٧٨ .
٢ - المثل السائر ٢ / ٣٧٩ .
٣ - المثل السائر ٢ / ٣٧٩ .

يهجو فيها الفرزدق وليس فيها شئ من تلك المعانى التى أشار البحـــترى إليها .

وسأكتفى هنا بنقل نموذج واحد منها وهو قول جريـــر فى هجـــاء الفرزدق :

وقد زعموا أن الفـــرز دق حيـّـةٌ وما قتل الحيات مـِــنْ أحـــدٍ قبلـى

ألم تـَــرَ أنى لا أنبـّـلُ رميـّـــتى فمَنْ أرم لا تخطـــئ مقاتلـــه نَبْلـى

رأيتك لا تحمـــى عقـــالاً ولم تـــرد مقالاً فما لاقيتُ شرٌّ من القتـــلِ (١)

ومن المشهور الذائع فعلا تفوق جرير فى فن الهجاء حتى إنـــه قـــد تصدى لعدد من شعراء عصره فغلبهم جميعا وأسكتهم .

وهذه أمثلة تطبيقية مما قام به ابن الأثير من موازنات بين الشعراء فى بعض المعانى :

١ - ذكر ابن الأثير بيتى النابغة الذبيانى :

إذا ما غزوْا بالجيش حلّق فوقهمْ عصـــائبُ طيرٍ تهتدى بعصائبِ

جوانحُ قد أيقنَّ أن قبيلَـــــــةً إذا ما التقَى الجمعانِ أولُ غالبِ

وذكر أن هذا المعنى قد توارد عليه الشعراء قديما وحديثا ، وأوردوه بضروب من العبارات ، ومنهم أبو نواس الذي عبر عن هذا المعنى بقوله :

تتمنَّى الطـــيرُ غزوَتَهُ ثقةً باللحم من جزره

وعبر مسلم بن الوليد عنه فقال :

---

١ - المثل السائر : ٢ / ٣٧٩ .

قد عوّدَ الطيرَ عاداتٍ وثقن بها ... فهُنَّ يتبعْنَه فى كلِّ مرتَحَل

وعبر عنه أبو تمام فقال :

وقد ظُلِّلتْ أعناقُ أعلامِه ضُحًى ... بعقبانِ طيرٍ فى الدماءِ نواهِلِ
أقامتْ مع الرّاياتِ حتى كأنها ... من الجيشِ إلا أنها لم تقاتِلِ

وقد ذكر هذا المعنى غير هؤلاء ولكن لم يغرب أحد فى سلوك هذه الطريق مع اختلاف مقصده إليها إلا مسلم بن الوليد فقال :

أُشرِبَتْ أرواحُ العدا وقلوبُها ... خوفًا فأنفُسها إليك تطيرُ
لو حاكَمَتْكَ فطالبَتْكَ بذحلها ... شَهِدَتْ عليك ثعالبٌ ونسُورُ

فهذا من المليح البديع الذى فضل به مسلم غيره فى هذا المعنى .

وقد عبر المتنبى عن هذا المعنى فسلك فيه الطريق التى سلكها من تقدمه إلا أنه خرج فيها إلى غير المقصد الذى قصده فأغرب وأبدع وحاز الإحسان بجملته وصار كأنه مبتدع لهذا المعنى دون غيره . ومن تعبيره عن هذا المعنى قوله :

يفدِّى أتمُّ الطيرِ عمراً سلاحَهُ ... نسورُ الملا أحداثُها والقشاعمُ
وما ضرَّها خَلْقٌ بغير مخالبٍ ... وقد خُلِقت أسيافُهُ والقوائمُ

وعبر عن هذا المعنى فى موضع آخر فقال :

سَحَابٌ من العِقبانِ ترجُفُ تحتها ... سحابٌ إذا استسقَتْ سقتها صوارمُهْ

وهذا معنى قد حوى طرفى الإغراب والإعجاب . وقال معبرا عن المعنى نفسه فى موضع آخر :

وذى لجب لا ذو الجناح أمامه بناج ولا الوحش المثار بسالم
تمر عليه الشمس وهى ضعيفة تطالعه من بين ريش القشاعم
إذا ضوؤها لاقى من الطير فرجة تدور فوق البيض مثل الدراهم

وقد أعجب ابن الأثير بهذه الأبيات وجعلها من إعجاز أبى الطيب ، وقال إنه لو لم يكن له من الإحسان إلا هذه الأبيات لاستحق بها فضيلة التقدم [1] .

وبهذا نعلم أن ابن الأثير فاضل بين هؤلاء الشعراء فى تناولهم هذا المعنى ، وأنه وجد مسلم بن الوليد قد جاء بالمليح البديع الذى فضل به غيره فيه . كما أن المتنبى سلك به مقصدا آخر غير الذى قصده من قبله فى هذا المعنى فصار كأنه مبتدع له لا مقلد ، وحاز الإحسان كله فيما قصد إليه . وقد ذكر الآمدى أن النابغة - على تقدمه - لم يبتدع هذا المعنى وإنما سبقه إليه الأفوه الأودى بقوله :

وترى الطير على آثارنا رأى عين ثقة أنه ستمار [2]

٢ - وازن ابن الأثير بين المتنبى والبحترى فى وصف الأسد [3] ، فذكر أن لأبى عبادة البحترى فى وصف الأسد قصيدة مشهورة بدأها بقوله :

أجدك ما ينفك يسرى لزينبا خيال إذا آب الظلام تأوبا

---

١ - انظر المثل السائر : ٢ / ٣٨٤ .
٢ - انظر الموازنة ص ٥٨ .
٤ - انظر المثل السائر : ٢ / ٣٨٥ وما بعدها .

وللمتنبى هو الآخر قصيدة فى وصف هذا الحيوان وأولها :

فى الخدِّ إنْ عزمَ الخليطُ رحيلا ... مطرٌ تزيدُ به الخدودُ محُولاَ

ومما جاء فى قصيده البحترى قوله :

ومـا تنقـمُ الحسـادُ إلا أصالـةً ... لديـكَ وعزمـاً أريحيـاً مـهذَّبَا
وقد جرَّبُوا بالأمس منـك عزيمـةً ... فضلتَ بها السيفَ الحسـامَ المجرَّبَـا
غداة لقيتَ الليثَ والليثُ مخـدرٌ ... يحـدِّد نابـاً للقـاءِ ومخلبَـا
إذا شاء غادَى عانةً أوعـداً علـى ... عقائل سـربٍ أو تقنَّص رَبْرَبـا
شهدتُ لقد أنصفتَه حـين تنبري ... له مصلتاً عضبًا من البيض مِقضَبـا
فلم أرَ ضرْ غامين أصدقَ منكُمـا ... عراكاً إذا الهيَّابـةُ النكسُ كذَّبـا
هزبراً مشى يبغي هزبـراً وأغلبَـاً ... من القوم يغشَى باسِلَ الوجه أغلَبَـا

ومن أبيات المتنبى فى وصف الأسد قوله :

أمعفَّـرَ الليـثِ الهزبـرِ بسـوطِهِ ... لمنَ ادخـرْتَ الصـارمَ المصقـولا
وَرْدٌ إذا وَرَدَ البحـيرةَ شـارباً ... وردَ الفـراتَ زئـيرُه والنيـلا
متخضِّبٌ بدم الفـوارس لابـسٌ ... فى غيلـه مـن لبدتيـه غيـلا
مـا قوبلـتْ عينـاه إلا ظُنَّتَـا ... تحت الدُّجى نـارَ الفريـقِ حلُـولا
فى وحـدة الرهبـانِ إلا أنَّـه ... لا يعـرفُ التحـريمَ والتحليـلا
يطأ الـثَّرَى مترفِّقـاً مـن تيهـه ... فكأنَّـه آسٍ يجـسُّ عليـلا
ويـردُّ عُفرتَـه إلى يـا فوخِـه ... حـتى تصـيرَ لرأسـه إكليـلا

وبعد أن ذكر ابن الأثير بعض أبيات القصيدتين أخذ فى الموازنة بين الشاعرين فذكر أن معانى المتنبى أكثر عددا وأسد مقصدا ؛ لأن البحترى

قد قصر مجموع قصيدته على وصف شجاعة الممدوح . فمرة يشبهه بالأسد ، وأخرى يفضله عليه . ولم يأت بسوى ذلك . أما أبو الطيب فقد وصف ممدوحه فى بيت واحد وهو قوله :

أمعفرَ الليثِ الهزبرِ بسوطِهِ   لمن ادخرتَ الصارمَ المصقولا

ثم تفنن فى ذكر الأسد فوصف صورته وهيئته ووصف أحواله فى انفراد جنسه وفى هيئة مشيته واختياله ، ووصف خلق بخله مع شجاعته . وشبه الممدوح به فى الشجاعة وفضله عليه فى السخاء . وانتقل من ذلك إلى ذكر الأنفة والحمية التى بعثت الأسد على قتل نفسه بلقاء الممدوح . وأخرج المتنبى ذلك كله فى أحسن مخرج وأبرزه فى أشرف معنى .

والبحترى وإن كان أفضل من المتنبى فى صوغ الألفاظ وطلاوة السبك فالمتنبى أفضل منه فى الغوص على المعانى . ثم إن البحترى قد ألم بطرف مما ذكره بشر بن عوانة فى أبياته الرائية التى أولها :

أفاطمُ لو شهدتِ ببطنِ خبتٍ   وقد لاقَى الهزبرُ أخاكِ بشرا

وأحس البحترى من تلقاء نفسه أنه قصر عن بشر فى هذا المعنى وأن بشرا قد ملك رقاب تلك المعانى واستحوذ عليها ولم يترك لغيره شيئا يقوله فيها . أما أبو الطيب فقد فطن لذلك ولم يقع فيما وقع فيه البحترى من الاتكاء على ما قاله بشر ، فعدل عن سلوك طريق بشر وسلك طريقا غيرها فجاء فيما أورده مبرزا مبدعا .

وهنا تنتهى موازنة ابن الأثير بين الشاعرين فى قصيدتيهما . ومن يقرأ

قصيدتى البحترى والمتنبى فى وصف الأسد يجد صدق ما قاله ابن الأثير فى تفوق المتنبى على البحترى فى تناولهما لهذا المعنى . وبراعة المتنبى فى ربطه بين وصف الأسد ، وبيان شجاعة الممدوح وتفوق الممدوح عليه فى القوة والسخاء وغيرهما من الصفات الخِلقية والخُلقية . اقرأ معى قوله :

أسدٌ يَرَى عضويّه فيك كليهما ... متناً أزلَّ وساعداً مفتولا
ما زال يجمعُ نفسَه فى زَورِه ... حتى حسبتَ العرضَ منه الطولا
وكأنما غرّته عينٌ فادَّنى ... لا يبصر الخطبَ الجليلَ جليلا
خذلتْهُ قوّتُه وقد كافحتَه ... فاستنصر التسليمَ والتجديلا
سمع ابنُ عمته به وبحاله ... فمضى يهرولُ أمسِ منك مَهُولا
وأمرُّ مما فرَّ منه فراره ... وكقتله ألا يموتَ قتيلا

هذه الأبيات لا تجد لها فى قصيدة البحترى مثيلا فى قوة معانيها ، وشدة الربط فيها بين وصف الأسد ، والحديث عن الممدوح إلا تلك الأبيات التى نقرؤها فنحس بأن البحترى يوجه اهتمامه الأول فيها إلى وصف ممدوحه . أما حديثه عن الأسد فيأتى تبعا لذلك . يقول البحترى :

أدلّ بشَغْبٍ ثم هالتْه صولةٌ ... رآكَ لها أمضى جَناناً وأشغَبا
فأحجَم لما لم يجدْ فيك مطمَعاً ... وأقدمَ لمَّا لم يجد عنك مَهْرَبا
فلم يغنِه أن كرَّ نحوكَ مقبلاً ... ولم ينجه أن حادَ عنك منكِّبا
حَمَلْتَ عليه السيفَ لا عزمُك انثنى ... ولا يدُك ارتدَّتْ ولا حدُّه نبَا

٣ – وقد وازن ابن الأثير بين البحترى والمتنبى فى مجال آخر وهو القول فى مراثى النساء . فذكر أن لكل منهما قصيدة فى هذا الموضوع .

ومطلع قصيدة المتنبى قوله فى رثاء أخت يوسف الدولة :

يا أختَ خيرِ أخٍ يا بنتَ خيرِ أبٍ كنايةً بهما عن أشرفِ النسبِ

ومطلع قصيدة البحترى فى ذلك قوله :

غروبُ دمعٍ من الأجفان ينهلُّ وحرقةٌ بغليلِ الحزنِ تشتعلُ

وذكر ابن الأثير أننا حين نقرأ القصيدتين نرى أبا الطيب انفرد بابتداع ما أتى به من معان فى قصيدته . والبحترى أتى بما أكثره غث بارد، والمتوسط منه ما يصلح لأن يكون رثاء للرجل والمرأة معا . وهذا أيضا يعاب به البحترى فإنه من الواجب على الناظم والناثر إذا سلكا مسلكا فى غرض من الأغراض ألا يخرج عنه إلى غيره كالذى سلكه المتنبى والبحترى فى الرثاء بامرأة . فإن من دلائل الحذق فى الصنعة أن يذكر ما يليق بالمرأة دون الرجل . وقد تفوق المتنبى فى ذلك على غيره من مفلقى الشعراء قديما وحديثا [١] .

ويذكر ابن الأثير خلاصة موازناته بين البحترى والمتنبى " بأن أبا الطيب أنفذ فى المضيق ، وأعرف باستخراج المعنى الدقيق . وأما البحترى فإنه أعرف بصوغ الألفاظ ، وحوك ديباجتها " [٢].

٤ - ووازن ابن الأثير - بإيجاز - بين البحيرى والشريف الرضى فى وصف الذئب . فذكر أن للبحترى فى ذلك قصيدة يقول فى مطلعها :

سلامٌ عليكم لا وفاءٌ ولا عَهْدُ

---

١ - انظر المثل السائر : ٢ / ٣٨٨ .

٢ - المثل السائر : ٢ / ٣٨٨ .

وللشريف الرضى فى ذلك مقطوعة أولها :

وعارِى الشَّوَى والمنكبين من الطَّوَى أتيحَ له بالليل عارى الأشاجِعِ

ولخص الموازنة بين الشاعرين فى أن البحترى أجاد فى وصف حالـه مع الذئب ، وأجاد الشريف فى وصف الذئب نفسه [1] . فقد لاحظ ابـن الأثير أن البحترى لم يصف من الذئب سوى عظم قده وطول ذنبه وبريـق أنيابه وانطوائه لشدة جوعه. أما الشريف الرضى فإنه لم يغادر شيئا يتعلـق بالذئب إلا ذكره ؛ إذ وصف جوعه وانفراده وقلة نومـه ، وإدراكـه ، وحسه ويقظته . ولكنه قصر فى وصف العلاقة النفسية بينه وبين الذئـب بينما أجاد البحترى وصف هذه الناحية .

أى أن حال البحترى مع الشريف الرضى فى وصف الذئب كحالـه مع المتنبى فى وصف الأسد ؛ يهتم بوصف الشخص أكثر مـن اهتمامـه بوصف الحيوان نفسه .

٥ – وازن ابن الأثير بين أبي تمام والمتنبى في رثاء الأولاد الصغـار . فذكر بعض ما قاله أبو تمام فى رثاء ولدين صغيرين ، وبعض ما قاله أبـو الطيب فى رثاء طفل صغير . ثم عقب على النصين بقوله :[2] .

" فتأمل أيها الناظم إلى ما صنع هذان الشاعران فى هـذا المقصـد الواحد وكيف هام كل واحد منهما فى واد منه مع اتفاقـهما فى بعـض

---

١ – انظر المثل السائر : ٢ / ٣٨٩ .

٢ – المثل السائر : ٢ / ٣٧٣ . وما بعدها .

معانيه .وسأبين لك ما اتفقا فيه وما اختلفا ، وأذكر الفاضل من المفضول فأقول :

أما الذى اتفقا فيه فإن أبا تمام قال :

لهفى على تلكَ الشواهدِ فيهما لو أخِّرتْ حتى تكونَ شمائلا

وأما أبو الطيب فإنه قال :

بمولدِهمْ صَمْتُ اللسانِ كغيره ولكن فى أعطافه منطقُ الفضلِ

فأتى بالمعنى الذى أتى به أبو تمام وزاد عليه بالصناعة اللفظية وهى المطابقة فى قوله : (صمت اللسان) و (منطق الفضل) . وقال أبو تمام :

نَجْمَانِ شاء اللهُ ألا يطلَعَا إلا ارتدادَ الطرفِ حتى يأفلا

وقال أبو الطيب :

بدا وله وعْدُ السحابةِ بالرَّوى وصدَّ وفينا غلةُ البلد المحلِ

فوافقه فى المعنى وزاد عليه بقوله :

وصد وفينا غلة البلد المحل

لأنه قدر حاجتهم إلى وجوده وانتفاعهم بحياته .

وأما ما اختلفا فيه فإن أبا الطيب أشعر فيه من أبى تمام أيضا . وذاك أن معناه أمتن من معناه. ومبناه أحكم من مبناه . وربما أكبر هذا القول جماعة من المقلدين الذين يقفون مع شبهة الزمان وقدمه ، لا مع فضيلة القول وتقدمه . وأبو تمام وإن كان أشعر عندى من أبى الطيب ، فإن أبا الطيب أشعر منه فى هذا الموضع . وبيان ذلك أنه قد تقدم القول على ما

اتفقا فيه من المعانى . وأما الذى اختلفا فيه فإن أبا الطيب قال :

عزاءَك سيفَ الدولة المقتدَى به ... فإنك نصلٌ والشدائدُ للنصلِ

وهذا البيت بمفرده خير من بيتى أبى تمام اللذين هما :

إن تُرْزَ فى طَرَفَىْ نهار واحدٍ ... رز أينْ هاجَا لوعةً وبلا بلا

فالثقلَ ليس مضاعَفاً لمطيةٍ ... إلا إذا ما كــانَ وَهْماً بازلا

فإن قول أبى الطيب(و الشدائد للنصل) أكرم لفظا ومعنى من قول أبى تمام : إن الثقل إنما يضاعف من المطايا . وقوله أيضا :

تخونَ المنايا عهدَه فى سليلِه ... وتنصُرهُ بين الفوارسِ والرَّجْلِ

وهذا أشرف من بيتى أبى تمام اللذين هما :

لا غرْوَ إن فننانِ من عيدانــِه ... لقيــَـا حِماماً للبريّة آكِلا

إن الأشاءَ إذا أصابَ مشذِّب ... منه اتمَهلَّ ذرا وأُثَّ أسافِلا

وكذلك قال أبو الطيب :

ألستَ من القوم الذي من رماحِهم ... نداهُم ومـــن قتلاهمُ مهجةُ البُخْلِ

تسليهمُ علــياؤهم عن مصابــِهم ... ويشغلهم كسبُ الثّناء عن الشغلِ

وهذان البيتان خير من بيتى أبى تمام اللذين هما :

شمخَتْ خلالُك أن يواسيَك امرؤٌ ... أو أن تذكَّرَ ناسياً أو غافلا

إلا مواعظُ قادَها لك ســمحــةً ... إسجاحُ لبك سامعًا أو قائلا [1]

وواضح من هذه الموازنة ميل ابن الأثير إلى أبى الطيب. وقد علـــل لميله هذا ولكن تعليله جاء غير كاف ، فقد اكتفى فيه بأن بيت أبى الطيب

---

١ - انظر المثل السائر ٢ / ٣٧٢ : ٣٧٥

الفلانى ، خير من بيت أبى تمام الفلانى ، وبأن قول أبى الطيب كذا أفضل من بيتى أبى تمام كذا دون أن يبين وجه الأفضلية ، أو لماذا كان هذا البيت خير من ذاك البيت .

٦ - وفى حديثه عن المعانى المبتدعة والتى لم يسبق إليها لشاعر ولم يقتد فيها بمن سبقه ، إنما أملتها عليه الحوادث المتجددة والأمور الطارئة ذكر بيتين من شعر أبى تمام فى وصف مصلبين ، وهما قوله :

يكرُوا وأسرَوا فى متونِ ضوامرٍ ... فبدتْ لهم من مربطِ النجارِ
لا يبرحُون ومن رآهم خالَهم ... أبداً على سفرٍ من الأسفارِ

ثم ذكر أن البحترى ذيل على ما ذكره أبو تمام فى وصف المصلبين فقال :

كم عزيزٍ أباده فغدا يركَبُ عوداً مركَّباً فى عودِ
أسلَمتْهَ إلى الرقادِ رجالٌ لم يكونوا عن وِتْرِهِمْ برقودِ
تحسدا لطيرُ فيه ضبعَ البوادى وهو فى غير حالةِ المحسودِ
غاب عن صحبهِ فلا هو موجوُدٌ لديهِمْ وليسَ بالمفقودِ
وكأن امتدادَ كفَّيْه فوق الجذع فى محفلِ الرَّدى المشهودِ
طائرٌ مدَّ مستريحاً جناحيْهِ استراحاتِ متعَبٍ مكدودِ
أخطبُ الناس راكباً فإذا أرجل خاطبتَ منه عينَ البليدِ

وذكر ابن الأثير أن أبيات البحترى هذه أبيات حسنة استوعبت أقسام هذا المعنى المقصود ، إلا أن فيها شيئا مأخوذا من شعر مسلم بن الوليد وهو قوله :

نصبته حيث ترتابُ الرياح بهِ وتحسدُ الطيرُ فيه أضبعَ البيدِ

لكن البحترى زاد فى ذلك زيادة حسنة وهى قوله : " وهو فى غير حالة المحسود [1] " .

هذا مجمل كلام ابن الأثير . ونلحظ أنه وازن فيه بين أبى تمام والبحترى عن المصلبين ، وأن أبا تمام هو الذى ابتدأ الكلام فى هذا المعنى واخترعه ولم يسبق إليه ، ثم جاء البحترى وأكمله واستوعب أقسامه . وهذا كلام طيب أصاب فيه ابن الأثير . ولكننا مع هذا لا ينبغى أن نقلل من بيتى أبى تمام ؛ فهما على إيجازهما رسما صورة بارعة لهؤلاء المصلبين ، فتراهم على الجذوع فى صورة من يركبون خيولا ضامرة لكنها مصنوعة من الخشب . وهم طوال فترة صلبهم ماكثون لا يبرحون مكانهم ، ومع ذلك فمن ينظر إليهم يظنهم متأهبين للسفر آخذين استعدادهم الدائم له . وصورة أبى تمام للخيول الضامرة المصنوعة من الخشب والتى يمتطيها هؤلاء المصلبون أبرع وأجمل من صورة الأعواد المركبة التى جاء بها البحترى . كما أن هيئة هؤلاء المصلبين واستقرارهم فى أماكنهم ومع ذلك تخالهم أبدا على سفر أحسن وأجمل من صورة البحترى التى رسم فيها المصلوب بمن غاب عن أصحابه بعد أن أخذه الموت بعيدا عنهم ومع ذلك فهو موجود بجسده وشخصه أمامهم . فلا هو موجود لديهم ، كما أنه ليس بالمفقود . والبحترى بعد ذلك أجاد وأحسن فيما زاده من معان

---

١ - المثل السائر : ١ / ٣٠٣ ، ٣٠٤ .

لم يأت بها أبو تمام .

أما عن تأثر البحترى فى أبياته بمسلم بن الوليد فحقا ما قاله ابـــن الأثير ؛ فهناك شبه واضح بين بيت البحترى :

تحسد الطيرُ فيه ضبعَ البوادى　　　وهو فى غيرِ حالةِ المحسودِ

وبيت مسلم بن الوليد :

نصبتَه حيث ترتابَ الرياحُ به　　　وتحسد الطيرُ فيه أضبعَ البيدِ

فالشطر الثانى من بيت مسلم هو الشطر الأول من بيت البحـترى . ولكن البحترى زاد فى ذلك زيادة حسنة كما يقول ابن الأثير وهى قوله : " وهو فى غير حالة المحسود " واكتسبت هذا الحسن من حيث إنها مكملـة للمعنى الذى جاء به الشطر الأول من البيت فقوته وأكدته .

وفى ختام وقوفنا مع الموازنات فى حديث ابن الأثير نستطيع القـــول بأنه قد وقف فى موازناته عند حد التفضيل بين النصين فى بعض الأحيـان . وفى بعض الأحيان كان يذكر أسباب هذا التفضيل بإيجاز وبدون تحليـل أو تعليل كاف . كما أنه قد جارى من سبقه من النقاد فى إطـــلاق أحكـــام عامة فى الموازنة بين الشعراء فذكر أن الفرزدق وجرير والأخطل أشــــهر العرب أولا وآخر . وأشهر منهم من المتأخرين أبو تمام والبحترى والمتنبى. فمثل هذه الأقوال من ابن الأثير تذكرنا بأقوال أبى عمرو بـــن العـــلاء ، وابن الأعرابى ، والأصمعى ، وابن رشيق ، وغيرهم من النقاد الســـابقين على ابن الأثير الذين أصدروا الكثير من الأحكـــام النقديـــة العامـــة فى مفاضلتهم بين الشعراء .

سابعا : السرقات الأدبية :

شغلت قضية السرقات الأدبية جانبا عظيما فى كتب الأدب العربى وتاريخه ونقده . فلا نكاد نجد كتابا فى البلاغة أو فى النقد الأدبى يخلو من الحديث عن هذه القضية ، ومن الجدل الشديد فى مسائلها وجزئياتها . وفى كتب الأدب العربى القديم الأقوال الكثيرة التى توضح جوانب هذه القضية وتبين أجزاءها . كما أن فى كتب النقد الأدبى الحديث أضواء كاشفة على خصائص ومقومات هذه القضية .

وقد وقف ابن الأثير - كواحد من البلاغيين والنقاد - مع هذه القضية وجزئياتها ومسائلها ، وأبان عن أقسامها وضروبها فى كتابه المثل السائر .

تحدث ابن الأثير عن هذه القضية بإفاضة ، ومهد لها بحديث موجز عن أولية الشعر العربى وإمكان ابتداع المعانى فيه فى كل عصر من العصور. فذكر أن بعض العلماء ذهبوا إلى أن مجال الابتداع فى المعانى قد أغلق ، وليس لقائل أن يقول إنه ليس لأحد من المتأخرين معنى مبتدعا ؛ فإن قول الشاعر قديم منذ نطق باللغة العربية ولم يبق معنى من المعانى إلا وقد طرق مرارا .

رد ابن الأثير مثل هذا القول وذكر أنه كلام لا يتلفت إليه ؛ فباب الابتداع فى المعانى مفتوح إلى يوم القيامة . وليس هناك من يحجر على المخاطر وهى قاذفة بما لا نهاية له ، إلا أن هناك من المعانى ما يتساوى

الشعراء فيه ، ولا يطلق عليه اسم الابتداع لأول قبل آخر ؛ لأن الخواطر تأتى به من غير حاجة إلى إتباع الآخر الأول ، كقولهم فى الغزل :

عفت الديارُ وما عفت آثارُهُنَّ من القلوب

وكقولهم فى المديح : إن عطاؤه كالبحر وكالسحاب . وكقولهم فى الرثاء : إن هذا الرزء أول حادث ، وإن الذاهب لم يكن واحدا وإنما كان قبيلة ... وأشباه ذلك من المعانى الظاهرة التى تتوارد الخواطر عليها من غير كلفة وتستوى فى إيرادها . ومثل ذلك لا يطلق على الآخر فيه اسم السرقة من الأول ، وإنما يطلق اسم السرقة فى معنى مخصوص ، كقول أبى تمام :

لا تنكِرُوا ضربى له مَنْ دُونَهُ   مثلاً شروداً فى النَّدى والباسِ
فالله قد ضربَ الأقلَّ لنورهِ   مثلاً من المشكاةِ والنبراسِ

فإن هذا معنى مخصوص ابتدعه أبو تمام (١) .

وعن أولية الشعر العربى ذكر ابن الأثير أن الشعر من الأمور المتناقلة . والذى نقلته الأخبار وتواردت عليه أن العرب كانت تنظم المقاطيع من الأبيات فيما يعن لها من الحاجات ، ولم يزل الحال على هذه الصورة إلى عهد امرئ القيس – وهو قبل الإسلام بمائة سنة تقريبا . وهو أول من قصد القصائد . ثم تتابع المقصدون ، واختير من القصائد تلك السبع التى علقت على البيت . وانفتح للشعراء هذا الباب فى التقصيد ،

---

١ – المثل السائر : ٢ / ٣٤٢ ، ٣٤٣ .

وكثرت المعانى المقولة بسببه . ولم يزل الأمر ينمى ويزيد ويؤتى بالمعانى القريبة ، واستمر ذلك إلى عهد الدولة العباسية وما بعدها إلى الدولة الحمدانية ، فعظم الشعر وكثرت أساليبه وتشعبت طرقه ، وكان ختامه على الثلاثة المتأخرين وهم: أبو تمام حبيب بن أوس ، وأبو عبادة الوليد ابن عبيد البحترى ، وأبو الطيب المتنبى [١] .

وهذا يبين أن ابن الأثير يذهب إلى أن عمر الشعر العربى الجاهلى يقدر بمائة سنة قبل الإسلام تقريبا . والعلماء على أن عمر الشعر الجاهلى يقدر بمائة وخمسين إلى مائتى سنة قبل الإسلام تقريبا . وفى ذلك يقول الجاحظ : [٢] " وأما الشعر العربى فحديث الميلاد ، صغير السن . أول من نهج سبيله وسهل الطريق إليه امرؤ القيس بن حجر ، والمهلهل بن ربيعه .... فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له إلى أن جاء الله بالإسلام خمسين ومائة عام ، وإذا استظهرنا الشعر بغاية الاستظهار فمائتى عام " . كما يظهر من كلام ابن الأثير السابق اتفاقه مع كثير من العلماء فى قولهم بأن امرأ القيس والمهلهل بن ربيعه هما أول من قصد القصائد ، وكان قبلهما عبارة عن مقطوعات قصيرة من الأبيات يقولها الرجل فى حادثه [٣] .

---

١ - انظر المثل السائر : ٢ / ٣٢٤ .

٢ - الحيوان - تحقيق : عبد السلام هارون - دار الجيل - بيروت - طبعة عام ١٩٩٦م - ١ / ٧٤ .

٣ - انظر : طبقات فحول الشعراء - ابن سلام الجمحى - دار الكتب العلمية - بيروت - ط٢ - ١٩٨٨م - ص ٣٥ .

أما عن رأى ابن الأثير فى السرقات الأدبية فيرى " أنه متى أورد الآخر شيئا من ألفاظ الأول فى معنى من المعانى ولو لفظة واحدة فإن ذلك من أدل الدليل على سرقته [١] .

وقسم ابن الأثير السرقات الشعرية إلى ثلاثة أقسام : نسخ ، وسلخ، ومسخ . أما النسخ فهو أخذ اللفظ والمعنى برمته من غير زيادة عليه ، أو هو أخذ المعنى وأكثر اللفظ . وأما السلخ فهو أخذ بعض المعانى. وذلك مأخوذ من سلخ الجلد الذى هو بعض الجسم المسلوخ . وأما المسخ فهو إحالة المعنى إلى ما دونه . وذلك مأخوذ من مسخ الآدميين قردة .

ويذكر ابن الأثير أن هناك قسمين آخرين ليسا من هذه الأقسام الثلاثة وهما : أخذ المعنى مع الزيادة عليه ، والآخر عكس المعنى إلى ضده. كما ذكر أن السرقات الشعرية لا يمكن الوقوف عليها إلا بحفظ الأشعار الكثيرة التى لا يحصيها عدد [٢] . وضرب ابن الأثير بعض الأمثلة على السرقات الشعرية التى كان لها دور كبير فى كشف السرقة فيها . فيذكر أنه سافر إلى دمشق عام ٥٨٧ هـ فوجد جماعة من أدبائها يلهجون ببيت من شعر ابن الخياط ويزعمون أنه من المعانى القريبة وهو :

أغارُ إذا آنستُ فى الحىِّ أنّةً حذاراً عليه أن تكونَ لحبِّه

---

١ - المثل السائر : ٢ / ٣٤٥ .
٢ - المثل السائر : ٢ / ٣٤٥ ، ٣٤٦ .

فقال لهم : إن هذا البيت مأخوذ من شعر المتنبى فى قوله :

لو قلتُ للدنفِ المشوقِ فديتُه ... مــمَّـا به لأغرتُهُ بندائِهِ

ويوازن ابن الأثير بين البيتين فيرى أن بيت المتنبى أدق معنى ، وإنه كان قول ابن الخياط أرق لفظا [١] .

ويذكر أنه سافر إلى مصر سنة ٥٩٦ هـ فوجد أهلها يعجبون ببيت عمارة اليمنى :

فهلْ درَى البيتُ أنِّى بعد فرقتِهِ ... ما سِرْتُ من حَرَمٍ إلا إلى حَرَمِ

فقال لهم : إن هذا البيت مأخوذ من قول أبى تمام فى مَدح بعض الخلفاء فى حجة حجها :

يا مَنْ رَأَى حرماً يسرى إلى حَرَمٍ ... طوبى لمستلِمٍ يأتى وملتزمِ [٢]

وواضح فعلا أن بيت عمارة مأخوذ من بيت أبى تمام ، وكلاهما قد أحسن فى تعبيره عن المعنى.

وتناول ابن الأثير أقسام السرقات الأدبية الرئيسية بشىء من التفصيل ، وذكر لكل قسم بفروعه العديد من الأمثلة . وهذا مجمل حديثه فى ذلك :

- أما النسخ : وهو أخذ المعنى واللفظ جميعا ، أو أخذ المعنى وأكثر اللفظ - فقسمه ابن الأثير إلى ضربين : الضرب الأول منهما يسمى

---

١ - المثل السائر : ٢ / ٣٤٦ .

٢ - المثل السائر : ٢ / ٣٤٧.

وقوع الحافر على الحافر . ومنه قول امرئ القيس :

وقوفًا بها صحْبى علىَّ مطيهم يقولون لا تهلكْ أسىً وتجَمَّلِ

فقد أخذه طرفة بن العبد فقال فى معلقته :

وقوفًا بها صحبى علىَّ مطيهم يقولون لا تهلكَ أسىً و تجَلَّدِ [١]

فقد اختلف البيتان فى لفظة واحدة وهى لفظة القافية . وهذا يقضى بأن طرفة هو السارق لتأخره عن امرئ القيس وإن عاش كل منهما فى عصر واحد . ويذكر ابن الأثير أن الفرزدق وجرير أكثرا من هذا الضرب فى شعرهما . فمنه ما وردا فيه مورد امرئ القيس وطرفة فى تخالفهما فى لفظة واحدة ، ومن ذلك قول الفرزدق :

أتعدلُ أحساباً لئاماً حماتُها بأ حسابنا إنى إلى الله راجعُ

وقول جرير :

أتعدلُ أحسابًا كرامًا حماتُها بأحسابكم إنى إلى الله راجعُ

ومنه ما تساويا فيه لفظا بلفظ كقول الفرزدق :

وغرٍّ قد نسقتُ مشهَّراتٍ طوالعَ لا تطيقُ لها جوابَا

فكلِّ ثنيَّةٍ وبكلِّ ثغْرٍ غرائبُهُنَّ تنتسبُ انتسابا

بلغنا الشمسَ حين تكونُ شرقاً ومسقطُ رأسِها من حيثُ غابا

وكذلك قال جرير من غير تغيير [٢].

وهنا لابد أولا من معرفة مناسبة القصيدتين اللتين منهما الأبيات

---

١ - المثل السائر ٢ / ٣٥٠ .

٢ - المثل السائر : ٢ / ٣٥١ .

المتشابهة وتاريخ المناسبة عند الشاعرين حتى نستطيع الحكم على من منهما مبتدئ ، ومن السارق ، لأن الشاعرين متعاصران والتقيا كثيرا .

وأبطل ابن الأثير – وأنا معه فى ذلك – ما يقال من أن الفرزدق وجرير كانا ينطقان فى بعض الأحوال عن ضمير واحد فيأتى شعرهما حينئذ متفقا متطابقا . واستبعد ذلك ابن الأثير ؛ لأن ظاهر الأمر يدل على خلافه . وهب أن الخواطر تتفق فى استخراج المعانى الظاهرة المتداولة فكيف تتفق الألسنة فى صوغها ؟ . ولهذا فإذا رأينا شاعرا متقدما قال قولا ، ثم سمعناه من شاعر أتى بعده حكمنا بأن الثانى أخذه عن الأول ، والباطن لا يعلمه إلا الله .

ومن هذا الضرب أيضا قول معبد :

لهفى على فتيةٍ ذلَّ الزمانُ لهم   فما أصابهُمُ إلا بما شاءوا

فقد أخذه أبو نواسٍ فقال :

دارتْ على فتيةٍ ذلَّ الزمانُ لهم   فما يصيبهمُ إلا بما شاءوا [1]

وقد أخرج الدكتور محمد مندور هذا الضرب الذى يتفق فيه البيتان فى المعنى وكل اللفظ أو معظمه من باب السرقة ، ويرى أن هذا النوع الذى أطلق عليه ابن الأثير وقوع الحافر على الحافر لا علاقة له بالسرقات. فبيتا امرئ القيس وطرفة لا يفسران بالسرقة ، بل التفسير الصحيح هو الرواية . ونسبة البيت الواحد إلى كل من الشاعرين وإدخاله

---

١ – المثل السائر ٢/ ٣٥٢ .

فى قصيدة كل منهما مع تغيير القافية ليوائم كلا من القصيدتين . أى أن التشابه يرجع إلى أنه فى الحقيقة بيت واحد والرواة هم الذين يضمونه إلى قصيدة الشاعر المتأخر مع تغيير القافية ليوائم القصيدة المتأخرة .

أما ما ينسب إلى جرير والفرزدق من سرقة أحدهما لشعر الآخر فيذكر الدكتور محمد مندور بأن ابن الأثير قد أخطأ فى فهم هذا الأمر؛ فهذا مما لا ينطوى تحت أحد تقاسيمه فى باب السرقات. لأن ما حدث بينهما من اتفاقات جاءت فى باب النقائض وهو فن من فنون الهجاء ، وهو أشبه بما يسمونه فى الآداب الأوربية بالقلب . إذ يأخذ الشاعر قول الآخر فيحاكيه أو يغير منه تغييرا طفيفا كالكرة يتقاذفها اللاعبان ، أو كالسهم يغير اتجاهه فيرتد إلى نحر مطلقه (١) .

والضرب الثانى من النسخ – وهو الذى يؤخذ فيه المعنى وأكثر اللفظ – كقول بعض المتقدمين يمدح معبدا صاحب الغناء :

أجادَ طويْسٌ والسريجىُّ بعده ... وما قَصَباتُ السبق إلا لمعبَدِ

فقد أخذه أبو تمام فقال :

محاسنُ أصنافِ المغنين جمَّةٌ ... وما قَصَباتُ السبق إلا لمعبَد (٢)

ومن ذلك قول الأخطل فى هجاء جرير : (٣)

الآكلونَ خبيثَ الزادِ وحدهمُ ... والسائلون بظهرِ الغيب ما الخبرُ

---

١ – انظر النقد المنهجى عند العرب ٣٧١ .
٢ – المثل السائر : ٢/ ٣٥٢ .
٣ – ديوان الأخطل – شرح راجى الأسمر – ٩٠ .

فقد رد عليه جرير وأخذ قوله وجعله فى بيتين فقال:[1] .

والظاعِنون على العمياءِ إن ظعنُوا　　والسائلونَ بظهرِ الغيبِ ما الخَبَرُ
والآكلونَ خبيثَ الزادِ وحدهمُ　　والنازلون إذا واراهمُ الخمرُ

– وأما السلخ – وهو أخذ بعض المعنى – فقسمه ابن الأثير إلى اثنى عشر ضربا . وهذه هى مع مثال لكل منها كما تحدث عنها ابن الأثير :

الأول : أن يؤخذ المعنى ويستخرج منه ما يشبهه ، ولا يكون هو إياه . وهذا من أدق السرقات مذهبا، وأحسنها صورة ولا يأتى إلا قليلا. وهو لا يتبين إلا لمن أعرق فى ممارسة الأشعار ، وخاض فى استخراج المعانى. ومن ذلك قول بعض شعراء الحماسة :

لقد زادنى حبًّا لنفسى أننى　　بغيضٌ إلى كلِّ امرئٍ غيرِ طائلِ

فقد أخذ المتنبى هذا المعنى واستخرج منه معنى آخر شبيها به فقال :

وإذا أتتكَ مذمّتى من ناقصٍ　　فهى الشهادةُ لى بأنى كاملُ

فالأول يقول : إن بغض الذى هو غير طائل إياى أدى إلى زيادة حبى لنفسى . أى جملها فى عينى وحسنها عندى بغض هذا الذى هو غير طائل لى.والمتنبى يقول : إن ذم الناقص إياى شهادة بفضلى [2].

والضرب الثانى : من السلخ هو أن يؤخذ المعنى مجردا من اللفظ . وهذا لا يكاد يأتى إلا قليلا . ومنه قول عروة بن الورد :

---

١ – ديوان جرير – شرح : تاج الدين شلق – دار الكتاب العربى – ط ١ – ١٩٩٣ م – صـ ٢٨١ .

٢ – المثل السائر : ٢ / ٣٥٣ .

ومن يكُ مثلى ذا عيالٍ ومقتراً   من المالَ يطرَح نفسَه كلَّ مطرحِ
ليبلغَ عذرًا أو ينالَ رغيبةً   ومبلغُ نفسٍ عذرَها مثلُ منجَحِ

وأخذ أبو تمام هذا المعنى فقال :

فتىً ماتَ بين الضربِ والطعنِ ميتةً   تقوم مقامَ النصر إذ فاته النصرُ

فعروة بن الورد جعل اجتهاده فى طلب الرزق عذرا يقوم مقام النجاح ، وأبو تمام يجعل الموت فى الحرب قائما مقام الانتصار . وكلا المعنيين واحد غير أن اللفظ مختلف[١].

ولم يجعل أبو هلال العسكرى مثل هذا الضرب من السرقة ، ويرى أن من أخذ المعنى فكساه لفظا من عنده أجود من لفظه كان هو أولى به ممن تقدمه[٢].

وأنا مع أبى هلال فى ذلك لأن المعانى – كما يقول الجاحظ[٣] "مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى والبدوى والقروى والمدنى . وإنما الشأن فى إقامة الوزن ، وتخير اللفظ ، وسهولة المخرج ، وكثرة الماء وفى صحة الطبع ، وجودة السبك . فإنما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير " . والمعنى وإن كان واحدا فى قولى عروة وأبى تمام إلا أن صياغة تصويره تختلف فى أحد البيتين عن الآخر . وهذا يكفى لإبعاد المعنى عن السرقة .

---

١ – المثل السائر : ٢ / ٣٥٥ .
٢ – الصناعتين : ١٩٧ .
٣ – الحيوان : ٣ / ١٣١ .

والضرب الثالث من السلخ : هو أخذ المعنى ويسير من اللفظ . وجعل ابن الأثير هذا الضرب من أقبح السرقات وأظهرها شناعة على السارق . ومن هذا الضرب قول البحترى فى غلام :

فوقَ ضعفِ الصغيرِ إن وُكِّلَ الأمـ ـرِ إلـيه ودونَ كيدِ الكبارِ

فقد أخذه من قول أبى نواس :

لم يَخْفَ من كِبَرٍ عمّا يُرادُ بـه من الأمورِ ولا أزرَى من الصغرِ[1]

ويذكر ابن الأثير أن فحول الشعراء قد سلكوا هذه الطريق ولم يستنكفوا من سلوكها . ومن هؤلاء أبو تمام فى قوله :

قد قَلَّصَتْ شفتاهُ من حفيظتِهِ فَخِيلَ من التعبيس مبتسِمَا

فقد أخذ هذا المعنى من البيت الثالث من قول ديك الجن :

وإذا شئتَ أن ترَى الموتَ فى صو رة ليثٍ فى لبدتَـيْ رئبالِ

فالقَهُ غيرَ أنَّمـا لبدتـاه أبيضٌ صارمٌ وأسمرُ عالِ

تلقَ ليثاً قد قَلَّصَتْ شفتاه فيُرى ضاحكاً لِعَبَسِ الصيالِ[2]

والتشابه واضح بين المعنى فى البيتين . كما فعل هذا ابن الرومى فى قوله :

جرحته العيونُ فاقتصَّ منها بجوًى فى القلوبِ دامى الندوبِ

فقد أخذ هذا المعنى من أبى تمام فى قوله :

أدميتُ باللحظاتِ وجنتَه فاقتصَّ ناظرُه من القلبِ[3]

---

١ - المثل السائر : ٢ / ٣٥٦ .
٢ - المثل السائر : ٢ / ٣٥٦ .
٣ - المثل السائر : ٢ / ٣٥٧ .

وفعل هذا أيضا المتنبى فى قوله :

فدَى نفسَه بضمانِ التضارِ　　　وأعطَى صدورَ القنا الذابلِ

فقد سبقه إليه الفرزدق فى قوله :

كان الفداءَ له صدورٌ رماحنا　　　والخيلُ إذ رهجُ الغبار مثارُ [1]

وأشار ابن الأثير إلى أنه لا بد فى هذا الضرب من مخالفة المتأخر المتقدم ، إما بأن يأخذ المعنى فيزيده معنى آخر ، أو يوجز فى لفظه ، أو يكسوه عبارة أحسن من عبارته . كما يذكر أن من أقبح صور هذا الضرب أن يأخذ الشاعر معنى من قصيدة لصاحبه على وزن وقافيه فيودعه قصيدة له على ذلك الوزن وتلك القافية . ويمثل ابن الأثير بمن سرق جوهرة من طوق أو نطاق ثم صاغها فى مثل ما سرقها منه . والأولى به أن كان نظم تلك الجوهرة فى عقد أو صاغها فى سوار أو خلخال ليكون أكتم لأمرها [2] . وهذا قريب من قول أبى هلال العسكرى : "والحاذق يخفى دبيبه إلى المعنى يأخذه فى سترة فيحكم له بالسبق إليه أكثر من يمر به ... أو ينقل المعنى المستعمل فى صفة خمر فيجعله فى مديح فينقله إلى وصف ، إلا إنه لا يكمل لهذا إلا المبرز والكامل المقدم [3]".

وممن فعل ذلك المتنبى فى قصيدته التى مطلعها :

غيرى بأكثرِ هذا الناسِ ينخدعُ

---

١ - المثل السائر : ٢ / ٣٥٨ .

٢ - المثل السائر : ٢ /٣٥٨ .

٣ - الصناعتين : ١٩٨ .

فقد قال فى أحد أبياتها :

لم يُسلم الكـــرُّ فى الأعقاب مهجتَه   إن كان أسلَمها الأصحابُ والشيعُ

وهذه القصيدة مصوغة على قصيدة لأبى تمام فى وزنها وقافيتها ، وأولها :

أىَّ القلوب عليكم ليسَ ينصَدِعُ

والمعنى الذى أورده المتنبى مأخوذ من قول أبى تمام فى القصيدة المشار إليها:

مـــا غابَ عنكمُ من الأقدام أكرمُه   فى الروع إذ غابت الأنصارُ والشيعُ

ويذكر ابن الأثير أنه ليس فى السرقات الشعرية أقبح مــــن هــــذه السرقة . فإنه لم يكتف الشاعر فيها بأنه يسرق المعنى حتى ينــــادى علـــى نفسه أنه قد سرقه [1] .

والضرب الرابع من السلخ : وهو أن يؤخذ المعنى فيعكس . وذلـك حسن يكاد يخرجه حسنه عن حد السرقة . ومن ذلك قول أبى نواس :

قالوا عشقتَ صغيرةً فأجبتُهُم   أشهىَ المطىِّ إلىَّ ما لم يركَبِ

كم بين حبة لؤلؤ مثقـــــوبةٍ   لُبسَـــت وحبة لؤلؤ لم تثقَبِ

فقال مسلم بن الوليد فى عكس ذلك :

إن المطيةَ لا يَلَذُّ ركوبُها   حتى تذلَّــلَ بالزمام وتركبا

والحبُّ ليس بنافع أربابه   حتى يفصَّل فى النظام ويثقَبا [2]

وواضح أن معنى قول مسلم الميل إلى ركوب المطية الكبيرة المتعودة.

---

١ - المثل السائر : ٢ / ٣٥٩ .

٢ - المثل السائر : ٢ / ٣٥٩ .

أما أبو نواس فيرى عكس ذلك ، وأن أشهى المطايا الصغيرة التى لم تركب. ولكل وجهة نظر . وأنا أرى أنه لا داعى لإدراج هذا الضرب فى باب السرقة ؛ لأن الشاعر الثانى لم يأخذ من الأول شيئا ، وإنما جاء بضد معناه .

والضرب الخامس من السلخ : هو أن يأخذ بعض المعنى فقط . ومنه قول أمية بن أبى الصلت يمدح عبد الله بن جدعان :

عطاؤكَ زينٌ لامرئٍ إن حَبَوْتَه ... ببذلٍ وما كلُّ العطاءِ يزينُ
وليس بشَيْنٍ لامرئٍ بذلُ وجههِ ... إليك كما بعضُ السؤالِ يشينُ

فقد أخذ بعضه أبو تمام فقال :

تُدْعَى عطاياه وفْراً وهى إن شُهِرَتْ ... كانت فخاراً لمن يعفوه مؤتنفا
ما زلتُ منتظرا أعجوبةً زمناً ... حتى رأيتُ سؤالا يجتنى شَرَفا[1]

والضرب السادس من السلخ : هو أن يؤخذ المعنى فيزاد عليه معنى آخر ومنه قول الأخنس بن شهاب :

إذا قَصُرت أسيافُنا كان وصلُها ... خُطانا إلى أعدائنا فنضاربُ

فقد أخذه مسلم بن الوليد فزاد عليه وهو قوله :

إن قصَّرَ الرمحُ لم يمشِ الخطا عدداً ... أو عـرَّدَ السيفُ لم يهمم بتعريدِ[2]

والضرب السابع من السلخ : هو أن " يؤخذ المعنى فيكسى عبارة أحسن

---

١ - المثل السائر : ٢ / ٣٦٠ .
٢ - المثل السائر : ٢ / ٣٦٢ .

من العبارة الأولى . وهذا هو المحمود الذى يخرج به حسنه عن باب السرقة [١]".

وأنا مع ابن الأثير فى أن حسن العبارة تخرج هذا اللون من الأخذ من باب السرقة . ولكن لا أدرى لماذا أدرج ابن الأثير هذا اللون تحت هذا الباب وهو بهذه الصورة من الحسن ؟ !

وقد مثل ابن الأثير لهذا الضرب بأمثلة عديدة ، منها قول أبى تمام :

جذلانُ من ظفرٍ حرَّانُ إن رجعَتْ ... مخضوبةً منكمُ أظفارُه بدمِ

فقد أخذه البحترى فقال :

إذا احتربَتْ يومًا ففاضَتْ دماؤُها ... تذكـرتِ القُربى ففاضتْ دموعُها[٢]

وبين المعنى فى البيتين بعض أوجه الالتقاء الخفيف . ولكن حسن عبارة البحترى يخرجه عن السرقة . فأبو تمام يقول : إن الممدوح قد أوقع بأقاربه وهو فرح بالنصر والظفر بهم ، ولكنه يحزن إن رجع من المعركة وقد خضبت أظفاره بدمائهم . والبحترى يقول : إذا احتربت الجيوش مع الأقارب أفاضت دماءهم ولكنهم يتذكرون ما بينهم من القرابة فتفيض دموعهم حزنا على تقطيع صلة الأرحام وعلى ما حدث لأقاربهم .

والضرب الثامن من السلخ : " وهو أن يؤخذ المعنى ويسبك سبكا موجزا . وذلك من أحسن السرقات ، لما فيه من الدلالة على بسطة

---

١ - المثل السائر : ٢ / ٣٦٦ .
٢ - المثل السائر : ٢ / ٣٦٦ .

ألفاظه وسعه باعة فى البلاغة [١] " . ومن ذلك قول بشاربن برد :

مَنْ راقبَ الناسَ لم يظفرْ بحاجته ... وفاز بالطيباتِ الفاتكُ اللَهِجُ

فقد أخذه سلم الخاسر فقال :

مَنْ راقبَ الناسَ مات غَمًّا ... وفـــاز باللذة الجســورُ [٢]

والمعنى الواحد فعلا فى البيتين ، ولكن لسلم فضل الإيجاز .

ومن ذلك قول ابن الرومى :

كأنىَ أستدْنى بك ابنَ حنيةٍ ... إذا النزعُ أدناه من الصدرِ أبعَدَا

فقد أخذه ابن قسيم الحموى فقال :

فهو كالسهم كلما زدته منك ... دنوا بالنـــزع زادك بعـــدا [٣]

ورغم إيجاز ابن قسيم فإنى أرى بيت ابن الرومى أفضل تعبيرا وأوضـــح معنى .

والضرب التاسع من السلخ : هو أن يكون المعنى عاما فيجعل خاصــا ، أو خاصا فيجعل عاما . وذكر ابن الأثير هذا الضرب من الســـرقات الـــتى يسامح صاحبها[٤].

فمن العام الذى جعل خاصا قول أبى الأسود الدؤلى :

لا تنهَ عـــن خُلُقٍ وتأتىَ مثلَه ... عارٌ عليكَ إذا فعلتَ عظيمُ

---

١ - المثل السائر : ٢ / ٣٦٨ .
٢ - المثل السائر : ٢ / ٣٦٨ .
٣ - المثل السائر : ٢ / ٣٦٩ .
٤ - المثل السائر : ٢ / ٣٧٠ .

فقد أخذه أبو تمام فقال :

أَأَلُومُ مَنْ بَخِلَتْ يداه واغتدى   للبخلِ تربًا ؟ ساء ذاكَ صنيعًا

فقد نهى أبو الأسود عن الإتيان بما نهى عنه مطلقا ، وجاء بـــالخلق منكرا فجعله شائعا فى بابه . أما أبو تمام فقد خصص ذلك بالبخل وهـــو خلق واحد من جملة الأخلاق[1].

وأما جعل الخاص عاما فكقول أبي تمام :

ولو حارَدَتْ شولٌ عذرتُ لِقاحَها   ولكن مُنِعْتُ الدَّرَّ والضَّرْعُ حافِلُ

فقد أخذه أبو الطيب المتنبى فجعله عاما فقال :

ومـــا يؤلم الحرمانُ من كفِّ حـــارمٍ   كما يؤلمُ الحرمانُ من كفِّ رازقٍ [2]

وأنا أرى أن نقل الشاعر الثانى المعنى من العموم إلى الخصـــوص أو من الخصوص إلى العموم كفيل بأن يبعد آخذه من باب السرقة .

والضرب العاشر من السلخ : " وهو زيادة البيان مع المساواة فى المعـــنى . وذلك بأن يؤخذ المعنى فيضرب له مثال يوضحه [3] " . ومن ذلك قـــول أبي تمام :

هو الصُّنعُ إن يعجَل فنفعٌ وإن يَرِثْ   فللريثُ فى بعض المواطنِ أنفعُ

١ - المثل السائر : ٢ / ٣٧١ .
٢ - المثل السائر : ٢ / ٣٧١ .
٣ - المثل السائر : ٢ / ٣٧١ .

أخذه المتنبى وأوضحه بمثال ضربه له فقال :

ومن الخيرِ بطءُ سيبكَ عنىَّ   أسرَعُ السحبِ فى المسيرِ الجهامُ

وقد أبدع المتنبى فى توضيح المعنى عن طريق المثال الذى ضربه له ؛ فأبطأ السحب فى المسير المثقل بماء المطر ، وأسرعه الجهام الذى لا ماء فيه. وهذا ما جعل ابن الأثير يصنف البيت تحت باب المبتدع ويبعده عن السرقة وما أحسن ما أتى المتنبى بهذا المعنى فى المثال المناسب له(١).

والضرب الحادى عشر من السلخ : " وهو اتحاد الطريق واختلاف المقصد . ومثاله أن يسلك الشاعران طريقا واحدة فتخرج بهما إلى موردين أو روضتين . وهناك يتبين فضل أحدهما على الآخر (٢) " .

وضرب ابن الأثير لذلك مثالا من شعر أبى تمام فى رثائه لولدين صغيرين .ومن شعر المتنبى فى رثاء طفل صغير (٣) .

ومفهوم هذا الضرب أن ابن الأثير يحكم على النصوص المتأخرة بالسرقة لاتفاقها مع سابقتها فى الموضوع وبعض المعانى . وأنا أرى أن هذا بعيد تماما عن باب السرقة ؛ لأن تشابه الموضوع أو اتحاده بين شاعرين فأكثر يؤدى حتما إلى تشابه بعض المعانى بينهم لاتحادها فى خواطر الشعراء نتيجة تعلقها بموضوع واحد . ومهما كانت نظرة الشاعرين إلى الموضوع

---

١ - المثل السائر : ٢ / ٣٧١ .

٢ - المثل السائر : ٢ / ٣٧٢ .

٣ - انظر الأبيات جميعها فى المثل السائر : ٢ / ٣٧٢ .

الواحد مختلفة فإنه لا بد أن تكون هناك بعض المعانى المتحدة بينهما نتيجة اتحاد الموضوع فى النهاية .

وكان من الأفضل أن يجعل ابن الأثير هذا الضرب محصورا فى الأبيات التى اتفق الشاعران فى صياغة معانيها مع اتصالها بموضوع واحد ، كما فعل هو ذلك عقب ذكره لأبيات الشاعرين فقال : " وسأبين لك ما اتفقا فيه وما اختلفا . وأذكر الفاضل من المفضول فأقول : أما الذى اتفقا فيه فإن أبا تمام قال :

لهفى على تلك الشواهد فيهما ... لو أُخِّرَتْ حتى تكون شمائلا

وأما أبو الطيب فإنه قال :

يموله دهم صَمْتُ اللسان كغيره ... ولكن فى أعطافه منطقُ الفضلِ

فاتى بالمعنى الذى أتى به أبو تمام وزاد عليه بالصناعة اللفظية وهى المطابقة فى قوله (صمت اللسان) و (منطق الفضل) . وقال أبو تمام :

نجمان شاء الله ألا يطلُعَا ... إلا ارتدادَ الطرفِ حتى يأفُلا

وقال أبو الطيب :

بدا وله وعدُ السحابةِ بالرَّوى ... وصَدَّ وفينا غلةُ البلدِ المحلِ

فوافقه فى المعنى وزاد عليه بقوله :

وصد وفينا غلة البلد المحل

لأنه بين قدر حاجتهم إلى وجوده وانتفاعهم بحياته [1] " .

---

١ - المثل السائر : ٢ / ٣٧٤ .

وبعد ذلك ذكر ابن الأثير ما اختلف فيه الشاعران من المعانى . ولا حاجة لنا بها فى هذا المقام ؛ لأن القول فى السرقات يوجب علينا ذكر المعانى التى اتفق فيها الآخذ من المأخوذ عنه دون ما اختلفا فيه ، إلا إذا كان المقام مفاضلة بين الشاعرين . وقد سبق أن تناولت هذا المثال فى باب الموازنات .

وإن كان المتنبى قد اتفق مع أبى تمام فى المعنيين اللذين ذكرهما ابن الأثير فإن هذا لا يجعلنا نحكم على الأبيات كلها بالسرقة حتى ولو كان الموضوع واحدا .

ولم ينص ابن الأثير على الضرب الثانى عشر من السلخ، ولعله هو ما يعنيه بتوارد اثنين من الشعراء على مقصد من المقاصد يشتمل على عدة معان [1] . كتوارد البحترى والمتنبى على وصف الأسد ، وكتواردهما فى الرثاء بامرأة ، وكتوارد البحترى والشريف الرضى على وصف الذئب[2] .

ـ وأما المسخ فهو قلب الصورة الحسنة إلى صورة قبيحة ، أو قلب الصورة القبيحة إلى صورة حسنة . فمن الأول - وهو قلب الصورة الحسنة إلى صورة قبيحة - قول أبى تمام :

فتىً لا يَرَى أن الفريصَة مقتَلٌ ... ولكن يرى أن العيوبَ مقاتِلُ

---

١ - انظر المثل السائر : ٢ / ٣٨٧ .

٢ - انظر المثل السائر : ٢ / ٣٨٨ ، ٣٨٩ .

فقد عبر المتنبى عن المعنى وقبحه فقال :

يَرَى أن ما بانَ منك لضاربٍ　　　بأقتلَ مما بان منكَ لعائبِ

فالمتنبى وإن لم يشوه المعنى فقد شوه الصورة . ومثاله فى ذلك كمن أودع الوشى شملا وأعطى الورد جُعَلا . وحكم ابن الأثير على هذا بأنه من أرذل السرقات [١] .

وأما أقلب الصورة القبيحة إلى صورة حسنة فهو لا يسمى سرقة ، بل يسمى إصلاحا وتهذيبا . ومن ذلك قول المتنبى :

لو كانَ ما تعطيهمٌ من قبل أن　　　تعطيهمُ لم يعرفوا التأميلا

فقد تناوله ابن نباتة السعدى وأصلحه فقال :

لم يُبْقِ جودُك لى شيئًا أؤمِّلُه　　　تركتنى أصحبُ الدنيا بلا أَمَلِ [٢]

ومن ذلك قول أبى نواس فى أرجوزة يصف فيها اللعب بالكرة والصولجان :

جنٌ على جنٍّ وإن كانوا بشرْ　　　كأنَّما خيطوا عليها بالإبَرْ

ثم جاء المتنبى فتناول المعنى وأصلحه فقال :

فكأنها نُتِجَتْ قيامًا تحتهم　　　وكأنهم وُلِدوا على صَهَواتِها

وبين المعنى فى البيتين فرق كبير - أو - كما يقول ابن الأثير - بين القولين كما بين السماء والأرض ؛ فبقدر ما فى قول أبى نواس من النزول

١ - المثل السائر : ٢ / ٣٩٠ .
٢ - المثل السائر : ٢ / ٣٩٠ .

والضعف ، فكذلك فى قول أبى الطيب من العلو والقوة [١] .

ومن ذلك أيضا قول أبى الطيب :

إنى على شَغفى بما فى خُمْرها لأعِفُّ عما فى سَرَا ويْلاتها

فقد أخذه الشريف الرضى فأجمله وأصلحه فقال :

أَحِنُّ إلى ما تضمَنُ الخُمْرُ والحُلى وأصدِف عما فى ضمانِ المآذِرِ [٢]

وأنا أرى أن ابن الأثير قد اشتط كثيرا في هذا الباب وأدخل كثيرا من صور الأخذ أو التأثر في باب السرقة وهي ليست منها.ومن رأيي أن مجرد أخذ المعنى فقط كله أو بعضه ، والتعبير عنه بلفظ جيد وبعبارة حسنة ، أو الزيادة عليه زيادة حسنة يخرج هذا الأخذ من باب السرقة . وقد ذهب هذا المذهب أبو هلال العسكرى وصرح به فقال : " ليس لأحد من أصناف القائلين غنى عن تناول المعانى ممن تقدمهم ، والصب على قوالب من سبقهم . ولكن عليهم — إذا أخذوها — أن يكسوها ألفاظا من عندهم ويبرزوها فى معارض من تأليفهم ، ويوردوها فى غير حليتها الأولى ، ويزيدوها فى حسن تأليفها وجودة تركيبها وكمال حليتها ومعرضها . فإذا فعلوا ذلك فهم أحق بها ممن سبق إليها . ولولا أن القائل يؤدى ما سمع لما كان فى طاقته أن يقول . وإنما ينطق الطفل بعد استماعه من البالغين [٣]".

---

١ – انظر المثل السائر : ٢ / ٣٩١ .

٢ – المثل السائر : ٢ / ٣٩١ .

٣ – الصناعتين : ١٩٦ .

وذهب إلى هذا أيضا ابن رشيق حين قال : " على أن المتبع إذا تناول معنى فأجاده – بأن يختصره إن كان طويلا ، أو يبسطه إن كان كزا، أو يبينه إن كان غامضا ، أو يختار له حسن الكلام إن كان سفسافا، أو رشيق الوزن إن كان جافيا – فهو أولى به من مبتدعه . وكذلك إن قلبه ، أو صرفه عن وجه إلى وجه آخر . فإن ساوى المبتدع فله فضيلة حسن الاقتداء لا غيرها [1]".

وكلام ابن رشيق هذا يخرج كثيرا من الضروب التى عددها ابن الأثير من باب السرقة ويبعدها عنه . وهذا فى ظنى أحق وأولى . والأفضل أن يطلق على تلك الأنواع المتصلة بأخذ المعنى أو جزء منه اتباعا ، أو تأثرا . وخاصة فى المعانى المشتركة التى هى جارية فى عاداهم ومستعملة فى أمثالهم ومحاوراهم – كما يقول ابن رشيق [2] . لأن المعانى – كما ذكرت – مطروحة فى الطريق ومن حق كل أديب أن يلتقطها ويعبر عنها. وإنما الشأن فى إقامة الوزن ، وتخير اللفظ ، وسهولة المخرج ، وكثرة الماء، وفى صحة الطبع ، وجودة السبك كما يقول الجاحظ . اللهم إلا فى المعانى البديعة التى يختص بها الشاعر .

ويخيل لى أن مقصد ابن الأثير من حديثه عن السرقات الشعرية هو أن يبين أنواع الأخذ ، أو تعداد سبل إتباع شاعر لاحق لشاعر سبقه .

---

١ – العمدة : ١ / ٢٩٠ .
٢ – العمدة : ١ / ٢٨١ .

لأننا لو أطلقنا على كل ما ذكره ابن الأثير لفظ السرقة لما بقى للمتـــأخر شيء جديد يكون هو الأحق بأن ينسب إليه .

" والناظر فى تقاسيم ابن الأثير والأمثلة التى يوردها يحس أنه لم يعـنى فى شيء بتحقيق وجود السرق أو عدم وجودة . وإنما كان همـه الأول أن يفارق ويظهر البراعة فى التبويب . وكم بيت يرى فيه سرقا مع أنه لم يعبر عن معنى مشترك أو فى حكم المشترك ، أو يصور تصويـــرا مألوفـا ، أو ينتظم ألفاظا مباحة غير محظورة ...

ولم يقف ابن الأثير عند هذا الحد فى منهجه ، بل تعداه إلى النزعـــة التعليمية المعهودة . ومن ثم لا يكتفى بأنواع السرقات ، بل يشير إلى مـــا يعتبر منها حسنا وما يعتبر قبيحا ليرشد الشعراء إلى طريق السرق وخـــير تلك الطرق [١] " . ولذلك نراه يحكم على بعـــض أنـــواع الســـرقات . ويذكر مبلغ سهولته أو صعوبته لمن يريد أن يرتكبه . فيقول عن النـــوع الأول من السلخ : " وهذا من أدق السرقات مذهبا وأحسنها صـــورة ولا يأتى إلا قليلا [٢] " . ويقول عن النوع الثانى : " وذلك مما يصعـــب جدا ولا يكاد يأتى إلا قليلا[٣] " . ويقول عن الثالث : " وذلك من أقبـح السرقات وأظهرها شناعة على السارق [٤] " . ويقول عـــن الرابـــع :

---

١ - النقد المنهجى عند العرب - د / محمد المندور ٣٧٢ .
٢ - المثل السائر : ٢ / ٣٥٣ .
٣ - المثل السائر : ٢/ ٣٥٤ .
٤ - المثل السائر : ٢ / ٣٥٥ .

وذلك حسن يكاد يخرجه حسنه عن حد السرقة [١] " . ويقول أيضا عــن السابع : " وهذا هو المحمود الذى يخرج به حسنه عن باب السرقة [٢] " . ويقول عن الثامن : " وذلك من أحسن السرقات لما فيه من الدلالة علــى بسطة الناظم فى القول وسعة باعه فى البلاغة [٣] " . ويقول عن التاســع : " وهو من السرقات التى يسامح صاحبها [٤] " .

- هذا وقد تحدث عن السرقات الأدبية قبل ابن الأثير مجموعة مــن النقاد منهم الآمدى الذى يرى أنه لا سرقة فى الألفـــاظ المشــتركة ؛ إذ كانت الألفاظ مباحة غير محظورة [٥] . كما أنـــه لا ســـرقة فى الألفـــاظ المشتركة بين الناس والجارية على ألسنتهم [٦] وإنما الســـرقة تتحقـــق فى المعانى البديعة المخترعة التى يختص بها الشاعر ، " لا فى المعانى المشتركة بين الناس التى هى جارية فى عاداتهم ، ومستعملة فى محاوراتهم مما ترتفع الظنـــة فيه عن الذى يورده أن يقال : أخذه عن غـــــيره [٧] " . وغـــير منكـــر لشاعرين متناسبين من أهل بلدين متقاربين أن يتفقا فى كثير مـــن المعـــانى لاسيما ما تساوى الناس فيه وتردد فى الأشعار ذكره ، وجرى فى الطبـــاع

١ - المثل السائر : ٢ / ٣٥٩ .
٢ - المثل السائر : ٢ / ٣٦٦ .
٣ - المثل السائر : ٢ / ٣٦٨ .
٤ - المثل السائر : ٢ / ٣٧٠ وانظر النقد المنهجى عند العرب ٢٧٣ .
٥ - انظر الموازنة : ٣١٤ .
٦ - انظر الموازنة ١١٤ وغيرها .
٧ - الموازنة بين أبى تمام والبحترى ٣١٣ .

والاعتياد من الشاعر وغير الشاعر استعماله . ولذلك نفى الكثير مما نسبه غيره إلى السرقة فى شعر أبى تمام أو فى شعر البحترى وأخرجه من بـــاب السرقة لهذا السبب [١] .

- كما تحدث القاضى الجرجانى فى كتابه (الوساطة بـــين المتنـــى وخصومه) عن هذه القضية ، وقرر أن السرقة تكون فى الألفاظ والمعـــانى والأغراض والمقاصد . وقد تكون واضحة بينة ، وقد تكون خفية غامضـــة يعرفها اللبيب حين يخفيها الشاعر بالقلب ، أو النقض ، أو ينقلـــها مـــن وصف إلى رثاء ، أو من نسيب إلى مديح ، أو يعدل بها عن وزنها ونظمـــها وقافيتها . وذكر الجرجانى أمثلة لكل لون من هذه الألوان [٢] . ولكنـــه يرى كما يرى الآمدى - أن السرقة لا تكون فى المشترك ولا فى المبتـــذل الذى ليس أحد أولى به ، وإنما السرقة تكون فى المختص الـــذى حـــازه المبتدئ فملكه وأحياه السابق فاقتطعه فصار المعتدى مختلســـا ســـارقا ، والمشارك له محتذيا تابعا [٣] . أما العام المشترك من الألفاظ والمعانى فـــلا ينفرد أحد منهم بسهم لا يساهم عليه ولا يختص بقسم لا ينازع فيـــه . والسرقة عن مثل هذا منتفية ، والأخذ بالاتباع فيه مستحيل ممتنـــع ، وإن كان الأصل فيه لمن انفرد به وأوله للذى سبق إليه [٤] .

---

١ - انظر الموازنة ١١٤ : ١٢٢ ، ٣١٤ : ٣٣٩ وغيرها .
٢ - انظر : الوساطة بين المتنبى وخصومه ١٧٠ : ١٩٨ .
٣ - انظر الوساطة صـ ١٧٠ .
٤ - انظر الوساطة ١٧١ .

وقبل أن ينتقل القاضى الجرجانى عن حديثه العام عن السرقات الشعرية إلى بيان ما فى شعر المتنبى خاصة من سرقات أبان عن قبح السرقة، وعن وجودها فى شعر القدماء والمحدثين بقوله : " والسرق - أيدك الله - داء قديم وعيب عتيق . وما زال الشاعر يستعين بخاطر الآخر ويستمد من قريحته ويعتمد على معناه ولفظه ، وكان أكثره ظاهرا ..... ثم تسبب المحدثون إلى إخفائه بالنقل والقلب وتغيير المنهاج والترتيب ، وتكلفوا جبر ما فيه من النقيصة بالزيادة والتأكيد والتعريض فى حال ، والتصريح فى أخرى والاحتجاج والتعليل . فصار أحدهم إذا أخذ معنى أضاف إليه من هذه الأمور ما لا يقصر معه عن اختراعه وإبداع مثله ...

ومتى أنصفت علمت أن أهل عصرنا ثم العصر الذى بعدنا أقرب فيه إلى المعذرة ، وأبعد من المذمة ؛ لأن من تقدمنا قد استغرق المعانى وسبق إليها وأتى على معظمها ، وإنما يحصل على بقايا : إما أن تكون تركت رغبة عنها واستهانة بها ، أو لبعد مطلبها واعتياص مراميها وتعذر الوصول إليها . ومتى أجهد أحدنا نفسه وأعمل فكره وأتعب خاطره وذهنه فى تحصيل معنى يظنه غريبا مبتدعا ، ونظم بيتا يحسبه فردا مخترعا، ثم تصفح عنه الدواوين لم يخطئه أن يجده بعينه أو يجد له مثالا يغض من حسنه . ولهذا السبب أحظر على نفسى ولا أرى لغيرى بت الحكم على شاعر بالسرقة [1] " .

---

١ - الوساطة : ١٩٨ .

- كما تحدث أبو هلال العسكرى عن السرقة الأدبية فى كتابه الصناعتين ، وعقد لهذه القضية فصلين من الكتاب يضمهما الباب السادس منه ، أولهما فى حسن الأخذ ، والثانى فى قبح الأخذ . وذكر فى الباب الأول - كما ذكر القاضى الجرجانى - أنه عزم على ألا يحكم على المتأخر بالسرق من المتقدم حكما حتما . لأنه قد يقع للمتأخر معنى سبقه إليه المتقدم من غير أن يلم به ، ولكنه كما وقع للأول يقع للمتأخر . وذلك أمر عرفه بنفسه . فقد عمل شيئا فى صفة النساء فقال :

سفَرْنَ بدورًا وانتقبْنَ أهلّةً

وظن أنه سبق إلى جمع هذين التشبيهين فى نصف بيت حتى وجده بعينه لبعض البغداديين فكثر تعجبه .

كما ذكر أبو هلال أنه لا سرقة فى المعانى لأنها مشتركة بين العقلاء، وربما وقع المعنى الجيد للسوقى والنبطى والزنجى ، وإنما تتفاضل الناس فى الألفاظ ورصفها وتأليفها ونظمها [1] .

وأكد أبو هلال ما ذهب إليه من أنه لا سرقة فى المعنى بقول من قال: " إن من أخذ معنى بلفظه كان له سارقا ، ومن أخذه ببعض لفظه كان له سالخا ، ومن أخذه فكساه لفظا من عنده أجود من لفظه كان هو أولى به ممن تقدمه [2]". وبقولهم : " إن أبا عذرة الكلام من سبك لفظه

---

١ - انظر الصناعتين : ١٩٦ ، ١٩٧ .

٢ - الصناعتين : ١٩٧ .

على معناه ، ومن أخذ معنى بلفظه فليس له فيه نصيب [١] " .

ويرى أبو هلال " أن ابتكار المعنى والسبق إليه ليس هـــو فضيلـــة يرجع إلى المعنى ، وإنما هو فضيلة ترجع إلى الذى ابتكره وســـبق إليـــه . فالمعنى الجيد جيد وإن كان مسبوقا إليه ، والوسط وســـط ، والـــردىء ردىء وإن لم يكونا مسبوقا إليهما [٢] " . كما أكد ما ذهب إليـــه بـــأن المتقدمين والمتأخرين من النقاد والشعراء قد أجمعوا " على تداول المعـــانى بينهم . فليس على أحد فيه عيب إلا إذا أخذه بلفظـــه كلـــه أو أخـــذه فأفسده، وقصر فيه عمن تقدمه [٣] " .

ويرى أبو هلال أن الحاذق من الشعراء من كان بارعـــا فى إخفـــاء دبيبه إلى المعنى حتى يجعل من يطلع عليه يحكم له بالسبق إليـــه . وذكـــر بعض وسائل إخفاء الشاعر المعنى الذى أخذه عن غيره ، وهـــى وســـائل ذكرها قبله القاضى الجرجانى فى الوساطة . فذكر أن أحد وسائل إخفـــاء السرق أن يأخذ المعنى من نظم فيورده فى نثر ، أو من نثر فيورده فى نظم، أو ينقل المعنى المستعمل فى صفة خمر فيجعله فى مديح ، أو فى مديح فينقلـه إلى وصف . ومثل لذلك بعدة أمثلة منها قول أبى نواس :

أعطتكَ ريحانَها العُقـــارُ   وحـــان من ليلكَ انسِفَارُ

فهذا المعنى أخذه من قول الأعشى :

---

١ – الصناعتين : ١٩٧ .
٢ – الصناعتين : ١٩٧ .
٣ – الصناعتين : ١٩٧

وسبيئةٍ مما تعتّقُ بابـــلٌ　　　كدم الذبيحِ سلبتُها جريَالَها

ولكن أبا نواس أخفاه غاية الإخفاء فظن أنه مبتدع له [١] .

ثم تحدث أبو هلال عن مظاهر حسن الأخذ من إخفاء المعـــنى ، أو الزيادة عليه ، أو نقله إلى صفة أخرى ، أو قسمه تقسيما حسنا ، إلى غـير ذلك من وسائل إخفاء المعنى المأخوذ ممثلا لكل بالأمثلة الشعرية [٢] .

أما قبح الأخذ أو مستهجن السرقة فهو أن يعمد الآخذ إلى المعـــنى فيتناوله بلفظه كله أو أكثره ، أو يخرجه فى معرض مستهجن . وجعل مـن ذلك قول امرئ القيس :

وقوفاً بها صحبى علىَّ مطيهم　　　يقولون لا تهلك أسىً وتجمَّلِ

وقول طرفة :

وقوفاً بها صحبى علىَّ مطيهم　　　يقولون لا تهلك أسى وتجلَّدِ [٣]

وهذا نظير ما أطلق عليه ابن الأثير وقوع الحافر على الحافر .

وأشار أبو هلال إلى ضرب آخر من الأخذ المستهجن وهـــو " أن يـــأخذ المعنى فيفسده أو يعوضه ، أو يخرجه فى معرض قبيح وكسوة مسترذلة [٤] ".

ومنه قول أبى كريمة :

قفاهُ وجهٌ ثم وجـــهُ الذى　　　قفـــاهُ وجهٌ يشبهُ البدرا

---

١ - انظر الصناعتين : ١٩٨ .
٢ - اقرأ الصناعتين : ١٩٨ : ٢١٤ ، ومن صـ ٢١٩ ، ٢٢٨ .
٣ - انظر الصناعتين : ٢٢٩ .
٤ - الصناعتين ٢٣١ .

فقد أخذه من قول أبي نواس :

بأبي أنتَ من مليحٍ بديـــــع ٍ   بذَّ حسنَ الوجوهِ حسنُ قفاكا

وذكر أبو هلال لقبح الأخذ أمثلـــة عديـــدة لمـــن أراد أن يطلـــع عليها[1] وهكذا قصر أبو هلال السرقة على الألفاظ دون المعنى ، واحتـــج لذلك بأن المعانى مباحة للجميع ، والجيد من أجاد فى التعبير عنها .

- كما تحدث ابن رشيق القيروانى عن السرقات الأدبيـة ، ورأى - كما رأى القاضى الجرجانى - أن هذا الباب لا يفطن إليـــه إلا جـــهابذة الكلام ومن بلغ درجة عالية فى نقد الشعر . كما ردد كلام الآمدى فى أن السرق إنما هو فى البديع المخترع الذى يختص به الشاعر ، لا فى المعـــانى المشتركة التى هى جارية فى عاداتهم ومستعملة فى أمثالهم ومحاوراتهم ...[2]

كما ذكر ما ذكره أبو هلال العسكرى عن بعض المتـــأخرين أن : " من أخذ معنى بلفظه كما هو كان له سارقا ، فإن غير بعض اللفظ كـــان سالخا، فإن غير بعض المعنى ليخفيه ، أو قلبه عن وجه كان ذلـــك دليـــل حذقه[3]" .

وأخرج ابن رشيق اشتراك الشاعرين فى اللفظ المتعارف بين النـــاس

---

١ - انظر الصناعتين : صـــ ٢٣٢ وما بعدها .
٢ - انظر العمدة : ٢ / ٢٨٠ ، ٢٨١ .
٣ - العمدة : ٢/ ٢٨١ .

من السرقة ، كما ذهب إلى ذلك الآمدى والقاضى الجرجانى[١].

وقد شغل ابن رشيق نفسه - كما فعل بعده ابن الأثير - ببيان أنواع السرقة وأطلق على كل نوع منها مصطلحا خاصا غير مصطلحات ابن الأثير . فجعل من أنواع السرقة : الاصطراف . وهو " أن يعجب الشاعر ببيت من الشعر فيصرفه إلى نفسه . فإن صرفه إليه على جهة المثل فهو اختلاب واستلحاق. وإن ادعاه جملة فهو انتحال ... وإن كان الشعر لشاعر أخذ منه غلبة فتلك الإغارة والغصب ... فإن أخذه هبة فتلك المرافدة ، ويقال : الاسترفاد . فإن كانت السرقة فيما دون البيت فذلك هو الاهتدام ، ويسمى أيضا النسخ ، فإن تساوى المعنيان دون اللفظ وخفى الأخذ فتلك النظر والملاحظة ، وكذلك إن تضادا ودل أحدهما على الآخر، ومنهم من يجعل هذا هو الإلمام . فإن حول المعنى من نسيب إلى مدح فذلك الاختلاس ، ويسمى أيضا نقل المعنى . فإن أخذ بنية الكلام فقط فتلك الموازنة . فإن جعل مكان كل لفظة ضدها فذلك هو العكس . فإن صح أن الشاعر لم يسمع بقول الآخر - وكانا فى عصر واحد- فتلك المواردة . وإن ألف البيت من أبيات قد ركب بعضها من بعض فذلك هو الالتقاط والتلفيق ، وبعضهم يسميه الاجتذاب والتركيب. ومن هذا الباب كشف المعنى، والمحدود من الشعر ، وسوء الاتباع ، وتقصير الأخذ عن المأخوذ منه "[٢] . وأتبع ذلك بالوقوف مع

---

١ - انظر العمدة : ٢ / ٢٩٣ .

٢ - العمدة : ٢ / ٢٨١ ، ٢٨٢ .

كل نوع من هذه الأنواع وضرب الأمثلة الموضحة له .

ومعظم تلك الأنواع التى ذكرها ابن رشيق للسرقة قد وردت فى كتاب المثل السائر لابن الأثير مع الاختلاف فى التسمية .

ـ وتوقف عبد القاهر الجرجانى مع قضية السرقات الأدبية وقفة طويلة متأنية فى كتابيه (دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة) . وقد استفاد عبد القاهر فى حديثه عن هذه القضية من أفكار السابقين عليه وتنبه إلى أخطائهم ففندها وأبان عن شينها ، كما وقف على الصواب من أقوالهم فامتدحه وأخذ به وأضاف إليه من عنده بما أوضحه وجمله . وكان يعجب بالجاحظ وبالقاضى الجرجانى كثيرا ، ومن ثم كان كثير النقل عنهما ، وكان مؤمنا بذوقهما ولكن ذلك لم يؤثر على استقلاله وطريقته فى الفهم والتصور[1].

وقد أورد جملة من الشعر الذى قال فيه الشاعران فى معنى واحد وقسمه قسمين : " قسم أنت ترى أحد الشاعرين فيه قد أتى بالمعنى ساذجا ، وترى الآخر قد أخرجه فى صورة تروق وتعجب . وقسم أنت ترى كل واحد من الشاعرين قد صنع فى المعنى وصور "[2]. وذكر لكل من القسمين العديد من الأمثلة الموضحة [3] .

---

١ - انظر الفكر النقدى فى تراث عبد القاهر الجرجانى - صـ ٢٣٤ .

٢ - دلائل الإعجاز : ٢٨٩ .

٣ - انظر دلائل الإعجاز : ٢٨٩ وما بعدها .

وجعل عبد القاهر العبرة والمقياس فى الأخذ والسرقة الصورة التى تحدث فى المعنى وليس فى المعنى نفسه . فالمعنى عنده حق مشاع لكل أحد. أما تناوله وتوليده وصياغته وتصويره فملك خاص لا ينتحله أحد ولا يدعيه إنسان إلا عن طريق الأخذ والسرقة . فالصورة هى مناط الفصل والمفاضلة والتباين بين المعنى الواحد ممثلا فى صور مختلفة . ومثل الصورة فى ذلك مثل " الشيئين يجمعهما جنس واحد ثم يفترقان بخواص ومزايا وصفات ، كالخاتم والخاتم ، والشنف والشنف ، والسوار والسوار ، وسائر أصناف الحلى التى يجمعها جنس واحد ، ثم يكون بينهما الاختلاف الشديد فى الصنعة والعمل "[1] .

فعبد القاهر يذهب إلى أن المعول عليه فى الحكم على الشاعر المتأخر بالأخذ أو السرقة إنما هو المعنى الذى جعله الشاعر محسوسا فى صورة ، ولا يشترط أن يكون المعنى فى أحد البيتين على هيئته وصفته فى البيت الآخر حتى يحكم عليه بالأخذ أو السرقة . يقول عبد القاهر فى ذلك :

" واعلم أنه لو كان المعنى فى أحد البيتين يكون على هيئته وصفته فى البيت الآخر ، وكان التالى من الشاعرين يجيئك به معادا على وجهه لم يحدث فيه شيئا ولم يغير له صفة لكان قول العلماء فى شاعر : " إنه أخذ المعنى من صاحبه فأحسن وأجاد " . وفى آخر : " إنه أساء وقصر " لغوا من القول من حيث كان محالا أن يحسن أو يسىء فى شيء لا يصنع به

---

١ - دلائل الإعجاز : ٥٠٧ .

شيئا . وكذلك كان يكون جعلهم البيت نظيرا للبيت ومناسبا له خطأ منهم لأنه محال أن يناسب الشيء نفسه ، وأن يكون نظيرا لنفسه . وأمر ثالث وهو أنهم يقولون فى واحد " إنه أخذ المعنى فظهر أخذه " . وفى آخر: " إنه أخذه فأخفى أخذه " . ولو كان المعنى يكون معادا على صورته وهيئته وكان الآخذ له من صاحبه لا يصنع شيئا غير أن يبدل لفظا مكان لفظ لكان الإخفاء فيه محالا ؛ لأن اللفظ لا يخفى المعنى ، وإنما يخفيه إخراجه فى صورة غير التى كان عليها [1] " .

وتطرق عبد القاهر إلى الاحتذاء وعرفه فقال : " واعلم أن الاحتذاء عند الشعراء وتقديره وتمييزه أن يبتدئ الشاعر فى معنى له وغرض أسلوبا – والأسلوب : الضرب من النظم والطريقة فيه – فيعمد شاعر آخر إلى ذلك الأسلوب فيجئ به فى شعره ، فيشبه بمن يقطع من أديمه نعلا على مثال نعل قد قطعها صاحبها ، فيقال : قد احتذى على مثاله [2] " . ومثل له بقول الفرزدق :

أترجُو ربيعٌ أن تجئَ صغارُها ... بخيرٍ وقد أعيا ربيعًا كبارُها

فقد احتذاه البعيث فقال :

أترجو كليبٌ أن يجئ حديثُها ... بخيرٍ وقد أعليا كليباً قديمُها

وبغيره من الأمثلة [3] .

---

١ – دلائل الإعجاز : ٥٠٩ .
٢ – دلائل الإعجاز : ٤٦٨ .
٣ – انظر دلائل الإعجاز : ٤٦٩ .

واستطاع عبد القاهر الجرجانى ببصيرته النافذة وعقلـه المحكـم أن يقول كلمته فى قضية الأخذ والسرقات الشعرية . فأوضح معنى الأخـذ والإفادة والترقى والزيادة والتفاضل والتباين . فـالأخذ لا يكـون فى الغرض ، ولا فى عموم الغرض ، ولا فيما اشترك الناس فى معرفته ، وكان مستقرا فى العقول والعادات بما يسمونه وجه الدلالة علـى الغـرض[١]. " لأن هذا مما لا يختص بمعرفته قوم دون قوم ولا يحتاج فى العلـم بـه إلى روية واستنباط وتدبر وتأمل ، . وإنما هو فى حكم الغرائـز المركـوزة فى النفوس ، والقضايا التى وضع العلم بها فى القلوب [٢] " .

وعلى هذا المنوال أخذ عبد القاهر الجرجانى فى توضيح هذه القضيـة فبين متى يكون صاحب المعنى والصورة آخذاً وسارقا ، ومتى يكون بعيـدا عن الأخذ والسرقة [٣] . ويتضح من كلامه أنه لا يحكم بالسـرق الأدبى إلا فيما ينقل بصريح معناه من غير تحوير أو إضافة أو تعديل . وقد عـبر هو عن ذلك فقال : " اعلم أن الحكم على الشاعر بأنه أخذ مـن غـيره وسرق واقتدى بمن تقدم وسبق لا يخلو من أن يكون فى المعنى صريحـا ، أو فى صيغة تتعلق بالعبارة [٤] " .

ومن الملاحظ أن هذه القضية – وإن كانت قد شغلت حيزا كبـيرا

---

١ – انظر : أسرار البلاغة ٢ / ٢١١ وما بعدها .
٢ – انظر أسرار البلاغة ٢ / ٢١٣ .
٣ – انظر أسرار البلاغة ٢ / ٢١٣ وما بعدها . ودلائل الإعجاز ٤٦٨ وما بعدها .
٤ – أسرار البلاغة ٢ / ١٣٧ .

فى كتابى عبد القاهر إلا أنه لم يشغل باله بالتقاسيم والتعريفات المتعلقة بهذه القضية وبيان أنواعها كما فعل ابن الأثير بعده .

هذا وهناك كثير من النقاد غير من ذكرت تناولوا هـــذه القضيـــة وتوقفوا معها ، ومنهم العميدى فى كتابه (الإبانة عن سرقات المتنـــبى) ، وابن طباطبا فى كتابه (عيار الشعر) ، والحاتمى فى (الرسالة الحاتميـــة) ، وأسامة بن منقذ فى كتابه (البديع فى نقد الشعر) ، وابن وكيع التنيســى فى كتابه (المنصف فى الدلالات على سرقات المتنبى) ، وغيرهم.ولكـــنى اكتفيت بهذا العرض السريع عند من تحدثت عنهم خوف الإطالة .

الفصل الرابع

نقد ابن الأثير للشعراء

وجه ابن الأثير نقده للعديد من الشعراء فى العصور الأدبية المختلفة وأبدى رأيه فى كثير من أشعارهم . ولصعوبة حصر الشعراء الذين وجه إليهم ابن الأثير فى المثل السائر ملاحظاته النقدية ، وحتى أتحاشى التطويل الزائد عن الحد فقد رأيت أن أختار فى هذا الفصل أبرز الشعراء الذين توقف ابن الأثير مع شعرهم أكثر من وقوفه مع غيرهم ، وأذكر شيئا من أشعارهم التى أبدى ابن الأثير وجهة نظره فيها . وسوف أرتبهم هنا على حسب عصورهم من الأقدم إلى الأحدث ، لا على حسب كثرة الأشعار التى عقب عليها ابن الأثير بنقده لها .

وكان الشعراء الثلاثة الذين جعلهم ابن الأثير أشعر من غيرهم – وهم أبو تمام والبحترى والمتنبى – أكثر نصيبا من نقدات ابن الأثير ومن ملحوظاته حول أشعارهم . وسوف أذكر لهم كما من الأبيات التى توقف معها ابن الأثير ضمن من وقع عليهم اختيارى للحديث عن بعض أشعارهم فى هذا الفصل .

أولا : نقد ابن الأثير لامرئ القيس :

تعرض ابن الأثير لنقد امرئ القيس قليلا . فتوقف مع قليل من أبياته معلقا عليها ناقدا لها . وقد ردد المقولة التى تقول بأن امرأ القيس

أول من قصد القصيد ، وكان الشعر قبله أبياتا مبعثرة يقولها الرجـــل فى حادثة من الحوادث ، كما أنه أول من قيد الأوابد . وهى مقولة قال بهـا الكثيرون من النقاد قبل ابن الأثير [١] . وإن كان ابـن سـلام يـرى أن المهلهل بن ربيعة قد سبق امرأ القيس فى تقصيد القصائد وذكر الوقائع[٢]. وذكر ابن الأثير أنه لو لم يكن لامرئ القيس من الفضيلة غير أنه أول مـن قصد القصائد لكان فى ذلك كفاية . وكان ذلك قبل الإسلام بمائة سـنة زائدا فناقصا . ثم تتابع المقصدون بعد امرئ القيـس ، وانفتـح بذلـك للشعراء باب القصيدة ، وكثرت المعانى . ولم يزل الأمر ينمـى ويزيـد ويؤتى بالمعانى حتى عهد الدولة العباسية [٣] .

ومن أبيات امرئ القيس التى توقف معها ابن الأثير قوله [٤] :

فلو أنَّ ما أَسْعَى لأدنى معيشةٍ كفانى - ولم أطلبْ - قليلٌ من المال
ولكنَّمـا أسعَى لمجدٍ مؤثَّلٍ وقـد يُـدرك المجدَ المؤثَّلَ أمثالى

فقد امتدح ابن الأثير الاعتراض فى البيت الأول . فقـد اعـترض إمرؤ القيس بجملة : (ولم أطلب) بين الفعل والفاعل . وتقدير الكـلام : كفانى قليل من المال . ولهذا الاعتراض - فى رأى ابن الأثير - فـائدة فى

---

١ - انظر : طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجحمى - ص ٤٢ ، والعمدة لابن رشيق ١ / ٩٤ ، ١٨٩ ، سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى ٢١٩ .

٢ - طبقات فحول الشعراء ٣٨ ،

٣ - انظر : المثل السائر ٢ / ٣٤٢ .

٤ - ديوان امرئ القيس - تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم - دار المعـارف - ط ٤ ص ٣٩ .

المعنى وهى تحقير المعيشة الدنيا ، وأنها تحصل بغير طلب ولا عناء ، وإنما الذى يحتاج إلى الطلب هو المجد المؤثل [١] . كما أكدت هذه الجملة عدم سعى الشاعر لهذه المعيشة بل عدم اقتناعه بها بالمرة فبعد أن عبر الشاعر بالشطر الأول من البيت أنه لا يسعى لأدنى معيشة أكد بهذه الجملة الاعتراضية أنه لا يطلبها لأنها لا تطلب ولا تستحق العناء والتعب فى تحصيلها.

- وعاب ابن الأثير على امرئ القيس استعماله لألفاظ قبيحة الاستعمال بسبب تأليفها من حروف يثقل النطق بها مجتمعة، كلفظة (مستشزرات) فى قوله [٢] :

غدائرُه مستشزِرَاتٌ إلى العُلا   تضلُّ المدارَى فى مثنىً ومرسَلِ

فهذه الكلمة مما يقبح استعمالها لثقلها على اللسان وعسر النطق بها مجتمعةً بدليل أننا لو قلنا (مستنكرات) أو (مستنفرات) على وزن (مستشزرات) لما كان فى هاتين اللفظتين ثقل ولا كراهة . كما أننا لو حذفنا من هذه الكلمة الألف والتاء وقلنا (مستشرز) لكان ذلك ثقيلا أيضا . وسبب ذلك أن الشين قبلها تاء وبعدها زاى فثقل النطق بها . ولو جعلنا عوضا عن الزاى راء ، وعن الراء فاء فقلت (مستشرف) لزال ذلك الثقل [٣] .

---

١ - انظر المثل السائر ٢ / ١٧٥.
٢ - ديوان امرئ القيس ١٧.
٣ - المثل السائر ١ / ١٩٢ .

وكلام ابن الأثير حول هذا البيت لا يختلف عن غيره من علماء البلاغة وهم يتحدثون عن العيوب المخلة بفصاحة الكلمة .

ثانيا : نقد ابن الأثير للفرزدق :

تعرض ابن الأثير لنقد عدد كبير من أبيات شعر الفرزدق . وعقب على كل منها بما يبين وجهة نظره فيها . وهذه وقفة مع بعض الأبيات التى توقف معها ابن الأثير :

- تحدث ابن الأثير عن وقوع الفرزدق فى التعقيد والمعاظلة كثيرا إلى حد يوحى بأنه يقصد ذلك ويتعمده ؛ لأن مثل ما جاء به الفرزدق فى ذلك لا يجئ إلا متكلفا مقصودا . وإلا فإذا ترك مؤلف الكلام نفسه على طبيعتها وسجيتها لم يعرض له شئ من هذا التعقيد . وهذا الذى يأتى به الفرزدق وغيره من التعقيد هو شئ ضد الفصاحة - كما يقول ابن الأثير- لأن المقصود من الكلام هو الظهور والإيضاح والبيان ، وهو ما تعنيه الفصاحة . وهذا معدوم فى هذا الضرب من الكلام . وإذا ذهب هذا المعنى المقصود من الكلام ذهب المراد به . ومن أمثلة التعقيد فى شعر الفرزدق والتى مثل بها ابن الأثير قوله [1] :

إلى ملكٍ ما أمُّه من محاربٍ ... أبوهُ ولا كانت كليبٌ تصاهرُه

فالشاعر يريد أن يقول : إلى ملك أبوه ما أمه من محارب ، ولا

---

١ - ديوان الفرزدق - تحقيق كرم البستانى - دار صادر - بيروت - ١ / ٢٥٠ .

كانت كليب تصاهره . وقد أدى التقديم والتأخير فى البيت إلى تداخل معانيه وركوب بعضها بعضا [١] .

ومنها قوله [٢] :

وليست خراسانُ التى كان خالدٌ　　　بها أسد إذ كان سيفا أميرها

والشاعر فى هذا البيت يمدح خالد بن عبد الله القسرى والى خراسان ويهجو أسدا ، وكان أسد وليها بعد خالد . وهو يريد أن يقول: وليست خراسان بالبلدة التى كان خالد بها سيفا ؛ إذ كان أسد أميرها . وعلى هذا فالبيت به تقديم وتأخير أدى إلى اختلال المعنى وعدم وضوحه . ففى (كان) الثانية ضمير الشأن ، والجملة بعدها خبر عنها . وقد قدم بعض ما (إذا) مضاف إليه وهو (أسد) عليها . وفى تقديم المضاف إليه أو شيء منه على المضاف من القبح مالا خفاء به . وأيضا فإن (أسد) أحد جزأى الجملة المفسرة للضمير ، والضمير لا يكون تفسيره إلا من بعده . ولو تقدم تفسيره عليه لما احتاج إلى تفسير [٣] .

ومن هذا القبيل قول الفرزدق فى مدح إبراهيم المخزومى خال هشام بن عبد الملك [٤] :

وما مثلُه فى الناسِ إلا مُملَّكًا　　　أبو أمِهِ حىٌّ أبوه يقاربُه

١ - انظر المثل السائر ٢ / ٤١ .
٢ - لم اعثر على هذا البيت بديوان الفرزدق .
٣ - انظر المثل السائر ٢ / ٤٢ .
٤ - لم أعثر على هذا البيت بديوان الفرزدق . ط دار صادر

وترتيب هذا البيت على النظم الصحيح : (وما مثله فى الناس حى يقاربه إلا مملكا أبو أمه أبوه) . وقد جاء المعنى فى البيت مشوها كما ترى لشدة اختلال ترتيب كلمات البيت . فالضمير فى (مثله) يعود على إبراهيم الممدوح ، والضمير فى (أمه) يعود على (مملكا) وهو هشام ، والضمير فى (أبوه) يعود على إبراهيم . وعلى ذلك فقد فصل الشاعر بين (أبو أمه) وهو مبتدأ ، وبين (أبوه) وهو الخبر (يحى) وهو أجنبى ، وفصل بين (حى) وهو موصوف وبين (يقاربه) وهو صفة له . وقدم المستثنى وهو (مملكا) على المستثنى منه وهو (حى) ، ولهذا نصب (مملكا). لأن علماء النحو يوجبون نصب المستثنى إذا تقدم على المستثنى منه فى الاستثناء المنفى [1] .

واتصفت هذه الأبيات بالتعقيد أو بالمعاظلة كما يسميها ابن الأثير وإن كان التعقيد فيها من نوع التعقيد اللفظى الناتج عن كثرة ما بكل منها من تقديم وتأخير ، وفصل بين الأجزاء التى يجب أن تتصل ببعضها وليست من المعاظلة المعنوية كما يقول ابن الأثير ، إلا إذا كان مراده أن يقول إن المعاظلة فى الألفاظ أدت إلى المعاظله فى المعنى وخفائه وعدم وضوحه .

وهذه الأمثلة التى مثل بها ابن الأثير للمعاظلة فى شعر الفرزدق قد ذكرها كثير من البلاغيين قبله فى حديثهم عن الفصاحة والبلاغة وما يخل بهما .

---

١ - انظر المثل السائر ٢ / ٤٢

- وعاب ابن الأثير على الفرزدق استعماله لبعض الألفاظ المبتذلة عند العامة ، كاستعماله للفظة (مندف) في قوله [١] :

وأصبحَ مبيضُّ الضريبِ كأنّه　　　على سرواتِ النيبِ قطنٌ مندَّفُ

فلفظة (مندف) من الألفاظ العامية التي ينبغي على الناظم تجنب استعمالها [٢] . وابن الأثير يشترط لفصاحة الكلمة وحسنها ألا تكون من الألفاظ التي ابتذلها العامة [٣] . وقد سبق الحديث عن ذلك في الفصل الثاني من هذا البحث .

- وأعجب ابن الأثير ببيت الفرزدق يهجو جريرا [٤] :

ما ضرَّ تغلبَ وائلٍ أهجوتَها　　　أم بلتَ حيثُ تناطحَ البحرانِ

وذكر أن هذا البيت من الأبيات التي أقر الناس لها بالحسن لما فيه من جودة التشبيه ؛ فقد شبه هجاء جرير تغلب وائل ببوله في مجمع البحرين . فكما أن البول في مجمع البحرين لا يؤثر شيئا فكذلك هجاء جرير لهؤلاء القوم لا يؤثر فيهم شيئا [٥] .

وإن كنت أرى الفرزدق هنا أساء اختيار المشبه به وكان يمكنه أن

---

١ - ديوان الفرزدق ٢ / ٢٨ ونص الشطر الأول في الديوان : وأصبح موضوع الصقيع كأنه ......

٢ - المثل السائر ١ / ١٨٧.

٣ - انظر المثل السائر ١ / ١٨٣ وما بعدها .

٤ - ديوان الفرزدق ٢ / ٣٤٤.

٥ - المثل السائر ١ / ٣٧٦.

يعبر عن المراد باختيار مشبه به غير عملية التبول فى مجمع البحرين . فهذا مما تنفر منه النفس السوية ون كان التشبيه نفسه مصيبا .

- وعاب ابن الأثير على الفرزدق قوله [١] :

لقد خنتَ قوماً لو لجأتَ إليهمُ   طريدَ دم أو حاملاً ثقلَ مغرمِ
لألفيتَ منهم معطيًا أو مطاعِنًا   وراءكَ شزرًا بالوشيجِ المقوَّمِ

لأنه أصاب فى التفسير وأخطأفى الترتيب . وذلك لأنه أتى بتفسير ما هو أول فى البيت الأول (طريد دم) ثانيا فى البيت الثانى (مطاعنا) . وكان الأحسن أن يأتى بتفسير ذلك مرتبا ، فيفسر ما هو أول فى البيت الأول بما هو ثان فى البيت الثانى [٢].

وأعتقد أن قصد ابن الأثير أن الأولى أن يقدم تفسير ما هو أول فى البيت الأول بما هو ثان فى البيت الثانى ، ويؤخر تفسير ما هو ثان فى البيت الأول بما هو أول فى البيت الثانى . أى كان ينبغى أن يقول : لألفيت منهم مطاعنا وراءك شزرا بالوشيج المقوم أو معطيا.وقد ذكر ابن سنان الخفاجى أن هذا من التفسير الموافق [٣] .

وأنا أرى أن للوزن والقافية دخل فى مثل هذا الترتيب . فيعذر الشاعر ولا يعاب بذلك لاضطرار الوزن والقافية إياه على ارتكاب مثل

---

١ - ديوان الفرزدق ٢ / ١٨٧ ونص الشطر الثانى فى الديوان : لألفيت فيهم مطعما ومطاعنا .
٢ - انظر المثل السائر ٢ / ٢٩٦ .
٣ - سر الفصاحة ٢٥٥ .

هذا . وقد نبه ابن الأثير فعلا على " أن الناظم لا ينكر عليه مثل هذا مـــا ينكر على الناثر ؛ لأن الناظم يضطره الوزن والقافية إلى ترك الأولى [١] ".

- وعاب ابن الأثير بيتى الفرزدق فى الغزل [٢] :

أَلَا ليتَنَـــا كنَّا بعيرين لا نَرِدٌ على منهـــلٍ إلا نُشَلُّ ونقذَفُ
كلانا به عَــــرٌّ يُخافُ قرافُــه على الناس مطليِّ المساعرِ أخشَفُ [٣]

لأنه أفرط فى تمنيه حين أراد الاحتفاظ بالمحبوبة . وعلق عليهما ابـــن الأثير فقال : هذا رجل ذهب عقله حين نظم هذين البيتين . وقد قصـــر تمنيه على أن يكون هو ومحبوبته كبعيرين أجربين لا يقربهمـــا أحـــد ، ولا يقربان أحدا إلا طردهما . وهذا من الأماني السخيفة . وله فى غير هـــذه الأمنية مندوحات كثيرة [٤] .

حقا : إن هذا لمن الأماني السخيفة . وحين يتمنى الشاعر لمحبوبتـــه ولنفسه مثل هذه الأمنية فإنما يدل هذا عل قلة ذوقه معها . وقد تبع كثـير عزة الفرزدق فى هذه الأمنية فقال [٥] :

---

١ - المثل السائر ١ / ٢٩٦.
٢ - ديوان الفرزدق ٢ / ٢٥ .
٣ - المنهل : الماء . وروى ابن الأثير البيت بلفظ (على حاضر) وهو نفس المراد . نشـل : نطرد . نقذف : نرمى بالحجارة . العر : الجرب . يخاف قرافه : يتقى خوفا مـــن العدوى . المساعر : أصول الفخذين والأبطين . أخشف : يابس الجلد من الجرب .
٤ - المثل السائر ٢ / ٣٠١.
٥ - ديوان كثير عزة - شرح قدرى مايو - دار الجيل - بـيروت - ط ١ - ١٩٩٥ م ص ٥٨ .

ألَا ليتنــــا ياعزّ كنا لذى غِـنىً   بعيرين نرْعى فى الـخَلاء ونعزُبُ
كِلا نابــــه عرٌ فمَن يرنا يقُــلْ   على حسنِها جرباءُ تعدِى وأجرَبُ
إذا ما وردْنـــا منهَلاً صاح أهلُه   علينا فما ننفك نُرْمَــى ونضرَبُ

وبون بعيد بين هذه الأمنية وبين أمنية الشاعر الآخر فى قوله :

يــــاربِّ إن قدرتَــــه لمقبِل   غيرى فللأقـــداحِ أو للأكؤُسِ
وإذا حكمتَ لنا بعيــن مــراقبٍ   فى الدهر فلتكُ من عيونِ النرجسِ [1]

- وجعل ابن الأثير التشبيه فى قول الفرزدق [2] :

يمشُون فى حِلَقِ الحديدِ كما مشَتْ   جربُ الجمالِ بها الكحيلُ المشعلُ

من التشبيه البعيد ؛ لأنه شبه الرجال فى دروع الزرد بالجمال الجرب ، ولا مقاربة بين طرفى التشبيه حيث أراد الشاعر الجمع بينهما فى اللون الأسود وهما لا مقاربة بينهما فى هذا اللون لأن لون الحديد أبيض . ومن أجل ذلك سميت السيوف بالبيض . وذكر ابن الأثير أن هذا التشبيه مع كونه بعيدا فإنه تشبيه سخيف [3] .

وحقا ما قاله ابن الأثير عن التشبيه فى هذا البيت ؛ فبجانب اختلاف طرفى التشبيه فى لونيهما فإن الشاعر اختار لهؤلاء الرجال الشجعان مشبها به سخيفا تشمئز منه النفوس ، وبالتالى لا يليق بهؤلاء الرجال .

---

١ - المثل السائر ٢ / ٣٠١ .
٢ - ديوان الفرزدق ٢ / ١٥٥ .
٣ - المثل السائر ١ / ٤٠١ .

هذا بعض ما توقف معه ابن الأثير من أشعار الفرزدق .

ثالثا : نقد ابن الأثير لأبى نواس :

مثل ابن الأثير بكثير من أبيات شعر أبى نواس ، وتوقف مع كثير من أبياته ناقدا ومعبرا عن إعجابه به فى بعض الأحيان ، ومعيبا إياه ومبينا خطأه فى أحيان أخرى . وفيما يلى نماذج من شعر أبى نواس التى توقف معها ابن الأثير :

- جعل ابن الأثير شعر أبى نواس عامة كشعر أبى العتاهية كالماء الجارى رقة ألفاظ ، ولطافة سبك ، بعيدا عن الركاكة والضعف ، وأنه قدم بهذا على شعراء عصره رغم ما امتلأ به من فحول الشعراء .

وقد عرف أبو نواس بكثرة مجالسه الأدبية التى يطارح فيها رفاقه من الشعراء ، ويتبارى معهم فى قول الشعر . ونقل ابن الأثير أحد مجالسه فى هذا الصدد فقال :

" ويحكى أن أبا نواس جلس يوما إلى بعض التجار ببغداد هو وجماعة من الشعراء فاستسقى ماء . فلما شرب قال :

عذُبَ الماءُ وطابا

ثم قال : أجيزوه . فأخذ أولئك الشعراء يترددون فى إجازته . وإذا هم بأبى العتاهية فقال : ما شأنكم مجتمعين ؟ فقالوا : هو كيت وكيت . وقد قال أبو نواس :

عذُبَ الماءُ وطابا

فقال أبو العتاهية :

حبذا الماءُ شَرابا

فعجبوا لقوله على الفور من غير تلبث [١] " .

- وأعجب ابن الأثير بوصف أبي نواس للخمر بأنها بكر لم تنكح .

وافتخر ابن الأثير بمماثلته هو بين الخمر والبكر في بعض نثره فقال : " الخمر كالعذراء في نفورها وملازمة خدورها . ولهذا تشمئز من نكاح المزاج ، وتصخب لمس الماء صخب الأبكار لمس الأزواج . ومن شأنها أن تلبس عند الزفاف إكليلا على رأسها ، وكذلك شأن العرائس عند زفافها إلى أعراسها [٢] " .

وذكر ابن الأثير أن هذه المماثلة بين الخمر والفتاة البكر على النسق الذى جاء به لم يأت بها أحد غيره ، وإنما وصفت بأنها بكر في قول أبي نواس [٣] :

فقلتُ لشيخٍ منهمُ متكلِّمٌ ... له دينُ قسيسٍ وفي نطقِهِ كفرُ
أعندكَ بكرٌ مرةُ الطعمِ قرقفٌ ... صنيعةُ دهقانٍ تراخَى له العمرُ
فقال عروسٌ كان كِسرى ربيبَها ... معتقةٌ من دونها البابُ والسترُ

- كما أعجب ابن الأثير بأبيات أبي نواس الآتية في وصف الخمر ،

---

١ - المثل السائر ١ / ١٧٩ .
٢ - المثل السائر ١ / ١٠٩ .
٣ - ديوان أبي نواس - دار صادر - بيروت - بدون تأريخ ص ٢٥٠ . ولم أجد البيت الأول بالديوان ووجدت الثاني بلفظ وأبرز بكرا ......

ولكن جاء إعجابه بها من ناحية فصاحة ألفاظها لا من ناحية معناها مخالفا بذلك كلا من الجاحظ وأبي العباس المبرد ، وغيرهما ممن تحدثوا عنها وهي قوله [١] :

تدارُ علينا الراحُ في عسجديةٍ	حَبَتْها بأنواع التصاوير فارسُ
قرارتُها كِسرى وفي جَنَبَاتها	مهًا تدريها بالقسيِّ الفوارسُ
فللرَّاحِ ما زُرَّتْ عليه جيوبُها	وللماءِ ما دارتْ عليه القلانسُ

فقد نقل ابن الأثير أن أبا العباس المبرد قال عن المعنى في هذه الأبيات : إنه معنى لم يسبق إليه بإجماع . كما قال عنها الجاحظ : ما زال الشعراء يتناقلون المعنى قديما وحديثا إلا هذا المعنى فإن أبا نواس انفرد بإبداعه . كما ذكر ابن الأثير أن العلماء أكثروا من وصف هذا المعنى فقالوا : إنه معنى مبتدع .

أما ابن الأثير فقد رأى أن فصاحة الأبيات هي الموصوفة وليس المعنى الذي تحمله لأنه لا كبير كلفة فيه ؛ لأن أبا نواس رأى كأسا من الذهب ذات تصاوير فحكاها في شعره . وذكر أن هذا من المعاني المشاهدة بالبصر ؛ فإن هذه الخمر لم تحمل إلا ماء يسيرا وكانت تستغرق صور هذا الكأس إلى مكان جيوبها ، وكان الماء فيها قليلا بقدر القلانس التي على رؤوسها [٢] .

---

١ - ديوان أبي نواس ٣٦١ .

٢ - المثل السائر - ١ / ٣٠٦ .

على أن هذه الأبيات وإن كانت المعانى فيها من المعـانى المشـاهدة بالبصر كما يقول ابن الأثير فإن لأبي نواس فضل الإبداع فى تصويرهـا وإبرازها ورسم جوانبها بألفاظه وكلماته التى أعجب بها ابن الأثير فضلا عن كونه لم يسبق إليها .

– وتعرض ابن الأثير لذكر أبي نواس ، ومثل بشيء من شـعره فى باب لزوم ما لا يلزم ، ونعت أبياته التى جاء بها فى هذا الباب بملاءمتـها للطبع وبعدها عن التكلف . ووصف ألفاظها بالسهولة واللطافة . هـذه الأبيات هى قوله فى الدعوة إلى عدم الوقوف على الأطـلال فى مقدمـة القصيدة ، واستبدال ذلك بوصف الخمر [١] :

اتـرك الأطلالَ لا تعبأْ بها	إنـها من كل بؤسٍ دانية
وانعـت الخمرَ على تحريمِها	إنـما دنْيـاك دارٌ فانية
من عقارٍ مَنْ رآها قـال لى	صيدَت الشمسُ لنا فى آنية

وقوله [٢] :

كم من غلامٍ ذى محاسين	أفسَدهُ ناطفُ ياسين

وعلق ابن الأثير على هذه الأبيات بقوله : " فانظر أيها المتأمل مـا أحلى لفظ أبي نواس فى لزومه ، وما أعراه عن الكلفة . وكـذا فلتكـن الألفاظ فى اللزوم وغيره [٣] " .

---

١ – ديوان أبي نواس – ٦٩٢ وفيه البيت الثانى بلفظ (واشرب الخمر ...)
٢ – لم أعثر على هذا البيت فى ديوان أبي نواس .
٣ – المثل السائر ١ / ٢٧٠ .

ورأى ابن الأثير فى هذه الأبيات حق وصواب . فالقارئ لها لا يحس بأى لون من ألوان القلق أو التكلف ، مع لزوم أبى نواس فيها بما لايلـزم . وهذا راجع إلى صدور الألفاظ فيها عن سهولة خاطر وسلاســة طبــع ، وقوة إيمانه بالقضية التى يدافع عنها .

– وامتدح ابن الأثير قول أبى نواس فى الحديث عن نفسه [1] :

ولقد نــهزتُ مع الغواة بدلوِهِمْ وأسمتُ سرحَ اللحظِ حيثُ أساموا
وبلغتُ ما بلـغَ امـرؤٌ بشـبابِهِ فإذا عصـارةُ كـلِّ ذاكَ آثـامُ

لما فيه من إبهام تذهب النفس فى تفسيره كل مذهب وذلك فى قوله فى البيت الثانى : (وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه [2]) . بجانب جمال المعـنى وروعته وتصوير نتيجة أفعاله فى الفترة التى أشار إليها من حياته بالعصارة فى البيت الثانى . فضلا عن الصورتين البارعتين فى البيت الأول ، والجناس الناقص بين القافية فى البيتين . وكل ذلك جعل البيتين من المليح النـادر كما يقول ابن الأثير .

– ومن حسن التخلص فى شعر أبى نواس تخلصه مـن الغـزل إلى المديح فى قوله من قصيدته فى مدح الخصيب والى مصر [3]:

تقولُ التى بيتها خفَّ مركَبى عـزيزٌ علينا أن نراكَ تسيرُ
أما دونَ مصرٍ للغنى متطلَّبٌ بلـى إن أسبابَ الغِنى لكثيرُ

---

١ – ديوان أبى نواس ٥٧٥ .
٢ – المثل السائر ٢ / ٢٧ .
٣ – ديوان أبى نواس ٣٢٨ .

فقلتُ لها واستعجلتْها بوادرٌ ... جرَتْ فجَرَى فى جريهِنّ عبيرُ
ذرِينى أكثِّرْ حاسديك برحلةٍ ... إلى بلــدٍ فيها الخصيبُ أميرُ

وهى فعلا من التخلص البديع كما يقول ابن الأثير وزيادة [١].

– وفى حديث ابن الأثير عن المؤاخاة بين المعانى ذكر أنه ينبغى على الشاعر أن يذكر المعنى مع أخيه لامع الأجنبى عنه . فإذا ذكر وصفا من الأوصاف ينبغى أن يقرنه بما يقرب منه ويلتئم به ، فإن قرنه بما هو بعيد عنه كان ذلك قدحا فى الصناعة وإن كان جائزا [٢] .

وفى هذا المجال ذكر أن أبا نواس أنشد كثيرا من أشعاره ولم يوفق فى المؤاخاة بين المعانى فيها . ومن ذلك قوله فى وصف الديك [٣] :

له اعتدالٌ وانتصــابُ قــدّ ... وجلــدُه يشبهُ وشيَ البُرُدْ
كأنه الهدّابُ فى القَــرَنْــدْ ... محدودبُ الظهرِ كريمُ الجد

فقد ذكر الظهر وقرنه بذكر الجد وهما لا يتناسبان ؛ لأن الظهر من جملة الخلق والجد من النسب . وكان الأولى أن يقرن ذكر الظهر بما يقرب منه ويؤاخيه [٤].

ومنها أيضا قوله [٥] :

---

١ – المثل السائر ٢ / ٢٤٦ .
٢ – انظر المثل السائر ٢ / ٢٧٦ .
٣ – ديوان أبى نواس ٢٣٥ والأشطر الأربعة جاءت على غير هذا الترتيب فى الديوان .
٤ – المثل السائر ٢ / ٢٧٧ .
٥ – ديوان أبى نواس ٨٠ .

وقـــد حلفتُ يـمينًا مـــبرورةً لا تُكَــذّبْ
بربِّ زمــزمَ والحـوْ ضِ والصَّفَا والـمحصَّبْ

فإن ذكر الحوض مع زمزم والصفاء والمحصب غير مناسب . وإنما يذكر الحوض مع الصراط والميزان وما جرى مجراها ، لأن ذلك كله من أمور الآخرة . وأما زمزم والصفا والمحصب فيذكر معها الركن والحطيم وما جرى مجراهما [1] من معالم البيت الحرام والأراضى المقدسة .

ومن ذلك أيضا قول أبى نواس [2] :

أحســنُ من منزلٍ بذى قارِ منـــزل خمَّــارةٍ وخمَّــارِ
وشمُّ ريــحانةٍ ونرجــسةٍ أحســنُ من أينقٍ بأكــوارِ

فالبيت الثانى لا مقارنة بين صدره وعجزه . فأين شم الريحان من الأينق بالأكوار ؟ كان ينبغى أنه يقرنه بما يلائمه فيقول مثلا : شم الريحان أحسن من شم الشيح والقيصوم ، وركوب الفتيات الرود أحسن من ركوب الأينق بالأكوار [3] ، حتى تتحقق المؤاخاة بين المعانى التى يتضمنها البيت .

ومثل هذا الخطأ يقع فيه الشعراء كثيرا فضلا عن غيرهم من الكتاب . وابن الأثير نفسه يعترف بأنه يقع فى ذلك فى بعض الأحيان ، وكان فى كثير من الأحيان يصلح ما يقع فيه .

١- المثل السائر ٢ / ٢٧٧ .
٢ - ديوان أبى نواس ٢٦٣ .
٣ - المثل السائر ٢ / ٢٧٨ .

- وفي حديث ابن الأثير عن المؤاخاة بين المبانى - وهو يعنى التناسب بين الألفاظ - ذكر أن أبا نواس وغيره قد خالفوا ذلك فى بعض ما أنشدوه من أشعار . ومما ورد فى ذلك من شعر أبى نواس قوله فى الخمر[1] :

صفراءُ مجـدَّها مَرازُبها ... جَلَّتْ عن النُّظَراءِ والمثْلِ

فقد جمع وأفرد فى معنى واحد فقال (النظراء) جمعا ، ثم قال : (والمثل) مفردا ، وكان الأحسن أن يقول : النظير والمثل أو النظراء والأمثال[2] . ومن ذلك أيضا قوله [3] :

أَلَا يا ابنَ الذين فنوا فماتُوا ... أَمَا والله ما ماتُوا لتبقَى
ومالكَ فاعلمَنْ فيها مقامٌ ... إذا استكملتَ آجالاً ورزقا

فقد قال : (آجالا ورزقا) ، وكان ينبغى أن يقول : (أرزاقا) ، أو أن يقول أجلا وأرزاقا . وقد زاده خطأ أن جمع الأجل فقال : (آجالا) وليس للإنسان غير أجل واحد . ولو قال : أجلا وأرزاقا لما عيب ؛ لأن الأجل واحد والأرزاق كثيرة [4] .

ومما يشفع لأبى نواس وغيره ويخفف من الإنكار عليهم فى هذا الباب هو وجود نظير ذلك فى القرآن الكريم . ومنها تلك الآيات التى

---

١ - ديوان أبا نواس ٤٨٤ .
٢ - انظر المثل السائر ٢ / ٢٧٩ .
٣ - لم أعثر على هذين البيتين فى الديوان .
٤ - انظر المثل السائر ٢ / ٢٨٠ .

ذكرها ابن الأثير نفسه . من مثل قوله - تعالى - : " أَوَ لَمْ يروْا إلى مَـــا خلق اللهُ مـــن شـــئٍ يتفيَّـأُ ظلالُـه عـــن اليمـــينِ والشـــمائِل [١] " . وقوله - تعالى-: " أولئكَ الذين طبعَ اللهُ على قلوبِهِمْ وسمعِهِمْ وأبصـــارِهِمْ وأولئكَ هم الغافلُون [٢] " . وقوله - تعالى - : " حتى إذا مَـــا جاءُوهـــا شهدَ عليهِمْ سمعُهُم وأبصارُهُم وجلودُهُم بما كانوا يعمَلُـــون [٣] " . فقـــد أفرد اليمين وجمع الشمال فى الآية الأولى ؛ ولو كان الأحسن لزوم البنـــاء اللفظى على سنن واحد لجمع اليمين كما جمع الشمال ، أو أفرد الشـــمال كما أفرد اليمين .

وفى الآية الثانية جمع القلوب والأبصار وأفرد السمع . وفى الثالثـــة أفرد السمع وجمع الأبصار والجلود . وفى القرآن الكريم مواضع كثـــيرة غير الآيات المذكورة . وهذا كله يدل على إباحة مثل هذا الأسلوب[٤].

- وأشار ابن الأثير إلى أن الاقتضاب فى شعر أبى نواس كثير كمـــا هو فى شعر غيره . ومن الاقتضاب فى شعر أبى نواس ما جاء في انتقاله مـــن الغزل إلى المديح فى قصيدته النونية فى مدح الخليفـــة هـــارون الرشـــيد والمبدوءة بقوله [٥] :

يا كثيرَ النوحِ فى الدِمَن   لا عليهَا بل على السَّكن

---

١ - من الآية رقم ٤٨ من سورة النحل .
٢ - من الآية رقم ١٠٨ من سورة النحل .
٣ - الآية رقم ٢٠ من سورة فصلت .
٤ - انظر المثل السائر ٢ / ٢٨٠ .
٥ - ديوان أبى نواس ٦٤٥ .

وذكر أن هذه القصيدة هي عين شعر أبي نواس - والملاحة للعيون - إلا أنه لم يكمل حسنها بالتخلص من الغزل إلى المديح بل اقتضبه اقتضابا . فبينا هو يصف الخمر ويقول :

فاسقِنى كأسًا على عَذَلٍ   كرهتْ مسموعَه أذنى
من كُميتِ اللونِ صافيةٍ   خير ما سلسلتَ فى بَدَنى
ما استقرَّتْ فى فؤادِ فتىً   فدرى ما لوعةُ الحزنِ

حتى انتقل إلى المديح فقال :

تضحكُ الدنيا إلى ملكٍ   قام بالآثارِ والسُّنَنِ
سنَّ للناس الندى فندُّوا   فكأن البخلَ لم يكنِ (١)

وما بين أبيات أبى نواس هو الاقتضاب فعلا ، ولكنه خفيف الحدة ؛ حيث نلمس نوعا من التناسب يجمع بين آخر أبيات وصف الخمر وأثرها فى نسيان شاربها لوعة الحزن ، وبين أول أبيات المديح من ضحك الدنيا إلى ملك قام بالآثار والسنن ، وأبعد عن الناس البخل والحاجة بما سنه لهم من ندى فياض .

- وفيما يتصل بالنقد اللغوى أخذ ابن الأثير على أبى نواس وقوعه فى بعض الأخطاء اللغوية فى شعره . ففى مقام حديثه عن ضرورة إلمام الأديب بعلمى النحو والتصريف ذكر أن أبا نواس رغم منزلته العالية فى الشعر ، وأنه كان معدودا فى طبقات العلماء ، ومع تقدمه فى طبقات

---

١ - المثل السائر ٢ / ٢٦١ .

الشعراء قد أخطأ - مع ذلك - فى صياغة بعض الألفاظ . ومـــن ذلـــك قوله فى صفة الخمر[١]:

كأن صغرى وكبرى من فقاقعها حصباءُ درٍّ على أرضٍ من الذهبِ

فقول أبي نواس - كما يقول ابن الأثير [٢] -(صغرى وكـــبرى) غير جائز ؛ لأن (فُعْلى أفعَل) لا يجوز حذف الألف واللام منها ، وإنمـــا يجوز حذفها من (فُعْلى) التى لا (أفعل) لها ، نحو : حُبْلى . إلا أن تكون (فُعْلى أفعَل) مضافة . وههنا عريت عن الإضافة وعن الألف واللام .

وأرجع ابن الأثير سبب وقوع أبي نواس فى ذلك إلى قلـــة مبـــالاة الشاعر بالأمر واستشعاره القدرة عليه وعدم توقعه الوقوع فيمـــا أخطـــأ فيه. وبهذا أثبت ابن الأثير ضرورة إلمام الأديب بمسائل علم التصريف .

كما أخذ ابن الأثير على أبي نواس وقوعه فى بعض الأخطاء النحويـة فى شعره ، من مثل قوله فى مدح الأمين [٣] :

يا خيرَ مَنْ كانَ ومن يكون إلا النبيُّ الطـــاهرُ الميمون

فرفع المستثنى بإلا فى الاستثناء من الموجب . وهذا من ظاهر النحـــو وليس من خافيه فى شئ [٤] .

---

١ - ديوان أبي نواس ٤٠ .
٢ - المثل السائر ١ / ٣٥ .
٣ - ديوان أبي نواس ٦٤٦ . وهو فى الديوان شطران لبيتين .
٤ - انظر المثل السائر ١ / ٣٦ .

- ومن النقد المتصل باستعمال الألفاظ عَيّبُ ابن الأثير علـــى أبى نواس استعماله لألفاظ وعبارات غير لائقة بالمعنى الذى يريـــد الشـــاعر التعبير عنه. ومن ذلك قول أبى نواس [1] :

بُحَّ صـــوتُ المال مما   منـــك يشكو ويصيح

فقوله : (بح صوت المال) من الكلام النازل بالمرة . فهو يريد مـــن هذه الجملة أن المال يتظلم من إهانة الممدوح إياه بالتفريق . فالمعنى حســـن والتعبير عنه قبيح . وفضل ابن الأثير على بيت أبى نواس هذا قول مســـلم ابن الوليد فى هذا المعنى :

تظلّم المالُ والأعداءُ من يدهِ   لازال للمالِ والأعداءِ ظلّاما

وأنا مع ابن الأثير فى موقفه من بيت أبى نواس ، وتفضيـــل بيـــت مسلم عليه لفظا ومعنى . وأقبح من بيت أبى نواس السابق قوله فى نفـــس المعنى [2] :

ما لِرِجْـــلِ المالِ أمسَتْ   تشـــتكِى منك الكَلالا

فإضافة الرجل إلى المال أقبح من إضافة الصوت إليه [3] .

كما عاب ابن الأثير على أبى نواس استعماله لبعض الألفاظ المبتذلـــة لدى العامة ، كلفظتى (شقراقا ، وقاقا) فى قوله [4]:

---

١ - ديوان أبى نواس ١٦٩ .
٢ - ديوان أبى نواس ٥٢٣ .
٣ - انظر المثل السائر ١ / ٣٤٨ .
٤ - ديوان أبى نواس ٤٥٧ .

وأنـــمَرُ الجلــــدةِ صيّرتهُ　　　فى الناس زاغـــاً وشِقِراقا
مازلتُ أجرى كلكلى فوقه　　　حـــتى دَعَا من تحته قاقـــا

وكلفظة (الشطار) فى قوله [١] :

وملحّةٍ بالعذلِ تحسَب أننى　　　بالجهل أتركُ صحبةَ الشطّارِ

فهذه الألفاظ مما ابتذلته العامة ، والأجدر بالشـــاعر أن يتجنـــب استعمالها فى شعره[٢].

– وفيما يتصل بنقد المعنى عاب ابن الأثير المبالغة والإفراط فيــها فى قول أبى نواس يمدح هارون الرشيد[٣]:

وأخفتَ أهلَ الشركِ حتى إنّه　　　لتخافك النطفُ التى لم تخلقِ

ولتأكيد رأيه فى استنكار هذا الإفراط ذكر ابن الأثير ما يــروى أن العتابى الشاعر لقى أبا نواس فقال له : أما استحييت الله حيث تقـــول .. وأنشده البيت ؟ فقال له أبو نواس : وأنت ما راقبت الله حيث تقول :

فلم تزَلْ دائباً تسعَى بلطفِك لى　　　حتى اختلستَ حياتى من يَدَىْ أجلى

فقال له العتابى : قد علم الله وعلمت أن هذا ليس مثـــل قولـــك . ولكنك قد أعددت لكل ناصح جوابا [٤] .

وبيت أبى نواس المذكور اتفق جميع من تناوله من الأدباء والنقـــاد

---

١ – لم أعثر على هذا البيت فى ديوان الشاعر .
٢ – المثل السائر ١ / ١٨٨.
٣ – ديوان أبى نواس ٤٥٢ .
٤ – المثل السائر ٢ / ٣١٥ .

على رفضه وإنكار الإفراط فيه [1] . كما أن المبالغة فيه أشد كثيرا من المبالغة فى بيت العتابى . ومما يجدر ذكره أن أبا نواس قد عبر عن معنى البيت السابق بصورة أخرى وإن كانت أقل غلوا فى قوله [2] :

كَدَّت منادمةً الدماء سيوفُه فلقلّما تحتازها الأجفانُ
حتى الذى فى الرَّحِم لم يكُ صورةً لفؤادِهِ من خوفِهِ خَفَقانُ

- ولم يعجب ابن الأثير بالتشبيه فى قول أبى نواس فى الخمر [3] :

كأن برانسًا رواكدَ حولها وُزُرْقٌ سنانيرٍ تديرُ عيونَها

وجعله من التشبيهات الباردة الغثة . ثم يقارنه بالتشبيه البديع الحسن فى بيت تال لهذا البيت وهو قوله :

كأنا حلولٌ بين أكنافِ روضةٍ إذا ما سَلَبْنَاهَا مع الليل طينَها

ويعجب ابن الأثير من الشاعر كيف جاء بالتشبيه فى البيت الأول غثا باردا لا لائمة بينه وبين ما شبه به ، ويقرنه بالبديع الذى أحسن فيه وأبدع فى البيت الثانى ، فكان فى ذلك كمن قرن بين ورده وسعدانه ، لا بل بين بعره ومرجانه [4] .

ومن إساءة أبى نواس فى التشبيه أيضا قوله فى وصف الخمر [5] :

---

١ - انظر : سر الفصاحة ٢٥٦ . والعمدة ٢ / ٦٢ .
٢ - ديوان أبى نواس ٦٤٤ .
٣ - ديوان أبى نواس ٥٩٢ . والشطر الأول فى الديوان بلفظ : كأن يواقيتا عواكف حولها.
٤ - المثل السائر ١ / ٤٠٢ .
٥ - ديوان أبى نواس ٥٠٩ .

وإذا ما السماءُ واقعهَا أظهرَتْ شكلاً من الغزلِ
لؤلؤاتٍ ينحدرْنَ بها كانحدارِ الذرِّ من جَبَلِ

فشبه الحبب فى انحداره بنمل صغار ينحدر من جبل . وهذا من البعد على غاية من الوضوح كما يذكر ابن الأثير[1].

– وتوقف ابن الأثير مع بيت أبى نواس [2]:

أقمنا بها يومًا ويومًا وثالثاً ويومًا له يومُ الترحُّلِ خامِسُ

وأبدى عدم رضاه عنه لما فيه من تكرير غير مفيد . فمراده أن يخبر فقط بأنهم أقاموا بها أربعة أيام . وهذا ما جعل ابن الأثير يحكم عليه بأنه من العى الضعيف . وتعجب ابن الأثير كيف يأتى أبو نواس بمثل هذا البيت السخيف الدال على العى الفاحش ضمن أبيات حسنة عجيبة رائعة[3]. وهى قوله :

ودارِ ندامَى عطَّلوها وأدْلَجُوا بها أثَرٌ منهم جديدٌ ودارسُ
مساحِبُ من جرِّ الزقاق على الثَّرَى وأضغاثُ ريحانٍ جَنِىٌّ ويابسُ
حبستُ بها صحْبِى فجددتُ عهدَهُم وإنى على أمثالِ تلك لحابسُ
تدارُ علينا الراحُ فى عسجديةٍ حبَتْها بأنواعِ التصاويرِ فارسُ
قرارتُها كِسْرَى وفى جنباتِها مهاً تدَّريها بالقسىِّ الفوارسُ
فللراحِ ما زرَّت عليه جيوبُها وللماءِ ما دارَت عليه القلانسُ

---

١ – انظر المثل السائر ١ / ٤٠٣ .
٢ – ديوان أبى نواس ٣٦١ .
٣ – انظر المثل السائر ٢ / ١٥٩ .

وحكى ابن الأثر أنه سمع الجاحظ يقول عن الأبيات المذكورة : " لا أعرف شعرا يفضل هذه الأبيات التى لأبى نواس . ولقد أنشدتها لأبى شعيب القلاف فقال : والله ياأبا عثمان إن هذا لهو الشعر ، ولو نقر لطن فقلت له : ويحك !! ما تفارق عمل الجرار والخزف ؟! .

ويؤكد ابن الأثير حكم الجاحظ على هذه الأبيات فيقول : "ولعمرى إن الجاحظ عرف فوصف ، وخبر فشكر . والذى ذكره هو الحق[1]" .

وأنا مع ابن الأثير فى أن هذه الأبيات التى ورد بها البيت المنقود أبيات رائقة معجبة تضمنت معنى حسنا جميلا . أما بيته المشار إليه فهو وإن كان دون غيره من أبيات هذه المجموعة إلا أنه ليس بهذا السوء الذى وسمه به ابن الأثير . فإن الشاعر أراد بالتكرير تعداد الأيام التى أقاموا فيها بهذه الدار ، وأنهم لم تكن عندهم النية للإقامة بها هذه المدة الطويلة ، وإنما كانوا ينوون الإقامة فيها يوما واحدا ، ولحسنها أقاموا يوما ثانيا ولحبهم لها أقاموا بها يوما ثالثا . وبعد انقضاء اليوم الثالث عز عليهم فراقها فأقاموا يوما رابعا ، وفى اليوم الخامس رحلوا عنها على غير رغبة منهم فى فراقها ، وإنما مكثوا بها بعد هذا كله بعض هذا اليوم . فالتكرير هنا عبر عن مدى لحب هؤلاء للإقامة فى هذه الديار . وهذا المعنى لم يكن يستفاد لو كان الشاعر قال : أقمنا بها أربعة أيام .

---

١ - المثل السائر ٢ / ١١٤ . ١١٥ .

– وعاب ابن الأثير على أبي نواس التصريح بذكر أسمـــاء محـــارم الممدوح . وذلك كما جاء فى قصيدته الميمية التى مدح بها الخليفة الأمـــين فى قوله (١):

أصبحتَ ياابنَ زبيدَةَ ابنة جعفرٍ أملاً لعقدِ حبالِه استحْكامُ

فإن ذكر أم الخليفة فى مثل هذا الموضع قبيح (٢).

وهذا مما تعارف عليه الناس . فإن التصريـــح بأسمـــاء الأمـــهات والأخوات مما يستهجن بين الناس فضلا عن الشعراء والأدباء . ويعلل ابن الأثير لهدا بأن العرب كان يعير بعضهم بعضا بنسبته إلى أمه دون أبيــــه . وكان عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – يقال له ابن حنتمة . وكـــان يقول له ذلك من أراد أن يغض منه . وأما قول النــبى ﷺ للزبــير بــن العوام: " بشر قاتل ابن صفية بالنار " ، فإن صفية كانت عمة النــبى ﷺ وإنما نسبه النبى إليها رفعا لقدره فى قرب نسبه منه ، وأنه ابـــن عمتـــه . وليس هذا كالأول فى الغض من عمر فى نسبتة إلى أمه (٣) .

ولنا فى القرآن الكريم أسوة حسنة . فقد قال الله – تعالى – حكايـة عن موسى وأخيه هارون – عليهما السلام – : " قالَ ياابنَ أمَّ لا تـــأخُذْ بلحيَتِى ولا برأسِى (٤) " . فلم يتلفظ باسم الأم كما فعـــل أبـــو نـــواس

١ – ديوان أبى نواس ٥٧٦ .
٢ – المثل السائر ٢ / ٣٠١ .
٣ – انظر المثل السائر ٢ / ٣٠٣ .
٤ – من الآية رقم ٩٤ من سورة طه .

وأمثاله. أما ما ورد فى مثل قوله - تعالى - " وإذ قالَ اللهُ يا عيسَى بـــنَ مريمَ أأنتَ قلتَ للناس .... [١] " فلأن عيسى - عليه السلام - لم يكــن له أب فنودى باسم أمه ضرورة ، ولو كان له أب لنودى به . ولأن النداء فى هذه الآية وأمثالها إنما هو من الأعلى إلى الأدنى ، ومثل هذا لا يكـــون تفريطا لأنه لم يعبر عنه بما هو دون منزلته [٢] .

وقد أحسنت قتيلة بنت النضر فى مخاطبة النبى ﷺ :

أمــحمدٌ ولأنتَ نــجلُ نجيبةٍ ... من قومها والفحلُ فحْلٌ معرقُ

ما كان ضرَّكَ لو مَنَنْتَ وربما ... مَنَّ الفـــتى وهـــو المغيظُ المحنَقُ

فإنها ذكرت الأم بغير اسم الأم وأبرزت هذا الكلام فى هذا اللبـاس الأنيق [٣] . وقد تأثر أبو نواس فى هذا بمثل قول جرير بن عطية فى مـــدح عمر بن عبد العزيز [٤] :

وتَبني المجدَ يا عمرَ بن ليلَى ... وتكفى الممحَلَ السَّنةَ الجمادا [٥]

ودافع ابن الأثير عن أبى نواس فيما عيب عليه مـــن ذكـــر لفـــظ (السادس) فى مقام المدح فى قوله:[٦]

ورثَ الخلافةَ خامســًا ... وبخير سادسِهم سَدَسْ

---

١ - من الآية رقم ١١٦ من سورة المائدة .
٢ - انظر المثل السائر ٢ / ٣٠٢ .
٣ - المثل السائر ٢ / ٣٠٢ .
٤ - ديوان جرير ١٤٩ .
٥ - المثل السائر ٢ / ٣٠٣ .
٦ - ديوان أبى نواس ٣٨٣ .

فقد أخذ عليه بعض النقاد ذكر لفظ (السادس) ، وتعجبوا من أبي نواس فى ذلك مع معرفته بالشعر ، وكيف ذهب عليه هذا الموضع وقد قرأ ما جاء فى سورة الكهف فى قوله - تعالى - : " ويقولون خمسة سادسهم كلبهم " .

وقد دافع عنه ابن الأثير بأنه قد ورد فى القرآن الكريم ما ينقض هذا الاعتراض وهو قوله - تعالى [1] - : " ألم تر أن الله يعلم ما فى السماوات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم [2] "

وأنا أضيف أن أبا نواس قد احترز عما قد يفهم من وراء هذا اللفظ من معنى سيئ بقوله : (وبخير سادسهم) فجعل السادس خير سادس . فابتعد بذلك عن المعنى الذى أشارت إليه سورة الكهف .

- وفى باب السرقات الأدبية ذكر ابن الأثير أن قول أبي نواس [3] :

دارت على فتية ذلَّ الزمانُ لهم ... فما يصيبهُمُ إلا بما شاءوا

مسروق من قول معبد :

لهفى على فتية ذلَّ الزمانُ لهم ... فما أصابهمُ إلا بما شاءوا

والاتفاق بين البيتين فى المعنى وأكثر اللفظ واضح . وهذا هو

---

١ - من الآية رقم ٧ من سورة المجادلة .

٢ - المثل السائر ٢ / ٣٠٤ .

٣ - ديوان أبي نواس ص ٧ .

الضرب الأول من ضربي النسخ وهو ما أطلق عليه ابن الأثير (وقوع الحافر على الحافر) . وقد سبق بيان ذلك فى تقسيم ابن الأثير للسرقات الشعرية .

كما جعل ابن الأثير بيت أبي نواس [١] :

وليسَ على الله بمستنكرٍ أن يجمعَ العالمَ فى واحدِ

مأخوذا من قول جرير :

إذا غضبتْ عليكَ بنو تميمٍ حسبتَ الناسَ كلَّهمُ غضابا

إلا أن أبا نواس زاده زيادة حسنة . وذاك أن جريرا جعل الناس كلهم بنى تميم ، وأبو نواس جعل العالم كله واحدا . وهذا أبلغ [٢].

وأنا أرى أن البيتين وإن كانا قد اتفقا فى جانب يسير من المعنى فإن موضوعهما مختلف ، وكل واحد من الشاعرين يقصد من بيته شيئا غير ما يقصده الآخر تماما .

كما جعل ابن الأثير قول أبي نواس [٣]:

وإذا المطيُّ بنا بلغنَ محمدًا فظهورهُنُ على الرجالِ حرامُ

مأخوذا من قول الفرزدق :

عَلاَمَ تلفَّتينَ وأنتِ تحتى وخيرُ الناس كلَّهمُ أمامى

متى تأتى الرصافةَ تستريحى من الأنساعِ والدبرِ الدوامى

---

١ - ديوان أبي نواس ٢١٨ .

٢ - المثل السائر ٢ / ٣٦٤ ، ٣٦٥ .

٣ - ديوان أبي نواس ٥٧٥ .

ولكن أبا نواس أحسن فيه غاية الإحسان . فالفرزدق قال (تستريحى من الأتساع والدبر الدوامى) وليست استراحتها بمانعة من معاودة إتعابها مرة أخرى . وأما أبو نواس فحرم ظهورها على الرجال . أى انها ستعفى من السفر والارتحال إعفاء مستمرا حينما تصل إلى الممدوح (١) . فإذا كان للفرزدق شرف السبق وابتداء المعنى فلأبى نواس فضل الزيادة والحسن فيه . وهكذا توقف ابن الأثير مع كثير من أبيات شعر أبى نواس وفى أبواب مختلفة منه ، وكان يحكم على كل منها بما يراه وما تمليه عليه حاسته الفنية . وما ذكرته فى الصفحات السابقة شئ مما ذكره ابن الأثير من أبيات شعر أبى نواس فى المثل السائر .

رابعا : نقد ابن الأثير لأبى تمام :

يعد الشاعر أبو تمام أول الشعراء الثلاثة الذين توقف ابن الأثير مع شعرهم أكثر مما توقف مع شعر غيرهم فى كتابه المثل السائر . وربما كان ذلك ليثبت صحة ماذهب إليه بأن هؤلاء الثلاثة – أبو تمام والبحترى والمتنبى – أشعر الشعراء العرب . ولذلك أكثر من ذكر أشعارهم ناقدا وشارحا وممثلا . وفى الصفحات القادمة بعض ما علق به ابن الأثير على منزلة أبى تمام وشعره.

– يرى ابن الأثير أن أبا تمام ومعه كل من البحترى والمتنبى بمثابة لات الشعر ومناته . وهم الذين ظهرت على أيديهم حسنات الشعر

١ – انظر المثل السائر ٢ / ٣٦٥ .

ومستحسناته ، وحوت أشعارهم غرابة المحدثين إلى جانب فصاحة القدماء، وجمعت بين الأمثال السائرة وحكمة الحكماء [١] .

ويذكر ابن الأثير أنه وقف على أشعار الشعراء قديمها وحديثها ولم يترك ديوانا لشاعر مفلق إلا تأمله ، فلم يجد أجمع من ديوان أبى تمام والمتنبى للمعانى الدقيقة ، ولا أكثر استخراجا منهما للطيف الأغراض والمقاصد ، ولم يجد أحسن تهذيبا للألفاظ من البحترى ، ولا أنقش ديباجة ولا أبهج سبكا [٢] .

وجعل ابن الأثير أبا تمام رب معان وصيقل ألباب وأذهان . وقد شهد له الشعر بكل معنى مبتكر لم يمش فيه على أثر . فهو غير مدافع عن مقام الإغراب الذى برز فيه على الأضراب . ومن حفظ شعره وكشف عن غامضه وراض فكره برائضه أطاعته أعنة الكلام وكان قوله فى البلاغة ما قالت حذام [٣] . وشبه ابن الأثير ألفاظ أبى تمام فى شعره بالرجال الأشداء قد ركبوا خيولهم واستلأموا [٤] سلاحهم ، وتأهبوا للطراد . بينما ألفاظ البحترى كنساء حسان عليهن غلائل [٥] مصبغات وقد تحلين بأصناف الحلى [٦].

---

١ - انظر المثل السائر ٢ / ٣٤٨ .
٢ - انظر المهل السائر ٢ / ٣٥٠ .
٣ - انظر المثل السائر ٢ / ٣٤٨ .
٤ - استلأموا : لبسوا اللأمة وهى الدروع المحكمة الملتئمة .
٥ - الغلائل : جمع غلالة وهى ثياب رقيق يلبس تحت الثياب .
٦ - المثل السائر ١ / ١٨١ .

وذكر ابن الأثير لأبي تمام العديد من الأشعار التي تحمل معاني مبتدعة لم يسبق إليها . ومن أتى بعده بهذا المعنى أو بجزء منه كان سارقا له. وقد ذكر أن معانيه المبتدعة قد عدت فوجد أنها تزيد على عشرين معنى . وإن كان ابن الأثير قد هوّن من شأن هذا العدد ، وإن أهل هذه الصناعة يكبرون ذلك من أبي تمام . أما هو فلا يرى هذا من مثل أبي تمام بكبير ؛ فإن له هو في مكاتباته من المعاني المبتدعة ما يفوق هذا العدد [١] . وابن الأثير فى هذا يعبر عن شيء مما طبع عليه من الكبر والاعتزاز بالنفس والتباهى بما أتاه الله من علم وفضل .

وحكى الآمدى أنه سمع أبا على محمد بن العلاء السجستانى يقول : عن أبي تمام : إنه ليس له معنى انفرد به فاخترعه إلا ثلاثة معان وهي قوله[٢]:

تأبَى على التصريدِ إلا نائِلاً ... إلا يكُنْ ماءً قراحاً يُمذَقِ
نزراً كما استكرهتَ عائر نفحةٍ ... من فارة المسكِ التى لم تفتَقِ

وقوله [٣]:

بنى مالكٍ قد نبَّهَتْ خاملَ الثرَى ... قبورٌ لكم مستشرفاتُ المعالِمِ
رواكدُ قِيسُ الكفِّ من متناولٍ ... وفيها عُلًى لا تُرتقَى بالسلالِمِ

---

١ - انظر المثل السائر ١ / ٣١٢ .

٢ - ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزى - تقديم : راجى الأسمر - دار الكتاب العربى - بيروت - ط ١ -١٩٩٢ م - ١ / ٤٤٢ .

٣ - ديوان أبي تمام ٢ / ٢٣٩ .

وقوله (١) :

وإذا أرادَ اللهُ نشـــرَ فضيلةٍ   طُــوِيَتْ أتاحَ لها لسانَ حسودِ
لولا اشتعالُ النارِ فيما جاوَرَتْ   ما كانَ يُعرف طيبُ عَرْفِ العودِ

ولم يوافقه الآمدى على ذلك ، ورأى أن مخترعات أبى تمام كثـيرة ، وبدائعه مشهورة (٢) .

- ومما ذكره ابن الأثير لأبى تمام من معان مبتدعة قوله فى المديح (٣):

يا أيها الملكُ النـــائى برؤيتـــهِ   وجــودُه لمراعى جودِه كَثَبُ
ليسَ الحجابُ بمقصٍ عنكَ لى أَمَلاً   إن السماءَ تُرَجَّى حين تحتَجِبُ

وقوله فى الهجاء (٤):

وأنتَ تديرُ قطبَ رحًا عليًا   ولم نرَ للرَّحَـا العلياءِ قطبَا
ترى ظَفَرًا بكل صراعِ قرنٍ   إذا ما كنتَ أسفلَ منه جنبا

ومنها قوله :

وإذا أرادَ اللهُ نشرَ فضيلـــةٍ   طويـَـتْ أتاحَ لها لسانَ حسودِ
لولا اشتعالُ النارِ فيما جاوَرَتْ   ما كان يُعرف طيبُ عرفِ العودِ

وقوله (٥) :

لا تنكروا ضربى له مَنْ دونَهُ   مثلاً شرودًا فى الندى والباسِ

---

١ - ديوان أبى تمام ١ / ٢١٣ .
٢ - انظر : الموازنة بين أبى تمام والبحترى ١٢٣ .
٣ - ديوان أبى تمام ٢ / ٣٨٢ .
٤ - ديوان أبى تمام ٢ / ٣١٤ .
٥ - ديوان أبى تمام ١ / ٣٦٢ .

فالله قد ضربَ الأقلَّ لنورِهِ مثـــلاً من المشكاةِ والنبراسِ

وذكر ابن الأثير سبب ابتداع أبي تمام للمعنى فى هذين البيتين وهـــو أنه لما أنشد أبو تمام أحمد بن المعتصم قصيدته السينية التى مطلعها :

ما فى وقوفِكَ ساعةً من باسِ نقضِى زمامَ الأربعِ الأدراسِ

وانتهى إلى قوله :

إقدامَ عمروٍ فى سماحةِ حاتمٍ فى حِلْمِ أحنفَ فى ذَكَاءِ إياسِ

فقال الحكيم الكندى : وأى فخر في تشبيه ابـــن أمـــير المؤمنـــين بأجلاف العرب ؟ . فأطرق أبو تمام ثم أنشد هذين البيتين معتـــذرا عـــن تشبيههإياه بعمرو وحاتم وإياس . وهذا معنى يشهد به الحال أنه ابتدعـــه ، فمن أتى بعده بهذا المعنى أو بجزء منه فإنه يكون سارقا [1] .

وقوله [2] :

لا تنكرِى عَطَلَ الكريمِ من الغِنَى فالسيلُ حربٌ للمكانِ العَالِى

- وأعجب ابن الأثير كثيرا ببيت أبي تمام من قصيدة له فى مـــدح محمد بن يوسف [3] :

وصاعقةٍ فى كفِّه تنكفِى بـــهَا على أرؤسِ الأعداءِ خمسُ سحائبِ

وقال عنه : " وهذا من النمط العالى التى شغلت براعة معناه وحسن

---

١ - انظر المثل السائر ٢ / ٣٤٣ . ٣٤٤ .

٢ - ديوان أبى تمام ٢ / ٣٨ .

٣ - لم أعثر على القصيدة فى ديوان أبى تمام .

سبكه عن النظر إلى استعارته. والمراد بالسحائب الخمس : الأصابع [١] " على سبيل الاستعارة .

- كما أعجب ابن الأثير بقول أبي تمام في مدح المعتصم [٢] :

كم صارمٍ عَضْبٍ أنافَ على فَتىً   منهم لأعباءِ الوَغَى حمَّالِ
سبقَ المَشيبُ إليه حتى ابتزَّه   وطنَ النهى من مفرقٍ وقذالِ

وسبب إعجابه بهما مجئ الشاعر بعبارة (وطن النهى) - والمراد بها الرأس - وهي من الكلمات الجامعة ، ولا يجاء بمثلها في معناها مما يسد مسدها . [٣]

- وتوقف ابن الأثير مع ابتداءات أبي تمام في مطالع قصائده وامتدح بعضها وعاب عليه البعض الآخر منها . وعد ابن الأثير من ابتداءات أبي تمام الحسنة قوله في مطلع قصيدته في مدح المعتصم عقب فتح عمورية [٤]:

السيفُ أصدقُ إنباءً من الكتبِ   في حدِّه الحدُّ بين الجدِّ واللعبِ
بيضُ الصفائحِ لا سودُ الصحائفِ في   متونهنَّ جلاءُ الشكِّ والريبِ

وقوله في مطلع قصيدته الرائية في مدح المعتصم أيضا وذكر خروج بابك الخرمي عليه وظفره به [٥] :

---

١ - المثل السائر ١ / ٣٦٥ .
٢ - ديوان أبي تمام ٢ / ٦٧ .
٣ - انظر المثل السائر ١ / ٦٦ .
٤ - ديوان أبي تمام ١ / ٣٢ .
٥ - ديوان أبي تمام ١ / ٣٣٥ .

الحقّ أبلجُ والسيوفُ عوارٍ فحذارِ من أسدِ العرينِ حذارِ

وقوله متغزلا (١) :

عسى وطنٌ يدنو بهم ولعلّما وإن تعتبِ الأيامُ فيهم فربّما

وجعل ابن الأثير هذا المطلع من الأغزال الحلوة الرائقة ومن محاسن أبي تمام المعروفة .

وكذلك قوله فى مطلع مرثية (٢) :

أصَمَّ بك الناعِى وإن كان أسمَعا وأصبح مغنَى الجودِ بعدك بلقَعا(٣)

وحكم أبو هلال العسكرى على بيت أبى تمام الأخير بأنه أحسن ابتداء فى مرثية إسلامية(٤). وذلك لأنه يبين بجلاء شدة وقع نبأ موت المرثى على النفوس والآذان حتى لقد أصابهما الصمم بعد سماعه من فم الناعى . وقد ذكر الشاعر سببا من أسباب ذلك وهو أن الجود قد مات بموت المرثى .

وذكر ابن رشيق أن أبا تمام كان " فخم الابتداء ، له روعة وعليه أبهة ... والغالب عليه نحت اللفظ وجهارة الابتداء (٥) " . ولعل السبب

---

١ - ديوان أبى تمام ٢ / ١١٥ .
٢ - ديوان أبى تمام ٢ / ٢٢٥ .
٣ - انظر المثل السائر ٢ / ٢٩٩ .
٤ - الصناعتين ٣١٦ ، ٤٣٣ .
٥ - العمدة ١ / ٢٣٣ .

فى ذلك أنه كان يأتى بمطالع قصائده ولها شدة ارتباط بموضوع القصيدة ، مع قوة فى المعنى تتناسب مع الموقف والمناسبة التى تنشد فيها . وقد رأينا من مطالعه تلك التى ذكرها ابن الأثير وهى تتصف بالحسن والجودة لدقة اتفاق كل منها مع المناسبة التى قيلت فيها قصائدها وبعد ألفاظها عن القبح والاستكراه والتطير .

أما عن ابتداءات أبى تمام المستكرهة فمنها قوله فى بداية قصيدته الدالية فى مدح محمد بن الهيثم بن شبابة [1] :

تجَرَّع أســـىً قد أقفرَ الجَرَعُ الفردُ ودَعْ حِشْيٍ عينٍ يحتلب ماءه الوجدُ

وسبب وقوع أبى تمام فى مثل هذا المكروه - كما يقول ابن الأثير - هو تتبعه للتجنيس بين (تجَرَّع والجَرَع [2]) .

وسبب قبح هذا المطلع أنه لم يأت فى أول كلامه بما يتناسب مع مقام المدح ، وإنما ذكر فيه ما يتطير منه من تجرع الأسى وإقفار الجرع الفرد . وهذا ما ينبغى أن يتحاشاه الشعراء فى بدايات قصائدهم فى المديح.

كما عاب ابن الأثير مطلع قصيدة أبى تمام الهمزية فى مدح يحيى بن ثابت [3] :

قدك اتئِبْ أربيتَ فى الغلواءِ كم تعذِلون وأنتمُ سُجَرائى

١ - ديوان أبى تمام ١ / ٢٧٥ .
٢ - المثل السائر ٢ / ٢٢٦ .
٣ - ديوان أبى تمام ١ / ٢٢ .

لأن الشاعر قد استخدم فيه تركيبا قليل الاستعمال وهو لفظ (قدك)، كما أن استخدام لفظ (اتئب) ولفظ (سجرائى) غير متناسبين بالمرة مع مقام الغزل .

ومنها مطلع قصيدته البائية فى مدح عباس بن لهيعة الحضرمى [1] :

تَقِى جَمَحَاتى لستِ طوعَ مُؤنبى   وليس جنيبى إن عذلتِ بمصحبى

وذلك لما فيه من ألفاظ مستقبحة يثقل النطق بها [2] .

– وامتدح ابن الأثير تخلص أبى تمام من وصف الربيع إلى وصف خلق الممدوح فى قوله من قصيدته فى مدح المعتصم [3] :

خُلقٌ أطلَّ من الربيع كأنه   خلقُ الإمامِ وهديُه المتيسَّرُ
فى الأرض من عدلِ الإمام وجودِه   ومن النباتِ الغضِّ سرجٌ تُزهِرُ
تُنْسَى الرياضُ وما يروضُ جودَه   أبدا على مرّ الليالى يذكَرُ

وجعل ابن الأثير هذا التخلص من ألطف التخلصات وأحسنها [4] :

ومن تخلصات أبى تمام الحسنة تخلصه من الغزل إلى المديح فى قوله من قصيدته فى مدح أبى دلف القاسم بن عيسى العجلى [5] :

غيداءَ جادَ ولىُّ الحسنِ سُنتَها   فصاغَها بيديه روضةً أنفا
يضحى العذولُ على تأنيبه كلِفًا   بعذرِ من كان مشغوفًا بها كلفا

---

١ – ديوان أبى تمام ١ / ٨٧ .
٢ – المثل السائر ٢ / ٢٢٨ .
٣ – ديوان أبى تمام ١ / ٣٣٤ .
٤ – المثل السائر ٢ / ٢٤٦ .
٥ – ديوان أبى تمام ١ / ٤١٩ .

ودِّع فؤادَكَ توديعَ الفــراقِ فمــا أراه من ســفرِ التوديــع منصرِفــا
يجاهدُ الشــوقَ طــورًا ثم يجذبُــه جــهادُه للقــوافِي في أبي دلفَــا

وجعل ابن الأثير التخلص في هذه الأبيات أحسن من الذى قبلــه وأدخل فى باب الصنعة [1] .

وإذا كان هذا التخلص أدخل فى باب الصنعة كما يقول ابن الأثــير – وهو كذلك فعلا – فإن هذا ما يجعله أقل فى درجة الحسن من الــذى قبله عكس ما يقول ابن الأثير .

ومن التخلصات الجيدة فى شعر أبي تمام تخلصه من الغزل إلى المديــح فى قوله من قصيدته فى مدح أبي الحسن محمد بن الحسن بن شِبابة [2] :

زعمَتْ هواكَ عفا الغداةَ كما عَفَتْ منــها طلــولٌ بــاللوى ورسُــومُ
لا والذى هـــو عــالمٌ أنَّ النَّــوَى أجَــلٌ وأن أبــا الحســين كــريمُ
ما زلتُ عن سنن الودادِ ولا غَــدت نفسِــي ولا إلــفٌ ســواك تحُــومُ

وقد أعجب ابن الأثير بالتخلص فى هذه الأبيات وجعله خروجا مــن غزل إلى مديح أغزل منه [3].

– كما امتدح ابن الأثير الاعتراض فى قول أبي تمام [4] :

وإنَّ الغِنى لى – إن لحظتَ مطالبى من الشعرِ – إلا فى مديحك أطوَعُ

١ – المثل السائر ٢ / ٢٤٦ .
٢ – ديوان أبي تمام ٢ / ١٤٦ .
٣ – المثل السائر ٢ / ٢٤٦ .
٤ – ديوان أبي تمام ١ / ٤٠٤ .

ففى هذا البيت كما يقول ابن الأثير - اعتراضان : الأول بين اسم إن وخبرها . وتقديره : (وإن الغنى أطوع لى من الشعر) . فاعترض بين الاسم والخبر بقوله : (إن لحظت مطالبى) . والثانى قوله : (إلا فى مديحك) . فجاء بالجملة الاستثنائية مقدمة وموضعها التأخير . فاعترض بها بين الجملة التى هى خبر إن . وتقدير البيت بجملته : (وإن الغنى أطوع لى من الشعر إن لحظت مطالبى إلا فى مديحك) . وفائدة قوله (إلا فى مديحك) أنه من الاعتراض الذى اكتسب به الكلام فائدة حسنة . والمراد به وصف جود الممدوح بالإسراع ، ووصف خاطر شعره بالإسراع إذا كان فى مديحه خاصة دون غيره . فهذا الاعتراض يتضمن مدح الممدوح والمادح معا . وهو من محاسن ما يجئ فى هذا الموضع [1] .

هذا كلام ابن الأثير ورأيه فى هذا البيت . وأنا أرى أن الاعتراضين الواردين فى البيت وما صاحبهما من تقديم وتأخير فى أجزاء الجمل أدى إلى تعقيد البيت وغموض معناه ، وبعده عن الفصاحة بالمرة ، وما هو إلا من باب المعاظلة التى تحدث عنها ابن الأثير فى كتابه . ومثله مثل قول الفرزدق :

وما مثلُه فى الناسِ إلا مُمَلَّكاً أبو أمِّهِ حيٌّ أبوُه يقاربُه

وقول الآخر - وهو ما عابه ابن الأثير أيضا بسبب ما فيه من اعتراض وتقديم وتأخير :

١ - المثل السائر ٢ / ١٧٦ .

نظرتُ وشخصِي مطلعَ الشمسِ ظلُّه   إلى الغربِ حتى ظلَّه الشمسُ قد عَقَلْ

فالشاعر أراد أن يقول : نظرت مطلع الشمس وشخصى ظلـــه إلى الغرب حتى عقل الشمس ، أى حاذاها . وعلى هذا التقدير يكون قـــد فصل بمطلع الشمس بين المبتدأ (شخصى) وبين خبره الجملة (ظلـــه إلى الغرب) . كما فصل بين الفعل (نظرت) ومعموله (مطلع) بـالأجنبى . وعقب ابن الأثير على البيت بأن هذا وأمثاله مما يفسد المعـــانى ويورثـــها اختلالا [١] .

وهذا البيت بما فيه من تقديم وتأخير لا يزيد عما فى بيت أبى تمـــام الذى امتدحه وجعله من محاسن ما يجئ فى هذا الموضع .

- وتعرض ابن الأثير للتوكيد اللفظى فى قول أبى تمام [٢]:

لا أنتِ أنتِ ولا الديارُ ديارُ   خفَّ الهوَى وتولَّتِ الأوطارُ

وجعل المعنى المقصود من وراء التوكيد اللفظى فى هذا البيت مـــن المليح النادر . لأنه أفاد أنه هو هو والديار هى الديار ، وإنما البواعث الـتى كانت تبعث على قضاء الأوطار قد زالت ، فبقى ذلك الرجل وليس هـــو هو على الحقيقة ولا الديار فى عينه من الحسن تلك الديار [٣] .

- وفيما يتعلق بالتشبيه فى شعر أبى تمام أبدى ابن الأثير إعجابـــه

---

١ - المثل السائر ٢ / ١٧٩ .
٢ - ديوان أبى تمام ١ / ٣١٧ .
٣ - المثل السائر ٢ / ٢٠ .

بالتشبيه فى قوله (١) :

يا صاحبَيَّ تقصَّيَا نظرَيْكُما ... ترَيَا وجوهَ الأرضِ كيف تَصَوَّرُ

ترَيَا نهاراً مشمِساً قد شابَهُ ... زهرُ الرُّبا فكأنما هُوَ مقمِرُ

فعلى الرغم من أن التشبيه فى البيتين من باب تشبيه المركب بالمفرد وهو أقل ألوان التشبيه استعمالا ، حيث شبه النهار المشمس مع الزهر الأبيض بضوء القمر . إلا أنه – كما يقول ابن الأثير – تشبيه حسن واقع فى موقعه مع ما فيه من لطف الصنعة (٢) .

أما التشبيه فى قول أبى تمام (٣) :

لا تسقِنى ماءَ الملامِ فإننى ... صبٌّ قد استعذبتُ ماءَ بكائى

وذكر أن هناك من عاب على الشاعر هذا التشبيه لأنه جعل للملام ماء ، وهو من التشبيه البعيد . أما ابن الأثير فيرى أن التشبيه ليس به بأس، بل هو من التشبيهات المتوسطة التى لا تحمد ولا تذم . وهو قريب من وجه وبعيد من وجه . أما قربه فهو أن الملام هو القول الذى يعنف به الملوم لأمر جناه ، وذلك مختص بالسمع فنقله أبو تمام إلى السقيا التى هى مختصة بالحلق . كأنه قال : لا تذقنى الملام . ولو سمح له وزن الشعر لأن يقول : (لا تذقنى الملام) بدلا من (لا تسقنى ماء الملام) لكان التشبيه حسنا . لكنه جاء بذكر الماء فحط من درجته شيئا . ولما كان السمع

١ – ديوان أبى تمام ١ / ٣٣٣ .
٢ – المثل السائر ١ / ٣٩٨ .
٣ – ديوان أبى تمام ١ / ٢٤ .

يتجرع الملام أولا كتجرع الحلق الماء صار كأنه شبيه به ، وهـــو تشـــبيه معنى بصورة . وأما سبب بعد هذا التشبيه فهو أن الماء مســـتلذ والمـــلام مستكره ، فحصل بينهما مخالفة من هذا الوجه . فهذا التشبيه إن بعد مـــن وجه فقد قرب من وجه . ولذلك كان من التشبيهات المتوسطة الـــتى لا تحمد ولا تذم [1] .

ومع موافقتى على كلام ابن الأثير حول البيت إلا أننى أرى البيـــت من باب الاستعارة وليس من باب التشبيه ؛ فقد شـــبه الشـــاعر المـــلام بالسائل الكريه المذاق وحذفه وذكر له شيئا من خواصه وهو الماء علـــى سبيل الاستعارة المكنية .

ونقل ابن الأثير ما روى حول ماء الملام فى هذا البيت من أن بعـــض أهل المجانة أرسل إلى أبى تمام قارورة وقال : ابعث لنا فى هذه شيئا من مـــاء الملام . فأرسل إليه أبو تمام وقال : إذا بعثت إلى ريشة من جنـــاح الـــذل بعثت إليك شيئا من ماء الملام .

ومع إنزال ابن الأثير من صحة هذه الرواية فقد علق عليها وجعـــل هناك فرقا بين التشبيه فى (جناح الذل) والتشبيه فى (مـــاء المـــلام) . فليس جعل الجناح للذل كجعل الماء للملام . فإن الجناح للذل مناســـب ، وذلك أن الطائر إذا وهن أو تعب بسط جناحيه وخفضهما وألقى نفســـه على الأرض . وللإنسان أيضا جناح وهما يداه . وإذا خضع واســـتكان

---

١ - المثل السائر ١ / ٤٠٠ .

طأطأ من رأسه وخفض من يديه فحسن عند ذلك جعل الجناح للذل وصار تشبيها مناسبا . وأما الماء للملام فليس كذلك فى مناسبة التشبيه.

وأنا أرى أن بين الماء والملام مناسبة كتلك المناسبة بين الجناح والذل. فإن الملام يريق وجه الشخص الملام ، وقد تكون نتيجة سماع الملوم للكلام الذى يلام به ظهور ماء العرق على جبهته وبعض أعضاء جسمه .

وهذا ما يسوغ جعل الماء للملام .

- وفيما يتصل بنقد الألفاظ توقف ابن الأثير مع المعاظلة اللفظية فى شعر أبى تمام ، وعاب عليه وقوعه فيها فى بعض أبياته . وهو باب تكلم عنه الآمدى فى الموازنة [1] . وذكر أن هذا النوع من الألفاظ كثير فى شعر أبى تمام . وعرف الآمدى المعاظلة بأنها " مداخلة الكلام بعضه فى بعض وركوب بعضه لبعض " . كما ذكر أن النقاد فسروا حوشى الكلام بأنه " الذى لا يتكرر فى كلام العرب كثيرا ، فإذا ورد ورد مستهجنا [2] " .

وقد سبق أن بينت حديث ابن الأثير عن المعاظلة وتقسيمه لها إلى خمسة أقسام ، وقد ذكر ابن الأثير حينذاك العديد من الأمثلة من شعر أبى تمام لبعض أقسام المعاظلة . فمن وقوعه فى القسم الأول من المعاظلة اللفظية - وهو ما يختص بالجمع بين أدوات الكلام - قوله [3] :

---

١ - الموازنة ص ٢٥٨ .
٢ - الموازنة ٢٥٩ .
٣ - ديوان أبى تمام ١ / ١٠٤ .

إلى خالدٍ راحت بنا ار ...ـيّةٌ مَرافقُها من عن كراكِرِها نكبُ

فقوله : (من عن ... كرها) من الكلام المتعاظل الثقيل على اللسان . وأفضل من بيت أبي تمام هذا - فى رأى ابن الأثير - قول قطرى ابن الفجاءة :

ولقد أرانِى للرماحِ دريئةً من عن يمِينِى مرةً وأمامى

وكلا البيتين اجتمعت فيه (من) مع (عن) ولكن النطق بهما جاء ثقيلا على اللسان فى بيت أبي تمام ، وليس كذلك فى بيت قطرى . والسبب فى ذلك أنهما وردتا فى بيت أبي تمام مضافتين إلى لفظة (الكراكر) فثقلت منهما وجعلتهما مكروهتين ، وفى بيت قطرى أضيفتا إلى كلمة خفيفة فأبعدتهما عن الثقل [1].

ومن ذلك قول أبي تمام [2] :

كأنّه لاجتماعِ الروحِ فيه له فى كلِّ جارحةٍ من جسمِهِ روحُ

فقوله (فى) بعد قوله (فيه له) مما لا يحسن وروده [3] .

ومن وقوع أبي تمام فى القسم الخامس من المعاظلة اللفظية - وهو ما يختص بإيراد صفات متعددة على نحو واحد - قوله فى وصف جمل [4] :

---

١ - انظر المثل السائر ١ / ٢٨٧ .
٢ - ديوان أبي تمام ١ / ١٨٤ .
٣ - المثل السائر ١ / ٢٨٧ .
٤ - ديوان أبي تمام ١ / ٢٢٨ .

سأخرِقُ الخرقَ بابن خرقاءَ كالهيق إذا ما استحَمَّ فى نَجده .
مقابَل فى الجَديل صُلبُ القَرا لوُحَّك من عَجْبه إلى كَتَده
تامِكِـــهِ نـــهدِهِ مُدَاخِلِهِ ملمومُهُ محزئلِّـــه أجُـــده

وعلق ابن الأثير على المعاظلة اللفظية فى هـــذه الأبيـــات بقولـــه : " فالبيت الثالث من المعاظلة التى قلع الأسنان دون إيرادها [١] " .

ومنها قوله من نفس القصيدة يصف رمحا :
ومَرَّ هَفَـــو ذؤابتـــاه على أسمرَ متنٍ يوم الوَغى جَسِدِه
مارنِـــهِ لدنِـــهِ مثقَّـــفهِ عَرَّاصِـــهِ فى الأكفِّ مطرِدِه

وعلق ابن الأثير على المعاظلة فى هذين البيتـــين بقولـــه : " وهـــذا كالأول فى قبحه وثقله ، قاتله الله !! ما أمتن شعره ! وما أسخفه فى بعـض الأحوال [٢] "

ومن المعاظلة اللفظية أيضا قول أبى تمام فى نفس القصيدة السابقة :
إليك عن سيل عارضٍ خضل الشـــؤبوب يأتى الحِمَامُ من تَضَده
مسفِّـــهِ ثـــرِّه مسحسِحِـــهِ وابلِـــهِ مســـتهلِّه جَـــرِده

وعقب ابن الأثير على المعاظلة اللفظية فى أبيات أبى تمـــام فى هـــذه القصيدة فقال : " ولو لم يكن لأبى تمام من القبيح الشنيع إلا هذه الأبيـات لحطت من قدره [٣] " .

---

١ - المثل السائر ١ / ٢٩٤ .
٢ - المثل السائر ١ / ٢٩٥ .
٣ - المثل السائر ١ / ٢٩٥ .

والمعاظلة اللفظية واضحة فى الأبيات المذكورة حتى إن القارئ ليعجب كيف يأتى أبو تمام بمثل هذه الأبيات وهو من هو منزلة ومكانة بين الشعراء . وصدق ابن الأثير فى قوله عن أبى تمام وشعره : " قاتله الله!! ما أمتن شعره ! وما أسخفه فى بعض الأحوال ! " .

- ومن المآخذ التى أخذها ابن الأثير على أبى تمام فى شعره جهله ببعض مسائل علم التصريف. ففى مقام الحديث عن ضرورة إلمام الأديب بمسائل هذا العلم ذكر ابن الأثير وقوع أبى تمام - مع تقدم مكانته الشعرية - فى بعض الأخطاء المتصلة بهذا العلم . ومن ذلك قوله [١] :

بالقائمِ الثامنِ المستخلَفِ اطّأدَتْ   قـواعدُ الملك ممتدًا لها الطولُ

فقوله (اطأدت) خطأ ، والصواب - كما يقول ابن الأثير [٢] - (اتطدت) ؛ لأن التاء تبدل من الواو فى موضعين أحدهما مقيس عليه كهذا الموضع ؛ لأنك إذا بنيت (افتعل) من الوعد قلت (اتعد) ، ومنه ما ورد فى هذا البيت ، فإنه من (وطد يطد) فإذا بنى منه (افتعل) قيل (اتطد) ، ولا يقال (اطأد) . وأما غير المقيس فكقولهم فى (وجاه) (تجاه) مثلا .

-كما ذكر بن الأثير بعض الأبيات التى عيب بها أبو تمام لو جود نوع من المنافرة بها . فبعد أن ذكر ابن الأثير أن وصل همزة القطع ،

---

١ - ديوان أبى تمام ٢ / ٦ .
٢ - المثل السائر ١ / ٣٥ .

وقطع همزة الوصل من جائزات الشعر التى لا تجوز فى النثر ، عاد فذكر أن وصل همزة القطع أقبح فى الكلام من قطع همزة الوصل لأنه أثقل على اللسان . ومثل لذلك بقول أبى تمام [١] :

فأصبحَ يلقانِى الزمانُ من اجلِهِ   بإعظامِ مولودٍ ورأفةِ والِدِ

فقوله : (من اجله) وصل لهمزة القطع . وهو نوع من المنافرة عند ابن الأثير [٢] .

ومن صور المنافرة عند ابن الأثير زيادة الألف واللام فى اسم الفاعل ، وقيام الضمير فيه مقام المفعول . ومن ذلك قول أبى تمام [٣] :

فلو عاينتَهُم والزائريهِمْ   لما مِزْتَ البعيدَ من الحميمِ [٤]

-كما أخذ ابن الأثير على أبى تمام تعبيره بألفاظ مشتركة بين معنيين أحدهما يكره ذكره وليس معه قرينة تميز معناها الحسن عن القبيح . ومثل لذلك بقوله [٥] :

أعطيتَ لى ديةَ القتيلِ وليسَ لى   عقلٌ ولا حقٌّ عليكَ قديمُ

فقوله (ليس لى عقل) يظن أنه من عقل الشئ إذا علمه . ولو قال: ليس عليك عقل لزال اللبس [٦] .

---

١ - ديوان أبى تمام ١ / ٢٧١ .
٢ - المثل السائر ١ / ٢٩٩ .
٣ - ديوان أبى تمام ٢ / ٧٩ .
٤ - المثل السائر ١ / ٣٠٠ .
٥ - ديوان أبى تمام ٢ / ١٤٧ .
٦ - المثل السائر ١ / ١٩٠ .

– وأنزل ابن الأثير من قيمة بيت أبي تمام [١] :

أقروا – لَعَمْرى – بحكمِ السيوفِ   وكــانت أحقَّ بفضلِ القَضَاء

وذلك لما فيه من تطويل لا داعى له ؛ فإن قوله (لعمرى) زيــادة لا حاجة بالمعنى إليها ، وإنما هى حشو فى البيت ، ولم يأت بهــا الشــاعر إلا لإصلاح الوزن ، فهى لفظة تفيد القسم ، والقسم يرد فى موضع يؤكد بـه المعنى المراد إما للشك ، أو لأنه مما يعز وجوده ، أو نحو ذلك . وبيــت أبى تمام هذا لا يفتقر معناه إلى توكيد قسمى ؛ إذ لا شــك فى أن الســيوف حاكمة ، وأن كل أحد يقر لحكمها ويذعن لطاعتها [٢] .

ومثل البيت السابق قول أبى تمام [٣] :

إذا أنا لمْ أَلُمْ عثراتِ دهرٍ   بليتُ به الغداةَ فمن ألومُ

فلفظة (الغداة) زيادة لا حاجة بالمعنى إليها لأنه يتم بدونــه ، ولأن عثرات الدهر لم تنله الغداة ولا العشى وإنما نالته . ونيلها إياه لا بـــد أن يقع فى زمن من الأزمنة ، ولا حاجة إلى تعيينه بالذكر [٤] .

ووجهة نظر ابن الأثير فى عيبه البيتين المذكورين وأمثالهما أنه يــرى أن الألفاظ التى يوصل بها الكلام كثيرا ما تأتى لغير فائدة ، وإذا جـــاءت

---

١ – ديوان أبى تمام ٢ / ١٩٤ .
٢ – المثل السائر ٢ / ٧٢ .
٣ – ديوان أبى تمام ٢ / ٤٢٨ .
٤ – المثل السائر ٢ / ٧٢ .

فى الشعر كان الغرض منها في كثير من الأحيان إقامة الوزن فقط . ولفظتا (لعمرى) و (الغداة) فى بيتى أبى تمام من هذا القبيل .

– ومن نقد ابن الأثير لألفاظ أبى تمام ما أخذه عليه فى قوله [١] :

قد قلتُ لما اطلخَمَّ الأمرُ وانبعَثَتْ عشواءَ تاليةً غبساً دهاريسا

فقد صنف ابن الأثير لفظتى (اطلخم) و (دهاريسا) تحت باب الوحشى الغليظ المتوعر القبيح من الألفاظ ، وقال معلقا على هذا البيت: " فلفظة (اطلخم) من الألفاظ المنكرة التى جمعت الوصفين القبيحين فى أنها غريبة ، وأنها غليظة فى السمع كريهة على الذوق . وكذلك لفظة (دهاريس) أيضا [٢] "

كما أخذ ابن الأثير على أبى تمام تعبيره بلفظ (حيدر) فى قوله من أبيات يصف بها فرسا [٣]:

نِعْمَ متاعُ الدنيا حباكَ به أروعُ لا حَيْدَرٌ ولا جِبْسُ

وقال : إن لفظة (حيدر) غليظة [٤] .

وأنا مع أبن الأثير فيما علق به على البيت الأول من البيتين السابقين . وأظن أن البلاغيين قبل ابن الأثير وبعده اتفقوا على عدم

---

١ – ديوان أبى تمام ١ / ٣٦٥ .
٢ – المثل السائر ١ / ١٦٨ .
٣ – ديوان أبى تمام ١ / ٣٤٩ .
٤ – المثل السائر ١ / ١٦٨ .

فصاحة الكلمتين (اطلخم) و(دهاريس) وقبحهما وتوعرهما . أما لفظة (حيدر) فى البيت الثانى فليس فيها ما يجعلها تدخل تحت هذا النوع من الألفاظ .

وعاب ابن الأثير بيت أبى تمام فى وصف الرماح [1] :

مثقفات سلبنَ العُربَ سمرتَها والرومَ زرقتَها والعاشقَ القضفا [2]

وذلك لعدم المؤاخاة بين الألفاظ فيه ؛ فإنه ذكر العرب والروم (بالجمع) ، ثم قال (العاشق) بالإفراد ، ولو صح أن يقول (العشاق) لكان أحسن حتى تجرى الأوصاف على سنن واحد . وكذلك قوله : سمرتها وزرقتها ، ثم قال (القضفا) . وكان الأحسن أن يقول (قضفها أو دقتها)[3] .

ويمثل هذا النقد يبين ابن الأثير أن على الشاعر مراعاة المؤاخاة بين مبانى شعره ، وذلك باختيار الألفاظ المتآخية المتلائمة .

ومن صور المؤاخاة والملاءمة التى ينبغى أن يراعيها الشاعر فى شعره الملاءمة بين الألفاظ والمعانى . ويعاب الشاعر على عدم التزامه بهذه الملاءمة . ومن هنا لم يرض ابن الأثير عن بيتى أبى تمام فى تعداد مفاخره:[4]

سما بى أوسٌ فى الفخارِ وحاتمٌ وزيدُ القنا والأثرمان ورافعُ

---

١ - ديوان أبى تمام ١ / ٤٢٣ .

٢ - القضف : النحول والنحافة .

٣ - المثل السائر ٢ / ٢٧٩ .

٤ - ديوان أبى تمام ٢ / ٤٥٢ .

نجومٌ طواليعٌ جبالٌ فـوارعٌ   غيوثٌ هوامعٌ سيولٌ دوافعُ

لأنه لم يرتب الصفات التي وصف بها آباءه من الأدنى إلى الأعلى . وإنما نزل من الأعلى إلى الأدنى ؛ فإن السيول دون الغيوث ، والجبال دون النجوم . ولو قدم ما أخر ما اختل النظم بأن يقول :

سيول دوافع غيوث هوامع   جبال فوارع نجوم طوالع[1]

وأنا أوافق ابن الأثير على ما أخذه على أبي تمام في هذا الموضع لأن الصفات تتجه كلها إلى شئ واحد .

كما عاب ابن الأثير على أبي تمام قوله [2] :

يقظٌ وهو أكثرُ الناسِ إغضا   ءً علـى نائلٍ له مسـروقُ

فإنه أراد أن يمدح فذم [3] .فقد وصفه باليقظة ثم وصفه بالجبن حين يسكت على ما يسرق من نواله .

كما عاب عليه فحشه في قوله في المدح [4] :

أنتَ دلوٌ وذو السماحِ أبو مُو   سَى وأنـت دلوُ القليبِ

فقد أراد أن يجعل الممدوح سببا لعطاء أبي موسى فشبهه بالدلو الذى يكون سببا في امتياح الماء من القليب . وقد أساء أبو تمام في هذا

---

١ - ديوان أبي تمام ٢ / ٣٤ .
٢ - ديوان أبي تمام ١ / ٤٦٠ .
٣ - المثل السائر ٢ / ٣٠٦ .
٤ - لم أعثر على هذا البيت بالديوان .

التعبير عن المعنى رغم أنه ليس من المعاني الغريبة . وقد اتفق ابن الأثير في هذا مع أبي هلال العسكري الذي جعل البيت مما عيب على أبي تمام في باب المماثلة [١] .

وذكر ابن الأثير أن أبا تمام قد وقع في مثل هذه السقطة في مواضع أخرى من شعره . ومنها قوله في المدح [٢] :

ما زالَ يهذِي بالمكارم والعلا حتى ظَنَنَّا أنه محمومُ

فقد أراد أن يبالغ في ذكر الممدوح باللهج بالمكارم والعلا فقال : (مازال يهذى) . وما ينبغي أن يصف الشاعر ممدوحه بالهذيان مهما كان شأنه . فهذا وأمثاله لا يجوز استعماله في مثل هذا المقام ، وإن كان المعنى المقصود به حسنا . ولذا يحق لابن الأثير أن يعلق على البيت بقوله : " وما أعلم ما كانت حاله عند نظم هذا البيت [٣] " .

وجعل أبو هلال العسكري هذا البيت من ردئ المبالغة ؛ فإن الشاعر أراد المبالغة في ذكر الممدوح باللهج بذكر الجود فقال (مازال يهذى) فجاء بلفظ مذموم [٤] .

وعاب ابن الأثير على أبي تمام قبح الاستعارة في قوله [٥] :

---

١ - الصناعتين ٣٥٦ .
٢ - ديوان أبي تمام ٢ / ١٤٧ .
٣ - المثل السائر ٢ / ٣٠٧ .
٤ - الصناعتين ٣٦٧ .
٥ - ديوان أبي تمام ١ / ٢٨٧ .

وكَمْ أحرزَتْ منكُمْ على قبحِ قدِّها صروفُ النَّوَى من مرهَفٍ حسنِ القدِّ

حيث أضاف القد إلى النوى ، وجعل للنــــوى قـــدا مـــن بـــاب الاستعارة. وهذا – على رأى ابن الأثير – من التشبيه البعيـــد . وأوقـــع الشاعر فيه المماثلة بين القد والقد . وقد اتفق ابن الأثير فى ذلك مع كـــل من الآمدى وأبى هلال العسكرى ، ووافقــــهما فى أن إغـــرام أبى تمـــام بالاستعارة والإكثار منها عن طريق المماثلة أو التجنيس هو الذى أوقعه فى مثل هذه الأخطاء التى تعاب عليه [١].

ومما عيب على أبى تمام فى هذا الباب أيضا قوله [٢] :

بلوناكَ أمَّا كعبُ عِرضِكَ فى العُلا فَعَالٍ وأما خَــدُّمَــا لِكَ أسفَلُ

فقوله : كعب عرضك ، وخد مالك ممـــا يســـتقبح ويســـتنكر . والشاعر أراد أن يمدح الممدوح بصون عرضه ، وابتذال ماله إلا أنه عـــبر عنه أقبح تعبير [٣] .

-- وقد يعيب ابن الأثير أبا تمام على نظمه قصيدة بعينها جملـــة دون تحديد بيت بعينه أو أبيات بعينها ، وذلك لكثرة ما فيـــها مـــن ألفـــاظ مستقبحة . ومن ذلك حكمه على قصيدته الثائية التى مطلعها [٤] :

١ – انظر الموازنة ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، والصنـــاعتين ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، والمثـــل الســـائر ١ / ٣٤٩ .

٢ – ديوان أبى تمام ٢ / ٣٦ .

٣ – انظر المثل السائر ١ / ٣٥٠ .

٤ – ديوان أبى تمام ١ /١٦٧ .

قِفْ بالطُّلُولِ الدراسَاتِ علاثا أمسَتْ حبالُ قطينهنَّ رثَاثا

فقد عاب ابن الأثير القصيدة كلها لكثرة ما فيها من ألفاظ بشعة كريهة بسبب الإكثار من حروف الثاء فى كلماتها ، وهو من الحروف التى ينبغى أن يتجنب الشاعر النظم عليها [1] .

- أما عن النقد الموجه إلى البديع فى شعر أبى تمام ، فمن المعروف بداية إكثار أبى تمام من البديع فى شعره وخروجه فيه إلى المحال . وهناك شبه إجماع على أن " أول من أفسد الشعر مسلم بن الوليد ، وأن أبا تمام تبعه فسلك فى البديع مذهبه فتحير فيه ، كأنهم يرّيدون إسرافه فى الطباق والتجنيس والاستعارات ، وإسرافه فى التماس هذه الأبواب وتوشيح شعره بها حتى صار كثير مما أتى به من المعانى لا يعرف ولا يعلم غرضه فيها إلا مع الكد والفكر وطول التأمل ، ومنه ما لا يعرف معناه إلا بالظن والحدس . ولو كان أخذ عفو هذه الأشياء ولم يوغل فيها ولم يجاذب الألفاظ والمعانى مجاذبة ويقتسرها مكارهة ، وتناول ما يسمح به خاطره وهو بجمامه غير متعب ولا مكدود ، وأورد من الاستعارات ما قرب فى حسن ولم يفحش ، واقتصر من القول على ما كان محذوا حذو الشعراء المحسنين ليسلم من هذه الأشياء التى تهجن الشعر وتذهب ماءه ورونقه - لظننته كان يتقدم عند أهل العلم بالشعر أكثر الشعراء المتأخرين ، وكان قليله حينئذ يقوم مقام كثير غيره ؛ لما فيه من لطيف المعانى ومستغرب

---

١ - المثل السائر ١ / ١٨١ .

الألفاظ . ولكنه شره إلى إيراد كل ما جاش به خاطره ، ولجلجه فكـــره فخلط الجيد بالردىء، والعين النـــادر بـــالرذل الســـاقط ، والصـــواب باالخطأ[١]".

ومن هنا وجه إلى أبي تمام الكثير من النقد المتعلق باستخدامه البديـع وإكثاره منه فى شعر . وفى هذا المجال أشار ابن الأثير إلى إكثار أبي تمـام فى شعره من التجنيس ، وذكر أن منه ما أغرب فيه فأحسن ، ومنه ما أتى بـه كريها مستثقلا . وذكر ابن الأثير من تجنيسات أبي تمام الحسنةَ قوله [٢] :

بكلِّ فتىً ضربٌ يعرض للقَنا   محيًّىً محلًّى حليةَ الطعنِ والضربِ

فالضرب : الرجل الخفيف ، والضرب : بالسيف فى الحرب .

ومنها قوله [٣] :

عداك حرَّ الثغورِ المستضامةِ عن   برد الثغورِ وعن سَلْسَالِها الحَصِبِ

فالثغور : جمع ثغر وهو واحد الأسنان . وهو أيضا : البلد الـــذى على تخوم بلد العدو .

وقوله [٤] :

إذا الخيلُ جابَتْ قسطلَ الحربِ صدَّعُوا   صدورَ العَوَالى فى صدورِ الكتَائِبِ

فلفظ (الصدور) فى هذا البيت واحد والمعنى مختلف . وغير ذلـكَ

---

١ - الموازنة للآمدى ١٢٥ .
٢ - لم أعثر على هذا البيت بديوان الشاعر .
٣ - ديوان أبي تمام ١ / ٤٤ .
٤ - ديوان أبي تمام ١ / ١١٥ .

كثير [١] .

ومن تجنياته الكريهة المستثقلة قوله [٢] :

في يوم أرشقَ والهيجاءُ قد رَشَقَتْ ... من المنيةِ رشقاً وابلاً قصفا

وقوله [٣] :

مهلاً بني مالكٍ لا تجلبُنَّ إلى ... حيِّ الأراقمِ دؤلولُ ابنةُ الرقمِ

وقوله [٤] :

قرَّتْ بقرَّانَ عينُ الدين واشتَتَرتْ ... بالأشترينِ عيونُ الشِّرك فاصطَلَما

وغير ذلك كثير كما ذكر ابن الأثير [٥] .

وحكم أبو هلال العسكرى على البيت الأخير بأنه جمع بين ثلاثة عيوب : غثاثة لفظه ، وسوء التجنيس ، وعيب فى المعنى وهو أن انتشار العين لا يوجب الاصطلام [٦] . وهو كلام سبقه به الآمدى الذى ذكر أن انتشار عيون الشرك فى غاية الغثاثة والقباحة ، كما أن انتشار العين ليس بموجب للاصطلام . وحكم على التجنيس فى هذا البيت وأمثاله من شعر أبي تمام بأنه فى غاية الشناعة والركاكة والهجانة [٧] .

١ - المثل السائر ١ / ٢٤٢ ، ٢٤٣ .
٢ - ديوان أبي تمام ١ / ٤٢٢ .
٣ - ديوان أبي تمام ٢ / ٩٢ .
٤ - ديوان أبي تمام ٢ / ٨٢ .
٥ - المثل السائر ١ / ٢٤٤ ، ٢٤٥ .
٦ - انظر الصناعتين ٣٣٥ .
٧ - انظر الموازنة ٢٥١ .

- وحكم ابن الأثير بالفساد على تقسيم أبي تمام في قوله [١] :

ومَوقفٌ بين حكمِ الذلِّ منقطعٌ ... صاليه أو بحبالِ الموتِ متصلُ

لأنه جعل صالي هذا الموقف إما ذليلا عنه أو هالكا فيه ، وترك قسما ثالثا وهو ألا يكون ذليلا ولا هالكا بل يكون مقدما فيه ناجيا.ولكن ابن الأثير عاد وحكم على التقسيم في البيت بالصحة وعدم الفساد ؛ لأن الشاعر قصد الغلو في وصف هذا الموقف فقال : إن الناس فيه أحد رجلين: إما ذليل عن مورده ، وإما هالك فيه . أى أنه لا ينجو منه أحد يرده . وهو على هذا تقسيم صحيح لا فساد فيه [٢] . وكلام ابن الأثير الثاني هو الحق والصواب .

- وأخيرا وفي باب السرقات الشعرية ذكر ابن الأثير العديد من أبيات شعر أبي تمام التي أخذها من غيره . وفيما يلي أمثلة مما ذكره ابن الأثير في هذا الباب :

ذكر ابن الأثير أن بيت أبي تمام [٣] :

محاسنُ أصنافِ المغنين جمةٌ ... وما قَصَباتُ السبقِ إلا لمعبَدِ

مأخوذ من قول بعض المتقدمين يمدح معبدا :

أجادَ طويسٌ و السريجيُّ بعده ... وما قَصَباتُ السبقِ إلا لمعبَدِ [٤]

---

١ - ديوان أبي تمام ٢ / ١٠ .
٢ - المثل السائر ٢ / ٢٩٢ .
٣ - ديوان أبي تمام ١ / ٢٤٩ .
٤ - المثل السائر ٢ / ٣٥٢ .

والشطران الأخيران فى البيتين واحد . وهذا من الضرب الثانى من ضربى النسخ على تقسيم ابن الأثير للسرقات الشعرية .

وذكر ابن الأثير أن بيت أبى تمام [(١)] :

فلم أمدحكَ تفخيماً بشعرى ولكنِّى مدحتُ بك المديحَا

مأخوذ من قول حسان بن ثابت فى مدح النبى ﷺ :

ما إن مدحتُ محمدًا بمقالَتِى لكن مدحتُ مقالَتِى بمحمدِ [(٢)]

والمعنى واحد فى البيتين . وهذا من الضرب الثالث من السلخ - وهو أخذ المعنى ويسير من اللفظ - حسب تقسيم ابن الأثير للسرقات الشعرية .

ويرى ابن الأثير أن أبا تمام فى قوله [(٣)] :

وظلمتَ نفسَكَ طالباً إنصافَها فعجبتُ من مظلُومةٍ لم تظلَم

قد أخذ المعنى من قول السموءل بن عادياء :

وإنْ هو لم يحمِلْ على النفسِ ضيمَها فليس إلى حسْنِ الثناءِ جميلُ

ويرى أن أبا تمام أحسن الأخذ وزاد على ما أخذه بالمقابلة بين الضدين فى الظلم والإنصاف . ثم قال فى الشطر الثانى : (فعجبت من مظلومة لم تظلم) . وفى هذا مقابلة أحسن من الأولى [(٤)] .

١ - ديوان أبى تمام ١ / ١٨٤ .
٢ - المثل السائر ٢ / ٣٥٧ .
٣ - لم أعثر على البيت فى ديوان الشاعر .
٤ - انظر المثل السائر ١ / ١١٧ .

كما جعل ابن الأثير قول أبي تمام في وصف قصيد له [١] :

غرائبُ لاقتْ في قنائِك أنسَها   من المجدِ فهي الآن غيرُ غرائب

مأخوذا من قول جرير في وصف أبيات شعره :

غرائبُ آلافٍ إذا حانَ وِردُها   أخذنَ طريقاً للقصائدِ معلَمَا [٢]

وقد زاد أبو تمام على المعنى الذي أخذه من جرير بأن قرن وصف قصائده بذكر الممدوح ، وأنها لاقت أنسها من المجد في فناء الممدوح فأصبحت غير غرائب .

وجعل قول أبي تمام [٣] :

مَثَّل الموتَ بين عينيه والذلَّ   فكلاً رآه خطباً عظيما
ثم سارتْ به الحميَّةُ قُدْمـاً   فأماتَ العِدا ومات كريما

مأخوذا من قول ولد مسلمة بن عبد الملك :

أذلَّ الحياةِ وكرهَ المماتِ   وكـلاً أراهُ طعاماً وبيلا
فإن لم يكن غيرُ إحداهما   فسَيْراً إلى الموتِ سَيْراً جميلا

وقد زاد أبو تمام على المعنى الذي أخذه ما ذكره في قوله :

فأمات العدا ومات كريما [٤]

---

١ - ديوان أبي تمام ١ / ١١٨ .
٢ - المثل السائر ٢/ ٣٦٣ .
٣ - ديوان أبي تمام ٢ / ٢٤٠ .
٤ - المثل السائر ٢ / ٣٦٣ .

كما جعل ابن الأثير قول أبي تمام [١] :

يصدُّ عن الدنيا إذا عنَّ سؤددٌ ولو برزتْ في زيِّ عذراءَ ناهدِ

مأخوذا من قول المعذل بن غيلان :

ولستُ بنظَّارٍ إلى جانب العُلاَ إذا كانت العلياءُ في جانبِ الفقرِ

إلا أن أبا تمامَ زاد على المعنى زيادة حسنة بقوله :

ولو برزت في زي عذراء ناهد [٢] .

وجعل ابن الأثير هذا النوع من السرقة من الضرب السادس من السلخ وهو أن يؤخذ المعنى فيزيد عليه . وأنا أرى أن الأولى إخراج مثل هذا النوع من السرقة حيث لم يتناول الثاني غير يسير مما تناوله الشاعر الأول . بجانب أنه لم يقتصر على ما اتفق معه ، وإنما زاد عليه من عنده . ومن الأولى أن ينسب هذا إلى باب توارد الخواطر .

وجعل ابن الأثير قول أبي تمام [٣] :

كأنَّ عليهَا كل عِقدِ مَلَاحَةٍ وحسنًا وإن أضحَتْ وأمسَتْ بلا عِقْدِ

مأخوذا من قول القائل :

مخصَّرةُ الأوساطِ زانتْ عقودَها بأحسنَ مما زينتهَا عقودُها [٤]

وأنا أرى أنه لا سرقة بين البيتين ؛ فأبو تمام يذكر أنها اتخذت من

---

١ - ديوان أبي تمام ١ / ٢٧٢ .
٢ - المثل السائر ٢ / ٣٦٤ .
٣ - ديوان أبي تمام ١ / ٢٨٨ .
٤ - المثل السائر ٢ / ٣٦٨ .

الملاحة والحسن عقدا لها وإن كانت بلا عقد حقيقى . والشاعر الآخر يذكر أن عقودها تتزين بها لحسنها وجمالها أكثر مما تتزين هى بعقودها . فالأول يقول بوجود العقود الحقيقية التى تلبسها الموصوفة وإن كانت تزينها هى بجمالها ، وأبو تمام يقول بعدم وجود العقود الحقيقية لأنها لا حاجة بها إليها .

وجعل ابن الأثير قول أبى تمام [١] :

له وجهٌ إذا أبصرْ ... تَـه ناجاك من عذرِ

مأخوذا من قول أبى العتاهية :

وإنى لمعذورٌ على فرطِ حبِّها ... لأن لها وجهاً يدل على عُذْرِى

وجعله من الضرب الثانى من السلخ وهو أخذ المعنى وسبكه سبكا حزا [٢] .

والرأى ما قاله ابن الأثير . فأبو تمام أحسن التعبير عن المعنى وأوجزه، وإن كان المعنى المشترك بين الشاعرين هو ما عبر عنه أبو العتاهية فى الشطر الثانى فقط من البيت .

خامسا : نقد ابن الأثير للبحترى .

يعد البحترى فى رأى ابن الأثير فى المرتبة الشعرية الثانية بعد أبى تمام. ومن حرصه على إبراز مكانته الشعرية العالية تعرض لنقده كثيرا فى كتابه المثل السائر .

---

١ - ديوان أبى تمام ٢ / ٢٦٦ .

٢ - المثل السائر ٢ / ٣٦٩ .

وقد سبق أن ذكرت أن ابن الأثير يرى أن أبا عبادة البحترى مع كل من أبي تمام والمتنبي بمثابة لات الشعر وعزاه ومناته الذين ظهرت على أيديهم حسنات الشعر ومستحسناته ، كما أن أشعارهم قد حوت غرابة المحدثين وفصاحة القدماء ، وجمعت بين الأمثال السائرة وحكمة الحكماء[1] . وذكر ابن الأثير أنه وقف على أشعار الشعراء قديمها وحديثها حتى لم يترك ديوانا لشاعر مفلق إلا وتأمله فلم يجد أجمع من ديوان أبي تمام والمتنبي للمعانى الدقيقة ، ولا أكثر استخراجا منهما للطيف الأغراض والمقاصد ، ولم يجد أحسن تهذيبا للألفاظ من البحترى ، ولا أنقش ديباجة ولا أبهج سبكا منه [2] . وذكر عن البحترى أيضا أنه يحسن سبك اللفظ على المعنى ، وأنه قد حاز طرفى الرقة والجزالة على الإطلاق. وسئل المتنبي عنه وعن أبي تمام وعن نفسه فقال : أنا وأبو تمام حكيمان والشاعر البحترى . ويذكر ابن الأثير أن المتنبي قد أنصف فى مقولته هذه وأعرب به عن متانة علمه بشعر البحترى . فإن البحترى قد أتى فى شعره بالمعنى المقدود من الصخرة الصماء فى اللفظ المصوغ من سلاسة الماء فأدرك بهذا بعد المرام مع قربه إلى الأفهام . فهو قد أتى فى معانيه بأخلاط الغالية ورقى فى ديباجة لفظه إلى الدرجة العالية [3] .

وقد توقف ابن الأثير مع كثير من أبيات شعر البحترى وأبدى رأيه

١ - أنظر المثل السائر ٢ / ٣٤٨ .
٢ - انظر المثل السائر ٢ / ٣٥٠ .
٣ - أنظر المثل السائر ٢ / ٣٤٨.

فيها مادحا ومبديا إعجابه بها فى بعض الأحيان ، ومقللا من شأنها ومعيبا لها فى أحيان أخرى ..

- فقد أعجب ابن الأثير ببيت البحترى [١] :

قلبٌ يطلُّ على أفكاره ويدٌ   تمضى الأمورَ ونفسٌ لهوُها التَّعَبُ

وسبب إعجابه به قوله (قلب يطل على أفكاره) . فهى عبارة من الكلمات الجوامع - كما يقول ابن الأثير . ومراد الشاعر بذلك أن قلبه لا تملؤه الأفكار ولا تحيط به ، وإنما هو عال عليها . ويصف بذلك عدم احتفاله بالقوادح وقلة مبالاته بالخطوب التى تحدث أفكارا تستغرق القلوب . وهى عبارة عجيبة لا يؤتى بمثلها مما يسد مسدها [٢] .

ولعمرى إن عبارة (ونفس لهوها التعب) عبارة قوية مصورة لجسد الممدوح ونفسه الأبية الماجدة .

- وأعجب ابن الأثير بأسلوب البحترى فى مخاطبة ممدوحه فى قوله يمدح المعتز بالله ويستوهبه خاتما [٣] :

فهل أنتَ يا ابنَ الراشدين مختِّمى   بياقوتةٍ تبهى علىَّ وتشرقُ

حيث ابتعد فى خطابه عن أسلوب الأمر وأخرجه مخرج الاستفهام .

---

١ - ديوان البحترى - شرح يوسف الشيخ محمد - دار الكتب العلمية - ط ١ - ١٩٨٧ م - ٢ / ٢٩٤ .

٢ - المثل السائر ١ / ٦٦ .

٣ - ديوان البحترى ١ / ١٤٥.

وهذا من باب حسن الأدب فى خطاب الخليفة . فلم يقل : ختمنى بياقوتة على سبيل الأمر بل خاطبه بصيغة الاستفهام [١] .

-كما أعجب ابن الأثير بأبيات البحترى فى مدح المتوكل [٢] :

هل يجلُسَنَّ إلىَّ عطفَك موقِعٌ ثبتٌ لديكَ أقولُ فيه وتسمَعُ
ما زال لى من حسنِ رأيكَ موئِلٌ آوِى إليه من الخطوبِ ومفزَعُ
فعلام أنكرتَ الصديقَ وأقبلَتْ نحوى جنابُ الكاشحين تطلَّعُ
وأقام يطمَعُ فى تهضُّم جانبى من لم يكن من قبلُ فيه يطمَعُ
إلا يكن ذنبٌ فعَدْلُكَ واسعٌ أو كان لى ذنبٌ فعفوُكَ أوسَعُ

وقد علق ابن الأثير على الأبيات تعليقا يعد من قبيل النقد الذاتى فقال : " وهذه أبيات حسنة مليحة فى بابها يمحى بها حر الصدور ، ويستمال بها صعر الخدود . وإنما ذكرتها بجملتها لمكان حسنها [٣] " .

- وفى باب التشبيه أبدى ابن الأثير إعجابه ببعض تشبيهات البحترى . ومن ذلك التشبيه فى قوله [٤] :

جِدَةٌ يذودُ البخلُ عن أطرافِهَا كالبحرِ يمنَع ملحُه عن مائِه

فقد علق عليه ابن الأثير بقوله : " وهذا من محاسن التشبيهات [٥] ".

---

١ - أنظر المثل السائر ٢ / ٣١٢ .
٢ - ديوان البحترى ١ / ٣٦ .
٣ - المثل السائر ٢ / ٥٥ .
٤ - ديوان البحترى ٢ / ٦٠ .
٥ - المثل السائر ١ / ٣٩٣ .

ومن ذلك قول البحترى [١] :

وتَرَاهُ فى ظُلَمِ الوَغَى فتخالُهُ   قمرًا يكُرّ على الرجالِ بكوكَبِ

فقد ذكر أن البيت فيه تشبيه ثلاثة أشياء بثلاثة أشياء : فإنه شبه العجاج بالظلمة ، والممدوح بالقمر ، والسنان بالكوكب . ثم قال : وهذا من الحسن النادر [٢] .

وامتدح ابن الأثير التشبيه فى بيت البحترى [٣] :

تبسُّمٌ وقطوبٌ فى ندًى ووغًى   كالرعدِ والبرقِ تحت العارضِ البردِ

وجعله من أحسن التشبيهات وأقربها . وإن كان قد أخذ عليه عدم ترتيب التفسير فيه ؛ فإنه قال تبسم وقطوب فى ندى ووغى . أى أن الممدوح يبتسم وقت الندى ويقطب وقت الوغى . ثم قال : كالرعد والبرق تحت العارض البرد . وكان الأولى – فى رأى ابن الأثير – أن يقدم تفسير التبسم على تفسير القطوب فيقول : كالبرق والرعد . وقد ذهب هذا على البحترى على قربه ومع تقدمه فى صناعة الشعر . وليس فى ذلك كبير أمر سوى أن كان قدم ما أخر لا غير ، وليس فى ذلك إخلال بوزن الشعر ولا قافيته . وإنما يعذر الشاعر فى مثل ذلك إذا حكم الوزن والقافية . أما فى مثل هذا البيت فلا عذر له [٤] .

---

١ – ديوان البحترى ٢ / ١٩٢ .
٢ – المثل السائر ١ / ٣٩٣ .
٣ – ديوان البحترى ٢ / ٢٥ .
٤ – المثل السائر ١ / ٣٨٥ .

هذا كلام ابن الأثير . وإن كان من الممكن أن يقال إن البحترى أراد أن يفسر حالتى الممدوح فى تبسمه وقطوبه بالرعد والبرق اللذين يسبقان العارض البرد . أى أن الرعد والبرق معا يفسران حالة القطوب لدى الممدوح ، والعارض البرد يفسر حالة التبسم وقت الندى ، خاصة وأن هناك ما يجمع بين الحالتين وهو الجود والعطاء . ويكون هذا من باب اللف والنشر غير المرتب . ومع هذا كله فقد وجدت البيت فى الطبعة التى لدىَّ من الديوان كما تمناه ابن الأثير بتقديم البرق على الرعد .

– وأعجب ابن الأثير ببيت البحترى فى مدح الفتح بن خاقان [١] :

بعيدُ مقيلِ الصدرِ لا يدرِكُ التى   يحاولُهـا منه الأريبُ المخادِعُ

وذلك لما فيه من الإبهام الذى يذهب الخاطر فى تفسيره كل مذهب فى قوله : (التى يحاولها [٢]) .

– وفيما يتعلق بنقد الألفاظ عاب ابن الأثير على البحترى استعماله لبعض الألفاظ المبتذله بين العامة . كلفظة (الزاج) فى قوله [٣] :

وجوهُ حسّادِك مسودَّةٌ   أم صُبغتْ بعدِىَ بالزَّاجِ

فلفظة (الزاج) من أشد ألفاظ العامة ابتذالا يجدر بالشاعر تجنب استعمالها [٤] .

---

١ – ديوان البحترى ١ / ٧٣ . ونص البيت فى الديوان : مبيد فقال السر لا يدرك الذى يحاوله ...

٢ – المثل السائر ٢ / ٢٦ .

٣ – لم أعثر على البيت فى ديوان البحترى .

٤ – المثل السائر ١ / ١٧٨ .

كما عاب ابن الأثير بيت البحترى [١] :

ما أحسنَ الأيامَ إلا أنَّـها   يا صاحِبَيَّ إذا مضَتْ لم ترجعِ

وأنزل منه لما فيه من تطويل لا داعى له . فإن كلمة (يا صـــاحبى) فيه زيادة لا حاجة بالمعنى إليها إلا أنها وردت لتصحيح وزن البيت فقـط . فهى من تلك الألفاظ التى تأتى للوصل دون حاجة المعنى إليـــها . وهـــذا بخلاف كلمة (أصبحوا) – وهى أيضا من ألفاظ الوصل – فى قوله [٢] :

قومٌ أهانُوا الوفرَ حتى أصبَحُوا   أولَى الأنام بكلِ عِرْضٍ وافِرِ

فهى فى هذا البيت بمعنى صاروا . أى أنهـــم صَـــاروا أولى النـــاس بالأعراض الوافرة . وهذه اللفظة لم ترد فى هذا البيت حشوا كلفظة (يـــا صاحبى) فى البيت السابق [٣] .

– ومما يتصل بالنقد اللغوى أخذ ابن الأثير على البحترى تفريقه بين الموصوف وصفته بضمير من تقدم ذكره – وجعل ذلك نوعا من المنافرة– فى قوله [٤] :

حلفتُ لها باللهِ يومَ التفرُّقِ   وبالوجدِ منْ قلبى بها المتعلَّقِ

فأصله (من قلبى المتعلق بها) فلما فصل بين الموصـــــوف وصفتـــه بالضمير قبح ذلك . ولو قال : (من قلبىالمتعلق بها) لزال ذلك القبح [٥] .

---

١ – ديوان البحترى ٢ / ٣١٣ .
٢ – ديوان البحترى ٢ / ٢٤٠ .
٣ – انظر المثل السائر ٢ / ٧٢ ، ٧٣ .
٤ – ديوان البحترى ١ / ٧٦ .
٥ – المثل السائر ١ / ٢٩٩ .

- ومما يتصل بنقد المعنى عاب ابن الأثير على البحترى قوله [١] :

شهدتُ لقد أنصفتهَ حين تنبرى له مصلِتاً عضباً من البيض مِقضَبَا

فلم أرَ ضرغامين أصدقَ منكما عراكًا إذا الهيَّابة النكسُ كذَّبَا

فقوله : (إذا الهيابة النكس كذبا) من التفريط فى المدح . فأى مدح فى إقدام الموضع الذى يفر منه الجبان ؟ وكان الأولى أن يقول : (إذا البطل كذبا) . وقد أحسن أبو تمام فى هذا المعنى حين قال :

فتىً كلما ارتادَ الشجاعُ من الرَّدَى مفراً غداةَ المأزقِ ارتادَ مصرَعا [٢]

- ومما يتصل بالنقد المتعلق بالنواحى الفنية فى القصيدة مثَّل ابن الأثير لبعض ابتداءات البحترى التى لم يوفق فيها . وقد وصف بعض النقاد البحترى بأنه لا يجيد الابتداء ولا يتكلف له ثم يجيد باقى القصيدة . فقد كان يصنع الابتداء سهلا ويأتى به عفوا وكلما تمادى قوى كلامه . وله من جيد الابتداءات كثير لكثرة شعره ، ولكن الغالب عليه عدم الجودة فى ذلك [٣] . غير أن القاضى الجرجانى ذكر أن البحترى يفضل كلا من أبى تمام والمتنبى بجودة الاستهلال - وهو الابتداء - فى شعره فإنه عنى به فاتفقت له فيه محاسن . وفضلهما عليه فى التخلص والخروج فقد ذهبا فى التخلص كل مذهب واهتما به كل اهتمام [٤] .

---

١ - ديوان البحترى ١ / ٨٣ .
٢ - المثل السائر ٢ / ٣٠٥ .
٣ - انظر العمدة ١ / ٢٣٢ .
٤ - انظر الوساطة بين المتنبى وخصومه ٤٤ .

ومن ابتداءات البحترى المكروهة قوله فى بداية قصيدته العينيـــة فى مدح الحسن بن وهب [(١)] :

فؤادٌ ملاه الحزنُ حتى تصدَّعا

" فإنه فى ابتداء المديح بمثل هذا طيرة ينبو عنها السمع ، وهو أجدر بأن يكون ابتداء مرثية لا مديح . وما أعلم كيف يخفى على مثل البحترى وهو من مفلقى الشعراء [(٢)] " .

كما عيب على البحترى تغزله باسم (تماضر) فى قوله [(٣)] :

إنَّ للبين مِنَّةً لا تؤدَّى ويدًا فى تماضرٍ بيضاءَ

فهذا الاسم وإن لم يكن مستقبحا فى معناه فإنه ثقيلٌ على اللسان مما يشوه رقة الغزل ويثقل من خفته [(٤)] .

– وفى باب التخلص اتهم ابن الأثير البحترى بتقصيره فى التخلص الحسن من معنى إلى معنى فى القصيدة الواحدة وخاصة فى التخلص من الغزل إلى المديح . فبعد أن قرر ابن الأثير أن الشعراء متفاوتون فى باب التخلص ، وأن الشاعر المفلق المشهور بالإجادة فى إيراد الألفاظ واختيار

---

١ – ما وجدته فى الديوان أن مطلع عينية البحترى فى مدح الحسن بن وهب هـو : ٢ / ٢٨٨ .

خذا من بكاء فى المنازل أودعا ورروحا على لومى بهن أو اربعا

٢ – المثل السائر ٢ / ٢٢٦ .

٣ – لم أعثر على هذه القصيدة بديوان البحترى .

٤ – المثل السائر ٢ / ٢٢٧ .

المعانى قد يتأخر فى هذا الباب اتخذ من البحترى مثالا على ذلك . وذكر أن مكانه من الشعر لا يجهل ، وشعره كالسهل الممتنع الذى تراه كالشمس قريبا ضوؤها بعيدا مكانها ، وكالقناة لينا مسها ، خشنا سنانها . وهو أيضا قينة الشعراء فى الإطراب وعنقاؤهم فى الإغراب . ومع ذلك فلم يوفق فى التخلص من الغزل إلى المديح بل اقتضبه اقتضابا . وذكر ابن الأثير أنه حفظ شعر البحترى فى هذا فلم يجدله فى هذا النوع من التخلص شيئا مرضيا إلا اليسير [١] . وهو فى هذا يذهب مذهب ابن رشيق الذى ذكر أن البحترى كان كثيرا ما كان خروجه غير متصل ، بل كان طفرا وانقطاعا [٢] .

ومن يسير البحترى فى حسن التخلص والخروج قوله فى قصيدته التى أولها [٣] :

حلفتُ لها باللهِ يومَ التفرّقِ ... وبالوجدِ من قلبى بها المتعلّقِ

فى مدح الفتح بن خاقان . فإنه تشوق فيها إلى العراق من الشام ، ووصف العراق ومنازله ورياضه فأحسن فى ذلك كله ، ثم خرج إلى مدح الفتح بن خاقان بسياقة آخذ بعضها برقاب بعض فقال :

رباعٌ من الفتحِ بن خاقانَ لم تزَلْ ... غِنًى لعديمٍ أوفكاكاً لمرهَقِ

ثم أخذ فى مدحه بعد ذلك بضروب من المعانى [٤] .

١ - انظر المثل السائر ٢ / ٢٤٩ .
٢ - انظر العمدة ١ / ٢٣٩ .
٣ - ديوان البحترى ١ / ٧٦ .
٤ - المثل السائر ٢ / ٢٥٠ .

ومن تخلصاته الحسنة أيضا قوله فى قصيدته التى أولها [١] :

مِيلُوا إلى الدارِ من ليلَى نحيِّيها ... نَعَمْ ونسألها عن بعضِ أهليها

فإنه وصف البركة فأبدع فى وصفها ثم خرج إلى مـــدح الخليفـــة المتوكل فقال :

كأنَّها حين لجَّتْ فى تدفُّقهـــا ... يدُ الخليفةِ لما سالَ واديها [٢]

ومنها أيضا قوله فى مطلع قصيدته فى مدح ابن بسطام [٣] :

نصيبُ عينِك من سحٍّ وتسجامِ

فقال عند تخلصه إلى المديح :

هل الشبابُ ملمٌّ بى فراجعةٌ ... أيامُـــهُ لى فـــى أعقابِ أيَّامِ

لو أنه بابلٌ عمرٌ يـــجاذبُـــهُ ... إذًا تطلبتُـــه عندَ ابن بسطامِ

ويذكر ابن الأثير أن هذا التخلص من المدائح فى هذا الباب ، وهـــو أحسن ما وجدوه له . وهو ما لطف فيه كل التلطف [٤] .

وما [illegible]ره ابن الأثير عن حسن التخلص فى الأمثلة السابقة حـــق . ومن [illegible] أيضا القول بأن أمثال هذه التخلصات فى شعر البحترى كثـــيرة وليست يسيرة كما يقول ابن الأثير ومن وافقه . فلو تتبعنا شعر البحـــترى وتخلصاته فى مقدمات قصائده من العزل إلى المديح لوجدناه فى معظمـــــها

---

١ - ديوان البحترى ١ / ٢٨ .
٢ - المثل السائر ٢ / ٢٥٠ .
٣ - لم أجد هذه القصيدة بديوان البحترى .
٤ - انظر المثل السائر ٢ / ٢٥٠ .

يتخلص فيها تخلصا حسنا . وكبار الشعراء فى كـــل عصـــر يقعـــون فى الاقتضاب مثلهم فى ذلك مثل البحترى . وتتبع ابن الأثير لشعر البحـتـرى وتخلصه فى قصائده وإحصائه لمرات اقتضابه فيها دون غيره من الشـــعراء هو الذى جعله يعتقد أن الاقتضاب فى شعره كثير . ولـــو تتبعنـــا هـــذه الظاهرة عند غيره من الشعراء الكبار لوجدناها عندهم كما هـــى عنـــد البحترى إن لم تكن أكثر . فليس البحترى بدعا فى ذلك .

ومثل ابن الأثير للاقتضاب فى شعر البحترى بانتقاله من الغـــزل إلى المديح انتقالا فجائيا فى قصيدته البائية فى مدح الفتح بن خاقان والمبـــدوءة بقوله [1] :

أجِدَّكَ ما ينفكُّ يسرِى لزينبا ... خيـــالٌ إذا آبَ الظلامُ تأَوَّبا

وهى من أمهات شعره غير أنه لم يوفق فى التخلص فيها . فبينا هـــو فى تغزله بقوله :

عهدتك إن منيتِ منيـــتِ موعـــدًا ... جهامًا وإن أبرقتِ أبرقـــتِ خلَّبَـــا

وكنتُ أرى أن الصدودَ الذى مضى ... دلالٌ فمـــا إن كـــانَ إلا تجنُّبَـــا

فوا أســـفَى حتَّـــامَ أســـألُ مانعـــًا ... وآمـــن خوَّانـــًا وأعتـــب مذنبـــا

إذ نراه ينتقل إلى المديح فيقول :

أقولُ لركبٍ معتفين تـــدرَّعُوا ... على عَجَلٍ قِطعًا من الليلِ غَيْهَبا

رِدُوانائلَ الفتح بن خاقان إنه ... أعـــمّ ندىً فيكم وأقربُ مطلبا

---

١ - ديوان البحترى ٨١/١ .

فخرج إلى المديح بغير وصلة ولا نسب [١] .

– ومن الاقتضاب أيضا فى شعر البحترى تخلصه فى قصيدته الرائية فى مدح الفتح بن خاقان وذكر نجاته عندما انخساف الجسر بـه . وهى المبدوءة بقوله [٢] :

متى لاحَ برقٌ أو بدا طَلَلٌ قفرُ جَرَى مستهلٌ لا بكيٌ ولا نَزْرُ

وذكر ابن الأثير أن البحترى أغرب فيها كل الإغراب ، وأحسن فيها كل الإحسان ولكنه لم يوفق فى التخلص فيها ؛ فبينا هو فى غزلها إذ انتقل إلى المديح فقال :

لعمرك ما الدنيا بنا قصةِ الجَدى إذا بَقِى الفتحُ بنُ خاقانَ والقطْرُ

فخرج إلى المديح مقتضبا له لا متعلقا به [٣] .

وكما ذكر ابن الأثير أن التخلص فى الشعر قليل ، ولا يكاد يوجد التخلص فى شعر الشعراء المجيدين إلا قليلا بالنسبة إلى المقتضب من أشعارهم . والبحترى فى هذا كغيره فلا يصح أن نتحامل عليه لشئ ليس هو بدعا فيه عن غيره .

– وفيما يتصل بالبديع فى شعر البحترى جعل ابن الأثير بيتى البحترى[٤] :

---

١ – المثل السائر ٢ / ٢٦٢ .
٢ – ديوان البحترى ١ / ٨٥ .
٣ – المثل السائر ٢ / ٢٦٣ .
٤ – ديوان البحترى ١ / ١٣ .

أحَلّتَّ دمِي من غير جُرْمٍ وحَرَّمتَ   بلا سَبَبٍ يومَ اللقاءِ كلامي
فليس الذى حللتـــه بمحلَّلٍ   وليس الذى حرمته بحرامِ

من باب الإرصاد الذى هو " أن يبنى الشاعر البيت من شعره على قافية قد أرصدها له أى أعدها فى نفسه ، فإذا أنشد صدر البيت عرف ما يأتى به فى قافيته [1] " . وجعل ذلك من محمود الصنعة ؛ فإن خير الكلام مادل بعضه على بعضه . فالسامع وقد عرف البيت الأول من بيتى البحترى وصدر البيت الثانى لا يذهب عليه أن عجزه هو ما قاله البحترى.

وقد أطلق أبو هلال العسكرى على هذا الضرب من الكلام اسم (التوشيح) . ومثل له بأمثلة عديدة منها البيت الثانى من بيتى البحترى السابقين[2] . ولم يوافقه ابن الأثير على ذلك وقال إن تسميته بالإرصاد أولى ؛ وذلك حيث ناسب الاسم مسماه ولاق به [3] .

ومن المعروف عن البحترى أنه لم يكن شغوفا بالبديع فى شعره وإنما كان يستخدم منه ما يستدعيه المعنى ويبتعد عن تكلفه . ولذلك كان البحترى أعرابى الشعر مطبوعا على مذهب الأوائل ، وما فارق عمود الشعر المعروف لأنه كان يؤمن بأن الشعر هو عملية فنية تعتمد على العاطفة والشعور لا على العقل والمنطق . وكان مع ذلك شديد العناية

---

١ - المثل السائر ٢ / ٣٢٩ .
٢ - انظر الصناعتين ٣٨٢ وما بعدها .
٣ - انظر المثل السائر ٢ / ٣٣١ .

باللفظ شديد الحرص على اختيار ألفاظ شعره وانتقائها بحيث تتلاءم مع الموضوع الذى ينظم فيه مع جنوح واضح إلى اللفظ القريب الفهم ، البعيد عن الإغراب والتعقيد .

– وعاب ابن الأثير على البحترى التقسيم فى قوله [١] :

قف مشوقًا أو مسعِدًا أو حزينا ... أو معينا أو عاذرًا أو عذولا

وحكم عليه بأنه من فساد التقسيم ؛ فإن المشوق يكون حزينا ، والمسعد يكون معينا ، وكذلك يكون المسعد عاذرا [٢] . وبذلك تكون الأقسام داخلة فى بعضها ولا يقوم كل قسم منها بنفسه . ومن شروط صحة التقسيم ألا تتداخل أقسامه بعضها فى بعض .

أما التقسيم فى قوله: [٣]

غادرتْهم أيدى المنايا صِحاحًا ... بالقنا بين رُكَّعٍ وسجودِ
فهم فرقتان بين قتيلٍ ... قُنِصَت نفسُه بحدِّ الحديدِ
أو أسيرٍ غدا له السجنُ لحدًا ... فهو حيٌّ فى حالةِ الملحودِ
فرقةٌ للسيوفِ ينفُذُ فيها ال ... حكمُ قصدًا وفرقةٌ للقيودِ

فهو تقسيم صحيح ؛ لأنه قسم المنهزمين بين قتيل وأسير ، وأبعد الناجين عن طريق المبالغة فى الإيقاع بهم . ولهذا حكم ابن الأثير على هذا

---

١ – ديوان البحترى ٢ / ٢٧٣ .
٢ – المثل السائر ٢ / ٢٩١ .
٣ – لم أعثر على الأبيات في ديوان البحترى

التقسيم بأنه تقسيم حسن [١] .

– وفى باب السرقات الشعريه ذكر ابن الأثير الكثير من أبيات شعر البحترى وحكم على كل منها بأن البحترى أخذها عن غيره ، كما فعل مع كل من أبى تمام والمتنبى . وفيما يلى بعض ما ذكره ابن الأثير فى هذا الباب .

جعل ابن الأثير معنى البيت الثانى من بيتى البحترى [٢] :

شيخانِ قد ثَقُلَ السلاحُ عليهما | وعداهما رأىُ السميعِ المبصرِ
رَكِبَا القَنَا من بعد ما حَمَلَا القنا | فى عسكرٍ متحاملٍ فى عسكرِ

مأخوذا من معنى بيت أبى تمام :

رعَتْه الفَيَافِى بعد ما كانَ حقبةً | رعاها وماءُ الروضِ ينهلُّ ساكِبُه

وفعلا نرى الشبه واضحا بين معنى البيتين ؛ فأبو تمام ذكر أن الجمل رعى الأرض زمنا ، ثم صار فيها فرعته أى أهزلته ، فكأنها فعلت به مثل ما فعل بها . وأخذ البحترى المعنى ونقله إلى وصف الرجلين بعلو السن والهرم ، فذكر أنهما كانا يحملان القناة فى القتال ، ثم صارا يركبانها أى يتوكآن عليها كما يتوكأ الشيخ الكبير على العصا . وهذا من الضرب الأول من السلخ حسب تقسيم ابن الأثير للسرقات الشعرية [٣] .

---

١ – المثل السائر ٢ / ٢٩٢ .
٢ – ديوان البحترى ٢ / ٢٦٧ .
٣ – انظر المثل السائر ٢ / ٣٥٤ .

وجعل ابن الأثير معنى قول البحترى [١] :

أعاتِكُ ما كان الشبابُ مقرِّبى　　إليكِ فألحىَ الشيبُ إذ هو مبعِدى

مأخوذا من قول أبى تمام :

لا أظلمُ النأىَ قد كانت خلائقُها　　من قبلِ وشكِ النوى عندى نوىً قذفا[٢]

وجعله ابن الأثير من الضرب، الأول من السلخ وهو أخذ الشـــاعر المعنى من غيره واستخراج منه معنى يشبهه .

وكذلك قول البحترى [٣] :

كل عيدٍ له انقضاءٌ وكــفِّى　　كلَّ يـــومٍ من جودِه فى عيدِ

فقد أخذه من قول علىّ بن جبلة :

للعيدِ يومٌ من الأيام منتظَــرٌ　　والناسُ فى كل يومٍ منك فى عيدِ [٤]

والتشابه واضح بين المعنى فى البيتين ، وإن كان علىّ بن جبلة قـــد جعل من وجود الممدوح عيدا دائما للناس كلهم ، أما البحترى فقد جعل من ممدوحه عيدا له أو لكفه فقط دون غيره . ولذا فأرى أن بيت علـــى ابن جبلة أحسن من بيت البحترى فى باب المديح .

وجعل ابن الأثير بيت البحترى [٥] :

جادَ حتى أفنى السؤالَ فلما　　بادَ منا السؤالُ جاد ابتداءَ

---

١ – ديوان البحترى ١/٢٢٠ .

٢ – المثل السائر ٢ / ٣٥٤ .

٣ – لم أعثر على البيت فى ديوان البحترى .

٤ – المثل السائر ٢ / ٣٥٦ .

٥ – ديوان البحترى ٢ / ٢٩٨ .

مأخوذا من قول على بن جبلة أيضا :

أعطيتَ حتى لم تَدَعْ لك سائلاً ... وبدأتَ إذ قطعَ العفاةُ سؤالَها [١]

وأيضا التشابه واضح بين المعنى فى البيتين . بل إن التشابه بين هذين البيتين أقوى من التشابه بين المعنى فى البيتين السابقين . كما أن بيت البحترى الأخير له صلة قوية بقول الشاعر سلم بن الخاسر فى مدح الخليفة المهدى:

أفنَى سؤالَ السائلين بجودِهِ ... مَلكٌ مواهبُه تروحُ وتغتدِى

هذا الخليفةُ جودُه ونوالُه ... نقدَ السؤالُ وجودُه لم ينفدِ

وجعل ابن الأثير قول البحترى [٢] :

قل الكرامُ فصارَ يكثُر مدحهُمْ ... ولقد يقلُ الشئُ حتى يكثُرا

مأخوذا من قول أبى تمام :

إن الكرامَ كثيرٌ فى البلادِ وإن ... قلُوا كما غيرُهم قلُوا وإن كثُروا

لكن البحترى كساه عبارة أحسن من عبارة أبى تمام فخرج به حسنه عن باب السرقة . وهذا من الضرب السابع من السلخ حسب تقسيم ابن الأثير للسرقات الشعرية [٣] .

وجعل ابن الأثير قول البحترى [٤] :

ومثلُك إن أبدَى الفعالَ أعادَه ... وإن صنعَ المعروفَ زادَ وتَمَّما

---

١ - المثل السائر ٢ / ٣٥٦ .
٢ - ديوان البحترى ١ / ٣٥٦ .
٣ - المثل السائر ٢ / ٣٦٦ .
٤ - ديوان البحترى ١ / ٩٤ .

مأخوذا من قول أبي تمام :

كَلِفٌ بربِّ المجدِ يعلم أنه　　　لم يَبْتَدِ أعرفَ إذا لم يُتَمِّمِ

فأبو تمام يقول : إن الممدوح يرب صنيعه أى يستديمه ويعلم أنه إذا لم يستدمه فما ابتدأه . والبحترى يقول : إنه يستديم صنيعه لا غير . وذلك بعض ما ذكره أبو تمام [1] .

كما جعل ابن الأثير قول البحترى [2] :

ادفَعْ بأمثالِ أبي غالبٍ　　　عادية العُدم أو استعفِفِ

مأخوذا من قول الشاعر :

انتجِ الفضلَ أو تخل عن الدنـ　　　ـيا فهاتان غاية الهممِ

وجعل ابن الأثير هذا من النوع الخامس من السلخ وهو أن يؤخذ بعض المعنى [3] .وقد سبق أن ذكرت أن الأولى إخراج مثل هذا من باب السرقات ؛ حيث لم يتناول الثانى غير يسير مما تناوله الأول ، فضلا عن أنه عبر عنه بصورة أخرى . ومن الأولى أن ينسب هذا إلى باب توارد الخواطر .

وجعل ابن الأثير قول البحترى [4] :

خلِّ عنا فإنما أنتَ فينا　　　واوُ عمرٍو أو كالحديثِ المُعَادِ

---

١ - المثل السائر ٢ / ٣٦١ .

٢ - ديوان البحترى ١ / ٢٢٢ .

٣ - المثل السائر ٢ / ٣٦١ ، ٣٦٢ .

٤ - لم أعثر على البيت فى ديوان البحترى .

مأخوذا من قول أبي نواس :

قل لمن يدّعي سليمًا سِفاهًا لســـتَ منها ولا قلامة ظفر

إنما أنتَ ملصَقٌ مثـــل واوٍ أُلحِقَتْ في الهجاء ظلمًا بعمرو

إلا أن البحتري زاد على أبي نواس في قوله (أو كالحديث المعـاد [١])

ورأى ابن الأثير في هذا حق . فلقد أخذ البحتري المعنى من بيتي أبي نواس وزاد عليه بأن شبهه بشيئين بدلا من تشبيهه بشئ واحد فصار له الفضـــل في ذلك مما يخفف اتهامه بالسرقة .

وجعل ابن الأثير قول البحتري [٢] :

ركبوا الفراتَ إلى الفراتِ فأمّلوا جذلانَ يبدع في السماحِ ويُغربُ

مأخوذا من قول مسلم بن الوليد :

ركبتُ إليه البحرَ في مواخِرِه فأوفتْ بنا من بعد بحرٍ إلى بحرِ

إلا أن البحتري زاد عليه بقولـــه :(جـــذلان يبـــدع في الســـماح ويغرب [٣]) . وأنا أرى رأى ابن الأثير في هذا . وإن كان معـــنى بيـــت البحتري أفضل من معنى بيت مسلم بن الوليد بهذه الزيادة التي زادها مـــن ناحية ، وبخلو بيته من التكرار من ناحية أخرى .

وجعل ابن الأثير قول البحتري [٤] :

وقد زادها إفراطَ حسنٍ جِوارُها لأخلاقِ أصفارٍ من المجدِ خيبِ

---

١ - المثل السائر ٢ / ٣٦٤ .

٢ - ديوان البحتري ٢ / ٢٧٠ .

٣ - المثل السائر ٢ / ٣٦٤ .

٤ - ديوان البحتري ١ / ٧٥ .

وحسنُ دراريِّ الكواكبِ أن تُرَى طوالعَ فى داجٍ من الليلِ غَيْهَبِ

مأخوذا من قول أبى تمام :

وكذاك لم تُفرط كآبةُ عاطـلٍ حتى يُجاورَها الزمانُ بحالِ

إلا أن البحترى قد زاد المعنى المأخوذ توضيحا وبيانا بهذا المثال الذى ضربه له [1] . وأنا أرى أن زيادة بيان الشاعر للمعنى وضربه مثالا له يزيده حسنا وتوضيحا يخرجه من باب السرقة .

وهذا يسير من كثير من شعر البحترى التى توقف معها ابن الأثير فى مواضع مختلفة من كتابه المثل السائر .

سادسا : نقد ابن الأثير للمتنبى .

أبو الطيب المتنبى هو ثالث الشعراء العرب الكبار بعد أبى تمام والبحترى ، والذين فضلهم ابن الأثير على غيرهم من الشعراء العرب ، ومثل لهم بكثير من الأشعار فى كتابه المثل السائر .

وسبق أن عرفنا أن ابن الأثير جعل المتنبى مع أبى تمام والبحترى بمثابة لات الشعر وعزاه ومناته الذين ظهرت على أيديهم حسنات الشعر ومستحسناته ، وحوت أشعارهم غرابة المحدثين إلى جانب فصاحة القدماء، وجمعت بين الأمثال السائرة وحكمة الحكماء [2] .وذكر أنه وقف على

---

١ - المثل السائر ٢ / ٣٧٢ .

٢ - المثل السائر ٢ / ٣٤٨ .

أشعار الشعراء قديمها وحديثها فلم يجد أجمع من ديـــوان أبي تمـام وأبي الطيب للمعاني الدقيقة ، ولا أكثر استخراجا منهما للطيـــف الأغـراض والمقاصد ، ولم يجد أحسن تهذيبا للألفاظ من البحترى ، ولا أنقش ديباجـة ولا أبهج سبكا [١] .

ويرى ابن الأثير أن المتنبى أراد أن يسلك مسلك أبي تمام فى شـــعره فقصرت عنه خطاه ، ولكنه حظى فى شعره بالحكم والأمثال ، واختـــص بالإبداع فى وصف مواقف القتال ؛ وذاك أنه إذا خاض فى وصف معركـة كان لسانه أمضى من نصالها ، وأشجع من أبطالها ، وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها . حتى نظن الفريقين قد تقابلا ، و السلاحين قد تواصـــلا . وكان يشهد الحرب مع سيف الدولة فيصف لسانه ما أدى إليه عيانـــه . ومع ذلك فإن الناس عادلين فيه عن سنن التوسط ؛ فإما مقصر فى وصفـه وإما مفرط . وعلى كل فهو خاتم الشعراء ، ومهما وصف به فهو فـــوق الوصف والإطراء . ولقد صدق فى قوله فى مدح سيف الدولة [٢]:

لا تطلبَنَّ كـريمًا بعدَ رؤيتـِهِ ... إن الكـرامَ بأسخاهم يدًا خُتِمُوا
ولا تبالِ بشعرٍ بعدَ شاعِـرِه ... قد أُفسِد القولُ حتى أُحمِدَ الصَّمَمُ

ويقسم ابن الأثير شعر المتنبى من حيث درجاتِ الجودة فيه إلى خمسة أقسام : خُمس فى الغاية التى انفرد بها دون غيره ، وخُمس من جيد الشـــعر

---

١ - المثل السائر ٢ / ٣٥٠ .
٢ - ديوان المتنبى - شرح عبد الرحمن البرقوقى - دار الكتاب العربى - بيروت - طبعـة عام ١٩٨٦ م - ٤ / ١٤٢ .

الذى يساويه فيه غيره ، وخُمس من متوسط الشعر ، وخُمس دون ذلك ، وخُمس فى الغاية المتقهقرة التى لا يعبأ بها وعدمها خير له من وجودها ، ولو لم يقلها أبو الطيب لوقاه الله شرها فهى التى ألبسته لباس الملام ، وجعلته عرضة لسهام الأعداء [١] .

ويذكر الدكتور إحسان عباس أن تقسيم ابن الأثير لشعر المتنبى إلى الأقسام الخمسة السابقة تقسيم ينبع من شغف ابن الأثير بالقسمة فقط . " وإلا فلو أنك جعلت شعر أبى الطيب فى ثلاثة أصناف أو عشرة أوفيما بين ذلك لوجدت المجال النسبى يفسح للقسمة صدره سواء قلت الأقسام أو كثرت [٢] " .

وأنا أرى أن ما قام به ابن الأثير يعبر عن رأيه هو فى شعر المتنبى ، وعن رؤيته فى تدرجه فى درجات الجودة إلى هذه المراتب الخمس ، وقديرى الدكتور إحسان عباس أو غيره رأيا آخر فيقسمه تقسيما مخالفا لما ذكره ابن الأثير . وهذا شئ طبيعى يخضع لرؤية الناقد وذوقه ونظرته لشعر الشاعر .

هذا وقد توقف ابن الأثير مع الكثير مع أبيات شعر أبى الطيب المتنبى ، وأصدر عليها الأحكام النقدية المعبرة عن رأيه فيها وتذوقه لها . وفى الصفحات القادمة بعض ما ذكره ابن الأثير من شعر المتنبى ورأيه فيها.

---

١ - المثل السائر ٢ / ٣٤٩ .

٢ - تاريخ النقد الأدبى عند العرب - ط ٢ - ص ٥٩٩ .

- أعجب ابن الأثير ببيت المتنبى فى الهجاء [١] :

إذا شاءَ أن يلهُو بلحيةِ أحمَقٍ   أراه غبارِى ثم قال له الحَقِ

ووصف هذا البيت بالعذوبة والرقة ثم قال عنه : " ومن الذى يستطيع أن يسلك مسلك هذه الطريق التى هي سهلة وعرة ، قريبة بعيدة[٢] ؟ " .

- ومما يتصل بظاهرة التكرار فى شعر المتنبى علق ابن الأثير على توكيد الضميرين مع تكراره فى قوله [٣] :

قبيلٌ أنتَ أنتَ وأنتَ منهمْ   وجدُّك بشرٌ الملكُ الهمامُ

فتوكيد الضميرين فى البيت فى قوله (أنت أنت) أفاد المبالغة فى المدح ، ولو مدحه بما شاء الله لما سد مسد قوله : (أنت أنت) . أى أنك المشار إليه بالفضل دون غيره . ولكن البيت كله ليس بالمرضى فى رأى ابن الأثير لأن سبكه عار من الحسن لما فيه من تكرار الضمير المنفصل (أنت) ثلاث مرات متوالية ، بجانب ما فيه من تقديم وتأخير [٤] .

وأنا مع ابن الأثير فى استهجان التكرار فى هذا البيت ؛ لأنه يؤدى إلى الثقل ويبعد الحسن عن البيت . وقد رأى ابن سنان الخفاجى أيضا قبح

١ - ديوان المتنبى ٣ / ٥٧ .
٢ - المثل السائر ١ / ١٧٩ .
٣ - ديوان المتنبى ٤ / ١٩٩ .
٤ - المثل السائر ٢ / ٢٠ ، ٢١ .

التكرار فى هذا البيت وذكر أن ممازاده قبحا وقوعه بغير فصل [١] .

كما اعترض ابن الأثير على التكرار واستهجنه فى بيت المتنبى [٢] :

ولم أرَ مثلَ جيرانى ومثلِى　　لمِثلِى عند مثلهمُ مقامُ

ورآه تكرارا فاحشا يؤثر فى الكلام نقصا . فالشاعر يريد أن يقول: لم أر مثل جيرانى فى سوء الجوار . ولم أر مثلى فى مصابرتهم ومقامى عندهم. إلا أنه قدر هذا المعنى فى البيت مرتين ، وكرر لفظة (المثل) أربع مرات [٣] .

ومثل هذا التكرار المعيب فى شعر المتنبى التكرار فى قوله [٤] :

فقلقلتُ بالهمِّ الذى قلقلَ الحشَا　　قلاقلَ عيسٍ كلهن قلاقلُ

وأنا أرى أن التكرار فى هذا البيت أشد عيبا ، وأفحش سوءا لثقل اللفظ المكرر وهو القلقلة . وقد رأى فيه ابن سنان هذا الرأى حيث جمع فيه كلمة مكررة الحروف فجمع القبح بأسره فى صيغة اللفظة نفسها ، ثم فى إعادتها وتكرارها [٥] .ومثل هذا التكرار المعيب يذهب بفصاحة الكلام، ويقلل من جودته وبهائه . يقول ابن سنان فى ذلك : " وما أعرف شيئا يقدح فى الفصاحة ، ويغض من طلاوتها أظهر من التكرار لمن يؤثر

---

١ - سر الفصاحة ٩٧ .

٢ - ديوان المتنبى ٤ / ١٩٤ .

٣ - المثل السائر ٢ / ١٦٠ .

٤ - ديوان المتنبى ٣ / ٢٩٣ .

٥ - سر الفصاحة ٩٦ .

تجنبه وصيانة نسجه عنه ، إذ لا يحتاج إلى كبير تأمل ولا دقيق نظر [١] ".

أما عن التكرار فى قول المتنبى [٢] :

العارضُ الهتنُ ابن العارضِ الهتنِ ابن العارضِ الهتنِ ابن العارضِ الهتنِ

فقد دافع عنه ابن الأثير ضد من رأى أنه تكرار لا حاجة به إليـــه ، وذكر أن البيت ليس به تكرار . فإنه بمنزلة من يقول : الموصوف بكـــذا وكذا ابن الموصوف بكذا وكذا ، أى إنه عريق النسب فى هذا الوصـف . وقد ورد مثله فى الحديث النبوى فى مثل قوله ﷺ فى وصـــف يوســف الصديق - عليه السلام - : " الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكـــريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم " . فالبيت كالخبر مـــن جهـة المعنى سواء بسواء لكن لفظه ليس بمرضى على الوجه الذى استعمل فيه . فإن الألفاظ إذا كانت حسنة حال انفرادها فإن استعمالها فى حال الترتيب يزيدها حسنا على حسنها أو يذهب ذلك الحسن عنها . ولو عبر المتنـــى بلفظة السحاب أو ما يجرى مجراها لكان أحسن من التعبـــير بالعـــارض . وكذلك لفظة (الهتن) فإنها ليست بمرضية فى هذا الموضع علـــى هـــذا الوجه.

ولفظة العارض وإن كانت قد وردت فى القرآن الكريم [٣] ، وهـــى

---

١ - سر الفصاحة ٩٨ .

٢ - ديوان المتنبى ٤ / ٣٤٨ .

٣ - فى مثل قوله تعالى : " فلما رأوه عارضًا مستقبلَ أوديتِهمْ قالوا هذا عارضٌ ممطرُنــا ... " الآية ٢٤ من سورة الأحقاف .

لفظة حسنة فالفرق بين ورودها فى القرآن الكريم وورودها فى هذا البيت ظاهر [١] .

وحكم ابن سنان الخفاجى على التكرار فى هذا البيت بأنه " من أقبح التكرار وأشنعه ، وإذا كان يقبح تكرار الحروف المتقاربة المخارج فتكرار الكلمة بعينها أقبح وأشنع [٢] " .

وأنا أرى أن التكرار فى هذا البيت - كما قال ابن سنان - من أقبح التكرار وأشنعه ؛ لأنه تكرار لا فائدة منه ، وكان يمكنه اختصار ألفاظ البيت بالقول بأن الممدوح هو العارض الهتن ابن الكرام مثلا ، بدلا من أن يجعل البيت كله عبارة عن كلمتين مكررتين أربع مرات مهما كان غرضه من هذا التكرار .

- ومما يتصل بنقد المعنى ما تعلق به ابن الأثير على قول المتنبى فى عضد الدولة بن بويه وولديه [٣] :

وأنت الشمسُ تبهرُ كلَّ عينٍ ... فكيف وقد بدتْ معها اثنتان

فعاشَا عيشةَ القمرينْ يحبا ... بضوئهما ولا يتحاسَدان

ولا مَلَكا سوى مُلكِ الأعادى ... ولا وَرِثا سِوى من يَقتُلان

وكان ابنا عدوٍ كاثراه ... له ياءَىْ حروفِ أنيْسِيان

فقد جعل ابن الأثير المعنى فى البيت الأخير من الأبيات معنى مبتدعا.

---

١ - المثل السائر ٢ / ١٥٨ .

٢ - سر الفصاحة ٩٥ .

٣ - ديوان المتنبى ٤ / ٣٩٥ .

أى أن زيادة أولاد عدوك كزيادة ياء التصغير فإنها زيادة تدل على نقص[١]. وهذا المعنى – وإن كان مبتدعا فى رأى ابن الأثير – إلا أن استعمال المصطلحات النحوية والصرفية فى الشعر غير مستحسن . وهذا ما قلل من شأن البيت كما يرى ابن سنان الخفاجى [٢] . وقد رأي ابن الأثير هذا الرأى فى موضع سابق من كتابه حيث ذكر أن سبك هذا البيت قد شوهه وأذهب طلاوة المعنى المندرج تحته [٣] .فهو يرى أن المعنى فى هذا البيت وإن كان مبتدعا إلا أن المتنبى أساء التعبير عنه باستخدامه المصطلحات النحوية والصرفية فيه .

ومن أشعار المتنبى التى يرى ابن الأثير أنها تحمل معنى مبتدعا لم يسبق إليه قوله [٤] :

أجزنى إذا أنشِدتَ شعراً فإنما بشعرى أتاك المادحُون مردَّدا
ودَعْ كلَّ صوتٍ بعد صوتِى فإننى أنا الصائحُ المحكىُّ والآخَرُ الصَّدَى

" فالبيت الأول قد توارد على معناه الشعراء قديما وحديثا . لكن البيت الثانى فى التمثيل الذى مثله ليس لأحد إلا له [٥]".

ومن المعانى المبتدعة ما عبر عنه المتنبى بقوله [٦] :

---

١ – المثل السائر ٢ / ٣٤٤ .
٢ – انظر سر الفصاحة ١٥٩ ، ١٦٠ .
٣ – انظر المثل السائر ١ / ٣١٧ .
٤ – ديوان المتنبى ٢/١٤ .
٥ – المثل السائر ١ / ٣١٦ .
٦ – ديوان المتنبى ٢ / ٨٩ .

بهجـــرِ سيوفكِ أغمادَها　　تمنى الطُّلى أن تكون الغمودا
إلى الهام تصدرُ عن مثلِه　　ترى صدراً عن ورودٍ ورودا

ومنها قوله فى بدر بن عمار يهنئه ببرئه من مرض [١]:

قُصِدْتَ من شرقها ومغربها　　حتى اشتكتكَ الركابُ والسُّبل
لم تُبقِ إلا قليـــلَ عـــافيةٍ　　قـــد وفـــدَتْ تجتديكَها العِلَلُ

وذكر ابن الأثير أنه قرأ كثيرا من أشعار الفحول قديما وحديثا فلـــم يجد لأحد منهم فى ذكر المرض مايعد معنى مخترعا ، ولم يجد لهـــم شـــيئا مرضيا مثل ما للمتنبى فى هذا الباب . والبيت الثانى من بيتيه المذكوريـــن يحمل معنى مخترعا له ، وقد أحسن فيه كل الإحسان [٢] .

وأنا أوافق ابن الأثير على ما قاله بشأن هذا البيت وإن كانت لفظـــة (تجتديكها) قد أنزلت منه بعض الشئ بثقلها وتعسر النطق بها .

ومن المعانى المبتدعة فى شعر المتنبى أيضا ما عبر عنه فى قوله [٣] :

فإن تفقِ الأنامَ وأنتَ منهم　　فإن المسكَ بعضُ دمِ الغزالِ

— ومن النقد المتعلق بالنواحى الفنية فى القصيدة تعرض ابن الأثـــير لمطالع بعض قصائد المتنبى ؛ فذكر أن المتنبى له بعـــض المطـــالع الحســـان الجيدة، وله بجانب ذلك بعض المطالع التى لم يوفق فيها .

أما عن مطالعه الجيدة فهى كثيرة فى شعره ، ومنها قوله فى مطلـــع

---

١ – ديوان المتنبى ٣ / ٣٣٤ .
٢ – المثل السائر ١ / ٣١٧ .
٣ – ديوان المتنبى ٣ / ١٥١ .

قصيدته الدالية فى مدح كافور الإخشيدى - وقد جرت بينه وبين ابن سيده نزغة - فبدأ قصيدته بذكر الغرض المقصود - وهو من البديع النادر - كما يقول ابن الأثير [١] - فقال [٢] :

حَسَمَ الصلحُ ما اشتهتهُ الأعادِى　　　وأذاعته ألسنُ الحُسَّادِ

وقوله - وقد فارق سيف الدولة وسار إلى مصر فجمع بين ذكر فراقه إياه ولقائه كافورا فى أول بيت من القصيدة [٣] :

فراقٌ ومن فارقتُ خيرُ مذمَّمِ　　　وأمٌّ ومن يممتُ خيرُ ميمَّمِ

ومنها قوله متغزلا [٤] :

أترَاها لكثرةِ العشَّاقِ　　　تحسَبُ الدمعَ خلقةً فى المآقِى

وغير ذلك كثير [٥] .

وقد أصاب ابن الأثير فى حكمه على هذه المطالع وغيرها من مطالع شعر المتنبى . فهى من المطالع الحسنة التى تناسب كل منها موضوع القصيدة ومناسبتها . بجانب ما اتصفت به ألفاظها من حسن ورقة ، وما اتسم به أسلوبها من وضوح ، ومعانيها من بيان وقوة .

وقد أعجبنى كثيرا مطلع المتنبى فى قصيدته الدالية فى مدح

---

١ - المثل السائر ٢ / ٢٣٠ .
٢ - ديوان المتنبى ٢ / ١٣١ .
٣ - ديوان المتنبى ٤ / ٢٦٣ .
٤ - ديوان المتنبى ٣ / ١٠١ .
٥ - المثل السائر ٢ / ٢٣٠ .

سيف الدولة [١] :

لكلِّ امرئٍ من دهرِه ما تعوَّدا وعاداتُ سيفِ الدولةِ الطعنُ فى العدا

حيث استهل الشاعر مطلعه - كما يقول الدكتور أحمد بدوى - بقاعدة أو حكمة يسلم بها الجميع وهى تعنى أن كل إنسان يعيش على ما اعتاده فى هذه الحياة لا يستطيع فكاكا عنه ، ثم رتب على هذه القاعدة حكمه الذى أراد أن يقنع بها السامع وهو أن سيف الدولة قد اعتاد على طعن الأعداء فى ميادين القتال ، وهو لذلك لا يستطيع أن يترك هذه العادة . والنتيجة هى أنه شجاع مطبوع على الشجاعة وحب القتال [٢] .

أما عن المطالع التى لم يوفق فيها المتنبى فمنها قوله فى مطلع قصيدته فى مدح محمدِ بن سيار التميمى [٣] :

أقلُّ فعَالى بلهُ أكثرَه مجدُ وذا الجدِ فيه -نلتُ أم لم أنلْ- جدُّ

وذلك لما فى ألفاظه من قلق وتنافر بسبب إكثار الشاعر من حرفى الجيم واللام .

ومنها قوله فى مطلع قصيدته الميمية [٤] :

كُفِّى أرانى ويكِ لومكِ ألوَمَا همٌّ أقامَ على فؤادٍ أنجُما

---

١ - ديوان المتنبى ٢ / ٣ .

٢ - انظر أسس النقد الأدبى عند العرب - د/ أحمد أحمد بدوى - دار نهضة مصر - ط عام ١٩٩٤ م - ص ٢٩٩ .

٣ - ديوان المتنبى ٢ / ٩١ .

٤ - ديوان المتنبى ٤ / ١٤٣ .

وذلك لما فيه من تكلف وترتيب متعسف ومعنى غير بديع . وجعل أبو هلال هذا المطلع وأمثاله من مطالع المتنبى غير الصائبة " ابتداءات المصائب وفراق الحبائب [1] ". وهذا يبين مدى قبحها وعدم توفيقه فيها .

- كما توقف ابن الأثير مع تخلصات المتنبى وخروجه فى قصائده من معنى إلى آخر ، فذكر أن للمتنبى تخلصاته الحسنة ، ومنها تخلصه من حديثه عن نفسه إلى مدح سيف الدولة فى قصيدته الدالية فى قوله [2] :

وأُوردُ نفسِى والمهندُ فى يدِى ... مواردَ لا يُصْدِرْنَ من لا يجالدُ

ولكنّ إذا لم يحمل القلبُ كفَّه ... على حالةٍ لم يحمل الكفَّ ساعدُ

خليليَّ إنى لا أرَى غيرَ شاعرٍ ... فكم منهمُ الدعوَى ومنى القصائدُ

فلا تعجَبَا إن السيوفَ كثيرةٌ ... ولكنَّ سيفَ الدولةِ اليومَ واحِدُ

وأبدى ابن الأثير إعجابه بحسن التخلص فى هذه الأبيات فقال : " وهذا هو الكلام الآخذ بعضه برقاب بعض . ألا ترى إلى الخروج إلى مدح الممدوح فى هذه الأبيات كأنه أفرغ فى قالب واحد . ثم إن أبا الطيب جمع بين مدح نفسه ومدح سيف الدولة فى بيت واحد . وهو من بدائعه المشهورة [3] " .

ومن تخلصات المتنبى الحسنة أيضا تخلصه فى قوله من قصيدته فى

---

١ - الصناعتين ٤٣٥ .

٢ - ديوان المتنبى ١/ ٣٩٤ .

٣ - المثل السائر ٢ / ٢٤٧ .

مدح أبى أيوب أحمد بن عمران (١) :

ومطالب فيها الهلاك أتيتها ثبت الجنان كأننى لم آتها
ومقانب بمقانب غادرتها أقوات وحش كن من أقواتها
أقبلتها غرر الجياد كأنما أيدى بنى عمران فى جبهاتها
الثابتين فروسة كجلودها فى ظهرها والطعن فى لباتها
فكأنها نتجت قياما تحتهم وكأنهم ولدوا على صهواتها
تلك النفوس الغالبات على العلا والمجد يغلبها على شهواتها
سقيت منابتها التى سقت الورى بيدى أبى أيوب خير نباتها

ففى هذه الأبيات - كما يقول ابن الأثير - تخلصان بديعان : " فالأول خرج به إلى مدح قوم الممدوح ، والثانى خرج به إلى نفس الممدوح . وكلاهما قد أعرب فيه كل الإغراب (٢) " .

هذا وقد عرف عن أبى الطيب براعته فى التخلص من فن إلى فن ، وتفوقه فى ذلك على غيره . وفى ذلك يقول ابن رشيق : " وأكثر الناس استعمالا لهذا الفن أبو الطيب ؛ فإنه ما يكاد يفلت له ولا يشذ عنه حتى ربما قبح سقوطه فيه (٣) " . كما امتدح ابن رشيق أبا الطيب على براعته فى البدء والخروج والانتهاء معا ، فقال : " وقد أربى أبو الطيب على كل شاعر فى جودة فصول هذا الباب الثلاثة إلا أنه ربما عقد أوائل الأشعار

---

١ - ديوان المتنبى ١ / ٣٥٠ .
٢ - المثل السائر ٢ / ٢٤٨ .
٣ - العمدة ١ / ٢٣٤ .

ثقة بنفسه وإغرابا على الناس [1] " .

على أن المتنبى قد وقع فيما يقع فيه غيره فى هذا الباب من سوء التخلص وقبحه . فالشعراء - كما يقول ابن الأثير - متفاوتون فى هذا الباب ، وقد يقصر عنه الشاعر المفلق المشهور بالإجادة فى إيراد الألفاظ واختيار المعانى كالبحترى [2] الذى عرف عنه كثرة قبح تخلصه من الغزل إلى المديح .

أما المتنبى فقد يقع له فى الخروج ما كان تركه أولى به وأشعر له - كما يقول ابن رشيق - وربما أوقعه فيه حب الإغراب فى باب التوليد ، حتى جاء بالغث البارد والبشع المتكلف [3] .

ومن تخلصات المتنبى القبيحة تخلصه من الغزل إلى المديح فى قوله يمدح على بن إبراهيم التنوخى [4] :

غدا بكَ كلُّ خِلوٍ مستهامًا ... وأصبحَ كل مستورٍ خليعا
أحبُّكَ أو يقولوا جرَّ نملٌ ... ثَبيرًا وابنُ إبراهيمَ رِيعا

فقد جعله ابن الأثير تخلصا باردا ليس عليه من مسحة الجمال شئ ، حتى إن الاقتضاب ههنا كان أحسن من التخلص . وسبب هذا أن الشاعر استكره التخلص وأتى به على غير طبيعته . ولذا ينصح ابن الأثير الشاعر

---

١ - العمدة ١ / ٢٣٩ .
٢ - المثل السائر ٢ / ٢٤٩ .
٣ - العمدة ١ / ٢٤٠ .
٤ - ديوان المتنبى ٢ / ٣٦٠ .

فى هذا الباب أن ينظر ما يصوغه فإن واتاه التخلص حسنا كما ينبغى فليأته ، وإلا فليدعه ولا يستكرهه كما فعل أبو الطيب [١] .

وقد اتفق ابن الأثير فى استقباح تخلص المتنبى فى هذين البيتين مع ابن رشيق الذى علق على التخلص فيهما فقال : " فهذا من البشاعة والشناعة بحيث لا يخفى على أحد . وما أظنه سرق هذا المعنى الشريف إلا من كذبة كذبها أبو العباس الصيمرى على لسان رجل زعم أنه قال : رأيت رجلا نام ويده غمرة (أى دنسة) فجره النمل ثلاثة فراسخ . فقد جعل أبو الطيب مكان الرجل جبلا [٢] " .

كما عاب ابن الأثير على المتنبى تخلصه فى قوله من قصيدته التى يمدح بها سعيد بن عبد الله الكلابى المنبجى [٣] :

علَّ الأميرَ يرى ذلى فيشفعَ لى إلى التى تركتْنى فى الهوَى مَثَلا

وذكر أن الإضراب عن مثل هذا التخلص خير من ذكره [٤] .

وسبب قبح التخلص هنا أن الشاعر جعل المدوح ساعيا فى الوصال بينه وبين محبوبته ، وهذه جلافة فى مخاطبة الممدوح . وذكر ابن الأثير أن المتنبى تأثر فى هذا المعنى بأبى نواس فوقع فيما وقع فيه أبو نواس، وكان الأجدر به أن يتجنب ما وقع فيه صاحبه . وبيت أبى نواس هو :

---

١ - انظر المثل السائر ٢ / ٢٥٨ .
٢ - العمدة ١ / ٢٤٠ .
٣ - ديوان المتنبى ٣ / ٢٨٤ .
٤ - المثل السائر ٢ / ٢٥٩ .

سأشكو إلى الفضلِ بن يحيى بن خالدٍ   هـواكِ لعلَّ الفضلَ يجمعُ بيننا

والمعنى واحد فى البيتين . غير أن بيت أبى نواس أفضل من بيت المتنبى ؛ فإن أبا نواس احتفظ لنفسه بكرامتها وجعل فتاته هى الأخوى فى حاجة إلى وساطة الفضل بن يحيى مثل الشاعر حتى يتمكنا من الوصال . أما المتنبى فيقهم من بيته أن فتاته أهدرت كرامته وجعلته مثلا فى الهوى والتندر ، ولم يعد يجد خلاصا مما هو فيه إلا بذهابه إلى الأمير واستشفاعه به .

وذكر ابن الأثير أن أبا نواس قد تأثر هو الآخر فى المعنى المذكور بقيس بن ذريح ، ولكنه أفسد المعنى ولم يأت به كما أتى به قيس . وذلك أن قيسا لما هام بلبنى فى كل واد وجن بها رق له الناس ورحموه فسعى له ابن أبى عتيق إلى أن طلقها من زوجها وأعادها إلى قيس فزوجها إياه ، فقال قيس يشكره [1] :

جزى الرحمنُ أفضلَ ما يجازى   على الإحسانِ خيرًا من صديقِ
وقد جَرَّبتُ إخوانى جميعًا   فما ألفيتُ كابنِ أبى عتيقِ
سعى فى جمع شملى بعدَ صَدعٍ   ورَأْيٍ حرتُ فيه عن طريقى
وأطفَى لوعةً كانت بقلبى   أغصَّتنى حرارتها بريقى

وأنا أخالف ما ذكره ابن الأثير بأن بين كلام قيس وكلام أبى نواس بون بعيد ؛ فالمعنى فيهما واحد وهو مساعى الممدوح فى إعادة التواصل

---

١ - المثل السائر ٢ / ٢٥٩ .

بين الشاعر وبين من يحبها من الفتيات . وإن كان قيس قال أبياتـــه بعـــد نجاح مساعى الممدوح فعلا . أما أبو نواس - ومثله المتنبى - فتمـــنى أن يحقق له الممدوح ذلك .

- ومن النقد المتصل بنقد المعنى الشعرى فى بعض أبيات المتنبى نقـد ابن الأثير لقوله فى مدح كافور الإخشيدى [١] :

فما لكَ تُعنَى بالأسنةِ والقَنا   وجدُّك طعَّانٌ بغير سنانِ ؟

فقد أبان ابن الأثير أن هذا البيت، أقرب إلى الذم منه إلى المـــدح ؛ لأنه يقول للممدوح : لم تبلغ ما بلغته بسيفك واهتمامك بل بجد وسعادة. وهذا لا فضل فيه لأن السعادة تنال الخامل والجاهل ومن لا يستحقها[٢].

وهذا البيت يذكرنا ببيت النابغة الذبيانى فى مـــدح النعمـــان بـــن المنذر[٣]:

تخفُّ الأرضُ إن تفقِدْكَ يومًا   وتبقَى ما بقيتَ بها ثقيلا

وقد قال النعمان للشاعر حينما استمع إلى هذا البيت : " هذا بيـت إن أنت لم تتبعه بما يوضح معناه كان إلى الهجاء أقرب منه إلى المديـــح .... فإن أنت أتبعته ما يوضح معناه فلك مائة من العصافـــير النجـــائب وإلا فضربة بالسيف أخذت منك ما أخذت [٤] " .

---

١ - ديوان المتنبى ٤ / ٣٧٨ .

٢ - المثل السائر ١ /٥٢ .

٣ - ديوان النابغة الذبيانى - شرح عباس عبد الساتر - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ٢ - ١٩٨٦ م - ٧١ .

٤ - الموشح - للمرزباني - تحقيق : على محمد البجاوى - دار الفكر العربى - ص٥٨.

وبيت المتنبى من هذا اللون وقد أدى البيت التالى له وهو قوله :

ولِمْ تحملُ السيفَ الطويلَ نجادُه   وأنتَ غنيٌّ عنه بالحدثان

دوره فى توضيح المعنى المراد منه .

- وتحدث ابن الأثير عن بعض الأخطاء التى وقع فيها أبو الطيب فى شعره ، ومنها أخطاؤه النحوية . فقد ذكر ابن الأثير وقوع المتنبى فى العديد من الأخطاء التى تتصل بعلم النحو . ومن ذلك ما جاء فى قوله[1]:

أرأيتَ همةَ ناقتى فى ناقةٍ   نقلتْ يداً سُرُحاً وخُفّاً مجمَرا

تركَتْ دخانَ الرمثِ فى أوطانها   طلباً لقومٍ يوقدون العَنْبرا

وتكرَّمتْ ركباتُها عن مبرَكٍ   تقعانِ فيه وليس مِسْكاً أذفَرا

فقد جمع المتنبى فى حال التثنية فى البيت الأخير ؛ لأن الناقة ليس لها إلا ركبتان فقال : ركبات[2] . وقد يخرج هذا على أن أبا الطيب أراد بالركبات هنا الأرجل وحينئذ فلا خطأ .

ومما يتصل بنقد الألفاظ والحكم عليها نقد ابن الأثير لقول المتنبى[3]:

خرجْنَ من النقع فى عارضٍ   ومن عَرَقِ الركضِ فى وابلِ

فلما نَشَفْنَ لقينَ السياطَ   بمثلِ صفا البلدِ الماحلِ

١ - ديوان المتنبى ٢ / ٢٧٥ .

٢ - انظر المثل السائر ١ / ٣٦ .

٣ - ديوان المتنبى ٣ / ١٥٥ .

فقد قال معلقا عليهما : " وقد حوى هذان البيتان قرب التشبيه مع براعة النظم وجزالة اللفظ [١] " . وإن كانت جزالة اللفظ التى ذكرهـا ابن الأثير يقلل منها لفظ (نشفن) . فهى مما مبتذل لدى العامة ، والـتى تقلل من فصاحة الألفاظ فى رأى ابن الأثير .

– ومما يتصل بنقد الألفاظ أيضا ما أخذه ابن الأثير على المتنبى فى تعبيره بلفظ (جفخ) فى قوله [٢] :

جَفخَتْ وهم لا يَجْفخُون بها بهم شيمٌ على الحسبِ الأغرِّ دلائلُ

وصنف ابن الأثير هذه اللفظة تحت باب (الوحشى) الغليظ القبيح المتوعر من الألفاظ . وقال معلقا على البيت : " فإن لفظة (جفخ) مـرة الطعم . وإذا مرت على السمع اقشعر منها . وأبو الطيب فى اسـتعمالها كاستعمال تأبط شرا لفظة (جحيش) [٣] . فإن تأبط شرا كـانت لـه مندوحة عن استعمال تلك اللفظة ... وكذلك أبو الطيب فى اسـتعمال هذه اللفظة التى هى (جفخت) فإن معناها (فخـرت) . والجفـخ : الفخر. يقال : جفخ فلان إذا فخر . ولو استعمل عوضا عـن خفجـت (فخرت) لاستقام وزن البيت وحظى فى استعماله بالأحسن . وما أعلـم كيف يذهب هذا وأمثاله على مثل هؤلاء الفحول من الشعراء [٤] " .

---

١ – المثل السائر ١ / ٣٨٦ .

٢ – ديوان المتنبى ٣ / ٣٧٥ .

٣ – فى قوله : يظل بموماة ويمسى بغيرها جحيشا ويعرورى ظهور المسالك

٤ – المثل السائر ١ / ١٦٩ .

وأنا مع ابن الأثير فى أن هذه اللفظة غريبة وحشية ، والأجدر بالشاعر أن يبتعد عن استعمال مثل هذه الألفاظ خاصة إذا كان من السهل استبداله بغيره من السهل الواضح .

وعاب ابن الأثير على المتنبى قوله [١] :

وملمومةٌ سيفيةٌ ربعيةٌ يصيحُ الحَصَا فيها صياحَ اللقالِقِ

وذلك لما فيه من ابتذال فى بعض ألفاظه ، فإن لفظة (اللقالق) مبتذلة بين العامة جدا [٢] .

وعاب عليه أيضا قوله [٣] :

ومن الناسِ من يجوزُ إليهم شعراءُ كأنها الخازِباز [٤]

فقد رأى أن لفظة (الخازباز) بعيدة عن الفصاحة لأنها مما ابتذلته العامة . وقد علق ابن الأثير على هذا فقال : " وهذا البيت من مضحكات الأشعار وهو من جملة البرسام الذى ذكره فى شعره حيث قال:

إن بعضاً من القريض هذاءٌ ليس شيئا وبعضُه أحكامُ

منه ما يجلبُ البراعةَ والفضـ ـلَ وفيه ما يجلُبُ البرسامُ [٥]

ويرى ابن الأثير أن مثل هذه الألفاظ المبتذلة بين العامة " إذا وردت

---

١ - ديوان المتنبى ٣ / ٦٧ .

٢ - انظر المثل السائر ١ / ١٨٥ .

٣ - ديوان المتنبى ٢ / ٢٩١ .

٤ - الخازباز : حكاية صوت الذباب .

٥ - ديوان المتنبى ٤ / ٢٥٥ . وانظر المثل السائر ١ / ١٨٦ .

فى الكلام وضعت من قدره ولو كان معنى شريفا [١] " .

-كما عاب ابن الأثير بيت المتنبى [٢] :

إنى على شَغَفِى بما فى خُمْرِها   لأعِفُّ عما فى سَرَاوِيْلاتها

لما فيه من سوء التعبير عن المعنى المراد . ففى البيت كناية عن النزاهة والعفة ، إلا أن الفجور أحسن منها [٣] . بجانب ما فى كلمة (سراويلاتها) من ثقل ناشئ عن طولها وتنافر بعض حروفها . وجعل أبو هلال الكناية فى هذا البيت من شنيع الكناية ، وحكى عن بعض الشيوخ قوله عن البيت وسوء التعبير فيه : " الفجور أحسن من عفاف يعبر عنه بهذا اللفظ [٤] " .أما ابن سنان الخفاجى فقد عبر عن استقباحه للبيت فقال : " فأما قول أبى الطيب المتنبى ... فلا شئ أقبح من ذكر (السراويلات) ، وما أعرف كناية أشهد الله أن التصريح أجمل منها ، ووصف عفة سلوك الريب والتهم أحسن منها إلا كناية أبى الطيب هذه ونعته عفافه هذا النعت [٥] " .

وهكذا نرى إجماعا أو شبه إجماع من النقاد على الحط من شأن البيت لما فيه من سوء التعبير عن المعنى المراد ، بجانب بعض الألفاظ

١ - المثل السائر ١ / ١٨٦ .
٢ - ديوان المتنبى ١ / ٣٤٨ .
٣ - المثل السائر ٢ / ١٩٩ .
٤ - الصناعتين ٣٧٠ .
٥ - سر الفصاحة ٦٩ .

البعيدة عن الفصاحة .

– وفى باب المعاظلة اللفظية أخذ ابن الأثير على المتنبى وقوعه فى العديد من أبياته فى المعاظلة اللفظية . فمن وقوعه فى القسم الأول منها – وهو ما يختص بالجمع بين أدوات الكلام – قوله (١) :

وتُسعِدنى فى غمرةٍ بعد غمرةٍ سبوحٌ لها منها عليها شواهِدُ

فقول المتنبى (لها منها عليها) من الثقيل الثقيل الثقيل . كما يقول ابن الأثير (٢) .

وقد أنكر ابن سنان توالى حروف الصلة فى هذا البيت من غير فصل بينها ، وقال فى ذلك معلقا على وجودها فى البيت بهذا الشكل : " فذلك العيب الذى لا يتوجه عذر فيه (٣) " .

وعاب أبو هلال العسكرى هو الآخر تكرار حروف الصلات وتتابعها فى هذا البيت ، وذكر أن المتنبى ضمن شعره جميع عيوب الكلام ما أعدمه شيئا منها حتى تخطى إلى هذا النوع فأتى من الاستكراه بما لا يطار غرابه (٤) .

ومن هذا النوع من المعاظلة قوله (٥) :

---

١ – ديوان المتنبى ١ / ٣٩٣ .
٢ – المثل السائر ١ / ٢٨٨ .
٣ – سر الفصاحة ٩٧ .
٤ – الصناعتين ١٦٠ .
٥ – ديوان المتنبى ٢ / ٢١٢ .

تبيتُ وفودُهم تسرى إليه   وجدواه التى سألوا اغتفارُ
فخلفَهُمْ بردِ البيضِ عنهم   وهامُهُــم له معهمْ معارُ

فقوله (وهامهم له معهم) مما يثقل النطق به ويتعثر اللســان فيــه [١] .

ومن وقوع المتنبى فى القسم الثانى من المعاظلة اللفظية - وهو ما يختص بتكرير الحروف - قوله [٢] :

كيف تَرثِى التى تَرَى كلَّ جفنٍ   راءها غيرَ جفنِها غيرَ راقِى

وقد علق ابن الأثير على الثقل الموجود بهذا البيت وأمثاله بقولـه : " وهذا وأمثاله إنما يعرض لقائله فى نوبة الصرع الــتى تنــوب فى بعــض الأيام[٣]" .

ومن وقوعه فى القسم الثالث من المعاظلة اللفظية - وهو ما يختص بتوالى ألفاظ على صيغة الفعل يتبع بعضها بعضا - قوله [٤] :

أَقِلْ أَنِلْ اقطعِ احمِل علِّ سَلِّ أعِــدْ   زِدْ هَشَّ بَشَّ تفضَّلْ أَدْنِ سُرَّ صِلِ[٥]

فهذه ألفاظ جاءت على صيغة واحدة وهى صيغة الأمر . كأنه قال:

---

١ - المثل السائر ١ / ٢٨٨ .
٢ - ديوان المتنبى ٣/١٠٢
٣ - المثل السائر ١ / ٢٩٠ .
٤ - ديوان المتنبى ٣ / ٢٠٩ .
٥ - وللمتنبى بيت آخر من هذا القبيل وهو قوله : الديوان ٣ / ٢١٣ .
عِشِ ابقَ اسمُ سُدْ قُدْ جُدْ مُرِانهَ رِفِ اسرِ نَلْ
غِظِ ارمِ صِبِ احْمِ اغْزِ اسبِ رُعْ زَعِ دِلِ اثنِ نُلْ

(فعل افعل إلى آخر البيت . وهذه ألفاظ متراكبة متداخلة تؤدى إلى شـدة الثقل وكراهة النطق . وفضل ابن الأثير على بيت المتنبى المذكور بيـــت عبد السلام بن رغبان (ديك الجن) :

احلُ وامرُرْ وضرَّ وانفَعْ ولنْ   واخشَ وأبرِزْ ثم انتدب للمعَالى

لأن الشاعر الثانى عطف الألفاظ على بعضها بالواو فأدى ذلـــك إلى عدم تراكب الألفاظ تراكبا ثقيلا كالذى نراه فى بيت المتنبى [1].

ومن وقوع المتنبى فى القسم الخامس من المعاظلة اللفظية - وهو مــا يختص بذكر صفات متعددة على نحو واحد - قوله [2] :

دانٍ بعيدٍ محبٍّ مبغــضٍ بهجٍ   أغـــرَّ حلــوٍ ممرٍّ لينٍ شرسِ
ندٍ أبيٍ غرٍ وافٍ أخــىَ ثقةٍ   جعدٍ سرىٍ نهٍ ندبٍ رضىٍّ ندُسِ

وقد عقب ابن الأثير على هذين البيتين بقوله : " وهذا كأنه سلسلة بلا شك [3] " . وذكر أن المعاظلة اللفظية كثيرة فى شعر المتنبى ، وهذا مما يقلل من شعره .

-كما أخذ ابن الأثير على المتنبى المنافرة فى لفظـــة (حـــالل) فى قوله [4]:

ولا يُبْرَمَ الأمرُ الذى هو حالِلٌ   ولا يُحلَلُ الأمرُ الذى هو مبرِمُ

---

١ - انظر المثل السائر ١ / ٢٩٢ .
٢ - ديوان المتنبى ٢ / ٢٩٩ .
٣ - المثل السائر ١ / ٢٩٦ .
٤ - ديوان المتنبى ٤ / ٢٠٦ .

فلفظة (حالل) نافرة عن موضعها . ولو استعمل عوضا عنها لفظة (ناقض) فقال :

ولا يُبرَمُ الأمرُ الذى هو ناقِضٌ ولا يُنقَضُ الأمرُ الذى هو يُبرِم

لجاءت قارة فى مكانها غير نافرة ولا قلقلة [1] .

-كما أخذ ابن الأثير على المتنبى وصل همزة القطع - كنوع من أنواع المنافرة - فى قوله [2] :

تُوسطُه المفاوزَ كلَّ يومٍ طلابُ الطالبين لا الانتظارُ

فقوله (لا الانتظار) كلام نافر عن موضعه [3] .

- وقد يؤاخذ ابن الأثير المتنبى ويعيب عليه نظم قصيدة بعينها جملة دون تحديد بيت بعينه أو أبيات بعينها مثلما فعل مع قصيدته الشينية التى مطلعها [4] :

مبيتى من دمشقَ على فراشٍ حَشَاهُ لى بحرِّ حشَاىَ حاشِ

فقد عابها ابن الأثير لكثرة ما فيها من ألفاظ بشعة كريهة على السمع بسبب الإكثار فيها من استخدام حرف الشين وهو من الحروف التى ينبغى أن يجتنب الشاعر النظم عليها [5] .

---

١ - المثل السائر ١ / ٢٩٧ .
٢ - ديوان المتنبى ٢ / ٢١٤ .
٣ - المثل السائر ١ / ٢٩٩ .
٤ - ديوان المتنبى ٢ / ٣١٦ .
٥ - انظر المثل السائر ١ / ١٨٢ .

– ولم يرض ابن الأثير عن قول المتنبي من قصيدة له فى مدح بدر بن عمار [١] :

يا بدرُ يا بحرُ يا غمامةُ يــــا ليثَ الشَّرَى يا حِمامُ يا رجلُ

لأنه لم يرتب فيه صفات الممدوح ويرقى بهــا وبــه مــن الأدنى إلى الأعلى ، وإنما أغفل ذلك الترتيب . وينبغى أن يبدأ فيه بالأدنى فــالأدنى فإنه إن فعل ذلك كان كالمرتفع من محل إلى محل أعلى منه . فأما قوله (يــا بدر) فهو اسم الممدوح والابتداء به أولى . وكان يجب أن يقول بعده (يــا رجل ، يا ليث الشرى ، يا غمامة ، يا حمام) . لأن الليث أعظـــم مـــن الرجل ، والبحر أعظم من الغمامة ، والحمام أعظم من البحر . وهذا مقام مدح فيجب أن يرقى فيه من منزلة إلى منزلة حتى ينتهى إلى المنزلة العليـــا آخرا [٢] . وقد وفق البحترى فى ذلك حين قال فى وصف نحول الركاب:

يترقرقنَ كالسَّرابِ قد خضْنَ غماراً من السراب الجارى

كالقسِــــيِّ الـمعطفاتِ بل الأسهمِ مبريةً بل الأوتارِ

فقد ترقى فى تشبيه نحو لها من الأدنى إلى الأعلى فشبهها أولا بالقســـى ، ثم بالأسهم المبرية وتلك أبلغ فى النحول ، ثم بالأوتار وهى أبلغ فى النحـــول من الأسهم . وهكذا ينبغى أن يكون الاستعمال فى هذا الباب ولو كان المقــام مقام ذم لعكس القضية وذكر الأعلى أولا ثم نزل عنه إلى الأدنى [٣] .

---

١ – ديوان المتنبى ٣ / ٣٣٢ .
٢ – انظر المثل السائر ٢ / ٣٣ .
٣ – انظر المثل السائر ٤ / ٣٢ .

وكلام ابن الأثير عن بيت المتنبى وأمثاله يكون صوابا فى حالة تشبيه الشاعر الشئ الواحد بشيئين أو أكثر فى وقت واحد . لكن لو أراد المتكلم ذكر كل صفة وحدها دون التلاقى كان بالخيار أن يقدم أيها شاء. وكلام المتنبى من هذا النوع . فهو يريد أن يقول : يا بدر أنت فى جودك بحر وسحاب ، وفى إقدامك وشجاعتك ليث ، وفى تمكنك من قتل الأعداء موت . وقد جمعت كل هذه الصفات وأنت مع ذلك رجل . فهو لم يرد إثبات هذه الصفات كلها فى وقت واحد كما فهم ابن الأثير .

- وعاب ابن الأثير على المتنبى مبالغاته وإفراطه فيها . وذكر أن المبالغة قد وردت فى شعر المتنبى كثيرا ، ومنها ما أحسن فيه كقوله فى وصف الغبار [١] :

عجاجًا تعثرُ العقبانُ فيه كأن الجوَّ وَعْثٌ أو خُبارُ [٢]

وقوله فى وصف الغبار أيضا [٣] :

عقدتْ سنابكَها عليها عِثْيَرا لو تبتغى عنقًا عليه لأمكَنا

وهذا أكثر مغالاة من الأول ، ولكن الذى حسنها وجعلها مقبولة مجئ الشاعر بلفظ (لو) .

ومن المبالغة فى شعر المتنبى أيضا قوله فى الحديث عن شدة طعن سيف الدولة أجسام أعدائه [٤] :

---

١ - ديوان المتنبى ٢ / ٢٠٦ .
٢ - الوعث : السهل الكثير الرمل . الخبار : الأرض اللينة .
٣ - ديوان المتنبى ٤ / ٣٣٦ .
٤ - ديوان المتنبى ٢ / ٣٣٦ .

كأنَّما تتلقاهم لتسلُكَهُمْ   فالطعنُ يفتَحُ فى الأجوافِ ما تَسَعُ

فقد جعل المتنبى جوف المطعون مسلكا يسلكه الممدوح ، وذلك مستحيل ، ولكن الذى خفف من غلوائها بعض الشئ هو استخدام الشاعر لكأن .

وقد دافع القاضى الجرجانى عن المتنبى فى هذا الباب بأن المبالغة مسلك عام سلكه القدماء والمحدثون ، وليس المتنبى بدعا فى ذلك . وإنما مثله فى هذا مثل غيره من الشعراء ، له الكثير من المبالغات التى اقتصد فى بعضها ووقف عند رسومها ، ولم يتجاوز الوصف المباح ، وأسرف فى بعضها حتى بلغ بها درجة الإحالة . فلذلك لا ينبغى أن ننكر عليه ما لا ننكره على غيره . فالمبالغة والإفراط فيها عيب مشترك ، وذنب مقتسم . فإن احتمل فللكل ، وإن رد فعلى الجميع [1] .

- وفى باب التناسب بين المعانى دافع ابن الأثير عن بيتى المتنبى فى مدح سيف الدولة [2] :

وقفتَ وما فى الموتِ شكٌّ لواقفٍ   كأنك فى جَفْنِ الرَّدَى وهو نائمُ
تمرُّ بك الأبطالُ كلْمَى هزيمةً   ووجهُكَ وضَّاحٌ وثغرُك باسمُ

ووافق على ترتيب البيتين كما أنشدهما الشاعر ؛ وذلك للتناسب بين صدر كل منهما وعجزه . ثم أكد كلامه بذكر الحوار الذى دار بين

---

١ - انظر الوساطة بين المتنبى وخصومه ٣٧٦ : ٣٨٣ .
٢ - ديوان المتنبى ٤ / ١٠١ .

الشاعر وسيف الدولة وقت إنشاده القصيدة ، وإقناع الشـــاعر الأمـــير بوجهة نظره . فذكر أن المتنبى قد أو خذ على ترتيب صـــــدرى البيتـــين وعجزهما وقيل له : لو جعل آخر البيت الأول آخر ا للبيـــــت الثـــانى ، وآخر البيت الثانى آخرا للبيت الأول لكان أولى . وذلك أن سيف الدولة حينما أنشده الشاعر القصيدة ووصل إلى هذين البيتين قال لـــــه ســـيف الدولة : " قد انتقدتهما عليك كما انتقد على امرئ القيس قوله :

كأنِّىَ لم أركبْ جوادًا للذةٍ ولم أتبطَّنْ كاعباً ذاتَ خلخالِ
ولم أسبأ الزقَّ الروىَّ ولم أقلْ لخيلِــىَ كرِّى كرةً بعد إجفالِ

فبيتاك لم يلتئم شطراهما كما لم يلتئم شطرا بيتى امـــــرئ القيـــس . وكان ينبغى لك أن تقول :

وقفتَ وما فى الموت شكٌّ لواقفٍ ووجهـــكَ وضاحٌ وثغرُك باسمُ
تـــمرُّ بك الأبطالُ كلْمَى هزيمةً كأنك فى جفنِ الرَّدى وهو نائمُ

فقال المتنبى : إن صح أن الذى استدرك على امرئ القيس هذا هـــو أعلم بالشعر منه فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأت أنا . ومولانا يعلـــــم أن الثوب لا يعلمه البزاز كما يعلمه الحائك ؛ لأن البزاز يعـــــرف جملتـــه ، والحائك يعرف تفاصيله . وإنما قرن امرؤ القيس النساء بلذة الركـــــوب للصيد ، وقرن السماحة بسباء الخمر للأضياف بالشـــــجاعة فى منازلـــة الأعداء . وكذلك لما ذكرت الموت فى صدر البيت الأول أتبعته بذكـــــر الردى فى آخره ليكون أحسن تلاؤما . ولما كان وجه المنـــــهزم الجريـــح عبوسا ، وعينه باكية قلت (ووجهك وضاح وثغرك باسم) لأجمع بـــــين

الأضداد [1] " . وبهذا دافع المتنبى عن صحة الترتيب فى البيتين وتناسب المعنى فيهما تبعا لتحقق التناسب بين صدر كل منهما وعجزه . ووافقه ابن الأثير على وجهة نظره . ومثلهما فى ذلك بيتا امرئ القيس .

- وعاب ابن الأثير على المتنبى فساد التقسيم فى قوله [2] :

فافخَرْ فإن الناسَ فيك ثلاثةٌ ... مستعظِمٌ أو حاسدٌ أو جاهِلُ

فإن المستعظم يكون حاسدا والحاسد يكون مستعظما [3] . وعلى ذلك يكون التقسيم فاسدا غير صحيح لأنه من الواجب أن يشمل التقسيم كل ما يقتضيه المعنى مما يمكن وجوده من غير أن يترك منها قسما واحدا ، وإذا ذكرت الأقسام قام كل قسم منها بنفسه ولم يشارك غيره . والتقسيم فى بيت المتنبى ليس كذلك .

- وفى باب السرقات الشعرية ذكر ابن الأثير الكثير من أبيات شعر المتنبى ، وحكم على كل منهما بأن المتنبى أخذها عن غيره . وفيما يلى بعض هذه الأبيات :

جعل ابن الأثير قول المتنبى [4] :

أين أزمعتَ أيُّهذا الهمامُ ... نحن نبتُ الرَّبا وأنتَ الغمامُ

---

١ - المثل السائر ٢ / ٢٨٦ .
٢ - ديوان المتنبى ٣ / ٣٧٥ .
٣ - المثل السائر ٢ / ٢٩١ .
٤ - ديوان المتنبى ٤ / ٦١ .

مأخوذا من قول بشار بن برد :

كأن الناسَ حين تغيبُ عنهم نباتُ الأرضِ أخطأه القَطَارُ [١]

والمعنى واحد فى البيتين وإن كان بشار قد بنـــاه علـــى التشـــبيه الصريح، على حين بناه المتنبى على التشبيه البليغ . وأدى الاســـتفهام فى بيت المتنبى دوره فى جمال المعنى وقوة احتياج النـــاس للمـــدوح معـــهم وبجوارهم .

كما جعل ابن الأثير قول أبى الطيب [٢] :

أ أحبه وأحبّ فيه ملامةً إن الملامةَ فيه من أعدائهِ

مأخوذا أخذا عكسيا من قول أبى الشيص :

أجد الملامةَ فى هواكِ لذيذةً حبًّا لذكركِ فليلُمنى اللوَّمُ [٣]

وابن الأثير متفق فى هذا مع ابن رشيق القيروانى [٤] . فلقد أحـــب أبو الشيص لوم الناس إياه فيها لأنه يتيح له سماع ذكرها وهى تتردد علـى مسامعه فيجد لذلك لذة يحب أن تتكرر . أما المتنبى فقد كره الملامة فيــه وجعل من يلومه فيه عدوا له . وهذا من السلخ الذى يؤخذ فيــه المعـنى فيعكس . وجعل ابن الأثير هذا الضرب من السرقات الخفية ، وذكر أنـه

---

١ - المثل السائر ٢ / ٣٥٨ .
٢ - ديوان المتنبى ١ / ١٢٩ .
٣ - المثل السائر ٢ / ٣٦٠
٤ - انظر العمدة ٢ / ٢٨٧ .

لأن يسمى ابتداعا أولى من أن يسمى سرقة [١] .

ووقف القاضى الجرجانى من البيتين موقفا قريبا من هذا وحكم على هذا الأخذ بأنه من لطيف السرق ، وجعل كلا من بيتى أبى الشيص والمتنبى مأخوذا من قول أبى نواس :

إذا غادَيْتنى بصبوحِ عذلٍ فممزوجًا بتسمية الحبيبِ
فإنى لا أعُدُّ اللومَ فيه عليكِ إذا فعلتُ من الذنوبِ[٢]

وجعل ابن الأثير قول المتنبى [٣]:

وإذا أتتكَ مذمَّتى من ناقصٍ فهى الشهادةُ لى بأنى كاملُ

مأخوذا من قول بعض شعراء الحماسة :

لقد زادَنى حبًّا لنفسِى أننى بغيضٌ إلى كلِّ امرئٍ غيرِ طائلِ

فقد أخذ المتنبى معنى البيت واستخرج منه ما يشبهه . وهذا هو الضرب الأول من السلخ حسب تقسيم ابن الأثير للسرقات الشعرية[٤].

كما جعل ابن الأثير بيت المتنبى [٥] :

ومَنْ فى كفِّه منهم قَنَاةٌ كمن فى كفِّه منهم خِضَابُ

---

١ - انظر المثل السائر ٢ / ٣٦٠ .
٢ - انظر الوساطة بين المتنبى وخصومه ١٩١ .
٣ - ديوان المتنبى ٣ / ٣٧٦ .
٤ - انظر المثل السائر ٢ / ٣٥٣ .
٥ - ديوان المتنبى ١ / ٢١٣ .

مأخوذا من قول جرير :

ولا يمنعْكَ من أَرَبٍ لِحاهُم … سواء ذُو العمامةِ والخمار [١]

وواضح فعلا التشابه بين المعنيين ؛ فالمتنبي يسوى بين الرجال من هؤلاء الأعداء (من فى كفه قناة) وبين النساء منهم (من فى كفه خضاب) . وهذا هوما فعله جرير حين سوى بين أصحاب العمامة (الرجال) وذوات الخمار (النساء) . وهذا من الضرب الثانى من السلخ حسب تقسيم ابن الأثير للسرقات الشعرية .

وجعل ابن الأثير قول المتنبى [٢] :

ترفَّعَ عن عونِ المكارِمِ قدرُهُ … فما يفعل الفعلاتِ إلا عذاريَا

مسروقا من قول على بن جبلة :

وآثل ما لم يحوه متقدمٌ … وإن نالَ منه آخرٌ فهو تابعُ

فقد احتوى قول على بن جبلة على معنيين أحدهما أنه فعل ما لم يفعله أحد ممن تقدمه ، والآخر أن من فعل شيئا مما فعله هو فإنما هو مقتد به وتابع له . وأما أبو الطيب فلم يأت إلا بمعنى واحد وهو أنه يفعل ما لا يفعله غيره ، غير أنه أبرزه فى صورة حسنة [٣] .

---

١ - المثل السائر ٢ / ٣٥٥ .

٢ - ديوان المتنبى ٤ / ٤٢٥ .

٣ - انظر المثل السائر ٢ / ٣٦١ .

كما جعل ابن الأثير قول المتنبي [١] :

فوقَ السماءِ وفوق ما طلبُوا   فإذا أرادوا غــــايةً نــزلوا

مأخوذا من قول ابن الرومي :

نزلتُم على هام المعالى إذا ارتقَى   إليهــا أناسٌ غيرُكُمْ بالسلالِمِ

فابن الرومي يقول : إنكم نزلتم على هام المعالى ، وإن غيركم يرقى إليها رقيا . وأما المتنبي فقال : إنكم إذا أردتم غاية نزلتم . وقوله (فــوق السماء): يغني عنه قول ابن الرومي (نزلتم على هام المعالى) . إذ المعــالى فوق كل شئ لأنها مختصة بالعلو مطلقا [٢] .

كما جعل ابن الأثير قول المتنبي [٣] :

وملمومةٍ زردٍ ثوبُــها   ولكنَّــــه بالقنا مخمَلُ

مأخوذا من قول أبي نواس :

أمام خميسٍ أرجُوَانٍ كأنه   قميصٌ محوكٌ من قنًا وجيادِ

ولكن أبا الطيب زاد فيه زيادة صار بها أحق من أبي نـــواس بهــذا المعنى [٤] . ولهذا فالقول فيه بعدم السرقة أولى .

ويرى ابن الأثير قول أبي الطيب [٥] :

وإذا خامرَ الهوَى قلبَ صبٍّ   فعليه لكلِّ عين دلـــيلُ

---

١ - ديوان المتنبي ٤ / ٢٥ .
٢ - انظر المثل السائر ٢ / ٣٦٢ .
٣ - ديوان المتنبي ٣ / ١٩٥ .
٤ - المثل السائر ٢ / ٣٦٥ .
٥ - ديوان المتنبي ٣ / ٢٦٨ .

مأخوذا من قول أبي نواس :

يدلّ على ما فى الضمير من الفتى   تقلُّبُ عينيه إلى شخص مَنْ يهوَى[1]

وجعله من الضربَ السابع من السلخ .

وذكر ابن الأثير – فى هذا النوع من السرقة – أن الشاعر الثانى يكسو المعنى المأخوذ عبارة أحسن من الأول تخرجه عن باب السرقة . وأنا أرى أن تعبير أبي نواس عن المعنى فى هذا البيت أحسن وأفضل – وعلى هذا فليس هذا الأخذ من الضرب المشار إليه ؛ لأن المتنبى لم يكس المعنى المأخوذ عبارة أحسن من عبارة أبي نواس بل إن تعبير أبي نواس أفضل وأحسن كما ذكرت .

كما يرى ابن الأثير أن قول المتنبى[2] :

وأستكبرُ الأخبارَ قبل لقائه   فلما التقينا صغَّر الخَبَرَ الخُبْرُ

مأخوذ من قول أبي تمام :

كانت مساءلةُ الركبانِ تخبرُنى   عن أحمدَ بن سعيدٍ أطيبَ الخبرِ

حتى التقينا فلا واللهِ ما سمعَتْ   أذنى بأحسنَ مما قد رأى بصرِى

وجعله من الضرب الثامن من السلخ وهو أخذ المعنى وسبكه سبكا موجزا[3] .وما قاله ابن الأثير هنا حق ؛ فلقد أوجز المتنبى المعنى وعبر عنه تعبيرا حسنا حتى أخرجه من باب السرقة .

---

١ – المثل السائر ٢ / ٣٦٧ .

٢ – ديوان المتنبى ٢ / ٢٦٠ .

٣ – المثل السائر ٢/ ٣٧٤ .

وجعل ابن الأثير قول المتنبى [١] :

يسابق القتلُ فيهم كلَّ حادثةٍ فما يصيبهمُ موتٌ ولا هَرَمُ

مأخوذا من قول أبى تمام :

كم صارمًا عضبًا أنافَ على قفًا منهم لأعباءِ الوغى حمّالِ

سبق المشيبُ إليه حتى ابتزّه وطنُ النُّهى من مفرقٍ وقذالِ

وجعله من الضرب الثامن من السلخ وهو أخذ المعنى وسبكه سبكا موجزا [٢] .

ورأى ابن الأثير هنا صائب ؛ فقد أوجز المتنبى التعبير عن المعنى وزاد عليه بأنه لا يصيبهم موت ولا هرم . فى حين اكتفى أبو تمام بأنه لا يصيبهم شيب .

– وأخيرا فقد لا حظت ميل ابن الأثير إلى أبى الطيب وإعجابه بشعره ويبدو ذلك من اختياره لكثير من أشعاره التى افتخر بحل معانيها نثرا والتعبير عن مضمونها وما تشير إليه فى كتبه التى كتبها فى موضوعات مختلفة[٣] .

---

١ – ديوان المتنبى ٤ / ١٤١ .

٢ – المثل السائر ٢ / ٣٧٠ .

٣ – اقرأ فى ذلك الفصل العاشر من الجزء الأول فى الطريق إلى تعلم الكتابة – ص ٩٦ وما بعدها من الجزء الأول من كتاب المثل السائر .

سابعا : نقد ابن الأثير لأبي العلاء المعرى :

ورد ذكر أبي العلاء المعرى قليلا جدا فى كتاب المثل السائر . ولا أدرى لماذا لم يتوقف ابن الأثير مع شعر أبي العلاء كما توقف مع شعر غيره من الشعراء الذين هم فى مستواه الفنى ، أو من هم دونه منزلة شعرية . ولا أجد لذلك تعليلا غير كره ابن الأثير لأبي العلاء وعدم إعجابه بشعره . ويظهر ذلك من الموقفين اللذين توقف فيهما ابن الأثير مع أبي العلاء أو مع شعره . ففى أحدهما تطاول على الرجل ووصفه بما لا يليق . وفى الثانى أنزل من شعره وقلل من قيمته .

وسأكتفى هنا بذكر هذين الموقفين باعتبارهما أهم ما يبين موقف ابن الأثير من أبي العلاء المعرى وشعره :

- فى حديث ابن الأثير عن المنافرة بين الألفاظ فى السبك ، وبمناسبة حديثه عن المنافرة فى بعض أبيات شعر المتنبى تعرض ابن الأثير لما عرف عن ميل أبي العلاء المعرى لأبي الطيب المتنبى وتسميته إياه بالشاعر حين يرد فى الحديث ذكر له ، فى حين أنه كان يسمى الشعراء بأسمائهم . وعاب ابن الأثير على أبي العلاء قوله عن أبي الطيب : ليس فى شعره لفظة يمكن أن ينوب عنها ما هو فى معناها فيجئ حسنا مثلها .

اعترض ابن الأثير على هذه المقولة وتطاول على أبي العلاء تطاولا لا يليق بهما معا بسبب رأيه هذا فى المتنبى وشعره ، وأبان عن خطأ أبي العلاء فيما ذهب إليه بشأن المتنبى وشعره مستدلا على ذلك بقول المتنبى :

فلا يُبرَمُ الأمرُ الذى هو حالِلٌ ولا يُحَلَلُ الأمرُ الذى هو مبرِمُ

وقال إن لفظة (حالل) نافرة عن موضعها . وكانت له مندوحة عن استعمالها لأنه لو استعمل عوضا عنها لفظة (ناقض) لجاءت قارة فى مكانها غير نافرة ولا قلقة .

ولم يكتف ابن الأثير بذلك وإنما قال عن أبى العلاء بسبب موقفه من المتنبى : " فياليت شعرى أما وقف (يعنى أبا العلاء) على هذا البيت المشار إليه ؟! لكن الهوى كما يقال أعمى ، وكان أبو العلاء أعمى العين خلقة ، وأعماها عصبية ، فاجتمع له العمى من جهتين [١] " .

ومع موافقتى لابن الأثير فى قبح المنافرة التى يحملها بيت المتنبى إلا أنى آخذ عليه هذا الكلام عن أبى العلاء ، والذى ما كان ينبغى أن يصدر عن عالم جليل وأديب حساس ذواقة يعلم جيدا كيف يخاطب الناس وينزلهم منازلهم ، ويعرف مدى تأثير الكلمة فى نفوسهم مثل ابن الأثير ، وفى حق شاعر من شعراء العربية الكبار ، وناقد من ناقديهم مثل أبى العلاء المعرى .

- وفى حديث ابن الأثير عن لزوم ما لا يلزم كان من الطبيعى أن يتعرض لأبى العلاء المعرى ولزومياته . وفعلا ذكر ابن الأثير فى هذا الباب أن أبا العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان قد جمع فى ذلك كتابا وسماه اللزوم ، فأتى فيه بالجيد الذى يحمد وبالرديء الذى يذم [٢] .

---

١ - المثل السائر ١ / ٢٩٧ .

٢ - انظر المثل السائر ١ / ٢٦٢ .

ثم ذكر أن أبا العلاء المعرى قد ألف من هذا النوع (لزوم ما لا يلزم) كثيرا فى شعره حتى جاء به متكلفا ذهب برونق الصنعة . وكان همه فيه مراعاة الألفاظ دون مراعاة المعانى . ومثل لهذا الفن بالعديد من شعر أبى العلاء فى اللزوميات جيده ورديئه . ومما مثل به من الردىء المتكلف قول أبى العلاء ملتزما حرف التاء مع حرف الخاء [1] :

بنتُ عن الدنيا ولا بنتَ لى ... فيها ولا عِرْسَ ولا أختُ
وقد تحملتُ من الوزر ما ... تعجزُ أن تحملَه البُخْتُ
إن مدحونى ساءنى مدحُهُمْ ... وخلتُ أنى فى الثَّرى سِخْتُ

وذكر من جيد شعر أبى العلاء المعرى فى هذا الباب قوله [2] :

لا تطلبَنَّ بآلةٍ لكَ حاجةً ... قلمُ البليغ بغير جَدٍ مغزلُ
سَكَنَ السِّما كان السماءَ كلاهما ... هذا لَهُ رمحٌ وهذا أعزَلُ

وقوله [3] :

أرى الدنيا وما وُصفت ببر ... إذا أغنتْ فقيرًا أو هقتْه
إذا خُشِيت لشرٍّ عجّلتْه ... وإن رُجيتْ لخير عوّقتْه
حياةٌ كالحُبالةِ ذاتُ مكر ... ونفسُ المرء صيدٌ أعلقتْه
فلا يُخدع بحيلتها أريبٌ ... وإن هى سوّرته ونطّقته
أذاقته شهيًا من جناها ... وصدّت فاه عما ذوّقته

١ - لزوم ما لا يلزم - طبعة دار صادر - بيروت - بدون تاريخ ١ / ٢١١ .
٢ -لم أجد البيتين فى اللزوميات ولا فى سقط الزند .
٣ - لزوم ما لا يلزم ٢ /٥٩٧ .

ومع ابن الأثير حق . فالقارئ حين يقرأ النموذجين الأخيرين لا يحس بنبو أو قلق ، بل يشعر بانطلاق أبي العلاء في هذا الشعر على سجيته لا يقيده التزام بحرف أو بحروف في نهايات الأبيات .كما أنه عبر عن المعنى تعبيرا واضحا ، على عكس ما يحس به القارئ للنموذج الأول من ثقل وكراهة نتيجة جمع أبي العلاء بين الخاء والتاء ، والبحث عن ألفاظ تجمع بين هذين الحرفين على نحو معين وتأثير ذلك على المعنى الذى يتحدث عنه الشاعر .

الفصل الخامس

موقف ابن الأثير من بعض النقاد والكتاب

أشار ابن الأثير فى المثل السائر إلى عديد من النقاد والكتاب السابقين عليه ، وذكر بعض آرائهم وناقشها مفندا لها فى كثير من الأحيان ، ومصدقا عليها فى قليل من المرات . وسأورد فى هذا الفصل بعض آراء هؤلاء النقاد والكتاب ومناقشة ابن الأثير لها مقتصرا على أبرز من توقف معهم ابن الأثير من هؤلاء العلماء .

أولا : موقف ابن الأثير من قدامة بن جعفر .

- فى حديث ابن الأثير عن القسم الرابع من المشبه بالتجنيس ، ويسمى التجنيس المعكوس قسمه إلى ضربين : أحدهما عكس الألفاظ ، والآخر عكس الحروف . ومثل للضرب الأول بعدة أمثلة منها قول المتنبى:

فلا مجدَ فى الدنيا لمن قلَّ مالُه ولا مالَ فى الدنيا لمن قلَّ مجدُهُ

وحكم على هذا الضرب من التجنيس بأن له حلاوة وعليه رونق . وذكر أن قدامة بن جعفر سمى هذا الضرب من التجنيس اسم التبديل . ووافق ابن الأثير على هذه التسمية وذكر أن هذا الاسم مناسب لمسماه ؛ لأن مؤلف الكلام يأتى بما كان مقدما فى جزء كلامه الأول مؤخرا ، وبما كان مؤخرا فى الأول مقدما فى الثانى . ومثل له قدامة بقول بعضهم :

"اشكر لمن أنعم عليك ، وأنعم على من شكرك[١] ".

ولم يشر ابن الأثير فى أى كتاب من كتب قدامة ورد كلامه فى هذا المقام وأعتقد أنه ورد فى كتاب آخر غير نقد الشعر ؛ لعدم وجوده فى هذا الكتاب .

- وفى حديث ابن الأثير عن المعاظلة اللفظية ذكر أن العلماء اختلفوا فى بيان حقيقة المعاظلة ، وأبان عن كلام قدامة بن جعفر فى هذا المقام وهو أن " التعاظل فى الكلام أن يدخل بعض الكلام فيما ليس من جنسه ولا أعرف ذلك إلا فاحش الاستعارة ، كقول أوس بن حجر :

وذاتِ هِدمٍ عارٍ نواشرُها ... تصمتُ بالماءِ تولبًا جَدِعا

فسمى الظبى تولبا ، وهو ولد الحمار[٢] " .

وبعد أن نقل ابن الأثير كلام قدامة خطأه ولم يوافقه عليه . وذكر سبب ذلك أنه لو كان ما ذهب إليه قدامة صوابا لكانت حقيقة المعاظلة دخول الكلام فيما ليس من جنسه . وليست حقيقتها هذه بل حقيقتها فى تراكب الألفاظ أو المعانى ؛ لأن هذا هو اللائق بمسماه . فالمعاظلة مأخوذة من قولهم : تعاظلت الجرادتان : إذا ركبت إحداهما على الأخرى وهذا المثال الذى مثل به قدامة لا تراكب فى ألفاظه ولا فى معانيه[٣] .

---

١ - انظر المثل السائر : ١ / ٢٥٥ .

٢ - المثل السائر : ١ / ٢٨٥ . وانظر : نقد الشعر - تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجى صـ ١٧٤ .

٣ - انظر المثل السائر : ١ / ٢٨٦ .

وما ذهب إليه ابن الأثير هو الصواب ؛ فإن المعاظلة فى الكلام شيء غير إدخال بعض الكلام فيما ليس من جنسه ؛ فهذا يعنى إطلاق اللفظ على غير ما وضع له فى اللغة ، وهو ما أطلق عليه قدامة بن جعفر : فاحش الاستعارة ، ومثل له بقوله أوس بن حجر . ومثله ما عقب به طرفة ابن العبد على بيت المسيب بن علس فى وصف الجمل :

وقد أتناسَى الهمَّ عند ادِّكارِهِ　　　بناجٍ عليه الصيعريةُ مكدَمِ

إذ عقب طرفة بن العبد على هذا البيت وقت سماعه له بقوله : " استنوق الجمل " . لأن الصعيرية سمة تكون فى عنق الناقة لا البعير [1].

وفرق كبير بين إدخال الكلام فيما ليس من جنسه فى البيتين السابقين ، وبين المعاظلة التى تعنى تراكب الألفاظ وتداخلها فى الأمثلة التى مثل بها ابن الأثير وغيره ، من مثل قول أبى تمام :

كأنه لاجتماعِ الروحِ فيه لـه　　　فى كل جارحةٍ من جسمهِ روحُ

أو قول الحريرى :

وازورَّ من كانَ لـه زائـرًا　　　وعـافَ عافِى العرفِ عرفانَه

أو قول المتنبى :

أَقِلْ أَنِلْ اقطعِ احمِل علِّ سلِّ أعِدْ　　　زِدْ هَشَّ بَشَّ تفضَّلْ ادنُ سِرِ صل

أو غير ذلك مما وضعت فيه الألفاظ فى معانيها الحقيقية ، ولكن الشاعر أساء الجمع بينها .

---

١ - انظر الموشح للمرزبانى - تحقيق على محمد البجاوى صـ ١١٨ .

ثانيا : موقف ابن الأثير من أبي اسحاق الصابي [1] :

تعرض ابن الأثير للحديث عن أبي إسحاق الصابي وآرائه في بعض المواطن من كتابه المثل السائر ، وناقش هذه الآراء وبين موقفه منها ، كما مثل من كتاباته في رسائله .

- ففي حديث ابن الأثير عن السجع وشروط جودته تحدث ابن الأثير عن السجع في كتابات أبي إسحاق الصابي . وذكر أن أبا إسحاق أخل في سجعه بشرط مهم من شروط الإجادة في الكلام المسجوع . وهو أن تكون كل واحدة من الفقرتين المسجوعتين دالة على معنى غير المعنى الذى تدل عليه أختها .

وذكر أن أبا إسحاق قد أكثر في كلامه المسجوع من تكرار الفقرات

---

١ - هو إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون الصابئ المكنى بأبي إسحاق . ولد ببغداد سنة نيف وعشرين وثلاثمائة . وبها نشأ وتثقف ، ولزم فيها مواطنيه الحرانيين وأخذ ما عندهم من الطب والرياضيات والهندسة والفلك . وأحس في نفسه مبكرا بتوق إلى الأدب فأكب على النصوص الأدبية ، وحفظ القرآن الكريم . وكان شاعرا فأعجب به المهلبي الوزير فاصطنعه لنفسه وقلده ديوان الرسائل سنة ٣٤٩ هـ . ولما توفي المهلبي سنة ٣٥٢ هـ وصادر معز الدولة أمواله قبض على أبي إسحاق فيمن قبض عليهم . ولكنه استعطف معز الدولة بقصائد جعلته يعفو عنه ويعيده إلى عمله في ديوان الرسائل ، وعزل عنه مدة ثم تولاه إلى وفاته سنة ٣٨٤ هـ . وعرف عن الصابئ أنه كان شديد الإيمان بدينه الوثني ومع ذلك كان كثير الاقتباس من القرآن الكريم في رسائله ، كما كان يستشهد بكثير من الأخبار النبوية ويطيل من التحميدات في أول رسائله حتى ليظن قارئوه أنه من جلة المسلمين ...

انظر : وفيات الأعيان : ١ / ٧٦ وما بعدها ، ويتيمة الدهر ٢ / ٤٢ ، ومعجم الأدباء : ٢ / ٢٠ .

المسجوعة والإتيان بالفقرتين على معنى واحد . وهذا فيه ما فيه من تطويل محض لا فائدة منه [١] . وأكد ذلك ابن الأثير بإيراد أمثلة من كلامه هو ومن كلام أبي إسحاق موازنا بين السجع في الكلامين . ومما ذكره من كلام الصابئ قوله من كتاب [٢] :

" وقد علمت أن الدولة العباسية لم تزل على سالف الأيام ، وتعاقب الأعوام تعتل طورا ، وتصح أطوارا ، وتلتاث مرة وتستقل مرارا ، من حيث أصلها راسخ لا يتزعزع ، وبنيانها ثابت لا يتضعضع " .

فهذه الأسجاع – كما يقول ابن الأثير – كلها متساوية المعنى ؛ فإن الاعتدال والالتياس والطور والمرة والرسوخ والثبات ، كل ذلك سواء . وذكر ابن الأثير أن " أمثال هذا في كلام الصابي كثير [٣] " .

وذكر ابن الأثير تقليدين من تقاليد الحكام التي كتبها الصابئ ليوازن بين السجع فيهما والسجع فيما كتبه هو من هذه التقاليد . ثم صرح بأنه لم يفعل هذا بقصد الوضع من مكانة أبي إسحاق وكتابته، وإنما لبيان موضع السجع الذى يثبت على المحك . واعترف ابن الأثير بمكانة الصابي وأنه قد رفع علم الكتابة ، وأنه إمام هذا الفن والواحد فيه . كما أنه قد أجاد في المكاتبات السلطانية كل الإجادة وأحسن فيها كل الإحسان . ولو لم يكن له سوى كتابه الذى كتبه عن عز الدولة

---

١ – انظر المثل السائر : ١ / ١٩٩ .
٢ – المثل السائر : ١ / ٢٠١ .
٣ – المثل السائر : ١ / ٢٠٣ .

بختيار بن بويه إلى سبكتكين عند خروجه عليه ومجاهرته بالعصيان لاستحق التقديم . ولكنه اتهمه بالتقصير فى بابى الإخوانيات والتعازى .

أما عن رأى ابن الأثير فى أبى إسحاق نفسه فيذكر أن له رأيا فى أبى إسحاق لم يره فيه أحد غيره ، وهو أن عقله زائد على فصاحته وبلاغته . وأيد رأيه هذا بأن الناظر فى التقليدين المذكورين — يقصد بهما تقليد أمير المؤمنين العباس إلى محمد بن الحسين بن موسى العلوى الموسوى ، وتقليد الخليفة الطائع لله لفخر الدولة بن ركن الدولة بن بويه — يرى وصايا وشروطا واستدراكات وأوامر ما بين أصل وفرع ، وكل وجزء ، وقليل وكثير ، لا نرى مثلها فى كلام غيره من الكتاب إلا أنه عبر عن كل ذلك بعبارة فى بعضها ما فيه من الضعف والركاكة . وختم ابن الأثير رأيه فى أبى إسحاق بقوله : " ومع هذا فإنى أقر للرجل بالتقدم ، وأشهد له بالفضل [1] " .

وكلام ابن الأثير عن أبى إسحاق الصابئ وفنه الكتابى فيه كثير من الصدق والواقعية . ومن يقرأ التقليدين اللذين أوردهما ابن الأثير يجد فيهما فعلا العديد من الوصايا والشروط والأصول والفروع التى تدل على عقل ناضج وعلم غزير ، وإن كان أسلوبه تشوبه بعض الشوائب .

— وفى باب المبادى والافتتاحات تحدث ابن الأثير عن التحميدات فى صدر الكتب السلطانية والإتيان بها مناسبة لمعانى تلك الكتب ، وأن

---

١ – المثل السائر : ١ / ٢٣٣ .

هذا من دلائل حذق الكاتب . وذكر أنه وجد أبا إسحاق الصابئ — على تقدمه فى فن الكتابة — قد أخل بهذا الركن المهم ؛ فإذا أتى بتحميدة فى كتاب من كتبه السلطانية جاء بها غير مناسبة لمعنى ذلك الكتاب ، وإنما جاء بها فى واد والكتاب فى واد آخر إلا ما قل من كتبه [1] .

وذكر ابن الأثير مثالا على ذلك من كتابة أبى إسحاق فقال : " فمما خالف فيه المطلع معناه أنه كتب كتابا يتضمن فتح بغداد وهزيمة الأتراك عنها ، وكان ذلك فتحا عظيما ، فابتدأ بالتحميد فقال : " الحمد لله رب العالمين . الملك الحق المبين . الوحيد الفريد . العلى المجيد . الذى لا يوصف إلا بسلب الصعاب . ولا ينعت إلا برفع النعوت . الأزلى بلا ابتداء . الأبدى بلا انتهاء . القديم لا منذ أمد محدود . الدائم لا إلى أجل معدود . الفاعل لا من مادة استمدها ، ولا بآلة استعملها ...... " .

وذكر ابن الأثير أن هذه التحميدة لا تناسب الكتاب الذى افتتح بها ، ولكنها تصلح أن توضع فى صدر مصنف من مصنفات أصول الدين، وأما أن توضع فى صدر كتاب فتح فلا" [2] .

ثم ذكر له تحميدة أخرى جاء بها متناسبة مع معنى الكتاب وموضوعه ، ولكن المعانى فيها مكررة . وهى تحميدة كتابه عن الخليفة الطائع إلى الأطراف عند عودته إلى كرسى ملكه ، وزوال ما نزل به

---

١ – انظر المثل السائر : ٢ / ٢٣٣ .

٢ – انظر المثل السائر : ٢ / ٢٣٤ .

وبأبيه المطيع من فادحة الأتراك . ومنها قوله : " الحمد لله ناظم الشمل بعد شتاته ، وواصل الحبل بعد بتاته ، وجابر الوهن إذا ثلم وكاشف الخطب إذا أظلم. والقاضى للمسلمين بما يضم نشرهم ، ويشد أزرهم ، ويصلح ذات بينهم ، ويحفظ الألفة عليهم ، وإن شابت ذلك فى الأحيان شوائب من الحدثان فلن يتجاوز بهم الحد الذى يوقظ غافلهم ، وينبه ذاهلهم ... " .

وهكذا كان ابن الأثير مقوما لمبادئ مكاتبات أبى أسحاق ومنبها الكتاب إلى هذا الجزء المهم من المكاتبات . فمطلع الكلام — سواء كان نثرا أم شعرا — هو الذى يدل على المعنى المقصود من ذلك الكلام ، ومن مبدأ الكلام يعرف المراد به . وقد لا حظ أن أبا إسحاق الصابئ يأتى بالتحميدات التى يفتتح بها مكاتباته غير متناسبة مع معانى الكتاب فحاول أن ينبه على هذا حتى لا يقع غيره من الكتاب فيما كان الصابئ يقع فيه.

– وفى حديث ابن الأثير عن الفرق بين الكتابة والشعر تعرض لرأى أبى إسحاق فى هذه القضية [1] . وذكر رأى أبى إسحاق فى الفرق بين طريق الإحسان فى كل من الشعر والكتابة فيرى أن الإحسان فى منثور الكلام يخالف طريق الإحسان فى منظومه . لأن الترسل هو ما وضح معناه وأعطاك حين سماعه لأول وهلة ما تضمنه ألفاظه . أما الشعر فبالعكس من ذلك فأحسنه ما غمض عليك فلم يعطك غرضه إلا بعد مماطلة وتفحص وإمعان .

---

١ – انظر المثل السائر : ٢ / ٣٩٣ .

وأبان أبو إسحاق السبب فى ذلك وهـــو - كمـــا يذكـــر عنـــه ابن الأثير : " أن الشعر بنى على حدود مقررة وأوزان مقدرة ، وفصلت أبياته فكان كل بيت منها قائما بذاته وغير محتاج إلى غيره إلا ما جاء على وجه التضمين ، وهو عيب (عند الكثيرين) . فلما كان النفس لا يمتد فى البيت الواحد بأكثر من مقدار عروضه وضربه - وكلاهما قليل - احتيج إلى أن يكون الفصل فى المعنى فاعتمد أن يلطف ويدق . والترسل مبـــنى على مخالفة هذه الطريق ؛ إذ كان كلاما واحدا لا يتجزأ ولا يتفصـــل ولا يتفصل إلا فصولا طوالا . وهو موضوع وضع ما يهذهذ أو يمر به علـــى أسماع شتى من خاصة ورعية ، وذى أفهام ذكية وأفهام غبية . فإذا كـــان متسلسلا ساغ منها وقرب . فجميع ما يستحب فى الأول يكره فى الثانى. حتى إن التضمين عيب فى الشعر وهو فضيلة فى الترسل [١] " .

ثم ذكر أبو إسحاق أهم أغراض الشعراء فى أشعارهم وأهم أغـراض المترسلين فى نثرهم . فذكر أن الشعراء تقوم أغراضهم فى شعرهم علـــى وصف الديار والآثار، والحنين إلى الأهواء والأوطار ، والتشبيب بالنساء ، والطلب والاجتداء ، والمديح والهجاء . أما المترسلون فإنما يترســـلون فى أمر سداد ثغر ، وإصلاح فساد ، أو تحريض على جهاد ، أو احتجاج على فئة ، أو مجادلة لمسألة ، أو دعاء إلى ألفة ، أو نهى عن فرقـــة ، أو تهنئـــة بعطية ، أو تعزية برزية ، أو ماشاكل ذلك [٢] .

---

١ - المثل السائر : ٢ / ٣٩٣ .

٢ - انظر المثل السائر : ٢ / ٣٩٤ .

ولم يوافق ابن الأثير على ما ذهب إليه أبو إسحاق الصابئ فى الفرق بين الشعر والكتابة ، ولا فى الفرق بين موضوعات الشعر وموضوعات الكتابة ، ورد على كلامه فى ذلك . ومضمون رد ابن الأثير على أبى إسحاق فى هذا الشأن يتلخص فيما يلى :

— أن قول أبى إسحاق : إن الترسل هو ما وضح معناه والشعر ما غمض معناه دعوى باطلة لا سند لها ؛ لأن الأحسن فى الأمرين معا هو الوضوح والبيان . وصواب القول فى ذلك أن يقال : كل كلام من منثور ومنظوم ينبغى أن تكون مفردات ألفاظه مفهومة ؛ لأنها إن لم تكن مفهومة لم تكن فصيحة . لكن إذا صارت مركبة نقلها التركيب عن تلك الحال فى فهم معانيها . فمن المركب ما يفهمه العامة والخاصة ، ومنه ما لا يفهمه إلا الخاصة وتتفاوت درجات فهمه . ويكفى من ذلك كتاب الله — تعالى — فإنه أفصح الكلام وخوطب به الناس كافة من خاص وعام ، ومع هذا فمنه ما يتسارع الفهم إلى معانيه ، ومنه ما يغمض فيعز فهمه . فينبغى أن تكون الألفاظ المفردة مفهومة سواء كان الكلام نظما أو نثرا، وإذا تركبت فلا يلزم ذلك فيها .

ويمكن الرد على كلام ابن الأثير هذا بأن غرض أبى إسحاق أن من خصائص الشعر عدم الوضوح الكامل ، أو عدم الوقوف على معانيه من أول وهلة ،وذلك للأسباب التى ذكرها بعد ذلك من تقييده بحدود وأوزان وقيام كل بيت منه بذاته ، ولأن ألفاظه تحمل إيحاءات وعواطف لا

تظهر ولا تتضح لقارئ الشعر إلا بعد إنعام النظر والفكر فيه . وهذا كله لا يتقيد به الترسل أو الكلام المنثور .

- ونعود إلى كلام ابن الأثير فى الرد على أبى إسحاق . فقد أجاب عن كلام أبى إسحاق فى ذكر أسباب غموض الشعر ووضوح الكلام المنثور ، ورد ابن الأثير بأن هذا غير صحيح . وعلى فرض أن كل بيت من الشعر قائم بذاته فلا ،فإن ذلك لا يؤدى إلى غموضه . وإذا كان الكلام المنثور واحدا لا يتجزأ فلم لا يؤثر ذلك فى وضوحه ؟. ولو سلمنا له بذلك فماذا يقول فى الكلام المسجوع الذى تكون كل فقرة منه بمنزلة بيت من الشعر ؟ !.

ويمكن أن يجاب على ابن الأثير فى هذا بأن قيام كل بيت من الشعر بذاته يجعل الشاعر يحاول أن ينهى المعنى مع نهاية البيت ، وهذا ما قد يضطره إلى تقديم بعض الألفاظ ، أو الرمز إلى جزء المعنى بلفظ أو بحرف ، أو غير ذلك من أشياء قد تؤدى إلى وجود بعض الغموض فى الشعر . أما الكلام المنثور فإنه حتى ولو كان مسجوعا فإن الألفاظ والمعانى فيه تأتى تامة . فإن للمترسل أن يطيل الجزء المسجوع حتى يكتمل له المعنى لأنه ليس مقيدا بوزن أو قافية . ولو كان الكلام المنثور مسجوعا فإن للمترسل أن يتخلى عن السجعة فى بعض الفقرات من أجل اكتمال المعنى بخلاف الشعر .

- وتعود إلى ابن الأثير وهو يجيب عن كلام أبى إسحاق فى الفرق

بين الموضوعات التى يقول فيها الشعراء والموضوعات التى يقـــول فيـــها المترسلون . ويحكم ابن الأثير على هذا الكلام بأنه تحكم محض لا يســـتند إلى شبهة فضلا عن بينة . وأى فرق بين الشاعر والكاتب فى هذا المقـام ؟ فكما يصف الشاعر الديار والآثار ويحن إلى الأهواء ، فكذلـــك يكتـــب الكاتب فى الاشتياق إلى الأوطان ، ومنازل الأحباب والإخوان ، ويحن إلى الأهواء والأوطار . لهذا كانت كتب الإخوانيات بمنزلة الغزل والنســـيب من الشعر . وكما يكتب الكاتب فى إصلاح فساد أو سداد ثغر ، أو دعاء إلى ألفة ، أو نهى عن فرقة ، أو تهنئة أو تعزية فكذلك الشاعر . ثم أخـــذ ابن الأثير يضرب أمثلة لقصائد بعض الشعراء فى الأغراض التى يكتـــب فيها النثر .

ويمكن التعقيب على كلام ابن الأثير فى هذا الموضع بأن كـــلام أبى إسحاق يحمل على أن هناك أغراض أو موضوعات يغلـــب فيـــها نظـــم الشعر، وهناك موضوعات أخرى يغلب فيها الكلام المنثور . وليس الأمـــر كما فهمه ابن الأثير من أن هذه موضوعات خاصـــة بالشـــعر وتلـــك موضوعات خاصة بالنثر .

وانتهى ابن الأثير من ذلك إلى ذكر ما يراه هو مـــن فـــروق بـــين الكتابة والشعر ، فذكر أن الفرق بينهما يتلخص فى ثلاثة أوجه [١] :

الأول : من جهة نظم أحدهما ونثر الآخر . وهذا فرق ظاهر .

---

١ - انظر المثل السائر : ٢/ ٣٩٦ ، ٣٩٧ .

الثانى : أن من الألفاظ ما يعاب استعماله نثرا ولا يعاب نظما . ومن ذلك على سبيل المثال لفظتا (المهمه والعرامس) فى قول أبى تمام :

هى العَرْمسُ الوجناءُ وابنُ ملمةٍ   وجأشٌ على ما يحدِث الدهرُ خافضُ

وقول المتنبى :

ومهمهٍ جبتُه على قَدَمِى   تعجزُ عنه العرامس الذُلُلُ

فهاتان اللفظتان وما يشاكلهما من الألفاظ التى لا يعاب استعمالها فى الشعر ولو استعملا فى كتاب أو خطبة كان استعمالهما معيبا .

الثالث : أن الشاعر إذا أراد أن يشرح أمورا متعددة ذوات معان مختلفة فى شعره واحتاج إلى الإطالة — بأن ينظم مائتى بيت أو ثلاثمائة أو أكثر — فإنه لا يجيد فى الجميع ولا فى الكثير منه . بل يجيد فى القليل ويأتى الكثير رديئا غير مرضى . والكاتب لا يكون كذلك ، بل قد يطيل فى الكتاب الواحد إطالة واسعة وهو مجيد فى ذلك كله .

وذكر ابن الأثير أن العجم يفضلون العرب فى إجادتهم فى أشعارهم المطولة . وضرب مثالا على ذلك بملحمه الفردوسى (الشاهنامة) فيذكر أنها ستون ألف بيت من الشعر تشتمل على تاريخ الفرس ومع ذلك أجمع فصحاؤهم على أنه ليس فى لغتهم أفصح منه . وهذا لا يوجد فى اللغة العربية على اتساعها وتشعب فنونها وأغراضها .

وما ذكره ابن الأثير من فروق بين الكتابة والشعر هى فروق أخرى يمكن أن تضاف إلى ما ذكره أبو إسحاق الصابئ ، ولكنها لا تلغيها ولا تعاندها .

ثالثا : موقف ابن الأثير من ابن سنان الخفاجي [(١)] :

توقف ابن الأثير كثيرا مع ابن سنان الخفاجي ، وتعرض للكثير من آرائه مناقشا وناقدا . ولعل هذا يرجع إلى تأثر ابن الأثير بابن سنان واعتماده فى كثير من القضايا التى تناولها فى المثل السائر على كتاب سر الفصاحة لابن سنان . وقد سبق أن ذكرت أن ابن الأثير رفع من قيمة كتاب سر الفصاحة لابن سنان على غيره من كتب النقد التى اطلع عليها عدا كتاب الموازنة للآمدى — وإن كان قد فضل كتاب الموازنة على كتاب ابن سنان ، وذكر أن السبب فى ذلك أن ابن سنان قد أكثر " من ذكر الأصوات والحروف والكلام عليها ، ومن الكلام على اللفظة المفردة وصفاتها مما لا حاجة إلى أكثره ، ومن الكلام فى مواضع شذ عنه الصواب فيها [(٢)] " مما كان سببا فى قلة مقدار كتابه . ومن منطلق إعجابه بهذا

---

١ – هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجى الحلبى تلميذ أبى العلاء المعرى . كان يتشيع وله شعر فى الشيعة . ولا يعرف تاريخ مولده ، وكان له صلة بالسياسة فى عصره إذ نراه فى حاشية محمود بن نصربن صالح والى حلب من سنة ٤٥٢ هـ . وقد بعث به الوالى إلى صاحب القسطنطينية ملك الروم يستنجد به على عمه عطية بن صالح . كما تولى أمر قلعة عزاز بعد تمنع فى عهد محمود بن نصر. وبعد سنوات ساءت العلاقة بين ابن سنان وبين محمود بن نصر فدس إليه محمود السم فى الطعام فمات سنة ٤٦٦ هـ . وكان ابن سنان أويبا بليغا بجانب كونه شاعرا مفلقا . انظر : فوات الوفيات – تحقيق إحسان عباس – دار صادر – بيروت ٢٠ / ٢٢٠ ، والنجوم الزاهرة – ٥ / ٩٦ –ط دار الكتب .

٢ – المثل السائر : ١ / ٢٤ .

الكتاب كثر رجوعه إليه ومناقشة صاحبه فى كثير مما أورده من قضايـــــا. وهذه أهمها :

– تعرض ابن الأثير لموقف ابن سنان الخفاجى من الألفاظ المفـــردة وشروط وصفها بالفصاحة ، وتأثر به كثيرا فى تناوله لهذه القضية . ففـــى حديثه عن اللفظة المفردة ذكر ابن الأثير أن ابن سنان ذكر مــــا يتعلـــق باللفظة المفردة من أوصاف وشروط حتى تتصف بالفصاحة ، وقسـمها إلى عدة أقسام : كتباعد مخارج الحروف ، وأن تكون الكلمة جارية علـــى العرف العربى غير شاذة ، وأن تكون مصغرة فى موقف يعبر عـــن شـــىء لطيف أو خفى أو ما جرى مجراه ، وألا تكون مبتذلة بين العامة . وغـــير ذلك من الأوصاف [١] .

وإذا رجعنا إلى كتاب سر الفصاحة وجدنا ابن سنان فعلا يشـــترط لوصف الكلمة المفردة بالفصاحة ثمانية شروط منها تلك الشروط الأربعـة التى ذكرها ابن الأثير ، وأربعة أخرى هى : أن تجد لتـــأليف اللفظـــة فى السمع حسنا ومزية على غيرها ، وأن تكون الكلمة غير متوعرة وحشـية، وألا تكون الكلمة قد عبر بها عن أمر آخر يكره ذكـــره ، وأن تكـــون معتدلة فى طولها غير كثيرة الحروف [٢] .

ولم يوافق ابن الأثير على ثلاثة من شروط ابـــن ســـنان الخفـــاجى الثمانية وفندها ورد عليها . فعن تباعد المخارج ذكر أن معظم كلمـــات

---

١ – المثل السائر : ١ / ١٥٧ .

٢ – انظر سر الفصاحة : ٦٠ : ٨٤ .

اللغة العربية دائر عليه لأن الواضع قسمها ثلاثة أقسام : ثلاثيا ورباعيا وخماسيا . والثلاثى هو الأكثر من الألفاظ ، ولا يوجد فيه ما يكره استعماله إلا الشاذ النادر . وأما الرباعى فإنه وسط بين الثلاثى والخماسى فى الكثرة عددا واستعمالا ، وأما الخماسى فإنه الأقل ولا يوجد فيه ما يستعمل إلا الشاذ النادر . وعلى هذا التقدير فإن أكثر اللغة مستعمل غير مكروه . ولو أراد الناظم أو الناثر أن يعتبر مخارج الحروف عند استعمال الألفاظ وهل هى متباعدة أو متقاربة لطال الخطب فى ذلك وعسر، ولما كان الشاعر ينظم قصيدا ولا الكاتب ينشئ كتابا إلا فى مدة طويلة . ونحن نرى الأمر بخلاف ذلك فإن حاسة السمع هى الحاكم فى هذا المقام بحسن ما يحسن من الألفاظ ويقبح ما يقبح .

وضرب ابن الأثير مثالا على ذلك فقال : إذا سئلت عن لفظة من الألفاظ أحسنة هى أم قبيحة فإنى لا أراك عند ذلك إلا تفتى بحسنها أو قبحها على الفور . ولو كنت لا تفتى بذلك حتى تقول للسائل: اصبر إلى أن أعتبر مخارج حروفها ثم أفتيك بعد ذلك بما فيها من حسن أو قبح لصح لابن سنان ما ذهب إليه من جعل مخارج الحروف المتباعدة شرطا فى اختيار الألفاظ . وإنما شذ عن الأصل فى ذلك وهو أن الحسن من الألفاظ يكون متباعد المخارج . فحسن الألفاظ إذن ليس معلوما من تباعد المخارج وإنما علم قبل العلم بتباعدها . وكل هذا راجع إلى حاسة السمع؛ فإذا استحسنت لفظا أو استقبحته وجد ما تستحسنه متباعد المخارج ، وما تستقبحه متقارب المخارج . واستحسانها واستقباحها إنما هو قبل

اعتبار المخارج لا بعده .

على أن هذه قاعدة قد شذ عنها شواذ كثيرة ؛ لأنه قد يجيء فى المتقارب المخارج ما هو حسن رائق ككلمة (جحيش) وكلمة (شجى) وكلمة (يجيش) ونحوها . فهذه الكلمات مكونة من حروف متقاربة المخارج إذ هى من وسط اللسان وكلها حسنة محمودة . كما أنه قد ورد من المتباعد المخارج ألفاظ قبيحة . ولو كان التباعد سببا للحسن لما كان سببا للقبح . ومن ذلك كلمة (ملع) بمعنى (عدا) . فالميم من الشفة ، واللام من وسط اللسان ، والعين من الحلق . فهى من حروف متباعدة المخارج ومع ذلك فإن هذا اللفظة مكروهة الاستعمال ينبو عنها الذوق السليم . ومن العجيب أننا إذا عكسنا حروف هذه اللفظة صارت (علم) وكانت حسنة جميلة . ولا ندرى كيف صار القبح حسنا مع أنه لم يتغير من مخارجها شيء . ولو كان مخارج الحروف معتبرا فى الحسن والقبح لما تغيرت هذه اللفظة فى (ملع وعلم) من القبح إلى الحسن .

فإن قيل إن إخراج الحروف من الحلق إلى الشفة أيسر من إدخالها من الشفة إلى الحلق ، فإن ذلك انحدار وهذا صعود والانحدار أسهل ، فالجواب عن ذلك أن نقول : إنه لو استمر هذا لصح ما ذهبت إليه . لكننا نرى من الألفاظ ما إذا عكسنا حروفه من الشفة إلى الحلق أو من وسط اللسان أو آخره إلى الحلق لم يتغير . كلفظه (غلب) فالعين من الحلق واللام من وسط اللسان والباء من الشفة . وإذا عكسنا صارت (بلغ) وكلاهما حسن مليح .وكذلك (حلم وملح) ، و(حلف وفلح)،

و (قلم وملق) ، و(كلم و ملك) . ومثلها كثير ولو كان ما ذكرته مطردا لكنا إذا عكسنا هذه الألفاظ صار حسنها قبحا وليس الأمر كذلك[1] .

وهكذا أقنعنا ابن الأثير بأكثر من حجة وبطرق متعددة بخطأ ابن سنان فى اشتراطه هذا الشرط فى فصاحة الكلمة المفردة ، وأثبت أن حاسة السمع وليس تباعد مخارج حروف الكلمة أو تقاربها هى المقياس الأول فى الحكم على حسن الكلمة أو قبحها .

- وأما عن الشرط الثانى مما ذكره ابن سنان وهو جريان اللفظة على العرف العربى ، فقد علق على ذلك ابن الأثير " بأن ذلك ليس مما يوجب للفظة حسنا ولا قبحا ، وإنما يقدح فى معرفة مستعملها بما ينقله من الألفاظ . فكيف يعد ذلك من جملة الأوصاف الحسنة [2] ؟ " .

وأنا أرى أن عدم جريان اللفظ على العرف العربى يجعلها غير حسنة ولا مستساغة من ناحية كما قال ابن سنان ، ويدل فى الوقت نفسه على جهل مستعملها بما ينقله من الألفاظ كما يقول ابن الأثير .

- وأما عن الشرط الثالث وهو تصغير اللفظة فيما يعبر به عن شيء لطيف أو خفى أو ما جرى مجراه ، فيرى ابن الأثير أن هذا مما لا حاجة إلى ذكره والتنبيه إليه ؛ لأن المعنى يسوق المتكلم إليه . وليست معانى التصغير

---

١ - انظر المثل السائر : ١ / ١٥٧ : ١٦٠ .

٢ - المثل السائر : ١ / ١٦٠ .

من الأشياء الغامضة التى تحتاج إلى التنبيه عليها فإنها مدونــــة فى كتــب النحو. ومع ذلك فإن الأديب مخير فى ذلك . إن شاء أن يورد المعنى بلفـظ التصغير ، وإن شاء أورده بمعناه . فالوصية بذلك ملغاة لا حاجة إليها [1] .

وأنا أرى أن عدم غموض معانى التصغير أو تدوينها فى كتب النحـو لا يمنع الناقد من التنبيه عليها واشتراط مراعاتها فى الحكم علــى حســن الكلمة . وإلا لقلنا ذلك فيما يجرى هذا المجرى ؛ فغموض اللفظة أو تنـافر حروفها شيء واضح ويعرفه المتكلم دون تنبيه إليه ، ومع ذلك نجد علماء البلاغة يشترطون بعد اللفظة عــن الغمــوض أو التنــافر فى فصاحتــها وحسنها.

أما عن أن الأديب مخير بين إيراد المعنى بلفظ التصغــير أو إيــراده بمعناه فهذا أيضا لا يمنع من التنبيه على هذا الشرط ؛ لأن الغــرض مــن ذلك بيان أن مراعاة التصغير فى التعبير عن شيء لطيف أو خفى أو مـــا جرى مجراه أولى من عدم مراعاة ذلك ، وإن كان الوجهان جائزين .

– وأما بقية الشروط التى اشترطها ابن سنان الخفاجى فى الكلمـــة حتى تكون حسنة فقد وافق عليها ابن الأثير وقال بالتنبيه عليها ، بل وتأثر بابن سنان فى حديثه عنها . وقد سبقت بعض الإشـــارات إلى ذلـــك فى الفصل الثانى من هذا البحث فى الحديث عن نظرة ابن الأثير إلى اللفظـــة المفردة .

---

١ – انظر المثل السائر : ١ / ١٦٠ .

- ولكن ابن الأثير عاد وأبدى اعتراضه على الشرط السابع من شروط ابن سنان فى الكلمة الفصيحة ، وهو أن تكون مؤلفة من أقل الأوزان تركيبا . فقد اشترط ابن سنان فى حسن الكلمة وفصاحتها أن تكون معتدلة غير كثيرة الحروف . فإنها متى زادت على الأمثلة المعتادة المعروفة قبحت وخرجت عن وجه من وجوه الفصاحة . ومثل ابن سنان لذلك بعدة أمثلة شعرية منها قول أبى الطيب المتنبى :

إن الكريمَ بلا كِرامٍ منهمُ مثل القلوبِ بلا سُوَيداواتِها

وقال إن لفظة (سويداواتها) كلمة طويلة جدا فلهذا قبحت [١] .

ولم يوافقه ابن الأثير على القول بأن طول الكلمة يكون سببا فى قبحها . وقال إن قبح هذه اللفظة .(سويداواتها) ليس بسبب طولها وإنما هى لأنها فى نفسها قبيحة . وقد كانت حسنة وهى مفردة ، فلما جمعت قبحت لا بسبب الطول . والدليل على ذلك أنه قد ورد فى القرآن الكريم ألفاظ طوال وهى مع ذلك حسنة . كقوله - تعالى - : " فسيكفيكَهُمُ اللهُ " [٢] . فإن هذه اللفظة تسعة أحرف . وكقوله - تعالى - : " ليستخلفَنَّهُم فى الأرضِ "[٣] فإن هذه اللفظة عشرة أحرف وكلتاهما حسنة رائقة . ولو كان الطول مما يوجب قبحا لقبحت هاتان اللفظتان وأمثالهما وليس كذلك . ألا ترى أنه لو أسقط من لفظة (سويداواتها)

---

١ - انظر سر الفصاحة ص ٨٠ ، ٨١ .
٢ - من الآية رقم ١٣٧ من سورة البقرة .
٣ - من الآية رقم ٥٥ من سورة النور .

الهاء والألف اللتين هما عوض عن الإضافة لبقى منها ثمانية أحرف ومع هذا فإنها تظل قبيحة . ولفظه (ليستخلفنهم) عشرة أحرف وهى أطول منها بحرف ومع هذا فهى حسنة رائقة .

وأبان ابن الأثير أن الأصل فى هذا الباب هو أن الأصول من الألفاظ لا تحسن إلا فى الثلاثى ؛ وفى بعض الرباعى كقولنا : (عذب وعسجد) , وأما الخماسى من الأصول فإنه قبيح ولا يكاد يوجد منه شيء حسن كلفظتى (جحمرش ، وصهصلق [1]) وما جرى مجراهما . وكان ينبغى على ما ذكره ابن سنان أن تكون هاتان اللفظتان حسنتين ، واللفظتان الواردتان فى الآيتين السابقتين قبيحتين ، لأن تلك تسعة أحرف وعشرة أحرف ، وهاتان خمسة وخمسة ، ولكن الأمر بالضد مما ذكره . فليس العبرة فى هذا بالطول ولا بالقصر ، وإنما المعتبر هو نظم تأليف الحروف بعضها مع بعض . ولهذا لا يوجد فى القرآن الكريم من الخماسى الأصول شيء إلا ما كان من اسم نبى عربى اسمه ولم يكن فى الأصل عربيا مثل : إبراهيم ، وإسماعيل [2] .

على أنى أرى أنه لا دخل لطول الكلمة أو قصرها فى قبحها ، كما أنه لا صلة بين كون الكلمة من أصل خماسى وبين قبحها ، وإنما الأساس فى ذلك هو سوء تأليف الكلمة بحيث تكون مؤلفة من حروف يثقل النطق بها مجتمعة سواء كانت الكلمة طويلة أو قصيرة ، كما ذكر ابن الأثير

---

١ – الجحمرش : العجوز المسنة . والصهصلق : العجوز الصخابة .
٢ – انظر المثل السائر : ١ / ١٩١ .

ذلك عقب كلامه السابق [١] .

-كما توقف ابن الأثير مع كلام ابن سنان الخفاجي عن الألفاظ التى تقبح بسبب وجود قرينة تؤدى إلى قبحها . وقد تناول ابن سنان هذه المسألة من خلال حديثه عن الشرط السادس من شروط فصاحة الكلمة المفردة ، وهو " ألا تكون الكلمة قد عبر بها عن أمر آخر يكره ذكره . فإذا أوردت وهى غير مقصود بها ذلك المعنى قبحت [٢] " . وذكر ابن سنان من أمثلة ذلك قول الشريف الرضى :

أعززْ علىَّ بأن أراكَ وقد خَلَتْ من جـانبيكَ مقاعدُ العُوَّادِ

وقال معلقا عليه : " فإيراد (مقاعد) فى هذا البيت قبيح لأنه موافق لما يكره ذكره فى مثل هذا الشأن ، لا سيما وقد أضافه إلى من يحتمل إضافته إليهم وهم العواد . ولو انفرد كان الأمر سهلا . فأما إضافته إلى ما ذكره ففيها قبح لا خفاء به [٣]" .

ووافق ابن الأثير على كلام ابن سنان الخفاجي وقال عنه إنه كلام مرضى واقع موقعه .

وعلى هذا نعرف أن كلا من ابن سنان وابن الأثير يتفقان على أن هناك بعض الألفاظ قد تقبح فى موضع وتحسن فى موضع آخر . وليؤكد

---

١ - انظر المثل السائر : ١ / ١٩١ .
٢ - سر الفصاحة ٧٨ .
٣ - سر الفصاحة ٧٩ .

ابن الأثير كلامه فى ذلك ذكر أن هذه اللفظة المعيبة فى الشعر (مقــاعد) قد جاءت فى القرآن الكريم حسنة مرضيـــة ، وذلــك فى مثــل قولــه – تعالى – : " وإذْ غدوتَ من أهلِك تبوِّئُ المؤمنين مقاعدَ للقتــال [1] " . وفى قوله – تعالى – : " وأنَّا لمسْنَا السماءَ فوجدنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَــديداً وشُهباً . وأنا كُنَّا نقعُدُ منها مقاعد للسمع فمن يستمعِ الآنَ يجد لـــه شِــهَاباً رَصَدا [2] " . والسر فى ذلك أنها وردت فى هاتين الآيتين غير مضافــة إلى من تقبح إضافته إليه كما جاءت فى الشعر . ولو قال الشريف الرضـــى بدلا من (مقاعد العواد) : مقاعد الزيارة ، أو ما جرى مجـــراه لذهـــب ذلك القبح ، وزالت تلك الهجنة . ولهذا جاءت اللفظة فى الآيتين على مــا تراه من الحسن وجاءت فى بيت الشاعر على ما تراه من القبح [3] .

– وفى حديث ابن الأثير على المجاز أو الاستعارة فى قــول امــرئ القيس عن الليل :

فقلتُ له لما تمطَّى بصُلْبـــه وأردفَ أعجازاً وناءَ بكلكَلِ [4]

جعل ابن الأثير البيت من باب التشبيه المضمر الأداة ؛ لأن المستعار له مذكور وهو الليل . وذكر أن الآمدى رأى أن فى قول امرئ القيـــس (وناء بكلكل) استعارة حيث استعار للصدر اسم الكلكل مـــن أجـــل

---

١ – من الآية ١٢١ من سورة آل عمران .

٢ – الآيتان ٨ ، ٩ من سورة الجن .

٣ – انظر : المثل السائر : ١ / ١٨٩ .

٤ – المثل السائر : ١ / ٣٦٩ وما بعدها .

نهوضه، بعد أن استعار لوسط الليل اسم الصلب وجعله متمطيا من أجل امتداده . وذكر الآمدى أن الاستعارة هنا من أقرب الاستعارات إلى الحقيقة وأشدها ملاءمة لمعناها لما استعيرت له ، وحكم على البيت بأنه فى غاية الحسن والجودة والصحة ، وقد انتظم جميع نعوت الليل الطويل على هيئته وجعله أشد ما يكون ثقلا على من يراعيه ويترقب تصرمه [1] .

ولم يوافق ابن الأثير على ما ذهب إليه الآمدى من أن البيت من باب الاستعارة وجعله - كما ذكرت - من باب التشبية المضمر الأداة ، لأن المستعار له مذكور وهو الليل . وذكر أن الآمدى على غزارة علمه وتقدمه فى فن الفصاحة والبلاغة خلط بهذا بين الاستعارة والشبيه المضمر الأداة .

ثم ذكر ابن الأثير أن ابن سنان الخفاجى قد اعترض على كلام الآمدى فى هذا الشأن ، وإن كان قد قال بأن فى البيت استعارة وليس هو من باب التشبيه المضمر الأداة . ولكن الاستعارة فى البيت ليست من الاستعارة الجيدة كما ذكر الآمدى ولا من الاستعارة الرديئة بل هى استعارة من الدرجة الوسطى . فإن الآمدى قد أفصح بأن امرأ القيس لما جعل لليل وسطا وعجزا استعار له اسم الصلب وجعله متمطيا من أجل امتداده ، وذكر الكلكل من أجل نهوضه . وحيث جعل له آخرا وأولا استعار له عجزا وكلكلا . وهذا كله إنما يحسن بعضه مع بعض . فذكر

---

١ - انظر الموازنة بين أبى تمام والبحترى ٢٣٤ .

الصلب إنما يحسن مع العجز والوسط ، والتمطى لأجل الصلب ، والكلكل لمجموع ذلك . وهذه استعارة مبنية على استعارة أخرى ، ولذلك لم أر أن أجعلها من أبلغ الاستعارات وأجدرها بالحمد والوصف[١].

ولم يوافق ابن الأثير على كلام ابن سنان فى اعتراضه على الآمدى ، وذكر أن كلام ابن سنان فيه نظر من وجهين :

الأول : أنه قال إن بيت امرئ القيس من الاستعارة الوسطى التى ليست بجيدة ولا رديئة . ثم جعلها استعارة مبنية على استعارة أخرى . وهذا مخالف من جعله الاستعارة المبنية على استعارة أخرى من أبعد الاستعارات . وذلك أن ابن سنان قسم الاستعارة إلى قسمين : قريب مختار ، وبعيد مطرح . فالقريب المختار : ما كان بينه وبين ما استعير له تناسب قوى وشبه واضح . والبعيد المطرح : إما أن يكون لبعده مما استعير له فى الأصل ، أو لأنه استعارة مبنية على استعارة أخرى فتضعف لذلك [٢] . وإذا كانت الاستعارة المبنية على استعارة أخرى عنده بعيدة مطرحة فكيف جعلها هنا وسطا ؟ هذا تناقض فى القول [٣] .

وأنا أوافق ابن الأثير فى هذه النظرة . ولعل ما يبدو من تناقض فى كلام ابن سنان أوقعه فيه السهو أو النسيان .

١ - انظر : سر الفصاحة ١١٤ .
٢ - انظر سر الفصاحة ١١١ .
٣ - انظر المثل السائر : ١ / ٣٧١ .

والوجه الثانى من وجهتى نظر ابن الأثير فى كلام ابن سنان : أنـــه لم يأخذ على الآمدى فى موضع الأخذ لأنه لم يختر إلا ما حسن اختياره . فإذا فرضنا أن تعريف كل من الآمدى وابن سنان للاستعارة بأنها نقل المعنى من لفظ إلى لفظ بسبب مشاركة بينهما صحيح ، فإنه بهذا التعريف يفـــرق على رأى ابن سنان بين الاستعارة المرضية والاستعارة المطرحـــة . فـــإذا وجدنا استعارة فى كلام ما عرضناها على هذا الحد ، فما وجدنـــا فيـــه مناسبة بين المنقول عنه والمنقول إليه حكمنا له بالجودة . وما لم نجد فيـــه تلك المناسبة حكمنا عليه بالرداءة . وبيت امرئ القيس على هـــذا مـــن الاستعارات المرضية لوجود تلك المناسبة بين المنقول عنه والمنقول إليـــه . ولو لم يكن لليل صدر – أى أول – ولم يكن له وسط وآخر – حســـنت هذه الاستعارة . ولما كان الأمر كذلك – أى أن الليل له أول ووســـط وآخر – استعار لوسطه صلبا وجعله متمطيا ، واستعار لصدره المتثـاقل – أى أوله – كلكلا وجعله نائيا ، واستعار لآخره عجـــزا وجعلـــه رادفـــا لوسطه . وكل ذلك من الاستعارة المناسبة [1] .

وكلام ابن الأثير فى هذا الوجه صواب أيضا ، ولكـــن محلصتـــه لا تخرج عما قاله ابن سنان فى اعتراضه على الآمدى ؛ لأنه قال إن الاستعارة فى بيت امرئ القيس ليست من الاستعارة الجيدة ولا من الرديئة بل هـــى وسط . ومعنى كونها وسطا أى من الاستعارة المناسبة وهو ما قالـــه ابـــن الأثير . وأما ما ذكره بعد ذلك من أنها استعارة مبنية على استعارة أخـــرى

---

١ – انظر المثل السائر : ١ / ٣٧١ .

وتناقضه فى هذا مع ما ذكره أولا فقد سبق الرد عليه .

كما اعترض ابن الأثير على ما ذهب إليه ابن سنان من أن الاستعارة المبنية على استعارة أخرى من الاستعارات البعيدة المطرحة فإن الأصل فى التفريق بين الاستعارة المرضية ، والاستعارة المطرحة هو فى مدى المناسبة بين المنقول عنه ، والمنقول إليه . ولا يمنع ذلك من أن تجيء استعارة مبنية على استعارة أخرى وتوجد فيها المناسبة المطلوبة فى الاستعارة المرضية ، وقد ورد فى القرآن الكريم ما هو من هذا الجنس ، وهو قوله – تعالى – " وضربَ اللهُ مثلاً قريةً كانت آمنةً مطمئنةً يأتيها رزقُها رَغَداً من كلِّ مكانٍ فكفرَتْ بأنعُمِ اللهِ فأذاقَها اللهُ لباسَ الجوعِ والخوفِ بما كانوا يصنعُون [1] " .فهذه ثلاث استعارات يبنى بعضها على بعض : فالأولى استعارة القرية للأهل . والثانية استعارة الذوق للباس . والثالثة استعارة اللباس للجوع والخوف . وهذه الاستعارات الثلاث من التناسب على ما لا خفاء به . فكيف يذم ابن سنان الخفاجى الاستعارة المبنية على استعارة أخرى [2] ؟ .

وكلام ابن الأثير هنا أيضاصواب ومقنع إلى حد كبير ؛ لأن الأساس فى قبول الاستعارة أو طرحها هو وجود المناسبة بين المنقول عنه و المنقول إليه أو عدم وجودهاوليس فى شيء آخر . فإذا كان الأصل هو التناسب بين الطرفين فلا فرق بين أن يوجد هذا التناسب فى استعارة مفردة أو فى

١ – الآية رقم ١١٢ من سورة النحل .
٢ – انظر المثل السائر : ١ / ٣٧١ ، ٣٧٢ .

استعارة مبنية على استعارة أخرى . وما أوقع ابن سنان فيما وقع فيه هنا إلا أنه — كما يقول ابن الأثير — لم ينظر إلى هذا الأصل المقيس عليه وهو التناسب بين المنقول عنه والمنقول إليه ، بل نظر إلى التقسيم الذى قسمه هو فى القرب والبعد ، ورأى أن الاستعارة المبنية على استعارة أخرى تكون بعيدة فحكم عليها بالاطراح .

على أنى أرى أنه من الممكن التوفيق بين القول بأن البيت من باب الاستعارة كما يقول الآمدى وابن سنان وبأنه من باب التشبيه المضمر الأداة كما يقول ابن الأثير . وذلك إذا قلنا إنه شبه أول الليل بالكلكل ، وشبه وسطه بالصلب وشبه آخره بالأعجاز كان من باب التشبيه المضمر الأداة كما يقول ابن الأثير . وإذا قلنا إنه شبه الليل فى طوله وثقله بالجمل فى ضخامته وثقله وحذف المشبه به وذكر له شيئا من خواصه وهو الكلكل والصلب والإعجاز كان من باب الاستعارة المكنية . ومما يسوغ قبول الاستعارة هنا هو المناسبة بين طول الليل وثقله على الشاعر وبين الجمل وضخامته وعظم جثته كأضخم حيوان يراه البدوى فى صحراء شبه الجزيرة العربية .

— وفى كلام ابن الأثير فى باب الإرصاد ناقش كلام ابن سنان الخفاجى الذى ذكره فى كتاب سر الفصاحة ورأى فيه أن من علامات وضع الألفاظ موضعها ألا يستعمل فى الكلام المنظوم والكلام المنثور من الرسائل والخطب ألفاظ المتكلمين والنحويين والمهندسين ومعانيهم . ولا

الألفاظ التى تختص بها بعض المهن والعلوم ؛ لأن الإنسـان إذا خـاض فى علم وتكلم فى صناعة وجب عليه أن يستعمل ألفاظ أهل ذلـك العلـم وأصحاب تلك الصناعة . ومثل ابن سنان لذلك بقول أبى تمام [١] :

مودةٌ ذهبتْ أثمارَها شُبَهٌ وهمةٌ جوهرٌ معروفها عَرَضُ

فاستعمل الشاعر هنا بعض ألفاظ المتكلمين لأن الجوهر والعرض من ألفاظ أهل الكلام الخاص بهم . ومن استعمال الشاعر ألفـاظ النحويـين قول أبى تمام أيضا [٢] :

خرقاءُ يلعبُ بالعقولِ حبابُها كتلعُّبِ الأفعالِ بالأسـماءِ

وقول أبى الطيب المتنبى [٣] :

إذا كانَ ما تنويه فعلاً مضارِعًا مضَى قبل أن تُلقَى عليه الجوازِمُ [٤]

وناقش ابن الأثير كلام ابن سنان هذا ،وذكر أن فيه فسادا فقـال : أما قوله إنه يجب على الإنسان إذا خاض فى علم أو تكلم فى صناعـة أن يستعمل ألفاظ أهل ذلك العلم وأصحاب تلك الصناعة ، فهذا مسلم له ، ولكن الشاذ عنه أن صناعة المنظوم والمنثور مستمدة من كل علم وكـل صناعة . لأنها موضوعة على الخوض فى كل معنى ، وهذا لا ضـابط لـه يضبطه ، ولا حاصر يحصره . فإذا أخذ مؤلف الشعر أو الكلام المنثـور فى

---

١ – ديوان أبى تمام : ٢ / ٣٩١ .
٢ – ديوان أبى تمام : ١ / ٢٧ .
٣ – ديوان المتنبى : ٤ / ٩٨ .
٤ – انظر سر الفصاحة ١٥٩ .

صوغ معنى من المعانى وأداه ذلك إلى استعمال معنى فقهى أو نحوى أو حسابى أو غير ذلك فليس له أن يتركه ويحيد عنه لأنه من مقتضيات هذا المعنى الذى قصده . ألا ترى إلى قول أبى تمام فى الاعتذار :

فإن يكُ جُرْمٌ عَنَّ أوتكُ هفوةٌ ... علَى خطأٍ منّى فعذرى على عَمْدِ

فإن هذا من أحسن ما يجيء فى باب الاعتذار عن الذنب . وكان ينبغى له على ما ذكره ابن سنان — أن يترك ذلك ولا يستعمله حيث فيه لفظتا (الخطأ والعمد) اللتان هما من أخص ألفاظ الفقهاء .

وكذلك قول الطيب المتنبى :

ولَقِيتُ كلَّ الفاضلين كأنَّما ... رد الإلهُ نفوسَهم والأعْصُرَا

نسقُوا لنا نسقَ الحساب مقدَّما ... وأتىَ فذلك إذا أتيتَ مؤخَّرَا

وهذا من المعانى البديعة . وما كان ينبغى لأبى الطيب أن يأتى فى مثل هذا الموضع بلفظة (فذلك) التى هى من ألفاظ الحساب بل كان يترك هذا المعنى الشريف الذى لا يتم إلا بتلك اللفظة موافقة لابن سنان فيما رآه وذهب إليه .

وأنا أرى أن ابن الأثير أساء فهم كلام ابن سنان . فابن سنان يقصد من كلامه هنا ألا يستعمل الشاعر فى تعبيره عن عواطفه وشعوره ألفاظ المتكلمين والنحويين والمهندسين ، أو الألفاظ التى تختص بها بعض المهن والعلوم ؛ لأن هذه الألفاظ فى مثل هذا المقام تأتى جافة خشنة بعيدة عن ملاءمتها لمجال تصوير العواطف والأحاسيس . أما إذا جره الكلام

واستدعاه المعنى إلى الخوض فى علم وتكلم فى صناعة فـــلا بـــأس مـــن استعمال ألفاظ تتصل بتلك المهن والعلوم كما ذكر ابن سنان .

أما لفظتا (الخطأ والعمد) فى بيت أبى تمام فليس المراد بهما فى هـــذا البيت الاستعمال الفقهى ، وإنما وردا بمناسبة الحديث عن الجرم والهفـــوة التى وقعت من الشاعر عن غير قصد ، والتى يعتذر — قـــاصدا — عـــن وقوعها منه ، وليبين أنه إن كان هناك هفوة أو جرم وقعا على سبيل الخطأ فهو يعتذر عنهما عن وعى وعمد واقتناع .

وكذلك عبارة المتنبى (نسقوا لنا نسق الحساب) . فليس قصـــد المتنبى منها الحديث عن علم الحساب وألفاظه ومصطلحاته ، وإنما قصـــد أن نفوس الفاضلين السابقين وعصورهم ردها الله على خياله ونسقهم أمام بصيرته . أى أنه ذكر ما ذكر بقصد التشبيه الذى استدعاه المعنى فقط .

— ونعود إلى كلام ابن الأثير فى مناقشة كلام ابن سنان :

أبدى أبن الأثير رأيه فى بيت أبى تمام الذى مثل به ابن سنان ولم يوافق على إنكاره بسبب ما فيه من لفظتى (الجوهر والعرض) اللتـــين همـــا مـــن خصائص ألفاظ المتكلمين كما ذهب إلى ذلك ابن سنان ، وإنما أنكر ابـــن الأثير البيت لأنه فى نفسه ركيك لتضمنه لفظ (الشبه) فإنها لفظة عاميـــة ركيكة وهى التى أسخفت البيت بجملته [١] .

١ – انظر المثل السائر : ٢ / ٣٣٧ .

وأنا أرى أن لفظتى (الجوهر والعرض) وإن كانتا غير معيبتين فى ذاتهما كما يذكر ابن الأثير إلا إنهما وردتا فى البيت فى غير مكانهما وشاركتا لذلك فى عيب البيت وإنكاره .

وأما بيت أبى تمام الآخر الذى أنكره ابن سنان فذكر ابن الأثير أنه غير منكر أيضا ، لأن التشبيه فيه واقع موقعه . ألا ترى أن الفعل ينقل الاسم من حال إلى حال . وكذلك تفعل الخمر بالعقول فى تغير حالاتها[1] .

وأنا أرى أن التشبيه فى البيت وإن كان صوابا وجاء فى موقعه إلا أن الشاعر كان بإمكانه أن يأتى بمشبه به آخر غير هذه العبارة التى تحمل مصطلحا نحويا خالصا . ومثل ذلك يقال فى معنى بيت المتنبى .

وأما ما احتج به ابن الأثير بأن مثل هذا الأسلوب قد جاء فى شعر بعض المتأخرين فحسن وهو قول القائل :

عواملُ رزقٍ أعربت لغةَ الرَّدى فجسمٌ له خَفْضٌ ورأسٌ له نَصْبُ

وقال عنه ابن الأثير إنه لما حصل له المشابهة فى الإسمية بين عوامل الرماح والعوامل النحوية حسن موقع ما ذكره من الخفض والنصب — وهو من مستحسنات المعانى[2] .

فالشاعر لم يقصد بلفظتى (الخفض والنصب) هنا المعنى المعروف عند النحاة ، وإنما أراد بهما معنى السقوط والارتفاع . ولو كان قد

---

١ - انظر المثل السائر : ٢ / ٣٣٨ .
٢ - انظر المثل السائر : ٢ / ٣٣٨ .

استعمل بدلا منهما الجر والفتح مثلا لكان الحق مع ابن الأثير .

وانظر إلى هذا الغث البارد الذى قاله أحد الشعراء ووسمه ابن الأثير بالحسن من أجل إثبات صحة رأيه فقط وهو قول الشاعر :

وفـــتىً من أزنٍ فاق أهلَ البصرة
أمـّــه معـــرفة ٌ وأبـــوه نكـــرة

وهل يخلو قول المتنبى مثلا فى مدح سيف الدولة :

إذا كانَ ما تنويه فعلاً مضارعًا مضَى قبل أن تُلقَى عليه الجوازمُ

هل يخلو مثل هذا القول من التكلف وخاصـــة إذا قيـــل فى مقـــام المديح؟! وهل يقل عنه تكلفا وقبحا البيتان اللـــذان استحســـنهما ابـــن الأثير؟!

ومما يؤيد قبح مثل هذه الأشعار التى يتكلف فيها الناظم ذكر ألفاظ مصطلحات العلوم المختلفة ما يحكى من أن عز الدولة بختيار بـــن معـــز الدولة قال يوما وفى مجلسه جماعة من ندمائه وكتابه : لينشد كل واحـــد منكم أغزل ما يعرفه من الشعر. فأنشد كل واحد ما حضره . فلما انتـــهى القول إلى أبى الخطاب المفضل بن ثابت الصابى ، وكان أبوه طبيبا أنشـــده قول أبى العتاهية :

قال لـــى أحـــمدُ ولم يدرِ مـــابى أتـــحـــبُّ الغـــداةَ عُـــتبةَ حقًا ؟
فتنفسْتُ ثم قلتَ : نعَـــمْ حبـــ ـــًا جرى فى العروقِ عرقاً فعرْقا

فقال له بختيار : لا تخرج بنا يا أبا الخطاب من صناعة الطب التى مـــد

تر ثها عن كلالة [١].

فانظر إلى إنكار عز الدولة على أبي الخطاب مثل هذين البيتين لما يحمله البيت الثانى من بعض مصطلحاته الطب رغم خفتها . فما بالك بمثل الأبيات المذكورة . ووالله ما جعل المعنى مليحا جامعا بين خفة السخرية ووقار الفصاحة فى قول أحد العراقيين يهجو طبيبا [٢]:

قال حمارُ الطبيبِ يومًا   لو أنصفُونى لكنتُ أركَبْ
لأننى جاهلٌ بسيطٌ   وراكِبى جهلُهُ مركَّبْ

أقول : إنه ما وسم المعنى فى هذين البيتين بالملاحة والجمع بين خفة السخرية ووقار الفصاحة إلا لأن الشاعر وازن بين غرضه ومهنة من يهجوه ، بجانب استعماله مصطلحات الطب والرياضيات استعمالا خفيفا طريفا غير متعمد أو متكلف .

هذا ولا أرى تناقضا مطلقا بين ما قاله ابن سنان وما قاله ابن الأثير بأنه " يجب على صاحب هذه الصناعة أن يتعلق بكل علم وكل صناعة ويخوض فى كل فن من الفنون لأنه مكلف بأن يخوض فى كل معنى من المعانى " [٣] . لأن ابن سنان نفسه عبر عن هذا المعنى حينما قال بأن الإنسان إذا خاض فى علم وتكلم فى صناعة وجب عليه أن يستعمل ألفاظ أهل ذلك العلم وأصحاب تلك الصناعة . كما أن رأى ابن سنان فى هذه

---

١ - انظر سر الفصاحة ١٦٠ .
٢ - المثل السائر : ٢ / ٣٣٨ .
٣ - المثل السائر : ٢ / ٣٣٩ .

القضية يلتقى فى نهاية الأمر مع ما قاله ابن الأثير فى ختام حديثه عنـــها ، وهو أن " هذا النوع إذا استعمل بخلاف ذلك كان قبيحا " [١] .

- وفى باب الكناية والتعريض اختلف ابن الأثير مع ابـــن ســـنان الخفاجى حول قول امرئ القيس:

فصِرْنا إلى الحُسْنَىٰ ورقَّ كلامهَا　　　ورضيتُ فذلَّت صعبةً أىَّ إذلالِ

فقد جعله ابن سنان من الكنايات المستحسنة لأنه كنى عن المباضعـة بأحسن ما يكون من العبارة [٢].

ولم يوافقه ابن الأثير على ذلك وقال : إن البيت مثال للتعريـــض لا الكناية ، لأن " غرض امرئ القيس من ذلك أن يذكر الجماع غير أنـــه لم يذكره ، بل ذكر كلاما آخر يفهم الجماع من عرضه ؛ لأن المصـــير إلى الحسنى ور[illegible] الكلام لا يفهم منهما ما أراده امرؤ القيس لا حقيقـــة ولا مجازا , و[illegible] لا خفاء به [٣] " . وذكر ابن الأثير أن سبب خطأ ابن ســـنان هنا هو [illegible]طه بين الكناية والتعريض وجعلهما شيئا واحدا والأمر ليـــس كذلك ؛ لأن " الكناية هي اللفظ الدال على الشيء على غـــير الوضـــع الحقيقي بوصف جامع بين الكناية والمكنى عنه كاللمس والجمـــاع [٤] " . "وأما التعريض فهو اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم لا بـالوضـع

١ - المثل السائر : ٢ / ٣٣٩ .
٢ - انظر سر الفصاحة ١٥٦ .
٣ - المثل السائر : ٢ / ١٨٦ .
٤ - المثل السائر : ٢ / ١٨١ .

الحقيقى ولا المجازى [1]".

وهكذا توقف ابن الأثير مع ابن سنان فى العديد من آرائه مناقشا وناقدا ومبديا رأيه فيما قال ، والتقى معه فى كثير من الآراء ، واختلف معه فى كثير ، واستفاد منه أيضا فى الكثير .

رابعا : موقف ابن الأثير من ابن حمدون البغدادى : [2]

– تعرض ابن الأثير لابن حمدون البغدادى عند ذكره لبيتى أحد الشعراء فى حديثه عن المعانى المبتدعة :

وقد أشقَّ الحجابَ الصعبَ مأربُه دونى وآبَى ولوجًا فيه إن طُرِقا

كالطَّيف يأبَى دخولَ الجفنِ منفتِحًا وليس يدخُله إلا إذا انطَبَقا

فقد استحسن ابن الأثير هذين البيتين بسبب ما يحتويان عليه من معنى جديد مخترع [3] . ثم ذكر أن ابن حمدون البغدادى قد أورد هذين البيتين فى كتابه (التذكرة) ، وأبدى إعجابه بهما فقال : قد أغرب هذا الشاعر ولكنه خلط وجرى على عادة الشعراء لأن الطيف لا يدخل الجفن وإنما يتخيل إلى النفس .

---

١ – المثل السائر : ٢ / ١٨٦ .

٢ – هو أبو المعالى محمد بن أبى سعد الحسن بن محمد بن على بن حمدون . كان ذا معرفة تامة بالأدب والكتابة . صنف كتاب (التذكرة) وهو فى التاريخ والأدب والنوادر والأشعار . ولد ابن حمدون سنة ٤٩٥ هـ وتوفى سنة ٥٦٢ هـ . وهو من بيت مشهور بالرياسة والفضل هو وأبوه وأخواه أبو نصر وأبو المظفر . انظر : وفيات الأعيان ٤ / ١٨٢ .

٣ – انظر المثل السائر ١ / ٣١٨ .

وعقب ابن الأثير على كلام ابن حمدون هذا وتطاول عليه وشبهه فى فهمه للغة العربية ببعض العجم ، فذكر أن كلامه هذا " كلام من لم يطعم من شجرة الفصاحة والبلاغة . وليس مثله عندى إلا كما يحكى عن ملك الروم إذ أنشد عنده بيت المتنبى الذى هو :

كأن العِيسَ كانت فوقَ جفنِى   مناخاةً فلمَّا ثُرْنَ سَالا

سأل عن المعنى ففسر له فقال : ما سمعت بأعذب من هذا الشاعر : أرأيت من أناخ الجمل على عينه لا يهلكه " [1] .

وابن الأثير وإن كان على حق فى استحسان هذا البيت وفى تخطئة ابن حمدون فى فهمه لمعنى البيتين فليس له الحق فى التطاول على الرجل واستهجانه واتهامه ببعده عن الفصاحة والبلاغة بهذا الأسلوب الجارح . فالرجل قد خانته ذاكرته فى فهم الكناية فقال ما قال . ولكل جواد كبوة كما يقولون .

– وتعرض ابن الأثير لنقد ابن حمدون البغدادى فى موضع آخر من المثل السائر وذلك فى كلامه عن الكناية والتعريض . فذكر أن ابن حمدون على فضله واشتهاره فى فن الكتابة قد تحدث فى كتابه التذكرة عن الكناية والتعريض وذكر ما قيل فيهما نظما ونثرا . وجاء كلامه فى هذا الباب محشوا بالخلط بين الكناية والتعريض من غير فصل بينهما بجانب أنه ذكر

١ – المثل السائر ١ / ٣١٨ ، ٣١٩ .

فى هذا الباب بعض الأمثلة الغثة الباردة [١] .

ولم يوافقه ابن الأثير على ذلك لأن الكناية غير التعريض . وقد سبق تعريف ابن الأثير لكل منهما فى الصفحات القليلة السابقة .

أما فى غير هذين الموضعين فلم يتعرض ابن الأثير لنقد شئ يتعلق بما قاله ابن حمدون البغدادى .

هذا وقد ورد فى كتاب المثل السائر أسماء نقاد أو كتاب آخرين تعرض لبعضهم ببعض النقدات الخفيفة كابن جنى [٢] . وأبى العباس ثعلب صاحب كتاب الفصيح [٣] . ومنهم من أورد أسماءهم فى ثنايا الحديث عن بعض القضايا دون أن يتعرض لهم بالنقد أو المناقشة ، ومن هؤلاء : الجاحظ ، وأبو العباس المبرد ، والغانمى وغيرهم .

هذا فضلا عمن اطلع ابن الأثير على كتاباتهم النقدية والبلاغية وتأثر بها فى كثير من القضايا التى تناولها فى المثل السائر كأبى هلال العسكرى ، وابن بشر الآمدى ، والقاضى الجرجانى . وقد ذكرت بعض ما يدل على تأثره بهم وبغيرهم من النقاد القدامى فى ثنايا البحث .

---

١ - انظر المثل السائر ٢ / ١٨٠ .
٢ - انظر المثل السائر ١ / ٣٦٨ ، ٢ / ٨٦ . على سبيل المثال .
٣ - انظر المثل السائر ١ / ٢٨٠ على سبيل المثال .

مراجع البحث

- القرآن الكريم .

١ - أدب الكاتب : ابن قتيبة - تحقيق : على فاغور - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى - ١٩٨٨ م .

٢ - أسرار البلاغة : عبد القاهر الجرجانى - شرح وتعليق - د / محمد عبد المنعم خفاجى - مكتبة القاهرة - الطبعة الثالثة - ١٩٧٩م .

٣ - أسس النقد الأدبى عند العرب : د / أحمد أحمد بدوى - دار نهضة مصر - طبعة عام ١٩٩٤ م .

٤ - أصول النقد الأدبى : د / أحمد الشايب - مكتبة النهضة - الطبعة الأولى - ١٩٩٩ م .

٥ - البيان والتبيين : الجاحظ - تحقيق : عبد السلام هارون - دار الجيل - بيروت - طبعة عام ١٩٩٠ م .

٦ - تاريخ آداب العرب : مصطفى صادق الرافعى - دار الكتاب العربى - بيروت - الطبعة الثانية - ١٩٧٤ م .

٧ - تاريخ النقد الأدبى عند العرب :د/ إحسان عباس - دار الشروق للنشر والتوزيع - الطبعة الثانية - ١٩٩٢ م .

٨ - تفسير القرطبى : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر القرطبى - طبعة دار الغد العربى - الطبعة الأولى - ١٩٩٠ م.

٩ — الحيوان : الجاحظ — تحقيق : عبد السلام هارون — دار الجيل — بيروت — طبعة عام ١٩٩٦ م .

١٠ — الخصائص : ابن جنى — تحقيق : محمد على النجار — طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب — ١٩٨٦ م .

١١ — دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجانى — تحقيق : محمود محمد شاكر — الهيئة المصرية العامة للكتاب — مكتبة الأسرة — ٢٠٠٠م.

١٢ — ديوان أبي تمام يشرح الخطيب التبريزى : تقديم : راجى الأسمر — دار الكتاب العربى — بيروت — الطبعة الأولى — ١٩٩٢ م .

١٣ — ديوان أبي نواس : دار صادر — بيروت — بدون تأريخ .

١٤ — ديوان الأخطل : شرح : راجى الأسمر — دار الكتاب العربى — الطبعة الأولى — ١٩٩٢ م .

١٥ — ديوان امرئ القيس : تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم — دار المعارف — الطبعة الرابعة — بدون تأريخ .

١٦ — ديوان البحترى : شرح يوسف الشيخ محمد — دار الكتب العلمية — بيروت — الطبعة الأولى — ١٩٨٧ م .

١٧ — ديوان جرير : شرح : تاج الدين شلق — دار الكتاب العربى — الطبعة الأولى — ١٩٩٣ م .

١٨ — ديوان الفرزدق : تحقيق : كرم البستانى — دار صادر — بيروت — بدون تأريخ .

١٩ - ديوان كثير عزة : شرح : قدرى مايو - دار الجيـــل - بـيروت - الطبعة الأولى - ١٩٩٥ م .

٢٠ - ديوان المتنبى بشرح عبد الرحمن البرقوقى : دار الكتـــاب العـــربى - بيروت - لبنان - طبعة عام ١٩٨٦ م .

٢١ - ديوان النابغة الذبيانى : شرح عباس عبد الساتر - دار الكتب العلميـة - بيروت - الطبعة الثانية - ١٩٨٦ م .

٢٢ - سر الفصاحة : ابن سنان الخفاجى - تحقيق : على فـــودة - مكتبـــة الخانجى بالقاهرة - الطبعة الثانية - ١٩٩٤ م .

٢٣ - السلوك لمعرفة دول الملوك : المقريزى - تحقيق : محمد مصطفى زيـادة - مطبعة دار الكتب المصرية - ١٩٣٤ م - الجزء الأول - القسم الأول .

٢٤ - الشعر والشعراء : ابن قتيبة - تحقيق وضبط ، د / مفيـــد قميحـــة ، ونعيم زرزور - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعـــة الثانية - ١٩٨٥ م .

٢٥ - الصناعتين : أبو هلال العسكرى - تحقيق : على محمـــد البجـــاوى ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم - المكتبة العصريـــة - صيـــدا وبيروت - طبعة عام ١٩٨٦ م

٢٦ - طبقات فحول الشعراء : ابن سلام الجمحى - دار الكتب العلميـــة - بيروت - الطبعة الثانية - ١٩٨٨ م .

٢٧ - عروض الشعر العربى : د / محمد عبد المنعم خفاجى - مكتبة القاهرة - الطبعة الأولى - بدون تأريخ .

٢٨ - عصر الدول والإمارات - الجزيرة العربية والعراق وإيران . د / شوقى ضيف - دار المعارف - الطبعة الأولى - بدون تأريخ .

٢٩ - العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده : ابن رشيق القيروانى - تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد - دار الجيل - بيروت - الطبعة الرابعة - ١٩٧٢ م .

٣٠ - عيار الشعر : ابن طباطبا - تحقيق د / عبد العزيز ناصر المانع - دار العلوم للطباعة والنشر - الرياض - ١٩٨٥ م.

٣١ - فتح القدير : محمد بن على الشوكانى - مراجعة وتعليق : هشام البجاوى وخضر عكازى - المكتبة العصرية - صيدا وبيروت - طبعة عام ١٩٩٧ م .

٣٢ - الفكر النقدى فى تراث عبد القاهر الجرجانى : د / محمود محمد لبدة - طبعة عام ١٩٨٦ م .

٣٣ - فوات الوفيات : ابن شاكر الكتبى - تحقيق : إحسان عباس - دار صادر - بيروت - بدون تأريخ .

٣٤ - لزوم مالا يلزم : أبو العلاء المعرى - طبعة دار صادر - بيروت - بدون تأريخ .

٣٥ - لسان العرب : ابن منظور المصرى - طبعة دار المعارف .

٣٦ - المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر : ابن الأثير - تحقيق : محمد محى الدين عبد الحميد - المكتبة العصرية - بيروت - طبعة عام ١٩٩٠ م .

٣٧ - معجم البلدان : ياقوت الحموى - دار الفكر العربى - بدون تأريخ .

٣٨ - الموازنة بين أبى تمام والبحترى : الآمدى - تحقيق : محمد محى الدين عبد الحميد - المكتبة العلمية - بيروت - طبعة عام ١٩٤٤ م .

٣٩ - الموشح : المزربانى - تحقيق : على محمد البجاوى - دار الفكر العربى - بدون تأريخ .

٤٠ - النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة : ابن تغرى بردى - طبعة دار الكتب المصرية - بدون تأريخ .

٤١ - نصوص نقدية لأعلام النقاد العرب : د / محمد السعدى فرهود - دار الطباعة المحمدية - الطبعة الثانية - ١٩٧٩م .

٤٢ - النقد الأدبى : د / أحمد أمين - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الرابعة - ١٩٦٧ م .

٤٣ - نقد الشعر : قدامة بن جعفر - تحقيق د / محمد عبد المنعم خفاجى - مكتبة الكليات الأزهرية - الطبعة الأولى - ١٩٧٨ م .

٤٤ – النقد المنهجي عند العرب : د / محمد مندور – دار نهضة مصر – القاهرة – بدون تأريخ .

٤٥ – وحي القلم : مصطفى صادق الرافعي – تحقيق : سعد كريم الفقي – طبع مكتبة الإيمان بالمنصورة – بدون تأريخ.

٤٦ – الوساطة بين المتنبي وخصومه : القاضي الجرجاني – تحقيق : هاشم الشاذلي – مطبعة دار إحياء الكتب العربية – بدون تأريخ.

٤٧ – وفيات الأعيان : ابن خلكان – تحقيق – يوسف على طويل ومريم قاسم طويل – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى – ١٩٩٨ م .

فهرس الموضوعات

الفصل الثالث

قضايا نقدية فى كتاب المثل السائر

رقم الإيداع بدار الكتب
١٤٥١٨ / ٢٠٠٢م